المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

مكة المكرمة

حركة الفتح العثماني في القرن

(١١هـ/١٧م)

دراسة تاريخية حضارية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث

إعداد الطالبة

سمية بنت محمد حمودة

إشراف

د . أميرة بنت علي وصفي مداح

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ
شُهَدَآءَ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

سورة آل عمران ، آية : ١٤٠

ملخص الرسالة

موضوع الدراسة : حركة الفتح العثماني في القرن (١١هـ/١٧م) دراسة تاريخية حضارية .

منهج الدراسة : تتبع الأحداث التاريخية والربط بينها ، ربطاً منطقياً وبيان الأسباب والنتائج .

هدف الدراسة : إبراز أهمية هذه الحقبة ، بما تحتويه من أحداث ، وبيان أثر توقف حركـة الفـتح على مختلف نواحي الحياة في الدولة العثمانية .

المقدمة : وتتضمن أسباب اختيار الموضوع وأهميته ، وأهم المصادر ، ونقد للمصادر المستخدمة.

التمهيد : ويتضمن الحديث عن أسباب قوة الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى القرن (١١هـ/١٧م) . والمتمثلة في قوة شخصية السلاطين وحركة الجهاد ، والاهتمام بالعمران .

الفصل الأول : وهو بعنوان " حركة الفتح العثماني في القرن (١١هـ/١٧م) " ، ويتـضمن تعثـر حركة الفتح حتى معاهدة كارلوفتس .

الفصل الثاني : وهو بعنوان " أثر توقف الفتوحات العثمانية على الناحيتين الإدارية والعسكرية " .

الفصل الثالث : وهو بعنوان " أثر توقف الفتوحات على الناحية الاقتصادية والاجتماعيـة ويعـالج المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن توقف حركة الفتح .

الفصل الرابع : وهو بعنوان أثر توقف الفتوحات على الناحية الحضارية ، ويعـالج أثـر توقـف الفتوحات ، على الناحيتين العلمية والعمرانية .

الخاتمة : وبها أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة ومنها :

أن توقف حركة الفتح العثماني في القرن (١١هـ/١٧م) كانت له عدة أسباب منها التعثـر الذي أصاب عمليات الفتح مع بداية هذا القرن ، ومؤامرات البابوية التي أحاطت بالدولة ، إضـافة إلى الخلل الإداري ، وقد نتج عن هذا التوقف صعوبات سياسية امتدت آثارهـا علـى المـستوى الداخلي وعلى الوضع الخارجي للدولة . ومع ذلك فإن هذه الفترة لم تخل مـن بعـض الجوانـب المضيئة في مختلف نواحي الحياة العثمانية ، والتي تم توضيحها في هذا البحث .

وا ولي التوفيق ،،

الطالبة

سمية بنت محمد بكر حمودة

THESIS SUMMARY

Study Topic :

Othmani opening movement in the (11th AH / 17 AD) century – Ahistorial of civilization .

Study Methodology :

Following the historical events and joning between them logically showing the causes and results .

Study Ain :

Showing the importance of this era with its events showing the influence of stopping opening opening movement upon various types of live in the Othmani life .

In Traduction :

Including the reasons for the chossing the subject and its importance, the most important sources and criticism of the used sources .

Prolude :

Including atalk about the cause of strength of the Othmani counry since its establishment till the (11 AH / 17 AD) century represented in the strong presenalities of the sultani, struggling movement and construction interest .

Chapter One :

Entitled opening movement of Othmanians in the (11 AH / 17 AD) century including difficulty in the Opening movement till the Karlfis treaty .

Chapter Two :

Entitled " Effect of stopping the Othmani openings on the two sides of Army and administration .

Chapter Three :

Entitled the effect of stoppening opening on the social and economic sides treading the economic and social problems resulting from the stopping of opening movement .

Chapter Four :

Entitled the effect of opening stopping on the civilion side treating the effect of stopping opening on the scientific and construction sides .

Final :

Including the most important finings that the researches gets including .
The stop of Othmani Openings in the (11 AH / 17 AD) century had many causes, such as the difficulty that harmed the openings processes with the start of the century , the Babawyah Plats that surrounded the country and the administrative disordes . That stop led to policical difficulties that stretched with its effects on the interior level upon the outer status of the country , yet this period was not empty of some advantages in various sides of the Othmani life that have been shown in this research .

May God Put Us On The Right Way

The Female Student :
Somayah Bint Mohammed Boker Hamoodah

مُقَدِّمَةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والـصلاة والـسلام علـى المبعوث رحمة للأمم ، محمد بن عبد ا وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد ،،

فإنه بعد أن حصلت على البكالوريوس من قسم التـاريخ بجامعـة أم القـرى ، طمحت في إكمال دراستي والحصول على درجة الماجستير . وكانت فتـرة التـاريخ الحديث هي الأقرب إلى نفسي وخاصة التاريخ العثماني .

وذلك لأن دراسته تنطوي على البحث في جزءٍ مهم جداً من العلاقات الإسلامية الأوروبية في التاريخ الحديث . فقد ظفرت الدولة العثمانية برقعة زمانية ومكانية قلمـا تيسرت لدولة أخرى في تاريخ البشرية . إذ امتد حكمها إلى قارات ثـلاث (آسـيا ، أفريقيا ، أوروبا) وامتدت زمانياً إلى ما يزيد على ستة قرون ، حكمت فيهـا شـعوباً وأمماً شتى ، ومرت خلال هذه القرون بحالات من القـوة والـضعف ، والازدهـار والانهيار ، والتمدد والانكماش ، كغيرها من بقية الدول في كثير من جوانبها ، إلا أنها لم تأخذ بعد حظها من الدراسات الدقيقة والرصينة والمجردة من الأهواء والتحامل ، أو حتى الدراسات المتعمقة والمستندة على أدلة علمية من المصادر العثمانية الأصلية .

إن الدولة العثمانية رغم ما كتب عنها بلغـاتٍ متعـددة مختلفـة ، إلا أن هـذه الكتابات بدا عليها العداء وخاصة الدراسات المقدمة من الدارسين الأجانـب المعـادين للدولة العثمانية ممثلة الخلافة الإسلامية في أوروبا النصرانية .

ومن هنا كان اختياري لموضوع البحث . فبعد استعراض التـاريخ العثمـاني بشكلٍ مجمل وسريع ، وبعد استشارة سعادة المرشدة الأكاديمية – جزاها ا خيـراً – وقع اختيار الباحثة على القرن (١١هـ/١٧م) ، فقد لفت نظـر الباحثـة أن القـرن (١١هـ/١٧م) لم يحظ بدراسة متخصصة متعمقة ، لأن هذه الفترة بالتحديد تعتبر فترة انتقالية مهمة تتأرجح ما بين القوة والضعف في حياة دولة تعتبر من أطول الدول عمراً.

وحتى يكون عنوان البحث رمزاً لأهمية هذه الفترة ، فقد جعلته تحت عنوان :
" حركة الفتح العثماني في القرن الحادي عشر الهجري ، السابع عشر الميلادي ، دراسة تاريخية حضارية " .

ولقد تضافرت عدة أسباب لاختيار هذا الموضوع ومن أهمها :

أولاً : أن معظم الأبحاث التي تناولت التاريخ العثماني كانت تعالج عصر نشأة الدولة ، ثم عصر القوة أي منتصف القرن (١٠هـ/١٦م) ، ومن ثم تنتقل مباشرة إلى عصر الضعف الذي يبدأ مع القرن (١٢هـ/١٨م) . مع أن الفترة الواقعة بينهما وهي فترة البحث ، تنطوي على أهمية كبيرة ، باعتبار أنها فترة تحمل شيئاً من مميزات عصر القوة ، وبعضاً من سمات عصر الضعف . ولهذا فإن دراسة هذه الفترة تفيد في التهيئة لفهم الفترة التي تليها .

ثانياً : أن هذه الفترة تحتوي على أحداث مهمة ، ولعلّ أهم هذه الأحداث هو الحصار العثماني الثاني لفيينا عاصمة النمسا وهو حدث مهم في تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية ، حيث اعتبر بعض المؤرخين إخفاق العثمانيين في حصار هذه المدينة للمرة الثانية بداية لنهاية الدولة العثمانية في أوروبا ، وأن القرن (١١هـ/١٧م) هو القرن الذي توقفت فيه الفتوحات العثمانية ، فعمموا التوقف على جميع جوانب الدولة . وادعوا أنها عجزت بشكل كامل عن الوقوف بوجه الدول الأوربية ، وهو ما ينقلنا إلى السبب الثالث .

ثالثاً : تصويب هذه النظرة ، من خلال عرض الأحداث وتحليلها ، وبيان أوجه الضعف والخلل وأوجه الإبداع والتفوق ، فإذا كان توقف الفتوحات ، وانكماش حدود الدولة في هذه الفترة قد ألقى بظلاله على عدة جوانب فيها – وهي حقيقة لابد من الاعتراف بها – إلا أنه لا يعني بالضرورة أن تتصف هذه الآثار بالسلبية التامة أو الإيجابية التامة . فالأسس التي قامت عليها الدولة العثمانية ، ونظمها الإسلامية ومنجزاتها الحضارية ، كلها عوامل تكفل لها البقاء والاستمرار ، والدليل على ذلك أن الدولة استمرت قرنين ونصفاً بعد هذا القرن .

رابعاً : إن مظاهر الخلل والضعف انتبه لها مفكـرو الدولـة وعلماؤهـا منـذ ظهورها . وفي هذه الدراسة تبين أن عطاء المفكر والعالم المسلم لم يتوقف فـي ذلـك العصر وإن تأثر بما حوله من أحداث .

خامساً : يرى بعض المؤرخين أن ضعف السلاطين في هذه الفترة قد أدى إلـى حدوث فراغ سياسي أسهم في انحطاط الدولة ، وفي هذه الدراسة سنوضـح أن فـراغ السلطة المركزية كان حافزاً لظهور أسر تولت الصدارة العظمى ، وأظهـرت حنكـة سياسية كان لها دورها في إنعاش سياسة الدولة كأسرة (كوبريلي) .

سادساً : الرغبة العلمية في إلقاء الضوء على بعض الأحداث ، والشخـصيات ، والإنجازات العثمانية ، وكذلك إبراز بعض الجوانب الحضارية والفنون التي برع فيها العثمانيون وانتقلت فيما بعد إلى أوروبا ، سواء في المجال العـسكري أو غيـره مـن المجالات ، عسى أن تكون هذه المحاولة المتواضعة بدايـة للمزيـد مـن الدراسـات والأبحاث القيمة في هذا الشأن . وكي أنفي الشبهة التي تقول بأن الدولة العثمانية دولة عسكرية فقط وليس لها حضارة .

ووفقاً لمعلوماتي فإن هذا الموضوع يعد من الموضوعات الجديدة التي تـستحق الاهتمام ، وأرجوا أن يكون إسهاماً علمياً مفيداً .

أما عن المعوقات التي واجهت الباحثة ، فهي المعوقات التي عادة مـا تواجـه الدارسين المبتدئين ، وكانت أولاها تحديد الفترة الزمنية للبحث . وذلك لأن موضـوع البحث يختص بتوقف حركة الفتح العثماني والآثار المترتبة على ذلك . ومن المعروف أنها تبدأ بعد الحصار العثماني الأول لفيينا عام (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) غير أن هذه الآثار تستمر إلى نهاية العهد العثماني ، ولكن بمساعدة سعادة المرشدة الأكاديمية تمكنت مـن حصر الفترة في القرن (١١هـ/١٧م) .

وكذلك شكل الحاجز اللغوي عائقاً آخر يحول دون استخدام المصادر المكتوبـة باللغة التركية ، كما أن ترجمة هذه المصادر قد استغرق مني وقتاً طـويلاً ، خاصـة وأنني كنت أحصل عليها عن طريق المراسلة ، فالبحث عن هذه المصادر سواء فـي

مكتبة الملك فهد الوطنية ، أو في مركز بحوث آسيا بجمهورية مصر العربيـة ، ثـم إيجاد من يترجمها قد استغرق من الجهد والوقت والمال الشيء الكثير .

أما فيما يتعلق بالمادة العلمية ، فقد كان توفرها نسبياً . إذ تتـوفر المعلومـات العامة أما ما يخص بعض التفصيلات كحصار فيينا ، والجوانب الفنية العسكرية ، فلم تكن متوفرة ، في حين كانت المادة العلمية المتعلقة بالجانب الاقتصادي والاجتمـاعي والحضاري نادرة . الأمر الذي أخر مرحلة الكتابة .

أما عن المنهج الذي اتبعته في كتابة هذا البحث ، فقد حاولـت الاطـلاع قـدر الإمكان على كل ما وقع تحت يدي من مصادر اعتمدت على التحليل المنطقي للحدث ، ولما كان الحصار العثماني لفيينا هو نقطة ارتكاز البحث فقد عملت على معالجـة مـا سبقه ، وما تلاه من أحداثٍ أدت إليه ، وتأثرت به ، وبيان أسباب ونتائج هذا الحصار على مختلف الجوانب ، وكذلك حاولت أن أورد بعض الجوانب المضيئة في هذا الدور من التاريخ العثماني بعيداً عن الحروب قدر الإمكان ، كفنـون العمـارة العثمانيـة ، والعلوم والمعارف التي ازدهرت في هذه الفترة .

وحتى تكون هذه الدراسة شاملة لوجهات نظرٍ متعددة . فقـد حرصـت قـدر الإمكان على الإطلاع على مصادر متنوعة سواء كانـت لمـؤرخين عثمـانيين ، أم مؤرخين محدثين ، أم مستشرقين مع الحذر واليقظة في الأخذ منهم .

وقـد توصلت إلى مجموعة لا بأس بها من المصادر المترجمة عـن التركيـة منها :

١- تاريخ بجوي : للمؤرخ العثماني إبراهيم بجوي (١١هـ ـ/١٧م) : وهـو مـن المعاصرين لفترة البحث ، وقد اعتمد في كتابته على سرد مـشاهداته ، ومـا شارك فيه من أحداث ووقائع خاصة أنه تقلد عدة مناصب في الدولة . ولـذلك يعد من المصادر المهمة للتاريخ العثماني ، وقد أفاد البحث من هذا المـصدر فيما يتعلق بالأحداث الهائلة العثمانية ، ومقتل السلطان (عثمـان الثـاني) ، وبعض التمردات التي شهدتها الفترة .

٢- تقويم المسكوكات العثمانية : لإسماعيل غالب : وهو من المصادر المفيدة في دراسة تاريخ النقد العثماني ، ونظراً لأنه يتحدث بالتفصيل عن كل ما يتعلق بسك النقود ، والعوامل المؤثرة على قيمة النقد ، فقد اعتمد البحث على هذه المعلومات وخاصة المتعلقة بتغيير قيمة النقود والمعادن في فترة البحث .

٣- بحوث في التاريخ المالي العثماني : لضياء قره مرسل : ويعالج أيضاً الجانب الاقتصادي العثماني وتأثره بالأحداث الداخلية والخارجية التي مرت بها الدولة ، وقد أفاد البحث منه فيما يتعلق بالأزمات الاقتصادية وتأثير الأحداث الداخلية والتمردات على الاقتصاد العثماني في فترة البحث .

٤- التاريخ العثماني : لإسماعيل حقي أوزون جارشيلي : وهو من المراجع التي تتحدث بتوسع عن التاريخ العثماني ويتكون من عدة أجزاء وقد أفاد البحث من بعض أقسامه وخاصة القسم الخاص بالتشكيلات العسكرية البحرية ، والجانب الاقتصادي .

٥- العلم عند الأتراك العثمانيين : لعبد الحق عدنان آيدوار : ويتحدث عن الحياة العلمية في العهد العثماني ، حيث يتطرق إلى انجازات العلماء العثمانيين في مختلف المجالات ، وقد أفاد البحث من هذا المرجع فيما يتعلق بالجانب العلمي وخاصة إبداعات العثمانيين في الطب في فترة البحث .

٦- المالية العثمانية : لأحمد طبق أوغلو : ويتضمن كل ما يتعلق بالمالية العثمانية ، وقد أفاد البحث منه في المعلومات المتعلقة بالأزمات الاقتصادية التي مرت بها الدولة في فترة البحث ، وما اتخذته الدولة من إجراءات حيالها .

هذا بالإضافة إلى إحدى رسائل الإصلاح التي ألفت في القرن (١١هـ/١٧م) وهي بعنوان : " أصول الحكم في نظام العالم " للشيخ : حسن كافي الآقحصاري . وهي رسالة في غاية الأهمية نظراً لبيانها مظاهر الخلل في هذه الفترة . ولذلك أفاد البحث منها في الفصلين الثاني والرابع .

وكذلك تمت الاستعانة ببعض الموسوعات التركية التي تحتوي على نـصوص المعاهدات ، والمراجع التي ألفها مؤرخون أتراك مثل المستـشار التعليمـي (حقـي دورسون يلديز) ، و (عمر فاروق يلماظ) وغيرهم .

وكذلك اعتمد البحث على بعض مراجع المستشرقين ومنها على سبيل المثال :

١- التاريخ العثماني لـ (جوزيف فون هـامر) : ويعـد مـن أهـم مـا كتبـه المستشرقون عن التاريخ العثماني ويتكون من عدة أجزاء . وقد أفاد منه البحث في مواضع مختلفة سواء في الأحداث السياسية التي جرت في فترة البحـث ، وكذلك في الجوانب العسكرية .

٢- الإمبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة لـ (ستانفوردشو) : وهو لا يقل قيمة علمية عن سابقه ، وقد أفاد البحث منه فيما يتعلق بالأزمة الماليـة ، والتمـرد ومساعي الإصلاح ، والامتيازات الأجنبية في فترة البحث .

٣- المجتمع الإسلامي والغرب : لكل من : هاملتون جب ، وهارلودبوين : وهـو عبارة عن جزأين مترجمين إلى اللغـة العربيـة ، ويتحـدث المرجـع عـن المؤسسات الإدارية والعسكرية ، والتباين الاجتماعي في الدولة العثمانيـة دون التطـرق إلى تفاصيل المعارك والحروب ، ويتميز المرجع بأسلوب تحليلـي قوي ، وقد اعتمد الباحثان على الترتيب المنطقي – مما يتسبب في اضـطراب فهم القارئ لبعض الموضوعات – ومما يؤخذ على المرجع الإطالة ، وتحامل الباحثين في حديثهما عن فداحة الضرائب المفروضة على الذميين في الدولـة العثمانية ، وكذلك في حديثهما عن الجانب الديني في الدولة العثمانية بتجـاوز خرج به عن الموضوعية التي يجب أن يتحلى بها الباحث ، ومع ذلك فالمرجع يعد من الأبحاث الشاملة في المجالات السابق ذكرها ، وخاصة فـي المجـال الاقتصادي ، ولذلك اعتمد البحث على الجزء المتعلـق بالجانـب الاقتـصادي وخاصة ، العملات ، والضرائب ، والتيمار ، والنظم العـسكرية ، وعلاقـات الرعايا النصارى في الدولة العثمانية بالدولة الأوروبية .

٤- تاريخ الشعوب الإسلامية : للمستشرق : كارل بروكلمان : ويتكون من أربعـة فصول يتحدث فيها المؤلف عن أصول الدولة العثمانية ، حتى عصر السلطان سليمـان الأول ، وعن نشأة الدولة الفارسـية الجديـدة ، والنـزاع العثمـاني الفارسي ، ثم يتحدث عن الدولة العثمانية في دور الانحطاط حتى نهاية القـرن (١٨م) والمؤلف مستشرق معروف بكتابته في التاريخ الإسـلامي ، إذ يغلـب على أسلوبه التحامل على المسلمين ، فهو إما أن يذكر الجانب السيئ ويهمـل ذكر الجانب المشرق وهذا منهج المستشرقين ، أو أنه في حالة ذكره لجوانـب مشرقة ، فإنه ينسب الفضل فيها إلى الغرب ، وقد بدى ذلك واضحاً في تعليله لقوة الإنكشارية ، فلم يكن للحياد والموضوعية محلاً في كتاباته . وعلى الرغم من ذلك فإن المرجع لا يخلو من بعض الفوائد فللمؤلف أسلوب عرض جيـد ، وإيجاز غير مخل بالقيمة العلمية ، وعموماً فإن أسلوبه في التأليف ينم عن فكرٍ عميق وخبرة طويلة ، وعلى الرغم من تضمن المرجع لمادة علمية تفيد البحث خاصة فيما يتعلق بالجانب العسكري ، والعلمي ، إلا أن الحذر حملنـي علـى عدم الاعتماد عليه كثيراً .

٥- تاريخ الدولة العثمانية : لمجموعـة مـن البـاحثين الفرنـسيين وإشـراف : روبيرمانتران : وهو عبارة عن عشرة فصول تشمل الحديث عـن الأحـداث السياسية منذ نشأة الدولة العثمانيـة ، والفتوحـات ، والتنظيمـات ، والحكـم العثماني في البلقان والولايات العربية ، وهو من أفضل ما كتبه المستـشرقون عن الدولة العثمانية ، فهو يستهدف كما يذكر (مانتران) في مقدمة كتابه ليس فقط رصد عالم الفتوحات والتفوق العسكري ، وإنما أيضاً رصد عالم التنظـيم الداخلي والخارجي ، وبما أن المرجع مؤلف من قبل فريق علمي فرنسي ، فهو يوضح لنا وجهة نظر المفكرين الأوروبيين عن الدولة العثمانية بعـد الحـرب العالمية الثانية ، وكذلك تقييمهم للأحداث والنظم ، وكل مـا يتعلـق بالتـاريخ العثماني ، ومما يميز المرجع أننا لا نجد ذلك النقد الشديد والتحيز السافر ضد الدولة العثمانية كما في كتابات – بروكلمان مثلاً – فقد كانت هنـاك محاولـة لالتزام الحياد والموضوعية ، وكذلك يتميز المرجع باعتماده على تحليل ونقـد

الأحداث والربط بينها لا على سردها ، ولقد أفاد البحث من هذا المرجـع فـي الربط بين الأحداث السياسية والجوانب الاقتصادية والعلاقـات بـين رعايـا النصارى في الدولة العثمانية وبين الدول الأجنبية الأوروبية ، وكذلك في الدور الذي تؤديه الدولة العثمانية بالنسبة للاقتصاد العالمي والاقتصاد الأوروبي بوجه خاص .

هذا بالإضافة إلى بعض الرسائل العلمية ، والدوريات العربية والتركية وكـذلك المراجع العربية التي تزيد من القيمة العلمية للرسالة .

وبعد الاطلاع على ما يخص موضوع البحث من مادة علمية ، بدأت في الكتابة وفقاً للخطة الموضوعة والتي وافق عليها مجلس الكلية غير أنه جرت بعض التعديلات غير الجوهرية على هذه الخطة بسبب طبيعة المادة العلمية وذلك بعد موافقـة سـعادة المرشدة الأكاديمية.

وتشتمل خطة البحث على مقدمة وأربعة فصول :

وتتناول المقدمة عوامل قوة الدولة العثمانية منذ نشأتها والتي تكمـن فـي قـوة نظمها الإسلامية ، ونشاط حركة الجهاد والفتح ، واهتمام الدولة بالجوانب الحضارية ، وكذلك قوة شخصية السلاطين وسعيهم للوصول بالدولة إلى المستوى العالمي .

أما الفصل الأول فهو بعنوان حركة الفتح العثماني في القـرن (١١هـ ـ/١٧م) ويتكون من ثلاثة مباحث ، أما المبحث الأول فيتضمن تعثر حركة الفتح العثماني فـي الفترة المذكورة والذي بات واضحاً في طول الحرب العثمانية النمساوية التي حدثت في النصف الأول من ق(١١هـ/١٧م) وانتهت بمعاهـدة (سـتيفاتورك Stivetorok) ، وكذلك الدور الأول من فتح جزيرة كريت .

ويتناول المبحث الثاني : الانتعاش المفاجئ لحركة الفتح : وهو يتضمن الـدور الثاني من فتح جزيرة كريت ، وحملة خوتين ضد بولونيا وازدياد نفـوذ الانكـشارية بشكل واضح في هذه الحملة ، ثم الجهود التي بذلها العثمانيون لحماية شـمال البحـر الأسود والمناطق الخاضعة لهم في وسط أوروبا ، والحصار الذي فرضه العثمـانيون

على العاصمة النمساوية للمرة الثانية في عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) والذي كان أحد أهم نتائج انتعاش حركة الفتح .

وأما المبحث الثالث فهو بعنوان : بداية انكسار القوة العثمانية ونظرية الإزاحة والإحلال التي بدأ الغرب يطبقها تجاه الدولة العثمانية في أوروبا : ويتناول هذا المبحث الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في مواجهة الائتلاف المسيحي أو الحلف المقدس منذ عام (١٠٩٦هـ/١٦٨٤م) وحتى عام (١١١١هـ/١٦٩٩م) ، والذي انتهى بتوقيع معاهدة (كارلوفتس Carlovits) بين العثمانيين والحلف المقدس في عام (١١١١هـ/١٦٩٩م) .

ويتناول الفصل الثاني : أثر توقف الفتوحات العثمانية على الناحية العسكرية في القرن (١١هـ/١٧م) .

ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث يتناول الأول منها ضعف النظم الإدارية ، سواء من ناحية شخصية السلاطين منذ نشأة الدولة وحتى حقبة البحث ، وكذلك الوزراء العظام ، كما يتطرق المبحث إلى سلطنة النساء والأغوات ، وحركة الإصلاح في القرن (١١هـ/١٧م) والتي استهدفت تدارك الأوضاع والعودة بالدولة إلى عصر القوة.

أما المبحث الثاني : فهو يختص بالأوضاع العسكرية في القرن (١٠هـ ـ/١٦م) البرية منها والبحرية .

في حين يتناول المبحث الثالث : التغيرات والتدهور الذي طرأ على التشكيلات العسكرية العثمانية البرية والبحرية في فترة البحث وتأثر حركة الفتح بهذا التدهور .

وكذلك يتناول الفصل الثالث : أثر توقف الفتوحات العثمانية على الناحية الاقتصادية والاجتماعية في القرن (١١هـ/١٧م) وتحته ثلاثة مباحث .

يتحدث المبحث الأول من هذا الفصل عن الركود الاقتصادي الذي منيت به الدولة نتيجة لفقدها مصدرين مهمين من مصادر دخلها وهما أراضي التيمار ، والغنائم.

أما المبحث الثاني فهو يتناول المحاولات التي لجأت إليها الدولة لإنعاش الوضع الاقتصادي ، والحلول التي وضعتها وأهمها :

الامتيازات والمعاهدات التجارية ، والتجارة الداخليـة ، والازدلاف ، وترشـيد الإنفاق وإصلاح الميزانية ، وفرض الضرائب ، وتغيير قيمة النقد ، علماً بأن بعـض هذه الوسائل تحولت من حلٍ إلى مشكلة .

والمبحث الثالث فهو يتناول إحدى أهم نتائج التدهور الاقتصادي والذي اخـتص بالناحية الاجتماعية ألا وهي التمرد الداخلي وهجرة الرعايا من الريف إلى المدن إمـا لتحسين أوضاعهم الاقتصادية ، أو لتفادي انعدام الأمن الذي نتج عن حركات العصيان والتمرد .

أما الفصل الرابع : فهو بعنوان : أثر توقف الفتوحات العثمانية علـى الناحيـة الحضارية في القرن (١١هـ/١٧م) وتحت هذا الفصل مبحثان .

ويناقش المبحث الأول في هذا الفصل أثر توقف الفتوحات على الجانب العلمـي في مقارنة بين ازدهار الحياة العلمية في عصر قوة الدولة وحتى القرن (١٠هـ/١٦م) وبين تأثر الحياة العلمية بركود حركة الفتح في القرن (١١هـ/١٧م) .

في حين يتحدث المبحث الثاني عن تأثر الحياة العمرانية في الدولـة العثمانيـة بتوقف حركة الفتح ، وما طرأ علـى الجانـب العمرانـي مـن تغييـر فـي القـرن (١١هـ/١٧م) .

وأخيراً اختتمت الدراسة بأهم النتائج التي توصلت إليها ، واتبعت ذلك بإعـداد مجموعة من الملاحق التي تتناول كثيراً من النقاط التي نصت عليها المعاهدات ، ثـم تبعت المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها أثناء الدراسة .

وأنني أرجو من المولى سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت فـي عـرض هـذا الموضوع عرضاً تاريخياً يتناسب وأهميته فهو ما قـصدت إليـه ، وأن تكـون هـذه المحاولة قد ألمت بجميع جوانبه ، وأن تفتح آفاقاً جديدة للبحث في التاريخ العثمـاني ،

وإن كان ثمة نقص فهو شأن عمل البشر ، وأسأل أن يكون عملي خالـصاً لوجهـه الكريم – وهو سبحانه ولي التوفيق - .

وانطلاقاً من المبدأ الإسلامي النبوي في قول الرسول ﷺ [من لا يشكر الناس لا يشكر ا] [1] فإنني أتقدم بالشكر والتقـدير لجامعـة أم القـرى ، وكليـة الـشريعة والدراسات الإسلامية ممثلة في عميدها سعادة الدكتور سعود بـن إبـراهيم الـشريم ، ورئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية سعادة الأسـتاذ الـدكتور عبـد ا الغامدي ، وكذلك المكتبة المركزية بجامعة أم القرى .

وأخص بالشكر والامتنان سعادة الأستاذة الدكتورة / أميرة علي مداح ، وكيلـة رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، التي وافقت على الإشراف على هذا البحث ، وبذلت كل دعم منذ اختيار الموضوع وحتى إنجاز البحث ، فلم تبخـل علـي بعلم أو نصح أو توجيه سديد ، كما يسرت لي الاتصال بمراكز الأبحاث في جمهورية مصر العربية والإفادة من آراء الباحثين في التاريخ العثماني قدر الإمكان ، هذا سوى ما قدمته لي من مادة علمية عن طريق مكتبتها الخاصة ، وكل ذلك على حساب وقتها الثمين ، وراحتها الشخصية ، فلها كل شكر وعرفان وامتنان ، وأنني أدعـو ا عـز وجل أن يجعل ذلك في موازين حسناتها ، وأن يحفظها ذخراً للعلم وأهله .

كما أرفع شكري لكل من ساعدني في إتمام هذا البحث في مكتبة الملـك فهـد الوطنية ، وأخص بالشكر سعادة الدكتور سهيل صابان على ما بذله من جهود لتـوفير المادة العلمية التي تخص موضوع البحث ، وكذلك أتوجه بكل شكري إلـى العـاملين بمركز بحوث آسيا بجمهورية مصر العربية ، وبالتحديد سـعادة الـدكتورة / ماجـدة مخلوف ، التي قدمت لي ما لم أجده هنا في المملكة من مادة علمية ، وكـذلك أشـكر الدكتور / محمد قنديل رئيس مركز بحوث آسيا على ما قدمه لي من مساعدة في سبيل الحصول على ترجمة للمواد العلمية المكتوبة باللغة التركية .

---

(1) رواه الترمذي في سنن كتاب البر والصلة باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ، عن أبي هريرة حديث رقم ١٩٥٤ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ٣٣٩/٤ ، وقال الهيثمـي فـي مجمـع الزوائـد : رواه أحمـد والطبراني ، ورجال أحمد ثقات ، مجمع الزوائد ، ١٨٠/٨ .

ولا يفوتني أن أتقدم بشكري لأسرتي ، وأخص بالذكر والدتي العزيـزة التـي ساندتني بدعائها .

كما أتقدم بشكري إلى سعادة الأستاذين الفاضلين عضوي لجنة المناقشة ، سعادة الأستاذ الدكتور عبد اللطيف بن عبد ا   بن دهيش ، وسعادة الدكتور عمر بـن سـالم بابكور لقبولهما فحص هذه الرسالة وإبداء توجيهاتهما القيمة ، والتي ستثري الرسـالة بإذن ا   .

واﻟﺤﻤﺪ ﷲ أولاً وأخيراً ،،

الباحثة ،،

تَمْهِيدٌ

يعتبر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي حقبة زمنية مهمة ، ليس على مستوى تاريخ العالم الإسلامي فحسب ، بل على مستوى التاريخ العالمي ، فقد شهدت هذه الحقبة أحداثاً أدت إلى تغييرات في القيادة في آسيا الصغرى خاصة وفي العالم الحديث بصفة عامة .

وفي الوقت الذي ضعفت فيه دولة السلاجقة بعد أن أدت دوراً كبيراً في حماية العالم الإسلامي من جحافل الصليبيين التي خرجت من أوروبا تجاه المشرق الإسلامي ، كانت موجة من المغول تتجمع في أواسط آسيا وتتجه غرباً نحو البلاد الإسلامية ، وقد اقترن اجتياحها لهذه البلاد بالقتل والتدمير [١] ، حتى استولى هولاكو على بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ، وأعمل القتل في أهلها .

وبينما كانت دولة السلاجقة آخذة في الاضمحلال . كانت هناك قوى تركية جديدة آخذة في التبلور في المناطق الملائمة لها في الأناضول [٢] . وهذه القوى عبارة عن عشائر متنقلة هاجرت غرباً أمام ضغط المغول ، من موطنها الأصلي في تركستان وذلك في حوالي عام (٦١٧هـ/١٢٢٠م) ، وظلت متنقلة في منطقة الأناضول تحت زعامة (سليمان شاه بن قيا ألب) رئيس قبيلة (القابي) إحدى قبائل الغز التركية ، ثم إن سليمان شاه أراد العودة إلى موطنه الأصلي ولكنه مات غرقاً في نهر الفرات [٣] ، فانقسمت العشيرة إلى قسمين ، قسم فضل العودة إلى موطنه الأصلي ، بينما فضل القسم الآخر المتابعة إلى الشمال الشرقي من سهول أرضروم بقيادة (طغرل بن سليمان) ، وفي هذه الأثناء شاهد طغرل جيشين يقتتلان ، ومن دون أن يعلم شيئاً عن هويتيهما ، انخرط بفرسانه في صفوف الجيش الأضعف بدافع من النخوة ونصرة

---

(1) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ط٣ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ص١ .

(2) محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة : أحمد سعيد السلمان ، ط٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص٧١ .

(3) يلمازأوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ط١ ، ١٤١٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسسة فيصل للتمويل ، استانبول ، ج١ ، ص٨٣ ؛ عبد اللطيف بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٨٨م ، مطبعة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة ، ص١٢ .

الضعيف ، وتم النصر للجيش الأضعف الذي تبين – فيما بعد – أنه جـيش المـسلمين السلاجقة ، أما الجيش الآخر فقد كان بيزنطياً .

كان لهذا الحدث دلالة واضحة على الطابع الذي ستكون عليه هذه الفئـة وهـو طابع الجهاد في سبيل ا ، ومكافأة على ما قام به (طغرل بن سليمان) أقطعه الأمير السلجوقـي (علاء الدين) بقعة من الأرض في محاذاة بـلاد الـروم غربـي دولـة السلاجقة [1] .

وكانت هذه بداية لاستقرار هذه الجماعة وتكوين إمارة لها حدود صغيرة قدر لها – فيما بعد – أن تصبح دولة قوية ذات شأن عظيم تؤدي دوراً مهماً في إنقاذ الحضارة الإسلامية من الاندثار ، بل ستكون لها ريادة العالم الإسلامي . فكيـف تحققـت لهـذه الإمارة هذه القوة ؟

هناك العديد من العوامل التي أدت دوراً كبيراً في تكوين الدولة العثمانية ومكنتها من التحول إلى دولة كبرى قدر لها أن توجه وجهة التاريخ العالمي .

فقد اعتنق العثمانيون الإسلام على المذهب السني اعتناقاً يشبهه بعض المؤرخين باعتناق المسلمين له في صدر الإسلام ، امتلأوا حماسة شديدة في نصرة هـذا الـدين وذلك المذهب ، وتحولت هذه الرغبة إلى تيار سريع جارف [2] . وأصبح نشر الإسلام وإقامة دولة إسلامية من أهم الأهداف التي ارتكزت عليها في قيامها [3] . ومما سـاعد على استمرار هذا الحماس وقوع هذه الإمارة على الحدود البيزنطية ، فكانت مجاورتها لدار الحرب باعثاً على توجيه جهادهم نحو هذه الإمبراطورية .

---

(1) علي حسون : تاريخ الدولة ، ص١٣ ؛ خاف بن دبلان الوذيناني : الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عـام ١٣٢٧هـ – ١٤١٧هـ/١٩٠٩م-١٩٩٦م ، رسالة دكتوراه منشورة ، جامعة أم القرى ، ص٢٣ .

(2) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي مـن البـر إلـى البحـر ، ط١ ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار التراث ، القاهرة ، ص٨٤ .

(3) محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ، ط١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، دار بيروت المحروسة ، ص١٧ .

وقد توفي طغرل بعد أن وطد الحكم لعشيرته على الأراضي التي وكل إليـه أن يحكمها . وتم تعيين ابنه (عثمان) ليكمل ما بدأه والده ، وتسلم سيف والده مـن يـد العالم المؤمن (إده بالي) وأطلق عليه لقب (غازي) (١) .

وهكذا أقام عثمان دولته من منطلق إسلامي جهادي بحت ، وظل لقب (غازي) يسبق اسم كل سلطان عثماني إلى نهاية الدولة .

من المعروف أن التفاعل بين الحدث والإنسان من أهم العوامل المـؤثرة فـي حركة التاريخ . وعلى هذا الأساس نستطيع القول أن القرون الثلاثة الأولى من تـاريخ الدولة العثمانية شهدت عدداً من الشخصيات التي تميزت بالقدرات المتفوقة في مجـال القيادة العسكرية ، والحكمة الواضحة في النواحي الإدارية (٢) .

لقد نجح (عثمان) في تحويل إيمانه وحماسه للجهاد إلى فكرة تعتنقها الإمارة ، وبدأت شخصيته كزعيم للجهاد تتضح معالمها رويداً رويداً .

ومن ناحية أخرى فإن نشاطه وكفاءته الحربية جعلت السلطان السلجوقي يمنحه المزيد من الامتيازات ، فلقبه بلقب (بك) وسمح له بذكر اسمه على المنابر في خطبة الجمعة ، وأن يضرب السكة باسمه (٣) .

وبذلك قطعت هذه الإمارة على عهد (عثمان) شوطاً بعيداً في طريق التحـول من نظام الإمارة إلى نظام الدولة المستقرة مما ساعد على توطيد مركزهـا وتطورهـا تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى – كما سنرى في هذا المبحث - .

ولما توفي السلطان علاء الدين السلجوقي عام (٦٩٩هـ ـ/١٢٩٩م) ، ونتيجـة لعدم وجود من يخلفه فقد مد (عثمان) نفوذه إلى المقاطعات التي كانت تحـت حكـم

---

(1) زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ط١ ، ١٤٠٣هـ ـ/١٩٨٣م ، دار الفرقـان ، عمان ، ص١٩ .

(2) المعتصم با شعوط : جهاد العثمانيين ضد البيزنطيين حتى فتح القسطنطينية ٧٥٥هـ ـ -٨٥٧هـ ـ/١٣٥٤م-١٤٥٣م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ١٣٩٩هـ - -١٤٠٠هـ ، جامعة الملك عبد العزيز ، ص١١ .

(3) خاف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص٢٩ .

علاء الدين واتخذ من مدينة (يكي شهر) عاصمة لدولته ودعـا نفـسه (بادشـاه آل عثمان) وبذلك ظهرت البداية الحقيقية لهذه الدولة [(١)] .

ولتحديد هوية هذه الدولة فقد أعطى عثمان اسمه إلى جنوده الذين خرجوا مـن بلاد ما وراء النهر تاركاً اسم (الترك) الذي كان يستخدم وقتئذٍ في منطقة غرب آسيا للدلالة على التتر الذين أتوا في أعقاب (جنكيز خان) ، ومن ثم نشأت أسـرة قويـة متحدة يحدوها الحماس والإخلاص ، ومن ذلك تولد تيار لا يقهر في آسيا الـصغرى ، ثم في جنوب شرقي أوروبا ، ولهذه الأسرة نسبت القوة الهائلـة والمفخـرة العظيمـة ومبعث المد ، الكل حولها ولا ترى الأمة العثمانية غيرها [(٢)] .

ومع مرور الزمن قويت شوكة هذه الدولة وتمكن عثمان في فترة وجيـزة مـن توسيع رقعة بلاده وضم أكثر المناطق الواقعة على حدود الدولة البيزنطية .

كان الفتح العثماني هو آخر فتح إسلامي تشهده أوروبا ، وكان عبور العثمانيين في عهد (أورخان بن عثمان ٧٢٥هـ-٧٦٤هـ/١٣٢٤م -١٣٦٢م) هو أول عبـور عثماني إلى شرق أوروبا عام (٧٤٧هـ/١٣٤٧م) [(٣)] . ومنذ ذلك الحين بدأ الـصراع العثماني البيزنطي في الإزدياد .

وعندما فتح العثمانيون (غاليبولي) [(٤)] سنة (٧٥٧هـ-١٣٥٦م) بدأت الدعوات في الغرب الأوروبي لمجابهة الخطر العثماني الإسلامي [(٥)] .

---

(1) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص١٣ .

(2) أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م – الحارثي للطباعة والنشر ، الطائف ، ص١٦ .

(3) إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط٢ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ص١٥ ؛ عبد اللطيف بن دهيش : قيام الدولة ، ص٣٠ .

(4) غاليبولي : تقع على ضفة مضيق الدردنيل في الجانب الأوروبي في مقاطعة تراقيا في ولاية أدرنة . انظـر : محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقـي ، ط١ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، دار النفائس ، لبنان ، ص١٢٦ .

(5) طقوش : العثمانيون ، ص٣٢ .

كان الهدف من عمليات الفتح إخضاع عالم الكفر لا تدميره ، وعلى هذا الأساس اتجهت سياسة أورخان لتنظيم المناطق المفتوحة ، وكان نشر الإسلام هو العمل الأول الذي اهتم به الفاتحون . وذلك استناداً إلى الوصايا التي أوصاه بها والده قبـل وفاتـه ومما جاء في هذه الوصايا : " إعلم يا بني أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه ، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم ، أمانة في عنقك سيسألك ا عز وجل عنها " [(١)] .

وبتقدم الجيوش العثمانية نشأت المزيد من القرى ذات الطابع الإسلامي ، وسـن أورخان قوانين جديدة لم تكن موجودة من قبل ، وسك عملة تحمل على أحد وجهيهـا الشهادة ، واتخذ رايته من قماش أحمر يتوسطه هلال وتحته صورة سيف أطلق عليـه اسم (ذو الفقار) تيمناً بسيف الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي ا عنه .

أدرك أورخان أن عملية الفتح بحاجة إلى التنظيم وخاصة لمواجهـة الجيـوش المسيحية في شرق أوروبـا . وأن طريقة النفير التي كان يتبعها لجمع قواتـه غيـر مجدية ، كما أنها لا تخدم مبدأ الجهاد بشكل فعال ، ولذلك أسس الجيش المعروف فـي التاريخ العثماني بالجيش (الانكشاري) أي الجيش الجديد ، وبذلك اكتـسبت حركـة الجهاد تنظيماً أكثر من ذي قبل ولإضفاء الصبغة الإسلامية على هذا الجيش توجه بـه أورخان إلى الحاج (بكتاش) وطلب منه أن يدعو له بالنصر ، فتلقاهم العالم خير لقاء ودعا لهم بالنصر [(٢)] .

وفي هذا الموقف تكاملت الأسس الثلاثة التي قامت عليها الدولة حيث تـوفرت لها المرجعية الدينية ، والسلطة السياسية ، والقوة الحربية .

وبذلك يكون أورخان قد نظم أقوى جيش في عصره على أسس تتـضمن ولاء الجند للدولة ، وقد تمت تربية هذا الجيش وإعداده بحيث لا يعرفون أباً إلا السلطان ولا عملاً إلا الجهاد في سبيل ا [(٣)] .

---

(1) زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة ، ص٣٤ .

(2) أبو غنيمة : جوانب مضيئة ، ص٣٤ ؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصـول التـاريخ العثمـاني ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، دار الشروق ، ص٤٧ .

(3) خلف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص ص٩٣ ، ٩٤ .

ونتيجة لهذا الإعداد أسهمت هذه الفرق في قوة الدولة وتحقيق النصر في ميادين الحرب ، وضربت أروع الأمثلة في تمثيل مبادئ الإسلام في الحرب والسلم وذلك بتميزها بالنظام الصارم إلى جانب التدين والرحمة ، حتى أنها أصبحت محط إعجاب الغرب الذي اعتمد في تلك الفترة على الجيوش المرتزقة [(١)(٢)] . في حين كان الجيش العثماني جيشاً نظامياً دائماً .

أدى استمرار حركة الفتح إلى تطوير النظام العسكري العثماني وذلك وفقاً للمستجدات في ساحات القتال فكان تدريب الجيش يجري بشكل دقيق ، كما كانت الفرق تتنوع وتزداد مع مرور الزمن . وكذلك جرى تطوير تجهيزات هذه الفرق لتبلغ ذروة تطورها في القرن (العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) ، بينما سيتطرق الخلل لهذا الجيش في القرن السابع عشر كما سيتضح ذلك من خلال الدراسة [(٣)] .

ولم يقتصر الاهتمام بالجيش على التدريب والتطوير ، بل كانت رواتب الجند تصرف بانتظام حتى القرن (١٠هـ/١٦م) ، وقد وصف الجيش العثماني بأنه أعظم جيش في العالم وأنه يتقاضى راتبه بشكل منتظم ، وأن إعاشته كانت جيدة .

وعند الخروج إلى الحرب كانت أقسام هذا الجيش تخرج في ترتيب معين ، ويرأسهم السلطان بصفته القائد الأعلى ورئيس الهيئة الحاكمة . واعتادت هذه القوات على هذا الوضع حتى خيل للإنكشارية أن مخالفة هذا الوضع يعد مخالفة لطبيعة الدولة ومن شأنه أن يفصل السلطان عن رعاياه [(٤)] ، مما أثر على حركة الفتح بعد منتصف القرن (العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) ، وذلك بامتناع السلاطين عن الخروج إلى القتال إلا في حالات يسيرة .

---

(1) شعوط : جهاد العثمانيين ، ص١٢ ؛ يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٣٧٦ .

(2) المرتزق : اسم يطلق على شخص يخدم في القوات المسلحة لبلد أجنبي من أجل المال .

انظر : الموسوعة العربية العالمية ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، ج٢٣ ، ص٨١ .

(3) حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص٥٦ .

(4) البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص٨٨ .

وظلت هذه الفرق إحدى رموز قوة الدولة العثمانية ومصدر خوف للأوروبيين ، حتى تم القضاء عليها في بداية القرن (١٣هـ/١٩م) .

وهكذا أوجد أورخان قاعدة قوية في شرق أوروبا مكنت ابنه السلطان (مـراد الأول ٧٦٤هـ -٧٩٢هـ/١٣٦٢م -١٣٨٩م) من التقدم بنجاح .

كان مراد الأول متحمساً لنشر الإسلام في أوروبا ، وعرف عنه تطلعه للشهادة والذي عبر عنه بدعائه في معركة (قوصوه Kosovo) [(1)] عام (٧٩٢هـ/١٣٨٩م).

ولكن قبل أن يتوجه بنشاطه صوب البلقان كان عليه أن يـسوي علاقاتـه مـع الأمارات التركمانية التي كانت تنظر بعين الخوف إلى نمو وانتشار الدولة العثمانيـة . لذاك اتبع مراد الأول تجاه هذه الإمارات سياسة أكثر دقة وحذراً . بحيث لا تتعـارض مع الملامح الجهادية لشخصية الدولة ونتيجة لذلك أخضع أمراء هذه العشائر فكانت هذه هي الخطوة الأولى لتشكيل وحدة الأناضول [(٢)] .

نستدل مما سبق على أن حركة التوسع صوب الإمارات التركمانية قد سـارت بشكل موازٍ مع الفتح العثماني في البلقان ، إذ كان أي تقدم في جهة يتبعه تقـدم فـي الجهة الأخرى [(٣)] ، كما أن النطاق الجغرافي الذي تمتد فيه الدولـة سـيفرض عليهـا القتال في جهتين في آن واحد وستظل هذه السمة من أهم ما يميز الفتح العثماني طوال تاريخ هذه الدولة . وإن تأثرت هذه السمة بمستوى الخلل الـذي طـرأ علـى بعـض نواحيها. كما سنرى .

أدى فتح مدينة (غاليبولي Gelibolu) الذي سبقت الإشارة إليه إلـى ظهـور هدف جديد أمام العثمانيين وهو السيطرة على قطاع تراقيا ، وقد تمت لهم هذه السيطرة

---

(1) تقع صحراء قوصوه في غرب (برتشينا بين ميتروفيتش) و (اسكوب) ويطلق على هذا المكان (قـصوا – وا – بول) . انظر : محمد حرب : البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثـة ، ط٢ ، ١٤١٥هـ ـ/١٩٩٤م ، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي والبلقان ، ص٢٢ .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ١٩٩٩م ، مركز الأبحاث للتاريخ والثقافـة الإسـلامية باستنبول (ارسيكا) ، ج١ ، ص٢ .

(3) خليل اينالجيك : تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ، ترجمة : محمد الأرناؤوط ، ط١ ، ٢٠٠٢م، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، ص٢٦ .

عندما تمكنوا من فتح أدرنـة [1] عـام (٧٦٣هـ ـ/١٣٦١م) . وقـد أهلهـا موقعهـا الاستراتيجي لانتقال عاصمة العثمانيين إليها إثر سقوط (أدرنة Adirne) تتابع سقوط العديد من المدن التي تحيط بالقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية [٢] ، وغدا السلطان العثماني سيد البلقان .

ولم يأت عام (٧٦٨هـ/١٣٦٦م) إلا سيطر العثمانيون علـى جنـوبي بلغاريـا وأصبح الدانوب يشكل حداً شمالياً للدولة العثمانية [٣] .

لقد مضت عمليات الفتح في منطقة البلقان بـسرعة كبيـرة حتـى أن بعـض المؤرخين فسروا هذه السرعة بتزامن الفتح مع الانقسام السياسي والخلاف الديني الذي ساد في أوروبا في تلك الفترة [٤] . في الوقت الذي تميزت فيه الدولة العثمانية بسياسة ثابتة ، وقوة عسكرية ، وسلطة مركزية .

وأرى أن هذه العوامل لا تكفي لتفسير سرعة الفـتح ، خاصـة إذا علمنـا أن البابوية كانت تتبع كل نصر مهم يحرزه العثمانيون بدعوة القـوى المـسيحية للتوحـد وتوجيه حملة صليبية لصد التقدم العثماني ولكن صمود العثمـانيين وصـدقهم وسـمو أهدافهم كان من أهم عوامل الثبات أمام هذه الحملات ، والأهم من ذلك كـان تطبيـق العثمانيين لمبادئ الشريعة في حروبهم كان كافياً لإعلان بعض المناطق تبعيتها للسيادة العثمانية .

وأخيراً نجح العثمانيون في تحطيم التحالف الذي قادته مملكة الصرب في معركة (قوصوه Kosovo) عام (٧٩٢هـ/١٣٨٩م) رغم استشهاد السلطان مراد الأول في هذه المعركة إلا أنها أسفرت عن نتائج مهمة لصالح العثمانيين ولعل أهم هذه النتـائج

---

(1) (أدرنه Adirne) : مدينة في تركية الأوروبية ، تقع عند ملتقى نهر مـريج (Maritza) وطونجـه وارده . انظـر : يحيى شامي : موسوعة المدن العربية والإسـلامية ، ط١ ، دار الفكـر العربـي ، بيـروت ، ج١ ، ص٣٠٤ ؛ س . موستراس : المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ، ترجمة : عصام الـشحادات ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، دار ابن حزم ، بيروت ، ص٤٢٥ .

(2) بن دهيش : قيام الدولة ، ص٣٥ ؛ أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص١٥ .

(3) ياغي : الدولة العثمانية ، ص٣٩ ؛ وأحمد مصطفى : في أصول ، ص٤٩ .

(4) خليل اينالجيك : تاريخ ، ص٢٣ .

هي كسر كل مقاومة ضد العثمانيين في جنوب الدانوب ، وفتح الطريق نحـو صـربيا الشمالية ، ومقدونيا وألبانيا والبوسنة [١] .

وقد ترك مراد الأول لابنه (بايزيد ٧٩٢هـ ـ -٨٠٥هـ ـ/١٣٨٩م -١٤٠٢م) دولة كاملة الأركان تطبق فيها الإدارة المركزية بدلاً من الإدارة الإقطاعية المعمول بها في البلقان .

وهنا نجد لزاماً علينا أن نشير إلى أن الفتوحات العثمانية لم تكن مجرد توسعات تهدف إلى السيطرة على الأراضي ومقدرات الشعوب . بل كانت تهدف إلى إقامة دولة إسلامية وفقاً للمنهج الإسلامي القويم . وقد أدت الطبيعة الجهادية دوراً في تشكيل نظم الحكم ، والدليل على ذلك أن عمليات الفتح كانت تتبع بعملية تنظيم للمناطق المفتوحـة في كافة المجالات .

وفي الوقت الذي أصبح فيه أورخان سلطاناً تقع على عاتقه أعباء الحكم والجهاد تولى أخوه علاء الدين منصب الوزارة [٢] ، أما عـن التنظـيم الإداري فقـد أسـتفاد العثمانيون من تجربة السلاجقة في هذا المجال واعتمدوا على التقسيم الإقطاعي ، وبناء على ذلك قسمت الأراضي المفتوحة إلى سناجق ، وتيمارات ، وزعامت ، وخـاص . وذلك وفقاً لما تدره هذه الإقطاعات عن موارد مالية [٣] .

---

(1) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ص١٥ ، ١٦ .

(2) أميرة مداح : نظرة متأنية ، ص١٧ .

(3) علي حسون : تاريخ ، ص ص٣٨٦ ، ٣٩٠ .

السنجق : معناها اللغوي : العلم واللواء الخاص بالدولة ، ثم خص بها اللواء الذي يمنحه الـسلطان للـوالي أو الأمير تعبيراً عن ثقته بأنه أهل للحكم ، ثم تطورت الدلالة فأصبحت تعني قسماً إدارياً من أقسام الدولة ، وحلت محلها مؤخراً الكلمة العربية (لواء) للمعنى نفسه ، أي قسم إداري . انظر : سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م ، ص١٣٦ .

التيمارات : التيمار Timar : كل أرض تمنح لشخص أو أكثر مشتركاً بشروط خاصة مقابل وظيفة معينة وتقل وارداتها السنوية عن عشرين ألف أقجه : وكان يسمى في الفترة التي سبقت الحكم العثماني بنظام الأقطاع .

الزعامت : نوع من أنواع التيمار تقل وارداته عن مئة ألف أقجة .

الخاص : نوع من أنواع التيمار تتجاوز وارداته المئة ألف أقجه . انظر سهيل صابان : المعجـم ، ص ص٨ ، ٧٦.

وهذا دليل على أن العثمانيين استندوا في نظمهم إلى أرث عريق تمتد جـذوره إلى أصول إسلامية عريقة كما سيتضح ذلك خلال هذه الدراسة .

وإذا كانت الدولة قد اعتمدت على النظام الإقطـاعي العـسكري فـي تقـسيم الأراضي المفتوحة إلا أن حياة الرعايا العثمانيين في هذه الإقطاعيات تختلـف جـذرياً عن حياة نظرائهم في ظل النظام الإقطاعي الأوروبي ، فقد عملت الجهود التي بـذلها السلاطين في تطبيق الشريعة ونشر العدالة على الحد من تسلط أصـحاب التيمـارات وذلك بإخضاعهم تحت إشرافهم مباشرة ونذكر على سبيل المثال أن الفلاح مطالب في أوروبا بالعمل يومين من كل أسبوع لحساب سيده ، بينما يقضي القانون العثماني بـأن يعمل الفلاح ثلاثة أيام من السنة كلها لصالح الدولة [١] .

وهذا يدل على أن النظام الاجتماعي في الدولة العثمانية قام علـى أسـسٍ مـن العدالة والتسامح ، اللذين كفلهما الإسلام لأهل الذمة .

ونتيجة لعوامل القوة – السابق ذكرها – اسـتطاع الـسلطان بايزيـد الأول أن يقضي على مركز المقاومة ضده والمتمثل في مملكة البلغـار ، وكـذلك أسـتطاع أن يتصدى للحملة الصليبية التي احتشدت فـي (بودا Buda) [٢] وتحطيمها عند مشارف (نيكوبولي Nikopoli) [٣] عام (٧٩٩هـ ـ/١٣٩٦م) ، واعتبـر المؤرخـون هـذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ أواخر العصور الوسطى نظراً لكونهـا أول معركة تواجه فيها القوات العثمانية جيوشاً من غرب أوروبا ، كما كانت هذه المعركـة آخر مشروع دولي مهم نفذه فرسان الإقطاع ، وتأكد الرأي القائـل باسـتحالة طـرد العثمانيين عن الروملي .

---

(1) خليل اينالجيك : تاريخ ، ص٢٥ .

(2) (بودا Buda) : وتعني البلد العالي وتقع على الشاطئ الأيمن من نهر الطونة في مقابل مدينة بوست ، وبعد ذلك انضمت المدينتان فأصبحت مدينة واحدة وهي عاصمة المجـر . انظـر : المحـامي : تـاريخ الدولـة ، ص٢١١.

(3) نيكوبولي : هي نيكوبول Nikopol : وتقع في شمال بلغاريا علـى حـدود رومانيـا ، واسـمها بالروميـة نيكوبوليس ومعناها مدينة النصر . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص١٣٥ .

أما على مستوى العالم الإسلامي فقد ذاعت شهرة السلطان بايزيد الأول كمجاهد كبير ، واستحق لقب (سلطان المجاهدين) و (سلطان الروم) و أقره الخليفة العباسي على هذه الألقاب ، وبذلك أسبغ على سلطته طابعاً رسمياً وشرعياً ، وزادت هيبته في العالم الإسلامي [١] .

وفي عهد بايزيد بات فتح القسطنطينية قريباً ، لولا أن الدولة تعرضت لضربة قوية من قبل جيش تيمورلنك [٢] الذي قدم من الشرق .

لقد كان هناك عداء تقليدي بين الدولتين ، ولا ننسى أن القوى الأوروبية كانت مستعدة للتحالف مع أي قوى قادرة على هزيمة العثمانيين ، حيث سعت كل من جنوه وقشتاله لتحريض تيمورلنك ضد العثمانيين ، ونتيجة لذلك التحمت القوتين في سهل (انقرة Ankara) [٣] عام (٨٠٥هـ/١٤٠٢م) وهزمت القوات العثمانية ووقع السلطان بايزيد الأول في أسر تيمورلنك [٤] .

ورغم أن هذه المعركة كانت أولى المعارك التي تلقى فيها العثمانيون هزيمة ساحقة إلا أنها بفضل الأسس القوية التي قامت عليها الدولة لم تكن هذه الضربة القاضية ، خاصة وأنها جاءت والدولة في فترة التكوين التي مكنتها من امتصاص هذه الضربة ومعاودة النهوض في زمن يسير .

في الواقع كانت الشخصية القيادية التي ميزت سلاطين الحقبة الأولى من التاريخ العثماني قد أدت دوراً كبيراً في بعثها من جديد كلما مرت بمثل هذه الأزمات ، وبالفعل

---

(1) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص١٩ .

(2) تيمور لنك : أي تيمور الأعرج ولد سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م بالقرب من سمرقند ويتصل نسبه بجنكيزخان التتري من جهة النساء ، توفي وهو في طريقه للصين في ١٧ شعبان عام ٨٠٧هـ/١٨ فبراير سنة ١٤٠٥م . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص١٤٠ .

(3) (أنقرة Ankara) : مدينة في تركية الآسيوية (الأناضول) على نهر صويي . مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه في ولاية بوزاووق . انظر : موستراس : المعجم الجغرافي ، ص١١٥ .

(4) خليل اينالجيك : تاريخ ، ص٣٠ ؛ أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٢٩ .

نهضت الدولة من جديد على يد السلطان (محمد الأول ٨١٦هـ-٨٢٤هـ/١٤١٣م -١٤٢١م) الملقب (بجلبي) ، وتهيأت لها أسباب القوة والاستقرار في زمن يسير [١] .

وهكذا كانت الدولة قوية بما فيه الكفاية لتنتعش حركة الفتح من جديد على يـد السلطان (محمد الثاني بن مراد الثاني ٨٤٨هـ-٨٨٦هـ/١٤٤٤م -١٤٨١م) الـذي عرف بطموحه وتطلعه لفتح عاصمة البيزنطييـن متأثراً في ذلك بتربية كل من الشيخ (آق شمس الدين) ، و (الملا الكوراني) [٢] اللذين أشرفا على إعداد شخصيته ليكون الفاتح الذي بشر بـه الرسول ﷺ [٣] .

وفي سبيل إعادة الحكم المركزي الذي كان يجري العمل به في عهد (بايزيـد الأول ٧٩٢هـ-٨٠٥هـ/١٣٨٩م -١٤٠٢م) رأى السلطان (محمد الثاني) أن فـتح القسطنطينية هو الخطوة الأولى التي ستؤمن له المكانة اللائقة لتحقيق هذا الهدف [٤] .

كانت القسطنطينية تقف عائقاً في طريق الدولة نحـو العالميـة ، ولقـد سـبق للعثمانيين أن حاصروها محاولين فتحها ، فمثل هذا العمل لا يحققه إلا (الغازي) الذي بشر به الرسول ﷺ ، وبذلك يتبوأ المكانة العظيمة في العالم الإسلامي . وكـذلك كـان بقاء القسطنطينية في أيدي البيزنطيين من شأنه أن يهـدد المواصـلات بـين أمـلاك العثمانيين في أوروبا وآسيا [٥] . ولذلك كان علـى العثمـانيين أن يبـادروا بـالفتح ، ويقطعوا الطريق قبل وصول المساعدات المحتملة من الغرب إلى هذه المدينة .

وهكذا وبعد مرور (٥٤) يوماً من الحـصار المحكـم ، الـذي اسـتخدم فيـه العثمانيون شتى الوسائل لدك أسوار المدينة ، سقطت فـي أيـديهم عـام (٨٥٧هـ ـ/١٤٥٣م) .

---

(1) طقوش : العثمانيون ، ص٦٤ .

(2) هو المولى أحمد بن إسماعيل الكوراني توفي سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م باستانبول . انظـر : طاشـكبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص٥١ .

(3) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ط٢ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ص ص٦٨ ، ٦٩ .

(4) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٢٣ ؛ مصطفى : في أصول ، ص٦٥ .

(5) خليل اينالجيك : تاريخ ، ص٤٢ .

ويعتبر هذا الفتح من الأحداث الفاصلة والتي لها ما بعدها في التاريخ ، فبفـتح القسطنطينية وضع السلطان محمد الثاني - والذي لقـب بالفـاتح ، وأبـو الفتـوح – الخطوات الأولى لدولته نحو العالمية ، وأصبح بمقدوره أن يكمل ما بدأه جده (بايزيـد الأول) في سبيل الحكم المركزي ، كما زادت مكانته في العـالم الإسـلامي ، فهنـأه السلطان المملوكي بعد أن أرسل بخبر الفتح إلى الأمصار الإسلامية ، وكان هذا فـي الحقيقة توطئة للنفوس لتقبل الزعامة العثمانية الجديدة ، فمنذ سنوات لم تحرز أي دولة إسلامية انتصاراً مدوياً مثل هذا الانتصار (١) .

وقد شرع الفاتح في رفع راية الجهاد من جديد ، فأنفـذ عـدة حمـلات إلـى الأناضول وأوروبا على السواء عملاً على وحدة الدولة ، وعمل على تصفية الإمارات الاستبدادية البيزنطية في الروملي الواحدة تلو الأخرى ، ولم يتبق سـوى بلغـراد (٢) وبعض الجزر التابعة للبنادقة . وقد أقسم على أن يفتح روما وأن يطعم حـصانه فـي مذبح كنيسة القـديس بطـرس ، إلا أن المنيـة وافتـه قبـل تنفيـذ مخططـه عـام (٨٨٦هـ/١٤٨١م) ، وبموته أنقذت ايطاليا وأوروبا من خطر الفتح المتجه نحوهم (٣).

أدى النـزاع الذي اندلع بين ابنيه (بايزيد) و (جم) إلـى أن تهـدأ حركـة الجهاد ، وقد هدأت بشكل نسبي واقتصرت في أغلب الأحيان على الحفاظ على ما كان قد فتح في عصر (محمد الفاتح) .

ولكن الدولة كانت قد وصلت في عهد الفاتح إلى درجة من القوة بحيث أصبحت تتأثر وتؤثر في السياسة العالمية . وشكلت العلاقات معها جزءاً مهماً علـى الـساحة السياسية في أوروبا ، فعلى سبيل المثال كانت الدولة الموشكة على الانهزام في إيطاليا

---

(1) طقوش : العثمانيون ، ص٩٨ .

(2) (بلغراد Beleghrad) : قرية في تركية الأوروبية تقوم في وسط غابة تغطي منحدرات السلـسلة الجبليـة الصغيرة التي تمتد بها سلسلة البلقان حتى البسفور . انظر : موستراس : المعجم الجغرافي ، ص١٦٩ .

(3) خاف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص١٢٢ ؛ محمد حرب : العثمانيون ، ص٨٨ .

تهدد بطلب المساعدة من العثمانيين ، وهكذا أخذ الـدور العثمـاني فـي الـصراعات الأوروبية يزداد مع الزمن [1] .

وهنا يجدر بنا أن نبين أن هذا المركز العالمي الذي وصلت إليه الدولة لم تصل إليه بشكل مفاجئ ، ولكنه كان نتاجاً لعمليات الفتح المستمرة منذ التأسيس الأول لهـذه الدولة والتي بلغت أوجها في القرن (١٠هـ/١٦م) .

وإذا أردنا أن نضع تصوراً لهذه المكانة ، فإنه يجب علينا أن نعود إلى الفتـرة التي بدأ العثمانيون فيها يشكلون اهتماماً في السياسة الأوروبية ، باعتبار أن العلاقـات العثمانية الأوروبية تشكل حيزاً كبيراً من التاريخ العثماني ، فنقول أن هنـاك أحـداثاً لعبت دوراً كبيراً في تشكيل العلاقات العثمانية الأوروبية ، ولعـل فـتح (غـاليبولي Gelibolu) ثم معركة (قوصوه Kosovo) كانت أولى هذه الأحداث التي أثـارت اهتماماً جاداً بتحركات العثمانيين ، ثم جاء فتح القسطنطينية ليكون نقطة حاسـمة فـي العلاقات العثمانية الأوروبية ، فقد قطع العثمانيون بهذا الفتح الطريق على البابوية في فرض سيطرتها على الأقاليم التي كانت تدين بالمذهب الأرثذوكسي .

ومنذ هذه الفترة لم تعد هناك دولة تفصل بين أملاك العثمانيين التي تصل إلـى وسط أوروبا وبين الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وستبدي الدول الغربية اهتمامـاً أكبر بهذه الدولة القوية .

ولا يقتصر تحديدنا لمفهوم العالمية على التركيـز علـى العلاقـات العثمانيـة الأوروبية ، بل وعلى علاقات الدولة العثمانية بالدول الإسلامية الموجودة فـي ذلـك الوقت . فقد عقد العالم الإسلامي آماله على هذه الدولة ، وبالنظر إلى التهديـد الـذي تعرضت له هذه الدول من قبل القوى المسيحية فقد كان كل نصر يحرزه العثمـانيون على الحملات الصليبية فإنه يرفع من شأنهم في البلاد الإسلامية .

وقد بدا ذلك واضحاً في استنجاد مسلمي الأندلس بالسلاطين العثمانيين ، وفـي المقابل كان العثمانيون يعتبرون دولتهم الحصن الحامي للإسلام ضد المسيحية .

(1) بن دهيش : قيام الدولة ، ص٥٩ ؛ اينالجيك : تاريخ الدولـة ، ص٥١ ؛ أوزتونـا : تـاريخ الدولـة ، ج١ ، ص١٩٤ .

ويبدو ذلك جلياً في قول السلطان محمد الفاتح : " إن بلادنا هي بيـت الإسـلام وسيظل مصباحها مضيئاً بزيت نستخرجه ويستخرجه خلفاؤنا من قلوب الكافرين " [١].

فكانت خططهم تستهدف اختراق أوروبا للحيلولة دون سقوط دولة الإسلام فـي الأندلس [٢] ، إلا أن العوامل الجغرافية ، والسياسية قد لعبت دورها فـي فـشل هـذا المخطط .

وكما أعتبر العثمانيون أنفسهم حماة للإسلام في وجه المـسيحية فقـد اعتبـروا أنفسهم حماة للمذهب السني أمام الخطر الشيعي المتمثل في الدول الصفوية في إيران ، وعلى هـذا الأسـاس يمكـن تفـسير توجـه الـسلطان (سـليم الأول ٩١٨هـ ـ - ٩٢٧هـ/١٥١٢م - ١٥٢٠م) نحو ضم البلاد العربية والتلقب بلقب (حـامي حمـى الحرمين) بأنه إعلان للوقوف في وجه البرتغاليين التي استهدفت العالم الإسلامي فـي (ق١٠هـ/١٦م) [٣] ، وكذلك للوقوف في وجه الزحف الشيعي نحو العالم الإسلامي .

ثم أضيف هذا اللقب إلى ألقاب كل السلاطين العثمانيين وذلك تأكيداً للزعامة الدينيـة للدولة على العالم الإسلامي السني [٤] .

وإلى جانب المكانة الدينية والسياسية التي حققها العثمانيون من ضمهم للمشرق العربي ، فقد أمنوا لأنفسهم السيطرة على أغنى طرق التجارة ، ممـا دعـم مـوقفهم الاقتصادي ، وهكذا أصبح بوسع السلطان (سـليمان بـن سـليم الأول ٩٢٧هـ ـ - ٩٧٤هـ/١٥٢٠م -١٥٦٦م) أن يمول خططه ليصل بدولته إلى قمة الهرم الـسياسي في ذلك الوقت [٥] . ويمكننا أن نسمي ذلك العصر (ق ١٠هـ -١٦م) بعصر سليمان

---

(1) البحراوي : فتح العثمانيون عدن ، ص٨٥ .
(2) أميرة مداح : نظرة متأنية ، ص٤٤ .
(3) خاف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص١٣٤ .
(4) عمر سالم بابكور : حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن العاشر الهجري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، ص١٦٣ .
(5) خليل اينالجيك : تاريخ ، ص٥٤ .

القانوني. وقد ساعد على هذا النجاح التفوق الذي أبداه سليمان في توظيـف الخلافـات السياسية والدينية التي سادت في القارة الأوروبية لصالح الدولة العثمانية [١] .

وهكذا فتحت في عهد (سليمان القانوني) قلعة (بلغراد Beleghrad) عـام (٩٢٨هـ/١٥٢١م) الحصينة ، وأصبح الطريق نحو قلب أوروبا مفتوحـاً ، وكـذلك تحقق فتح جزيرة (رودس Radoss) [٢] الحصن المنيع لفرسان (القديس يوحنـا)[٣]. وبسقوط هذين الحصنين تأكد الغرب أنه لا يمكن قهر القوة العثمانية .

والواقع أن الدولة العثمانية في هذه الحقبة برزت كمركز للعالم وأقوى دولة [٤] .

وأضحت عاملاً مهماً وأساسياً لتوازن القوى في القارة الأوروبية ، ولـم تعـد هناك مسألة في السياسة الدولية لا تعني العثمانيين .

أما على الصعيد الدبلوماسي فقد أبرزت التقاليد الدبلوماسية المتبعة بين الدولة العثمانية وغيرها في هذه الحقبة أن هذه الشعوب كانت تنظر إلى الدولة بعـين الهيبـة والوقار ، وكانت صيغ المراسلات الدبلوماسية خير شاهد على ذلك [5] .

وقد استمرت حركة الجهاد قائمة ، وبلغت أوجها في هذه الحقبـة حتـى ارتـد العثمانيون عن دخول (فيينا) [٦] عاصمة النمسا عام (٩٣٧هـ/١٥٣٠م) ، وهي المرة

---

(1) عبد الحميد بطريق ، وعبد العزيز نوار : التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينـا ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص ص٧٣ ، ٧٤ ؛ أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٢٦٧ .

(2) (رودس Radoss) : جزيرة بالقرب من شاطئ آسيا ، اشتق اسمها من لفظة (رودون) اليونانية ، معناهـا الورد . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص١٧٦ .

(3) فرسان القديس يوحنا ويسمون أيضاً (رهبان مالطة) أو فرسان الاسبتارية أصلهم هيئة أسسها تجار أمالفيون للقيام بشؤون مستشفى (القديس يوحنا) في (بيت المقدس) وذلك في فترة الحروب الصليبية ثم تحولوا إلـى هيئة حربية على مثال (فرسان الداوية) . وللمزيد من التفاصيل حول هذه الهيئة . انظـر : وليـام لانجـر : موسوعة تاريخ العالم ، ترجمة : محمد مصطفى زياده ، طباعة : مكتبة النهضة المصرية ، القـاهرة ، ج٢ ، ص٧٠٧ .

(4) يوسف الثقفي : موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ط١ ، ص٤٦ .

(5) نادية مصطفى : العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي العصر العثماني من القوة والهيبة إلى بدايـة المـسألة الشرقية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، ج١١ ، ص١٢٣ .

(6) فيينا : هي عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومملكة المجر معاً تقع على نهر الطونـه (الـدانوب) . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢١٦ .

الأولى التي تستعصي فيها إحدى المدن على القوات العثمانية وسيتكرر هذا الموقف في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي . كما سنرى في هذه الدراسة .

وجملة القول إن الدولة العثمانية تمكنت في مدة وجيزة من فتح عدة مناطق فـي القارات الثلاثة آسيا وأوربا وأفريقيا وبذلك ملأت فراغـاً سياسـياً وحـضارياً حتـى أصبحت أشبه بمحيط يعج بالعلوم والنظم والديانات والأعراق المختلفـة [1] حتـى أن المجتمع العثماني بلغ في القرن (١٠هـ/١٦م) درجة بالغة التعقيد والتنوع . ومع ذلـك طبقت فيه القوانين والنظم بكل دقة ، مما جعل هذا القرن مثالاً يحتذى لكتاب الإصلاح في القرن (١١هـ/١٧م) . بل إن المفكر الفرنسي (بودين Bodin) أوصى مليكه في أواخر القرن (١٠هـ/١٦م) بأن يدير فرنسا كالدولة العثمانية فقد رأى أن البادشاه ليس رئيساً للدين الإسلامي فقط ، وإنما هو في الوقت نفسه رئيساً للأرثوذكس والكاثوليـك والموسويين الموجودين في إمبراطوريته وأنـه يعامـل أتبـاع هـذه الأديـان بالمسـاواة .

لقد حقق السلاطين الذين حكموا في هذه الحقبة هذا المستوى بما اتـصفوا مـن الصفات التي حض عليها الإسلام فصقلت شخصياتهم وأحسنوا لرعايـاهم واكتـسبوا إخلاصهم وولاءهم ، فاقترنت صفات الحزم والشدة إلى جانب صفات التسامح والعدل . وقد أشادت المصادر بهذه الصفات التي ظهرت من خلال كثير من الأحداث .

وإلى جانب ذلك كان هؤلاء السلاطين رعاة للعلم وبناة للحضارة بل كانوا هـم أنفسهم على جانب كبير من العلم . ولقد وصف السلطان سليمان القانوني بأنه لا يوجد أي حاكم في عصره حصل على تعليم أفضل من سليمـان القانونـي ، ولا نشأ نـشأة علمية لامعة في إدارة دولة عظمى مثله [2] .

---

(1) البحراوي : فتح العثمانيين ، ص٨٤ .

(2) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٥٤ ، ج٢ ، ص٤٦٦ .

وهكذا أصبحت اسطنبول مركزاً للحركة العلمية ، ومـوئلا للثقافـة الإسـلامية وداراً لطباعة المصحف العثماني الشريف ، ومقراً لشيوخ الإسلام [١] كما بلغت مجدها العمراني والحضاري . وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع من هذه الدراسة [٢] .

كان الغرض من هذا العرض المجمل إيضاح التكوين التـاريخي والحـضاري للدولة العثمانية ووصولها للعالمية ومحاولة لإبراز أهم عوامل قوتها قبيل الحقبة التـي نحن بصدد الحديث عنها ، وذلك ليتسنى لنا إعطاء صورة كاملة عن الآثار التي ترتبت على توقف الفتوح في مختلف نواحي الدولة .

(1) الشاذلي : المسألة ، ص٣٤ .

(2) انظر ص٣١١ من هذه الرسالة .

الفصل الأول

" حركة الفتح العثماني في القرن (١١هـ/١٧م) "

المبحث الأول : " تعثر حركة الفتح العثماني "

أ- *الحرب العثمانية النمساوية* (١٠٠٢هـ-١٠١٥هـ/١٥٩٣م -١٦٠٦م) .

ب- *فتح جزيرة كريت* (١٠٥٥هـ/١٦٤٥م) .

أ- " الحرب العثمانية النمساوية "

(١٠٠٢هـ– ١٠١٥هـ/١٥٩٣م –١٦٠٦م)

لقد أشرت إلى أن عالمية الدولة التي وصلت إليها كان نتاجاً لحركة الفتح التـي بلغت أوجها في القرن (١٠هـ/١٦م) وقد كانت مدينة (فيينا) هي الحد الأخير لهـذه الفتوحات .

ويمكننا اعتبار ارتداد العثمانيين عن فتح هذه المدينة عام (٩٣٦هـ ـ/١٥٢٩م) دليلاً كافياً على أن الدولة قد وصلت إلى مرحلة الإنهاك [١] .

وأن الجهود التي بذلتها في الوصـول إلـى العالميـة سـتبذلها فـي القـرن (١١هـ/١٧م) في الحفاظ على هذا المركز ، ومن ناحيةٍ أخرى فإن ارتداد العثمـانيين في فتح (فيينا) قـد أبرز أهمية بقاءها سوراً منيعاً في وجه التقـدم العثمـاني نحـو الغرب . وازدادت مكانة إمبراطور (النمسا) في أوروبا كحامٍ للمسيحية فـي وجـه العثمانيين الذين تصفهم البابوية (بغير المؤمنين) حيث تلتـف أوروبـا حـول هـذا الإمبراطور متى لاح الخطر العثماني في الأفق الشرقي [٢] .

ولكن في الوقت نفسه كان هناك شعورٌ قد ساد لدى بعض حكـام (أوروبـا) وخاصة (فرنسا) وهو أن للعثمانيين دوراً بالغ الأهمية في الحد من طموحات عاهـل (آل هابسبورج) في بسط إمبراطوريته على جميع أنحاء القارة ، وبدأ هـذا الـشعور يسري إلى دولٍ أخرى مثـل (انكلترا) . ومع ذلك يظل الشعـور الديني والتعصـب الصليبـي كامنـاً لـدى هـذه الـدول تستثيـره البابويـة متـى أحسـت بالخطر.

وإذا كان العثمانيون قد نجحوا في توظيف الصراع الديني الذي ساد في أوروبا في القرن (١٠هـ/١٦م) ، وفُسر نجاحهم في هذا الميدان على هذا الأساس فإن عقـد الدول الأوروبية صلحاً دينياً في عامي (٩٦٣هـ -٩٦٧هـ ـ/١٥٥٥م -١٥٥٩م) قـد خفف من حدة هذه الصراعات الدينية [٣] .

---

(1) البحراوي : فتح العثمانيون عدن ، ص٩١ .

(2) رولان موسينييه : تاريخ الحضارات العام ، ترجمة : يوسف أسعد داغر ؛ وللمزيد . م . داغر : منـشورات عويدات ، المجلد ٤ ، ص٥٥٢ .

(3) وقعت الدول الأوروبية على صلح أموجزبرج عام (٩٦٣هـ/١٥٥٥م) لوضع حد لصراع دينـي اسـتمر ٤٠ عاماً أما في عام (٩٦٧هـ/١٥٥٩م) فقد عقدت معاهدة كاتوكمبريسيس وأنهت نزاعاً دينياً وسياسياً كانت أسرتي (الهابسبورج) في النمسا و (فالوا) في فرنسا طرفين رئيسيين فيه ، ولمعرفة المزيد بهذا الشأن انظـر : =

من هنا ستكون الدولة العثمانية قد دخلت في دور جديد مـن أدوار المواجهـة الإسلاميـة الصليبية ، ستكون الإمبراطورية الرومانية المقدسة الطرف الرئيسي فـي هذا الصراع ، قادرة على تكريس أضخم الموارد للدفاع عن حدود وسط أوروبا.

ويمكننا أن نعتبر هذه الحقبة (ق١١هـ/١٧م) إحدى الحقب المهمة في تكوين ما يسمى بالمسألة الشرقية ، بمناحيها المختلفة ، ولهذا لا بد لنا من إلقاء الـضوء علـى الوضع السياسي للدولة العثمانية في الميدان الأوروبي في هذه الحقبة .

لقد ساعد الانتشار السريع للدولة العثمانية في كافة الميادين علـى تكـوين رأي عام في أوروبا مفاده أن القوة العثمانية لا يمكن أن تقهـر ، ورغـم ارتـداد الجـيش العثماني عن فيينا في عام (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) ، إلا أن التفكير في هزيمة العثمانيين لم يكن بالأمر السهل ، ولكن هذا الحدث ظل يمثل تهديداً كبيراً مما يعني أنه لابـد مـن اتخاذ إجراءٍ لوضع حد لهذا الزحف ، ولم تكن أمام البابوية أفضل من هـذه الفرصـة لتصعيد الموقف ، ولذلك بدأ البابا (بيوس الخامس) في الإعداد لحملة صليبية في عام (٩٧٨هـ/١٥٧٠م) وهو العام الذي كانت قوات السلطان (سـليم الثـاني ٩٧٤هـ - ٩٨٢هـ/١٥٦٦م-١٥٧٤م) قد استهدفت جزيرة قبرص [1] ، أما تنفيذ الحملة فقد كان في العام التالي (٩٧٩هـ/١٥٧١م) [2] وقد نجحت هذه الحملة في تحطيم القوة البحرية العثمانية في المعركة التي سميت بمعركة (ليبانتو Lepanto) [3] البحرية ، وقـد هيأ

= عبد الحميد بطريق ، وعبد العزيز نوار : التاريخ الأوروبي الحديث ، ص١٠٩ ؛ بول كولز : العثمانيون في أوروبا ، ترجمة : عبد الرحمن الشيخ ، ١٩٩٣م ، الهيئة المصرية للكتاب ، ص١٦٨ .

(1) قبرص : جزيرة تقع شرق البحر المتوسط ، وتعد الثالثة من حيث المساحة مساحتها ٩١٠٠ كلم ، وكان يطلق عليها (أماتوسيا) ، تنازل عنها العثمانيون لانجلترا عام (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) . انظر : محمد فريد وجـدي : دائرة معارف القرن العشرين ، ط٣ ، ١٩٧١م ، دار المعرفة ، بيروت ، مج٧ ، ص ص٦٠٣ ، ٦٠٩ ؛
Halil Fikret Alasya : Tarihi ve Kibris ` da Turk Eserleri , Ankara , 1977 , s.13 .

(2) أعد هذه الحملة البابا (بيوس الخامس) ، وقد وصف (المسيوفلامان) هذه الحملة بالتدبير الوحيد الذي وقف تقدم الإسلام . ولمعرفة المزيد عن هذه الحملة . انظر : لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة : عجاج نويهض ، تعليق : شكيب أرسلان ، ط٤ ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م ، دار الفكر للطباعة والنشر ، المجلد ٢ ، ج٣ ، ص ص٢٣٧ ، ٢٣٩ .

(3) ليبانتو : هي (ليبانت Lepante) ويسميها الأتراك (إينه بختي Inebahti) وتقع على جانب خليج ليبانـت الذي يصل بين خليج (باتراس Patras) وخليج (كورنثه Korinth) في بلاد اليونان . انظر :=

هذا النجاح والانتصار على العثمانيين مناخـاً جديداً تجاه العثمانيين فـي " أوروبا " ، ورغم أن الأسطول العثماني قد جهز في العام التالي وأجبر التحالف المـسيحي علـى الانسحاب ، وكذلك حقق العثمانيون انتصاراً على الأسبان في الشمال الإفريقي [(١)] عام (٩٨٢هـ/١٥٧٤م) [(٢)] ، إلا أن هزيمة (ليبانتو Lepanto) عدت أولى شواهد الضعف والوهن الذي بدأ يتسرب إلى جسم الدولة ، كما عدت أولى مؤشرات تعثر حركة الفتح (في أواخر ق١٠هـ/١٦م) . أما في القرن (١١هـ/١٧م) فيمكننا اعتبار الحـروب النمساوية العثمانية منذ (١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) وحتى عام (١٠١٥هـ/١٦٠٦م) وكـذلك فتح جزيرة (كريت Guirid) [(٣)] منـذ عـام (١٠٥٥هـ ـ/١٦٤٥م) وحتـى عـام (١٠٨٠هـ/١٦٦٩م) نموذجين لهذا التعثر باعتبار طول المدة التي اسـتغرقها هـذان الحدثان فضلاً عما عانته الدولة من صعوبات فيهما .

ولكن قبل الخوض في الحديث عن هذين الحديثين لابد من الإشارة إلى الظروف التي كانت الدولة تمر بها حتى يتسنى لنا فهم عوامل وأسباب تعثر الفتح .

فإذا نظرنا إلى وضع الدولة وفقاً لامتدادها الشاسع ، فإنه يضاف إلـى عـبء الميدان الأوروبي الغربي ميادين أخرى يتطلب تأمينها ضد أعداء الدولـة أكثـر ممـا يتطلب إضافة مساحات جديدة إليها .

حيث ظهرت مشكلة الشمال (شمال البحر الأسود) المتمثلة فـي (بولونيـا) كمسألة مهمة لا يمكن إغفال أهميتها في التصدي لعدوٍ جديد وهو (قيصرية روسيا) .

Ismail Hami Danismend : izahli osmanli Tarihi Kronolojisi , Istanbul , cild . 1 , s.496. =

(1) ولهذا رأى فولتير (فيلسوف فرنسي) أن الأتراك هم الذين انتصروا ، وأن المسيحيين – كمـا يـرى – لـم يحققوا أي نتيجة انظر : يلمازأوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٧٥ .

(2) روبيرمانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٢٣٢ ؛ أكمل الدين أوغلـي : الدولـة العثمانيـة ، ج١ ، ص٤٥.

(3) (كريت Gurid) : جزيرة في البحر المتوسط ، كثيرة الجبال ذات طبيعة قاسية وأرض وعرة خضعت قديماً لحكم الرومان ، ثم اليونان ، ثم العرب المسلمين ، ثم الجنويين ثم البنادقة ، وأخيراً خـضعت للأتـراك عـام ١٦٦٩م . وضمت إلى الحكم اليوناني عام ١٩١٢م . انظر : موستراس : المعجم ، ص ص٤٢١ ، ٤٢٢ .

ومن جهة أخرى فإن مكانة الدولة العثمانية كحصن للإسلام في وجه الـصليبيين تحـتم عليها تلبية نداءات المسلمين في الميدان الجنوبي (الهند وجنوب شرق آسيا) [1] .

هذا فضلاً عن المناوشات التي تحدث من الحين لآخر على الحـدود العثمانيـة الصفوية والتي غالباً ما تكون جزءاً من المخططات الصليبية ، فقد كانت البابوية تعمد إلى الاستعانة بشاه الصفويين لإجلاء العثمانيين وإقامة حرباً صليبية ، وهذا ما سيحدث في الحرب العثمانية النمساوية .

إذن ، فقد كان على الدولة العثمانية أن تخوض حروباً في ميادين مختلفـة فـي وقت واحد ، وذلك لم يكن غريباً على الدولة في عصرها الأول (عصر القوة) ولكن في القرن (١١هـ/١٧م) ، الذي نحن بصدد الحديث عنه كان ذلك من الصعوبة بمكان نظراً للظروف المحيطة بالدولة ، لهذا كان عليها وضع أولويات لهذه الميادين ، وهـذا ما حاول العثمانيون فعله . فقد رأى الصدر الأعظم " صـوقللي محمـد باشـا " [2] أن الحرب على الجبهة النمساوية لم تعد ضرورية بعد أن هدأت هذه الجبهة نسبياً منذ عام (٩٧٤هـ/١٥٦٦م) وأنه من الأفضل أن تركز الدولة اهتمامها لدعم نفوذها في (شمال البحر الأسود) وذلك للوقوف في وجه (قيصرية روسيا) . ولهذا فكر هذا الوزير في شق قناة نهرية بين نهري (الدون) [3] و (الفولجـا) [4] للوصـول إلـى (بحـ ـر

---

(1) كانت ملكية آتشيه الإسلامية في سومطره قـد اسـتنجدت بالعثمـانيين ضـد الغـزو البرتغـالي فـي عـام ٩٧٦هـ/١٥٦٨م ، وكذلك استنجد بهم المسلمون والهندوس في الهند . ولمعرفة تفاصيل ذلك انظـر : يلمـاز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٦٥ .

(2) صوقللي : هو الاسم التركي لكلمة (صقولوويتش) وقد ولد عام (٩١١هـ/١٥٠٥م) في قصبة (صقول) في البوسنة ، تولى الوزارة العظمى عام (٩٧٢هـ/١٥٦٥م) ، تذكر الروايات أنه أخذ من قصبته في صـغره ثـم أسلم ودخل ضمن الدوشرمة وتولى عدة مناصب حتى تولى الوزارة العظمى . انظر : محمد حرب : البوسـنة والهرسك ، ص٦٥ .

(3) هو نهر الطونه وبالألمانية (دوناو Danau) وبالفرنسية (دانوب) وهو ثاني أنهار أوروبا بعد نهر الفولجا ، يبلغ طوله ٢٨٥٠ كيلومتر ، وينبع من ألمانيا الغربية ويمر بتشيكوسلوفاكيا والمجـر ويوغـسلافيا ورومانيـا وبلغاريا ويصب في البحر الأسود . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص١١٦ ؛
Ismail Hmi : izahli , c.1 , s.496 .

(4) الفولجا : أطول أنهار أوروبا طوله ٣٦٨٤ كم ويجري في القسم الأدنى من روسيا حالياً ، وينبع مـن تـلال (فالداي) وينحني شرقاً من (جوركي) إلى قازان ، ثم جنوباً إلى (كويبيشيف) و (تالينجراد) ويكون دلتـا=

الخزر) ، والحيلولة دون قيام تحالف (روسي – صفوي) ضد العثمانيين . ولكن هذا المشروع لم ينفذ ، فقد تصدى القيصر الروسي (إيفـان الرابـع ٩٤٠هـ ـ/١٥٣٣م-٩٩٢هـ ـ/١٥٨٤م) للعثمانيين في تلك المنطقة . ومن جهـةٍ أخـرى تعـرض هـذا المشروع للانتقاد من قبل بعض وزراء الدولة [(١)] . الذين لم يضعوا نمو القوة الروسية نصب أعينهم . وظل احتمال قيام التحالف (الروسي الصفوي) خطراً يهـدد تجـارة الشمال وطرق الحج في تلك المنطقة ، وظل العثمانيون يعتمدون على (خان القـرم) للتصدي لهذه المشكلة .

ولكن تجدر الإشارة إلى أن عجز العثمانيين في اتخاذ الإجراءات المناسبة حيال مثل هذه الأوضاع كان نسبياً . فإذا كانوا لم يتصدوا للانتشار الروسي فـي الـشرق ، فإنهم استطاعوا منذ فترة مبكرة أن يدعموا نفوذهم في (ملكية بولونيا) التـي كانـت محط أنظار الدول الأوروبية نظراً لما تمثله من أهمية استراتيجية لهذه الـدول علـى اختلاف توجهاتها ومصالحها [(٢)] ، فبالنسبة للعثمانيين تمثل (بولونيا) منطقـة مهمـة لحماية ولايتها في (الأفلاق Eflak) [(٣)] و (البغدان Boghdan) [(٤)] وهما منطقتـان مهمتان سياسياً في الوقوف أمام نشاط (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) و (قيصرية روسيا) في مناطق الشمال التي كانت تمثل أهمية لدى العثمانيين من الناحية التجاريـة والاستراتيجية ، كما أن هاتين الولايتين والسهول الواقعة في شمال البحر الأسود كانت بمثابة مستودع لتموين عاصمة الدولة العثمانية . ولذلك عملت الدولة على تدعيم نفوذها السياسي في هذه المنطقة معتمدة على تنصيب ملكٍ موالٍ لها .

=واسعة عند (ستراخان) بالقرب من مصبه في بحر (قزوين) . انظـر : الموسـوعة العربيـة الميـسرة ، إشراف محمد شفيق غربال ، دار الشعب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ج١ ، ص١٣٣٧ .

(1) اينالجيك : تاريخ الدولة ، ص ص٦٤-٦٥ ؛ أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٤٤ .

(2) ستودارد : حاضر ، المجلد ٢ ، ج٣ ، ص٢٣٥ .

(3) (الأفلاق Eflak) : هي ولاشيا ، ويعرفها الأتراك بالفلاخ وكان أول من أطلق التسمية الشعوب الجرمانيـة على السكان اللاتين ثم استخدمها العثمانيون لدلالة على الرومان البلغانيين ورومان شمال الـدانوب . انظـر : موستراس : المعجم ، ص٧٨ .

(4) (البغدان Boghdan) : وتسمى ملدافيا : منطقة جغرافية وتاريخية في رومانية ، تقع أقصى شـمال شـرق البلاد ، عاصمتها (إياشي) . انظر : موستراس : المعجم ، ص١٦٦ .

وتمت الموافقة علـى انتخـاب (بـاثوري Bathory) أميـر (ترانـسلفانيا Transilvanya) ملكاً على (بولونيا) لضمان بقائه إلى جانـب العثمانيين في وجه (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) ، والأهم من ذلك أن بقاء (بولونيا) كملكية قوية كان يوفر حماية للعثمانيين من الزحف الروسي نحو (البحر الأسود) ، ولكـن هـذه الأهمية ما ظهرت بوضوح إلا في القرن (١٢هـ/١٨م) .

أما بالنسبة (للإمبراطورية الرومانية المقدسة) فإن (بولونيا) كانـت سـلاحاً يمكن أن تستخدمه ضد (قيصرية روسيا) ، وضد الدولة العثمانيـة إذا مـا أتيحـت الفرصة [١] .

ولقد كان السبق للسيطرة على هذه المنطقة للدولة العثمانية ، وهو أمر لا ينبغي السكوت عنه في نظر البابوية التي رأت أن أفضل وسيلة لضرب القوة العثمانية هـي تشتيت جهدها بإثارة المشكلات المختلفة في وقت واحد . ويتضح ذلك من خلال الخطط التي وضعتها البابوية منذ عام (٩٩٦هـ/١٥٨٧م) وحتى عام (١٠٠٩هـ/١٦٠٠م) .

ولعل أشهر هذه الخطط هي خطة (البابا كليمونس الثامن) الذي بدأ منذ عـام (١٠٠١هـ/١٥٩٢م) ودعا فيه عدداً كبيراً من المـسيحيين داخـل الدولـة العثمانيـة للانضمام إلى حملته الصليبية التي سيجردها ضد العثمانيين ، كمـا شـملت دعوتـه (القوزاق [٢] ، الأفلاق ، البغدان ، والبلغار ، الصفويين والروس) وكان الجهد الأكبر فـي هذه الدعوة موجه إلى أمير (ترانسلفانيا Transilvanya) (ستيفين بوسـكاي Istvan Bocskay) لتمسكه بتبعية العثمانيين ، وكثيراً ما كان البابا يوبخ البولـونيين لقعودهم عن حرب العثمانيين .

---

(1) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨م-١٨٣٩م ، ط١ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، دار التراث ، ص٦٢ ؛ أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٤٦ .

(2) القوزاق : جند فلاحون جاءوا من مناطق متعددة من روسيا ، وكانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي مقابل تأدية الخدمة العسكرية . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج ٢ ، ص١٤٠٧ .

وهكذا كانت هذه المؤامرات المدبرة من قبل البابوية عاملاً مهماً مـن عوامـل عرقلة حركة الفتح ، وبالتالي توقفت المبادرة للقيام بفتوحات جديدة . حيث ستقتـصر العمليات العسكرية العثمانية على الحروب الدفاعية في معظمها .

وإذا قارنا هذه الأوضاع بحقبة سابقة ليـست ببعيـدة فإننـا نلاحـظ أن هـذه المؤامرات لم تكن مستجدة في العلاقات العثمانية الأوروبية ، ولكن الاخـتلاف يبـدو واضحاً في الأحوال الداخلية للدولة . فقد بدت مؤشرات عجز القادة عن إتباع سياسـة فعالة كأسلافهم وهو أمر قد رصده أعداء الدولة ، حتى ذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأن الانهيار الداخلي للعثمانيين قد بات وشيكاً [1] .

وقد انعكس الخلل الذي أصاب الدولة داخلياً على وضـعها العـسكري وعلـى سياستها الخارجية ، فمن ناحية لم تعد الدولة العثمانية قادرة على خوض تلك الحروب الكبرى التي تمتد لفترة طويلة . ومن ناحية أخرى لم يكن تقـدير القـادة العثمـانيين للوضع السياسي والعسكري لدولتهم في هذه الحقبة (أواخر ق١٠هـ ـ/١٦م وأوائـل ق١١هـ/١٧م) تقديراً دقيقاً . وما دخول العثمانيين في أتون الحرب النمساوية الطويلة (١٠٠٢هـ-١٠١٥هـ/١٥٩٣م-١٦٠٦م) إلا دليلاً على ذلك .

كانت النمسا متخوفة من خوض حرب ضد العثمانيين ، فوقعت صلحاً مع الدولة العثمانية في عام (٩٩٩هـ/١٥٩٠م) . ولكن المناوشات كانت مستمرة بين الحاميـات العثمانية والحاميات النمساوية على طول الحدود الألبانيـة وفـي الحـدود الـصربية والكرواتيـة . وعادة مـا يعتبرها الطرفـان أمراً اعتيادياً ، ولما كان الصدر الأعظم (سنان باشا) [2] يرغب في إعلان الحرب على (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) ،

---

(1) ستودارد : حاضر العالم ، المجلد ، ٢ ، ج٣ ، ص٢٤٨ .

(2) (سنان باشا) اسمه في السابق : (سيبون سيكالا Seipion sicala) ، طلياني الأصـل وقـع فـي أسـر العثمانيين ثم أسلم وصار من أعظم رجال الدولة بينما ظل أخوه ووالدته على المسيحية ولـي عـدة مناصـب وولايات في الدولة وتولى الصدارة أكثر من مرة توفي عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م . انظر : محمد الأمين المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، تقديم وتعليق : ليلى الصالح ، ١٩٨٣م ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ج١ ، ص ص٢٣٩ ، ٢٤٤ ؛ ولمعرفة تفاصيل دعوة البابا لسنان باشا إلى التمرد . انظر : ستودارد : حاضر ، المجلد ٢ ، ج٣ ، ص٢٤٥ .

على الرغم من معارضة المفتي وبعض الوزراء ، فقد استغل هذه الأحداث في عـام (١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) لإعلان الحـرب علـى هـذه الإمبراطوريـة [1] . واسـتطاع الإمبراطور (رودلف الثاني ٩٨٤هـ-١٠٢١هـ/١٥٧٦م-١٦١٢م) بالتعـاون مـع البابوية أن يصور هذه الحرب على أنها صراع إسلامي مسيحي . وبـذلك اسـتقطب جميع المتطوعين من بروتستانت وكاثوليك للدخول في هذه الحرب . كما نجح البابا في إيجاد حلفاء له داخل الدولة العثمانية ، بل إن محاولات البابا في إيجاد هؤلاء الحلفـاء نالت من الصدر الأعظم (سنان باشا) نفسه حيث عرض عليه العودة إلى المـسيحية والثورة على العثمانيين [2] ، وفي ذلك الوقت لم يكن للدولة العثمانية أي حليف يـدعم موقفها السياسي في الميدان الأوروبي ، وعلى الرغم من ظهور (فرنـسا) بمظهـر الدولة الصديقة والحليفة للعثمانيين إلا أن سياستها المزدوجة والمتذبذبة جعلت الاعتماد على التحالف معها أمراً غير ذي فائدة . أما (انكلترا) والتي بدأت بالدخول في تحالفٍ مع العثمانيين في هذه الحقبة [3] ، فإن فائدة هذا التحالف كانت قاصرة علـى المجـال البحري كما سيتضح .

ونتيجة لمساعي (البابا) تزامن إعلان الحرب مع تمـرد (ميخائيـل أبـافي Mihai Abfi) أمير (الأفلاق) في عام (١٠٠٣هـ/١٥٩٤م) ، وانضم إليـه أميـر (البغدان) وكذلك أمير (ترانسلفانيا) (ستيفن بوسكاي) ولما كان لهاتين الـولايتين من أهمية في توجيه سياسة الدولة العثمانية نحو الدول الأوروبية ، فقد كان انضمامهما إلى التحالف الصليبي بمثابة طعنة من الخلف تجاه الدولة العثمانية ، وبانضمام (مملكة بولونيا) و (قيصرية روسيا) و (الشاه الصفوي) و (القوزاق) إلى هذا التحـالف

---

(1) يذكر المحامي أن (سنان باشا) أراد التخلص من الشغب الذي تحدثه الإنكشارية ولهـذا أوعـز إلـى والـي البوسنة بالتوغل في أرض المجر التابعة للنمسا إعلاناً للحرب . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٦٤ .

(2) دعا البابا كليمونس الثامن أساقفة الإسكندرية ولبنان للانضمام إلى حملته وبذلك شتت جهـد العثمـانيين بـين الحـرب الخارجية وإخضاع التمردات الداخلية إلا أن هذه الخطة لم تنجح نجاحاً تامـاً . انظـر : سـتودارد : حاضر ، المجلد ٢ ، ج٣ ، ص ص٢٤٣ ، ٢٤٥ .

(3) أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٢٣ ، بخصوص التحالف مع انكلترا انظر ص٢٢٨ من هذه الرسالة.

أحيط العثمانيون من معظم الجوانب بجيـوش أعدائهم ، وقطعـت الإمدادات والمـؤن عن القوات العثمانية في شمال (كرواتيا [(١)]) [(٢)] .

ونتيجة لهذه الظروف توالت الهزائم على الجيش العثماني وخاصة في المرحلـة الأولى من هذه الحرب ، وتراجعت هذه القوات في (سيساك Sissek) [(٣)] فـي عـام (١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) ، وغرقت أعداد كبيرة منها في نهر (كولبا Kulpa) [(٤)] واحتل النمساويون قلعة (جران Gran) [(٥)] عام (١٠٠٤هـ ـ/١٥٩٥م) واخترقـوا الخـط الدفاعي للعثمانيين عن نهر (الدون) وهددوا (البوسنة) . ولم تستطع قوات الـصدر الأعظم (سنان باشا) الصمود أمام قوات (ميخائيل أبـافي Mihai Abfi) . وفقـدت الدولة أجزاء من أراضيها في إمارتي (الأفلاق Eflek) و (البغدان Boghdan) و (ترانسلفانيا Transilvany) وكذلك قلعـة (استراكون Estergon) [(٦)] الحصينـة،

---

(1) كرواتيا : إحـدى دول شرقـي أوروبـا تتألـف مـن إقليميـن همـا دلماشيـا وسهـول بنونيـا ، سكنتهـا قبائل سلافية في القرن السابع قبل الميلاد . ضمت إلى الدولة العثمانية سنة ٩٣٣هـ ـ/١٥٢٦م وبعـد هزيمة الأتراك في الحرب العالمية الأولى ، اتحدت كرواتيا مع البوسـنة ، والجبـل الأسـود ، والـصرب ، وسلوفينيا في دولة واحدة سميت بيوغسلافيا عام ١٢٤٨هـ/١٩٢٩م . انظر : الموسوعة العربية العالمية ج١ ، ص٢٢٤ .

(2) Stan Ford Shaw : History of The Ottoman Empire and Modern Turkkey , Istanbul , 1981 , cild . 1 , p . 254 , 255 .

(3) (سيساك Sissek) وبالتركية تلفظ : (شيشكا) تقع في الجنوب الشرقي من زغرب . انظـر : أوزتونـا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٢٢ .

(4) (نهركولبا Kulpa) : نهر يصب في نهر صاوا في كرواتيا ويرد في المصادر العثمانية في بعض الأحيـان باسم نهر (كوبه) . انظر :
Ismail Hami : Izahli osmanli – c.4 – s.532 .

(5) (جران Gran) : مدينة على نهر الدانوب إلى الشرق من مدينة فينا . انظر : المحامي : تـاريخ الدولـة ، ص٢١٩ .

(6) (استراكون Estergon) : قلعـة مهمـة تقـع علـى بعـد ٣٠ كـم شمـال غربـي بـودين ، علـى الساحل الجنوبي من نهر (الدون) ، فتحت عام ٩٥٠هـ/١٥٤٣م . انظر : أوزتونا : تـاريخ الدولـة ، ج١ ، ص٢٨٢ .

وتزامنت هذه الأحداث مع هجوم (قوزاق الدنيبر) [1] على الحدود البريـة والبحريـة للدولة العثمانية [2] .

ورغم أن العثمانيين عوضوا بعض هذه الخسائر في الحملة التي جردوها علـى (الأفلاق) في عام (١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) إلا أن الحرب ظلت تسير إلى الأسوأ مما دفع السلطان (محمد الثالث ١٠٠٤هـ-١٠١٢هـ/١٥٩٥م -١٦٠٢م) إلـى الخـروج بنفسه ، الأمر الذي لم يحدث منذ عهد (القانوني) ، وقد كان لخروجه أثر كبيرٌ فـي انتظام الجيش العثماني وتحقيق عدة انتصـارات ، أهمهـا ذلك الانتصار الذي أسـفر عن سقوط قلعة (إكري Egri) [3] التي كان الجيـش النمسـاوي يستخدمهـا كنقطة اتصـال بإمارة (ترانسلفانيا Translvanya) . وكذلك حقق الجيش العثماني انتصاراً آخر في المعركة التي سـميت بمعركـة (خـاج أووه Hacova) [4] علـى جـيش الأرشيدوق النمساوي (ماكسمليان Maximilian) وتهـاوت القلاع في (المجر) و (الأفلاق) بيد العثمانيين في السنوات العشر الأخيرة من هذه الحرب ، وخاصة فـي

---

(1) الدنيبر : نهر في بيلوروسيا ، وأوكرانيا . يبلغ طوله ٢٥٩٢ كم٢ ، ينبع من تلال فلداي ، ويجري جنوباً حتى يصب في البحر الأسود . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٨٠٦ ؛ شمس الدين سامي : قـاموس الأعلام ، ١٣٠٦هـ ، استانبول ، ج٣ ، ص٢١٦٥ .

(2) علي سلطان : تاريخ الدولة العثمانية ، منشورات مكتبة طرابلس العلمية ، ص٢٠٧ ؛ بـسام العـسلي : فـن الحرب الإسلامي في العهد العثماني ، دار الفكر للطباعة والنشر ، المجلـد ٥ ، ص ص١٦٣ ، ١٦٤ ؛ أحمـد دحلان : الفتوحات ، ج٢ ، ص١٨٩ ؛ اينالجك : تاريخ الدولة ، ص٦٩ .

(3) إكري وتسمى بالمجرية (Eger) : وبالألمانية (Erlay) وهي قلعة صغيرة في بلاد المجر واقعة في الـشمال الشرقي لمدينة بود على مسافة ١٨٠كم ، اشتهرت بحصانتها فتحت عام ١٠٠٥هـ ـ/١٥٩٦م ، وبعـد صـلح سيتفاتوروك – الذي سنتطرق إليه – أصبحت تتبع النمسا تارة ، وترانسلفانيا تارة أخرى . انظر : المحـامي ، ص٢٤١ .

(4) معركة (خاج أووه) هي معركة دارت بين الجيش العثماني الذي كان بقيادة السلطان (محمد الثالث) وبـين القوات النمساوية والمجرية التي كانت بقيادة الأرشيدوق (ماكسمليان) عام (١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) وكان النصر فيهـا حليفـاً للعثمانيين . انظر : اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٤٧ ؛ أوزتونا : تاريخ الدولـة ، ج١ ، ص ص٤٣٨ ، ٤٣٩ .

مناطـق (يانيـق قلعـة Yanik Kala) [١] ، و (وارديـن Varadin) [٢] و (قانيجة Kanije) [٣] و (استولني بلغراد Istolni-Beilghrad) [٤] ، و (بـودين Budin) [٥] [٦] .

كانت هذه الانتصارات العثمانية دليلاً على فشل الحملة الصليبية [٧] التي دعـا إليها البابا (كليمنس الثامن) من عدة وجوه ، فسرعان ما ظهر تنازع الدول المتحالفة بسبب حرص كل دولة على مصالحها ، فقد كانت كل دولة مـن الـدول الأوروبيـة تحرص على أن تكون لها أكبر حصة من الأراضي التي سيتم تقسيمها فيمـا لـو تـم الانتصار على الدولة العثمانية . وتجدر الإشارة إلى أن حرص كل مـن (انجلترا) و (فرنسا) على مكاسبهما داخل الدولة العثمانية ، جعل سفيري الدولتين يخرجـان مـع السلطان (محمد الثالث) في حملة (إكري Egri) مع أن جيوش الحملـة الـصليبية كانت تضم جنوداً من الدولتين [٨] . وأخيراً فقد انفرط عقد هذه الحملة تـدريجياً علـى الرغم من تكرر نداءات البابا لاستمرارها .

وبعد هزيمة جيش (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) في (قانيجة Kanije) بدأ الإمبراطور بالسعي في طلب الصلح مما أحرج موقف الإمارات المجرية المتمردة وخاصة الأمير (ميخائيل أبافي Mihai Abafe) ولذلك سارع هو الآخر بالعودة إلى

---

(1) يانيق وتسمى بالألمانية Raab وبالمجرية Gyor : تقع على مسافة ١١٠ كلم شمال غرب بودين وعلى مسافة ١٠٠ كلم جنوب شرق فيينا وعلى مسافة ٦٠كلم جنوب شرق برتسلافا كذلك . وهي قلعة محكمة جداً فتحت في عهد (القانوني) انظر : أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٢٤ .

(2) واردين : بالألمانية petewardein تقع في الشمال الغربي من يوغسلافيا على خط مستقيم شـمال بلغـراد . المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٩٢ ؛
Ismail Hami : izahli osmanli , cild .1 , s.496 .

(3) (قانيجة Kanje) : تقع في شمال يوغسلافيا ، إلى الجنوب من بحيرة بالاتون . المحامي : تاريخ الدولـة ، ص٢٧٣ .

(4) (استولني بلغراد Istolni - Belghrad) : لواء مهم يقع على بعد ٥٠كم جنوب غرب بودين . انظر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٥٨ .

(5) سبقت الإشارة إلى موقع بودين تحت مسمى بودا في التمهيد .

(6) فريد بك : تاريخ الدولة ، ص٢٦٧ ؛ أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج ١ ، ص٤٤٢ .

(7) shaw : History – cild – 1 – p.56 .

(8) ستودارد : حاضر العالم ، المجلد ٢ ، ج٣ ، ص٢٥٩ .

تبعية العثمانيين ، وقد لعب الخلاف المذهبي بين أشراف المجر و (ترانسلفانيا) وبين النمساويين دوره في تخلي المجر عن الحرب إلى جانب الإمبراطور وعودتهـم إلـى الحمايـة العثمانية ، ولهذا جاء اعتراف العثمانيين بـ(استفن بوسكاي) أميراً علـى (ترانسلفانيا) وملكاً على (المجر) تحت الحماية العثمانية فـي عـام (١٠١٤هـ ـ/ ١٦٠٥م) ضربـة قوية تجاه (النمسا) التي أخذت تلح في طلب الصلح بعد أن فشلت في إعادة (بوسكاي) إلى صفها .

أما العثمانيون فلم يكن بمقدورهم استغلال الموقف والتقدم صـوب الأراضـي النمساوية ، لأن الخطر الصفوي كان يتهددهم في الشرق ، فقد كانت قـوات (الـشاه عباس) [1] تتقدم منذ عام (١٠٠١هـ/١٥٩٢م) – بعد الاتفـاق مـع البابـا – نحـو (أذربيجان) [2] و (القوقاز) [3] ، فضلاً عن أن التمردات الداخلية كانت تجتاح مركـز الدولة [4] .

وإذا نظرنا إلى نتائج هذه الحروب ، فإننا نلاحظ إن الانتصارات التـي حققهـا العثمانيون لا تعد ذات قيمة استراتيجية أو سياسية مقارنة بحروب الدولة فـي عـصر القوة . كما أن هذه الحروب كشفت عما تعانيه الدولة من نقص في الكفاءات العسكرية والتي كان لها دور كبير في بناء عظمة الدولة . هذا فضلاً عن أن القادة العسكريين لم يحسنوا استغلال الفرص التي أتيحت لهم بعد انتصاري (أكـري Egri) و (قانيجـة Kanije) في التقدم وإحراز المزيد من الفتوح ، ويدل تكـرر هـذا الموقـف علـى

(1) الشاه عباس الأول : (٩٦٥هـ– ١٠٣٨هـ/١٥٥٧م -١٦٢٨م) ويلقب بعباس الأكبر من الأسـرة الـصفوية المالكة في إيران ، ضرب بيد من حديد على غارات الأوزبك ، واستولى على أراضي من الدولـة العثمانيـة ، استولى على هرمز بمساعدة الإنكليز عام ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م ، للمزيد من المعلومات انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج٢ ، ص١١٧٥ .

(2) أذربيجان : مدينة في أرمينيا ، في الاتحاد السوفيتي – سابقاً – ويسمونها (كيـروف آبـاد kirovabad) . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص١٧٣ .

(3) القوقاز : مجموعة سلاسل جبلية بين أوروبا وآسيا تمتد لمسافة ١٢٠٦كلم من البحر الأسود حتى بحر قزوين . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج٢ ، ص١٤٠٨ .

(4) أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٤١ ؛ المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٧٢ ؛ روبيـر مـانتران : تـاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٣٤ ؛ علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢٠٨ .

المنعطف الخطير الذي ولجته السياسة العثمانية وهي التفكير في الحفاظ على ما تملكه الدولة بقدر الإمكان كما يدل على أن روح المبادرة والجهاد قد بدأت بالتراخي . ولـم تسفر هذه الحروب عن انتصارٍ حاسم لأي من الطرفين ولم يجنيا منها سوى الإنهـاك العسكري والاقتصادي .

إذن فقد كان الطرفان في حاجة إلى عقد معاهدة صلح . وفي الوقت الذي كـان التفاوض قد بدأ بين الطرفين ، كانت الجيوش العثمانية تحاصـر قلعـة (اسـتراكون Estragon) . وهو ما أقلق إمبراطور (النمسا) ، وقد أدى تمسك كل من الطـرفين العثماني والنمساوي بمطالبه إلى صعوبة الوصول إلى نتائج ، فقـد كـان العثمـانيون مصرون على استعادة القلعة ، ولم يكن مبعوثي (النمسا) موافقين على ذلك ، وكـان هذان الأخيران مصرين على تنازل الدولة العثمانية عن الجزية السنوية التـي تـدفعها (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) وعلى أن تكون المعاهدة دائمة أو على الأقل أن تمتد لأقصى فترة ممكنة ، كما أصرا على إبعاد (ستيفن بوسكاي Isteven Boskay) عن الدخول ضمن هذه المعاهدة ، ولكن مجيئ الأنباء بسقوط (استراكون Estragon) بيد العثمانيين وضع حداً للمفاوضات ، وتم الاتفاق بين الطرفين على بنود المعاهدة التـي عرفت باسم (ستيفاتوروك Stivatorok) [(١)] وذلك في عـام (١٠١٥هـ ـ/١٦٠٦م) وصدق عليها نواب (النمسا) و (المجر) في (برسـبورج Persburg) [(٢)] عـام (١٠١٧هـ/١٦٠٨م) [(٣)] .

---

(1) (ستيفاتوردك svitvatorok) : نسبة إلى قصبة تركية واقعة بين استراكون وكومورون بالقرب من شـمال غربي بودين ، ويطلق عليها العثمانيون (جتوا) . انظر :
Ismail Hami : izahli osmanli : cild . 3 , s.975 .
للإطلاع على بنود هذه المعاهدة انظر المعاهدة رقم ٢ في الملحق الخاص بالمعاهدات .

(2) (برسبورج Persburg) : بلدة مجرية قائمة على نهر الدانوب على الحدود المجرية النمساوية إلى الـشرق من فيينا وهي مركز قديم في المجر . انظر :
Ismail Hami : izahli , cild . 3 , s.478 .

(3) بشأن هذه المفاوضات انظر :=
Omer faruk yilmaz : Belgelerle osmanli Tarihi , osmanli Yayinevi , Istanbul , cild .2 , s. = 269 – 270 .

كان من الممكن أن يستغل العثمانيون الانتصارات التي حققتها قواتهم في تدعيم موقفهم في هذه المعاهدة ، ولكن الوقت لم يكن متاحاً لذلك . ولهذا عجل المفوضون العثمانيون في التوقيع على هذه المعاهدة التي اعتبرت فاتحة عهد الضعف في التاريخ العثماني .

وقد أخذت هذه المعاهدة مكانتها المهمة في التاريخ باعتبارها وثيقة رسمية تبين تاريخ توقف العثمانيين وفتوحاتهم تجاه الغرب (1) . ورغم أنها أنهت حرباً طويلة استمرت لمدة ثلاثة عشر عاماً من (١٠٠٢هـ وحتى ١٠١٥هـ - الموافق ١٥٩٣م وحتى ١٦٠٦م) إلا أن التنازلات الخطيرة التي قدمها العثمانيون على مختلف المستويات جعلتها تمثل بداية الانهيار لمكانة العثمانيين وقوتهم في (أوروبا) .

وكان تنازل العثمانيين عن الجزية السنوية التي تسمى بـ (الضريبة الافتخارية) والتي تقدر بثلاثين ألف (دوقة) (2) نمساوية كسباً كبيراً لإمبراطور النمسا ، الذي كان يرى أن قيامه بدفع ضريبة سنوية يقلل من شأنه أمام السلطان العثماني وكذلك أمام ملوك (أوروبا) .

ومن ناحية أخرى فإن هذه المعاهدة أحدثت انقلاباً كبيراً في مركز الدولة وعلاقاتها بأعدائها ، حيث أقر العثمانيون بقيام العلاقات بينهم وبين دول أوروبا على قاعدة من المساواة ، ولأول مرة يجلس مندوبون عثمانيون إلى جوار مفاوضين أوروبيين لأن الدولة لم تكن تعترف لتلك الدول بالاستقلال وكانت تعتبر طلب التفاوض من تلك الدول على أنه التجاء إلى عطف السلطان ، وأن كل ما يقوله سفير العدو رجاء وتضرعاً والتماساً (3) ، كما أن مفوضي (النمسا) وقعوا على المعاهدة بعد تبين مضمونها خلافاً لما كان يحدث من قبل ، حيث كانوا مضطرين للتوقيع على معاهدات تكتب باللغة التركية من غير أن يؤذن لهم في تبين فحواها ، وهي إشارة إلى أن

(1) فائقة بحري : أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص١٠٥ .

(2) الدوقة : تعني النقد الذهبي المضروب في البندقية قديماً وهي محرفة لكلمة دوكاتو Ducato الإيطالية وقد كانت تزن بين ١٠-١٢ فرنك . انظر : سهيل صابان : المعجم ، ص١١٥ .

(3) فائقة بحري : أثر الدولة العثمانية ، ص ص١٠٤ ، ١٠٥ .

العثمانيين قد تخلوا عن تقاليدهم السابقة واضطروا إلى مراعاة التقاليـد المتبعـة بـين الـدول الأوروبيـة في تلك الفتـرة . وبعد أن كانـت المعاهدة المحـررة توقـع في (اسطنبول) من قبل السلطان العثماني ، أصبحت توقع من كلا الطرفين فـي منطقـة محايدة [1] .

ولكن البند الذي يدل على نقطة التحول في العلاقـات الدبلوماسـية العثمانيـة الأوروبية هو ذلك البند الذي يعترف فيه السلطان العثماني (بالإمبراطور النمـساوي) إمبراطوراً (لألمانيا) ، وكذلك نصت إحدى البنود على حصول نوع من المساواة بين الإمبراطور والسلطان في (البروتوكولات) ، ويعد هذان البندان مؤشرين على تخلي العثمانيين عن المركز العالمي الذي تمسك به كل من (الفاتح) و (القـانوني) [2] ، وقد حاول السلطان الحفاظ على هذه المنزلة بوضع بندٍ مفاده أن يكون السلطان بمكـان الأب والإمبراطور بمكان الابن . وهنا نرى الفرق واضحاً بين هذه المعاهـدة وبـين الخطابات المتبادلة بين سلاطين العصر الأول وملوك (أوروبا) ، فقـد جـرت تلـك الخطابات الكثير من العبارات التي تدل على سمو منزلة السلطان الذي رمز إلى نفسه بـ(ملجأ العالم ومأواه) كما كانت تشير إلى تحقير ملوك (أوروبا) بصفتهم كفـرة ، فعلى سبيل المثال كانت الصيغة المستخدمة في الرسائل الموجهة إلـى (إمبراطـور) النمسا كما يلي : " من لطف وإحسان ملك العالم الـذي ينتصر باستمـرار إلـى كفرة (أوستيريا Stirya) و (ألمانيا) المغلوبين المحتاجين لمغفرة الملك " [3] .

لقد وجدت (النمسا) في هذه المعاهدة فرصة لتشترط تبـادل الـسفراء بـين الطرفين على أن يكون ممثل العثمانيين في القصر الإمبراطوري ضـابطاً مـن ذوي الرتب العالية التي تعادل رتبة (الأمير) ، لا أن يكون من خدم القصر .

---

(1) محمد جميل بيهم : فلـسفة التـاريخ العثمـاني ، أسـباب انحطـاط الإمبراطوريـة العثمانيـة وزوالهـا ، ١٣٧٣هـ/١٩٩٤م ، ج٢ ، ص١٥٧ ؛
Joseph von Hammer : Buyuk osmanli Tarihi , cild . 7 , p.p 407 – 408 .

(2) بيهم : فلسفة التاريخ ، ج٢ ، ص١٥٧ ؛ أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٤٦ .

(3) فائقة بحري : أثر الدولة العثمانية ، ص١٠٥ .

في هذه الرسالة تجاوز ملحوظ من قبل السلاطين العثمانيين فمن المعروف أن المغفرة لا تطلب إلا من الله عـز وجل .

وبهذه المعاهدة استهلت الدولة العثمانية القرن (١١هـ-١٧م) بهذه التنازلات كما فقدت القدرة على التقدم غرباً بسبب هذه المعاهدة .

ولكن يجب النظر إلى الظروف التي أحاطت بتوقيع هذه المعاهدة بشمولية أكبر وذلك لتفسير ومعرفة الأسباب التي جعلت الدولة تقدم مثل هذه التنازلات فمن منطلـق المركز العالمي – الذي سبقت الإشارة إليه – كانـت الدولـة تـضع نـصب عينيهـا مسؤوليتها عن المسلمين حتى في خارج نطاق الحكم العثماني ولما كان الفرع الآخـر من أسـرة (الهابسبورج) الذي يحكم في (أسبانيا) يعمل على إبادة من تبقـى مـن المسلمين في الأندلـس فإن هذا الأمر كان يمثل ضغطاً كبيراً على العثمانيين ، ولهـذا فإن البند الذي يتضمن السماح (لأسـبانيا) بالـدخول فـي معاهـدة (سـتيفاتوروك Stivatorok) كان صعب التنفيذ من الناحية العملية .

وقد جاء الرد (الإسباني) في عام (١٠١٨هـ/١٦٠٩م) حيث صدر مرسـوم ملكي ينذر كافة المسلمين بترك الأراضي الإسبانية في مدة قصيرة ، وفي العام التـالي تم القضاء على آخر من تبقى من المسلمين في (اسبانيا) وفي هذا الإطار لابـد مـن الإشارة إلى مساعي العثمانيين لنصرة قضية مسلمي (الأندلس) ، ففي نفـس العـام (١٠١٩هـ/١٦١٠م) أرسلت الدولة العثمانية سفيراً فوق العادة إلى (لندن) ، وكـان الغرض مـن إرساله هـو جمع من لم يتمكن من الهرب من المسلمين ولجأ إلى غرب (أوروبا) ، وفي عام (١٠٢٣هـ/١٦١٤م) أرسل السلطان (أحمد الأول ١٠١٢هـ-١٠٢٦هـ/١٦٠٣م-١٦١٧م) إلى (دوق البندقية) يطلـب منـه تـسهيل مـرور مسلمـي (الأندلس) الفارين عبر أراضيه إلى الممالك العثمانية [1] . وبطبيعة الحـال كانت الدولة العثمانية تمنح هذه الدول امتيازات اقتصادية في مقابل مطالبها إزاء هؤلاء المسلمين [2] .

---

(1) أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٤٤٧-٤٥٣ ؛ عبد اللطيف الحميد : موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ٨٩١هـ-١٠١٨هـ/١٤٨٦م-١٦٠٩م ، ط١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، ص ص١١٩ ، ١٢٠ .

(2) Hammer : Buyuk , cild . 7 . p . 378 .

أما فيما يتعلق بالتنازلات التي قدمها السلطان العثماني (لإمبراطور النمسا) ، فإنه وفقاً لنص المعاهدة الذي ورد في المصادر الأوروبية فإنه لم يتم ذكر المقابل الذي حصلت عليه الدولة العثمانية . مما يدل على أن هناك إمـا نقـصاً أو اختلافـاً بـين النسختين (العثمانية ، والمجرية) . ويؤيد ذلك ما ذكره المستشرق الفرنسي (روبيـر مانتران) في كتابه (تاريخ الدولة العثمانيـة) وهـو أن النـسخة المكتوبـة باللغـة (المجرية) تتضمن تنازلات عثمانية تخلو منها النسخة (العثمانية) (1) . ولعـل مـا حدث في عام (١٠٧١هـ/١٦٦٠م) بين المفوضين العثمانيين والمفوضين النمـساويين من اختلاف كان مترتباً على سوء الفهم نتيجة اختلاف النسختين .

فعندما أقدمت الدولتان على تجديد معاهدة الصلح في العام المذكور ، اعتـرض السفير النمساوي على تجديدها بسبب عدم انطباق مبدأ المعاملة بالمثل علـى الرسـالة التي أرسلها السلطان العثماني إلى (الإمبراطور) فقد خاطبه بضمير (أنت) بدلاً من (أنتم) و استخدم كلمة (ملك) بدلاً من كلمـة (إمبراطـور) ، وأخطـر الـسفير النمساوي العثمانيين بأنه إذا كنتم تريدون التعاهد فلا بد أن يكـون نـص الخطاب هو " أنتم يا إمبراطور النمسا " . فكان أن فكر المفوضون العثمانيون فـي الحالـة التـي تعيشها الدولة في تلك الفترة ، وقالوا : " إن العصر هو عصر المدارة " وبمحاولة من (سياوس باشا) و (مراد باشا) أعادوا كتابة الرسالة من جديد (2) .

وهناك دليل آخر على اختلاف النسختين لمعاهدة (سيتفاتورك Sitvatorok) ، فمع أن المعاهدة نصت على تبادل السفراء بين الطرفين – وذلك وفقاً للنص الوارد في المصادر الأوروبية – إلا أن هذا البند لم يطبق من قبل العثمانيين ، ولم تعمل الدولـة على إرسال السفراء إلا في القرن (الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي) .

أما عن مدة الصلح المقررة فهي (٢٠) عاماً ، ولكن القتال كاد أن ينـدلع مـن جديد بين (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) وبين (الدولة العثمانيـة) بعـد وفـاة (ستيفن بوسكاي) وامتنـاع أهـالي (ترانـسلفانيا) عـن الـدخول ضـمن أمـلاك

---

(1) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٥٨ .

(2) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٢٢٤ .

الإمبراطورية مفضلين البقاء تحت حماية الدولة العثمانية التي ضمنـت لهـم الحريـة الدينيـة ، فعينـت الدولـة من قبلها (بتلان جابور) أميراً على (ترانسلفانيا) وبذلك صارت هـذه الإمارة حائلاً بين (الأفلاق) و (البغدان) وبين (المجر) ، وقطعـت كل إمكانية الانضمام أمراء هاتين الإمـارتين إلـى (الإمبراطوريـة الرومانيـة المقدسـة) [1] .

وفي ضوء أحداث النصف الأول من القرن (١١هـ/١٧م) يمكن القـول بـأن الأحلاف الصليبية ، والأوضاع الداخلية المضطربة أسهمت في تعثر حركة الفـتح وأن الاضطراب العسكري قد انعكس على الوضع السياسي للدولة العثمانية في (أوروبـا) وأتضح ذلك من خلال الحروب التي خاضتها الدولة سواء كانت (الحرب النمساوية) أم (فتح جزيرة كريت) ، حيث أن الدولة لم تعد قادرة على فتح عدة جبهات حربيـة في آن واحد . والأهم من ذلك أنها بدأت في التخلي عن إنجاز فتوحات جديدة إلا فـي أشد الحالات مستندة في ذلك إلى العمق التاريخي لحركة الفتح لا إلى قوتها العسكرية .

---

(1) المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٧٤ .

ب – الدور الأول من فتح جزيرة
(كريت Guirid)
عام (١٠٥٥هـ/١٦٤٥م)

يشكل فتح العثمانيين للقسطنطينية نقطة البدايـة لتـاريخ البحريـة العثمانيـة ، وبامتداد الدولة على سواحل طويلة في البحر الأبيض والبحر الأسـود ، غـدا البحـر

الأسود بحيرة عثمانية وتحولت الدولة من دولة برية إلى دولة بحرية ، وبذلك خطـت البحرية العثمانية خطوات واسعة .

ومع ذلك فإن تقدمها يظل بطيئاً إذا ما قورن بالتقدم السريع الذي أحرزته فـي الميدان البري . وقد ظلت هذه الحالة إلى بداية القـرن (١٠هـ ـ/١٦م) حيـث أنـشأ العثمانيون ترسانتهم البحرية على أنقاض الأسطول البيزنطي [(١)] .

هذا ولقد تشعب الدور العثماني وامتدت مناطق الصراع العثماني الصليبي إلـى ميادين بحرية بعيدة عن مركز الدولة ، ولكن (البحر المتوسط) ظل الميـدان الأهـم باعتباره المركز الأول والميدان الأساسي لهذا الصراع ، خاصة فـي أواسـط القـرن (١٠هـ/١٦م) حيث حقق العثمانيون نجاحاً كبيراً في تأسيس مراكز بحرية في الجزر الواقعـة في شرقـي (البحـر المتوسط) إلى أن هزم الأسطول العثماني في معركة (ليبانتو) البحرية في عام (٩٧٩هـ/١٥٧١م) فكانت آخر المعارك البحريـة المهمـة التي خاضهـا الأسطول العثمانـي في هذه الفترة . واقتصرت فعالياته على ما يقوم به (رجال البحر) ، واعتمـدت الدولة في هذه الأعمال على أساطيل (شمال أفريقيا) ، خاصة في الفترة التي خاضت فيها الدولة الحروب النمساوية [(٢)] .

كانت السياسة العثمانية قد ارتكزت على إضعاف (أسبانيا) باعتبارهـا القـوة الصليبية الرئيسية في (أوروبا) . ولقد ظهرت آثار هذه السياسة في تحالفات الدولـة في الميدان الأوروبي البري ، وفي استهداف السفن (الأسبانية) أينما وجدت ، ولكـن ظهور (إنكلترا) و (هولندا) في أوائل (القرن (١١هـ/١٧م) كقـوتين بحـريتين معاديتين (لأسبانيا) أدى إلى حدوث تطورات في موازين القوى والتحالفات السياسية وفـي الوقت الـذي عمدت (فرنسا) إلى التحالـف مع (أسبانيا) لمواجهـة الحركة (البروتستانتية) ، وشعرت الدولة العثمانية بأن التحالف (الفرنـسي) أصـبح قليـل الفعالية ، عمدت إلى تكوين حلف مع (إنكلترا) إحدى أركان الحركة البروتستانتيه في (أوروبا) ، وذلك منذ عهد الملكة (اليزابيـث) (٩٦٦هـ ـ-١٠١٢هـ ـ/١٥٥٨م-

---

(1) البحراوي : فتح العثمانيون ، ص١٩٥ .

(2) أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٧٥ .

١٦٠٣م) والتي عرفت بعدائها الشديد (لأسبانيا) . ويشير بعض الباحثين إلى أن هذا التحالف كان بمبادرة عثمانية ، ويستدلون من ذلك على فـشل الدولـة فـي توظيـف التحالفات العثمانية الأوروبية في دفع فتوحاتها إلى الأمام في هذه الفترة [١] .

ولكن من المبكر الحديث عن مبادرة عثمانية لعقد حلف دفاعي ، ويفهـم ممـا ذكره (يلمازأوزتونا) بهذا الشأن أن هذا الحلف كان بمبادرة (إنكلترا) ، التي طلبت من السلطان (مراد الثالث ٩٨٢هـ -١٠٠٤هـ/١٥٧٤م -١٦٩٥م) المساعدة ضد من أسمتهم (بعبدة الأصنام) ، مذكرة إياه بـأن عبـادة التصاوير ممنوعة في المذهـب (البروتستانتي) كما في الدين الإسلامي . وقد رد عليها السلطان : " وأنتم كذلك عليكم الطاعة والانقياد لبابي العالي " [٢] .

وقد عبر هذا التحالف عن نفسه اقتصادياً بمنح (إنكلترا) امتيازات اقتصادية [٣] تضاهي الامتيازات (الفرنسية) ، أما على الصعيد العسكري فقد ظهر هذا التحـالف بفعالية في الميدان البحري . فقد وجدت (إنكلترا) في الدولة العثمانية القوة البحريـة القادرة على حفظ التوازن لمواجهة (الأسبان) ومنعهم من الـسيطرة علـى المجـال البحري ، ويستدل مما ذكر من التعاون الذي جـرى بـين الأسـطولين (العثمـاني والإنكليزي) أن (الأرمادا) [٤] الشهير قد تم تدميره بتعـاون عـسكري (عثمـاني إنكليزي) وذلك في عام (٩٩٦هـ/١٥٨٧م) [5] . مما يدل علـى أن القـوة البحريـة العثمانية ما زالت قادرة على الصمود وإن لم تكن في أوجها .

---

(1) نادية مصطفى : العلاقات الدولية ، ج١١ ، ص ص٧٧ ، ٨٠ .

(2) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٩٤ .

(3) منحت الدولة العثمانية (إنكلترا) امتيازات اقتصادية عام (١٥٧٩م) وقبل ذلك كانت السفن الإنجليزية تـدخل الموانئ العثمانية تحت راية العلم الفرنسي . انظر : قيس جواد العزاوي : الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامـل الانحطاط ، الدار العربية للعلوم ، ص٢١ .

(4) الأرماده : اسم للأسطول الأسباني الذي سيره فليب الثاني ملك أسبانيا ، ضد إنكلترا ويسمى الارمـاد التـي لا تقهر ويتكون من (١٣٠) سفينة و (٣,٠٠٠) رجل تحت إمرة دوق سيدوفيا . وللمزيد من المعلومات عن هـذا الأسطول . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص ص١٢٢ ، ١٢٣ .

(5) أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٩٤ .

لقد أحدث انهيار القوة البحرية (الأسبانية) تغييراً واضحاً في سياسة التحالفات وظهر هذا التغيير واضحاً في فتور العلاقات (العثمانية الفرنسية) وخاصة في عـام (١٠٢٨هـ/١٦١٨م) . ولكن حرص (فرنسا) على دوام امتيازاتها الاقتصادية منعها من إعلان حرب سافرة ضد العثمانيين . ومن جهة أخرى كان بعض الساسة الفرنسيين يرون ضرورة استمرار العلاقات (الفرنسية العثمانية) وذلـك للوقـوف فـي وجـه (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) متى اقتضى الأمر . وقد فنّد أحد هؤلاء الـساسة ويدعى (لوغاي) فوائد استمرار هذه العلاقات في رسالة إلى سفير (فرنـسا) فـي العاصمة العثمانية (دوبريف) مقدماً في رسالته المصالح الدولية على الشعور الديني . وعلى هذا يمكن تفـسير سياسـة (فرنـسا) إزاء الدولـة العثمانيـة ووصفهـا بالازدواجيـة [1].

وعودة إلى الميدان البحري ، فإن ضعف الأسطول (الأسباني) بعد تحطيمه ، كان دافعاً لتفكير الدولة العثمانية في إظهار قوتها البحرية والبحث عن ميـدان جديـد للفتح ، وكان إكمال السيطرة على شرقي البحر المتوسط إحدى عوامل تحديد وجهة هذا الفتح ، فقد كانت جزيرة (كريت Guirid) تحت سيطرة البنادقة ، وهي بهذا تعد ثغراً مسيحياً يخل بإكمال التواجد والسيطرة العثمانية الإسلامية في شرق البحـر المتوسـط خاصة أنها تقع في (أرخبيل اليونان) وتتوسط الطريق بين مركز الدولة وولاياتها في الغـرب [2]. وهـو موقع حربـي فريد للأساطيل العثمانية . من هنا كان فتح جزيرة (كريت Guirid) ضرورة إستراتيجية لدولة عالمية لها أسـطول دائـم فـي البحـر المتوسط.

ويمكننا رصد مخططٍ عثماني نحو توجيه ضـربة قويـة للبندقيـة منـذ عـام (١٠٤٩هـ/١٦٣٩م) . لولا انشغال الدولة بالجبهة الشرقية (الصفوية) التي استنفذت

(1) ستودارد : حاضر العالم ، المجلد ٢ ، ج٣ ، ص ص٢٦٠ ، ٢٦١ .
(2) المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٨٧ .

مواردها المالية [1] . باعتبار أن الدولة العثمانية قد تخلت عن الحرب في أكثر من جهة منذ (أوائل القرن ١١هـ/١٧م) .

بدأ النزاع بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية بسبب تعمد البنادقة في كثيـر مـن الأحيـان إشعـال التمـردات بين المسيحيين فـي بعض الولايـات العثمانيـة مثـل (إشـقودره Ischkodra) [2] و (انتيفـاري Antivari) [3] ، و (أليـسيو Alessio) [4] ، والتآمر مع أساقفة هذه المناطق لخلع الحكم العثماني وتـسليم زمـام الأمور إلى البنادقة [5] ، كما أن البابوية كانت تعول على أسطول (البندقية) لشن حملة صليبية بحرية على العثمانيين ، وفي ذلك يقول أحد فلاسفة الغرب ويدعى (لوتسيو) فـي عام (١٠٠٩هـ/١٦٠٠م) : " .... وقد أثبت ا في أيام البابا (بيوس الخامس) أن التغلـب علـى الترك إنما يكون في البحر – مشيراً في ذلك إلى معركة ليبانتو - ... إنه يجب على (البندقيـة) أن تدخـل هـذه الحـرب الصليبيـة ، إن لـم يكـن تحمـساً فـي الديـن فأخـذاً بالثـأر عـن (كورفـو Korfo) [6] و (كتـارو) [7]، و (سريجـو) ، و (زاره) [8] ، وغيرها مما انتزعه الترك من يدها " [9] .

---

(1) استمرت هذه الحروب من عام (١٠١٢هـ/١٦٠٣م وحتى عام ١٠٢٨هـ/١٦١٨م) ولمعرفة تفاصـيل هـذه الحرب . انظر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٤٤٨ ، ٤٥٠ .

(2) (أشقودره Ischkodra) : مدينة في ألبانيا العليا إلى الجنوب من البحيرة التي تحمل الاسم نفسه وهي مركز لواء في الروملي . انظر : موستراس : المعجم ، ص٧٣ .

(3) (انتيفاري Antivari) : مدينة في ألبانيا العليا أيضاً على مسافة ١٠ ساعات من اسكدار غيـر بعيـدة عـن البحر الادرياتيكي وتتبع لواء (اشقودرة) . انظر : موستراس : المعجم ، ص١٣٨ .

(4) (أليسيو Alessio) : مدينة في ألبانيا العليا أيضاً على نهر (درينـا) وتتبـع لـواء اشـقودره . انظـر : موستراس : المعجم ، ص٤٤٥ .

(5) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسـلام ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن عبـد المجيـد عابـدين ، وإسـماعيل النحراوي ، ط٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص٢١٦ .

(6) (كورفو Korfo) : تقع في جنوب ألبانيا وشمال اليونان . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٣٤ .

(7) (كتارو) : قصبة يطلق عليها السلاف (قُطُر) تقع شمال غرب الجبل الأسود في يوغوسلافيا . انظر : Ismail Hami : izahli , cild .1 , s.496 .

(8) (زاره) : بالصربية زادار مدينة بكرواتيا شمال غرب يوغسلافيا في دلماشيا ، وهـي ميـناء علـى البحـر الأدرياتي وبها عدة كنائس من العصور الوسطى . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٩١٦.

(9) ستودارد : حاضر العالم ، المجلد ٢ ، ج٣ ، ص٢٤٩ .

أما ما يذكره المؤرخون عن اعتداء سفن (رهبان مالطه) على إحدى الأساطيل العثمانية ، وهي في طريقها إلى الحج فهو جزء من الحوادث التي تتكرر في عـرض البحر ، ولكن البنادقة قاموا بتحصيل ضريبة بيع هؤلاء الأسرى من (رهبان مالطه) وأذاعوا خبر هذا الحدث في (أوروبا) . ويعد ذلك خرقاً للاتفاقيات المبرمة بين الدولة العثمانية و(جمهورية البندقية) . فاتخذ العثمانيون هذا الحدث منطلقاً لإعلان الحرب . خاصة بعد أن كشفت الأحداث عن ضعف البنادقة وتجنبهم الحرب ، وشراؤهم الصلح بأي ثمن ، وظهر ذلك في كثير من المعاهدات [١] .

وفي عام (١٠٥٥هـ/١٦٤٥م) أعلن السلطان (إبـراهيم الأول ١٠٥٠هـ ـ - ١٠٥٨هـ/١٦٤٠م-١٦٤٨م) أن الحملـة البحريـة المعده ستتوجـه نحو (مالطة) ورغم أن (جمهورية البندقية) قد صدقت هذا الأمر إلى حدٍ ما ، إلا أنها أرسلت (٢٣) سفينة محملة بالجنود إلى جزيرة (كريت) . أما الأسطول العثماني فقد توجه نحو قلعة (خانيا Hania) [٢] في شمال جزيرة (كريت) وتـم فتحهـا بجهـ ـدٍ يـسير [٣] . ورغـم المعاملـة الحسنـة التي عومل بها الأهالي فـي (خانيـا) إلا أن البنادقـة قامـوا بالانتقـام وذلك بإحـراق ثغـ ـور (بتـراس Patras) [٤] و (كـ ـورون Koron) [٥] و (مـودون Modon) [٦] مـن (بـلاد المـ ـوره Moree) [١] .

---

(1) المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٨٧ ؛ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٩٢ ؛ بسام العـسلي : فـن الحرب ، ج٥ ، ص١٧٩ .

(2) خانيا أوحانية Hania : مدينة في جزيرة كريت والميناء الرئيسي لها وعاصمتها السابقة تقع علـى الـساحل الشمالي الغربي للجزيرة . انظر : موستراس : المعجم ، ص٢٤٩ .

(3) shaw : History , cild , p . 278 . ؛ أزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٩٢ .

(4) بتراس : مدينة باليونان شمال (بلوبونيس) وهي ميناء قرب رأس خليج بتراس الذي يربط كورنشه بـالبحر الأيوني . حكمها البنادقة في القرن ٩هـ/١٥م ثم آلت إلـى العثمـانيين ، واسـتعادها البنادقـة بـين عـامي (١٠٩٩هـ– ١١٢٨هـ/١٦٨٧م-١٧١٥م) دمرت أثناء الحرب الاستقلال اليونانية ثم أعيد بناؤها . الموسـوعة العربية ، ج١ ، ص٣٢٥ ؛ Ismail Hami : izahli osmanli , cild . 1 , s.446 .

(5) كورون : ثغر يقع في الناحية الشرقية من الرأس الجنوبي الغربي داخل خليج كورنثوس . انظر : المحـامي : تاريخ الدولة ، ص١٧١ .

(6) مودون Modon : تقع على الرأس الجنوبي لشبه جزيرة مورا . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص١٨٥؛ Ismail Hami : izahli osmanli – cild . 1 – s.496 .

مما أغضب السلطان (إبراهيم الأول) فكاد أن يصدر أوامره باعتقال جميع البنادقـة في (الدولة العثمانية) لولا معارضة المفتـي (أسعد زاده أبي سعيد أفندي) (٢) .

وفي ضوء المعلومات التي تورد‌ها المصادر يتضح لنا أن الظروف التـي قـد أحاطت بالفتح قد أدت إلى استمرار هذه الحملة لمدة ربع قرن . فقد ساعدت الطبيعـة الجبلية وحصانة أسوار القلاع في هذه الجزيرة على صمودها لفترة طويلة . ومن جهة أخرى كشفت هذه الحملة عن أمر مهم وهو أن الدولة العثمانية قـد فقـدت الكـوادر البحرية التي أدت دوراً كبيراً في سيادة الأسطول العثماني للبحر المتوسط في القـرن (١٠هـ/١٦م) وكثيراً ما وقع قادة الأسطول العثماني في أخطاء عسكرية وإستراتيجية تدل على عدم خبرتهم في إدارة الحروب البحرية . ثم إن مدة الحـرب تزامنـت مـع حدوث فوضى في مركز الدولة بين الحين والآخر . ففي الوقت الذي اشتد فيه الحصار على قلعة (كانديا Candia) (٣) كان الجنود قد أعلنـوا العصيـان ، ثـم تحـول ذلـك العصيـان إلى ثـورة أدت إلى مقتـل الـسلطـان إبراهيـم الأول عـام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) ، وذلـك لأن الجنـود اعتبـروه – ظلمـاً – مسئـولاً عـن بـطء عمليـة الفتـح فـي (كريت) ، وكذلـك استغـل (أباظه حسن باشـا) (٤)

---

(1) الموره Moree : اسم لشبه جزيرة البيلوبونيز Peloponnese سـابقاً فتحـت مـن قبـل العثمـانيين عـام ٨٦٣هـ/١٤٥٨م وازدهرت في عهـدهم . احتلهـا البنادقـة ، ثـم أخلوهـا بموجـب معاهـدة بـسارفيتز ١١٣١هـ/١٧١٨م ، ثم أصبحت معقلاً للثورة اليونانية ضد العثمانيين . حتى أصبحت تحت الحكـم اليونـاني نهائياً . انظر : موستراس : المعجم ، ص٤٦٤ .

(2) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، تقديم : حسن الزين ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار الفكـر الحـديث للطباعة والنشر ، بيروت ، ص١٥٣ ؛ محمد بن أبي السرور البكري : نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمـان ، تحقيق : يوسف الثقفي ، ط١ ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة ، ص٢٣٢ ؛ المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٨٧ ؛ بروكلمان : تاريخ الشعوب ، ص١٤٥ .

(3) (كانديا Candia) : وتسمى قديما (ميغالوكاسترون Meghalo Castron) : مدينة في جزيرة (كريـت) وهي الأهم بين مدنها . تقع قريباً من البحر ، على الشاطئ الشمالي ، أسسها المـسلمون فـي القـرن الثـاني الهجري/ التاسع الميلادي ، وجعلوها مركزاً لانطلاقهم لفتح الجزيرة بأكملها ، استولى عليها (نقفورفوقـاس) سنة (٣٥٠هـ/٩٦١م) ثم أعطيت للبنادقة . انظر : موستراس : المعجم ، ص٤٠٤ .

(4) (أباظة) هي في الأصل (أبازة) نسبة إلى (أبخازيا) ولكن بتفخيم الباء والزاي في اللغة التركيـة . أمـا (أباظة حسن باشا) فهو قائد التركمان في آسيا الصغرى ، وقد منح هذا المنصب مكافأة له على اعتقاله (حيدر أوغلي) الثائر ، ولكنه طرد من منصبه فثار على الدولة ، ثم أعيد إلى منصبه ، ولكنه قتل غيلة فـي عينتـاب

هذه الأوضاع وتمـرد هـو الآخـر . ويضاف إلى ذلك كله كثرة العـزل والتوليـة لرجال الدولة ، فضلاً عن خوض الجيش العثماني معارك برية في جبهات أخرى[1].

وهكذا أسهمت هذه الأوضاع في انشغال المسئولين داخل الدولـة عـن دعـم المجاهدين في جزيرة (كريت) في وقت كانوا بأمس الحاجة إلى الإمـدادات ، وفـي المقابل انهالت المساعدات العسكريـة من الدول الأوروبيـة على البنادقـة فـي قلعة (كانديا) بما في ذلك الدول التي كانت قد وقعت معاهدات سياسـية واقتـصادية مـع الدولة العثمانية. ووجد العثمانيون أنفسهم مضطرين إلى خوض حرب أمـام الحلـف الصليبي المكون من (فرنسا ، وإنكلترا ، وإيطاليـا ، والإمبراطوريـة الرومانيـ ـة المقدسة ، والبابوية) و دولٍ أخرى .

ولكن الروح الإسلامية العالية التي تميزت بها القوات العثمانية كانت دافعاً كبيراً لصمودها واستبسالها رغم انقطاع الإمدادات العسكرية عنها . واستطاعت هذه القـوات أن تفتح معظم قلاع الجزيرة ، ولم تبق إلا قلعة (كانديا) [2] .

وقد أدى الدعم الذي قُدم للبنادقة إلى تقدم أساطيلهم حتى وصلت إلـى مـضيق (الدردنيل) ، وأغلقته في وجه السفن العثمانية الذاهبة إلى (كريـت) كمـا أدى هـذا الإغلاق إلى فرض حصار اقتصادي شديد على العاصمة العثمانيـة فتعقـد الموقـف العثماني أكثر من ذي قبل .

ورغـم المحـاولات المتكـررة التـي بذلت لفـك الحصار ، فقد فشلت هـذه المحاولات، بل إن الأسطول البندقي احتل جزر (بوزجة آدا Boghtscha ada) [3] ،

سنة (١٠٦٩هـ/١٦٥٨م) . انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، تأليف : أئمة المستشرقين في العـالم ، إعـداد النسخة العربية ، إبراهيم خورشيد وآخرون ، ١٩٣٣م ، دار الشعب ، القاهرة ، ط٢ ، ص ص١٢٦ ، ١٢٧ .

(1) المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٨٨ ؛ مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٦١ .

(2) أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٩٤ .

(3) (بوزجه أدا) أو (بوغجه أطاسي) Boghtscha - Adassi أو تندوس Tenedos : جزيرة في الأرخبيـل وتقع جنوب مدخل مضيق الدردنيل ، حكمها العثمانيون حتى عام ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م . انظـر : موسـتراس : المعجم ، ص ص١٧٧ ، ١٧٨.

و (لمني Lemni) [1] و (سمندرك Semenderok) [2] وذلك في عام (١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) [3] .

---

(1) (لمني Lemni) (لمنوس Lemnos) : جزيرة في أرخبيل اليونان تقع بين جزيرة (بوزجه أداسي) وجبل آتوس . انظر : موستراس : المعجم ، ص٤٤٦ .

(2) (سمنديراك أو سمندراك Semenderok) : جزيرة في أرخبيل اليونان تقع شمال غرب جزيـرة إيمـروز وشمال شرق جزيرة لمني قريباً من منطقة تراقيا في مواجهة مصب نهر مريج . انظر : موستراس : المعجم ، ص ص٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(3) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٤ ؛ علي الصلابي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م ، دار النشر والتوزيع الإسلامية ، بور سعيد ، ط١ ، ص٣٠٧ .

المبحث الثاني

" الانتعاش المفاجئ لحركة الفتح "

أ- الدور الثاني من فتح (كريت Guirid) عام (١٠٦٧هـ/١٦٥٦م-١٠٨٠هـ/١٦٦٩م) .

ب- حملة خوتين ضد بولونيا وازدياد نفوذ الانكشارية (١٠٣١هـ/١٦٢١م) .

ج- جهود العثمانيين لحماية شمال البحر الأسود ووسط أوروبا .

د- معاهدة (بوجاش Buezcaj) وخروج بولونيا عن التبعية العثمانية عام (١٠٨٧هـ/١٦٧٦م) .

هـ-حصار فيينا الثاني (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م – ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م)

أ- " الدور الثاني من فتح جزيرة كريت Guirid "

(١٠٦٧هـ/١٦٥٦م-١٠٨٠هـ/١٦٦٩م)

لا شك أن الجمود الذي عرف به (النصف الأول من القرن ١١هـ/١٧م) كان دافعاً لاستنفار همة المسؤولين المخلصين من رجال الدولة العثمانية الذين رأوا مـدى

حاجة الدولة إلى (حركة إصلاح) من شأنها أن تعيد لهـا شيئاً مـن قوتهـا السابقـة .

لقد كانت حالة التعثر انعكاساً للأوضاع الإدارية في مركز الدولة ، والتي بدأت بالتدهور منذ أواخر عهد السلطان (سليمان القانوني ٩٢٧هـ/١٥٢٠م حتى ٩٧٤هـ/١٥٦٦م) ، ولكن الإصلاح لم يظهر كضرورة إلا في (النصف الثاني من القرن ١١هـ/١٧م) ولذلك يمكن تسمية هذه الفترة بفترة (الإصلاح الأولى) ، حيث كانت حركة الإصلاح شاملة لمناحي مختلفة في الدولة . وقد جاء انتعاش الحركة العسكرية من جديد نتيجة لهذه الإصلاحات ولكن تزامن هذا الانتعاش مع تولي (محمد كوبريللي) منصب الصدارة العظمى ، جعل المؤرخين يطلقون على الفترة الممتدة من (منتصف القرن ١١هـ/١٧م وحتى بداية الثمانينيات منه) بدور (كوبريللي) [(1)] .

كان وصول هذا الرجل إلى منصب الصدارة العظمى يعني إيجاد حل لكثير من المسائل السياسية العالقة . وبطبيعة الحال كانت مشكلة فتح جزيرة (كريت Guirid) أولى المسائل التي يتوجب إيجاد حـلٍ لهـا ، نظـراً لأهميتهـا بالنسبـة للدولـة العثمانيـة .

لقد حاولت الأساطيل العثمانية فك الحصار الذي فرضه البنادقة على العاصمة العثمانية وساحل (بحر إيجة Egihe) وموانئ (المورة More) ، ولكنهم تلقوا هزائم نكراء أمام البنادقة ، هذا فضلاً عن أسر ألف من رجال البحرية العثمانيـة [(2)] ، وكان استيلاؤهم على جزيرتي (لمني Lemni) و (بوزجه أدا Boghtsch ada) ، والحصار الاقتصادي الذي فرضوه على العاصمة قد أدى إلى ارتفاع الأسعار مع قلة

---

(1) كوبريللي : يذكر المحامي أن هذا اللقب هو نسبة إلى الجسر (الكوبرو) وكوبريللي تعني صاحب الجسور أو صانع الجسور ولعل النسبة الصحيحة هي إلى مدينة (كوبريللو keuprulu) : وتلفظ في بعض الأحيان (تشوبرلي Tschuperli) : وهي مدينة في مقدونيا ، وتتبع ولاية الروموللي ، لواء مناستر وهي مبنية فوق هضبتين يجري بينهما نهر واردار . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٩٠ ؛ موستراس : المعجم ، ص٤٢٨ .

(2) يوسف الثقفي : لمعان الضوء في دياجير الظلام دراسة لعهد الصدر الأعظم (محمد كوبريللي) ١٠٦٦هـ - ١٠٧١هـ/١٦٥٦م-١٦٦١م ، مجلة المؤرخ العربي ، المجلد ١ ، العدد الأول ، مارس ١٩٩٣م ، ص٢٢٩ .

في الغذاء ، فانتشر الرعب الشديد بين الأهالي [١] ، وفي هذه الظـروف رأت الـدول الأوروبية أنه بتولي السلطان (محمد الرابع ١٠٥٨هـ-١٠٩٩هـ/١٦٤٨م-١٦٨٧م) وهو صبي صغير أن الوقت قد حان للنيـل من الدولـة العثمانيـة خاصة وأن حروب (الثلاثين عاماً) [٢] كانت قد انتهت بتوقيع صلح (وستفاليا West Falen) [٣] فـي عام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) مما جعل الفرصة مواتية لعقد تحالف مسيحي وتجهيز حملة صليبية ضد الدولة العثمانية وبالفعل كونت كل من (الإمبراطوريـة المقدسـة) ، و (بولونيا) ، و(جمهورية البندقية) و (رهبان مالطة) ، و (قيصرية روسـيا) مـا سمي (بالحلف المقدس) [٤] .

في ذلك الوقت كانت الأوضاع قد بدأت بالتغير داخل الدولة العثمانية بوصـول (محمد باشا كوبريللي) إلى الصدارة العظمى ، فقد استطاع أن يضع حداً للفوضى التي اجتاحت مركز الدولة وأن يعيد للسلطان هيبته وسلطته كما أعاد النظر فـي الـسياسة المالية للدولة ، وقام بإصلاحات عسكرية ، وجدد الأسطول وأضاف بعض التحـسينات على نوع السفن المستخدمة في الأسطول العثماني . وذلك في سبيل فك الحصار عـن المضائق بل إنه قاد الأسطول المتوجه إلى جزيرة (كريت Guirid) بنفسه ، ورغـم الصعوبات والهزائم التي تلقاها الأسطول بقيادته إلا أنـه اسـتطاع أن يتغلـب علـى الأسطول البندقي الذي كان بقيادة (توماس مونـشينجو Tomas Mocenigo) وقـد ساعد على ذلك قيام أحد جنود المدفعية العثمانية بالتصويب نحو مخزن البـارود فـي سفينة (الإميرالية الكبرى) التي كان بها القائد العام للأسطول مما أدى إلـى نـسفها

---

(1) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٥ .

(2) هي حرب أوروبية عامة كانت (ألمانيا) مسرحها الرئيسي ، تعددت الأسباب التي نشبت من أجلها ومنهـا : تملك الأراضي ، منازعات بشأن الوراثة ، أسباب دينية ، وانتهت هذه الحرب بصلح ويستفاليا ونتج عنها تدمير ألمانيا وأضعافها وخروج فرنسا كدولة أوروبية عظمى . انظر : الموسوعة العربية الميسرة – ج١ – ص٦٩٨، ولمزيد من التفاصيل بشأن هذه الحرب . انظر : هربرت فيشر : أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية ، ترجمة : زينب راشدو أحمد مصطفى ، مراجعة : أحمد عبد الكـريم ، ط٣ ، دار المعارف بمصر ، ص ص٢٣٥ ، ٢٥٨ .

(3) وستفاليا وبالألمانية : (وست فالن west falen) ولاية من ولايات ألمانيـا الغربيـة عاصـمتها مونـستر (Munster) . انظر المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٩٣ .

(4) الصلابي : الدولة العثمانية ، ص٣٠٧ .

ومقتل قائدها ، وبذلك تم تحرير المضيق ورفع الحصار الاقتصادي عن (اسطنبول) ، وفي عام (١٠٦٨هـ/١٦٥٧م) تم تحرير جزيـرة (بوزجه أدا Boghtsch ada) ، و (لمني Lemni) من الاستيلاء البندقي [١] . وكانت هذه آخر أعمال (محمد باشـا كوبريللي) في هذه الجبهة ، حيث اضطر للانتقال إلى الميـدان الأوروبـي البـري ، لاخضاع المتمردين في منطقـة (ترانـسلفانيا Transilvanya) وذلـك فـي عـام (١٠٦٩هـ/١٦٥٨م) ، وفي نفس العام قمع التمرد الذي قام به (أباظة حسن باشا) في بلاد الشام وأعاد النظام إلى تلك البلاد [٢] .

ومن هنا يتضح لنا أن مثل هذه الحركات كانت تعيق حركة الفتح وتطيـل مـن عمرها ، حيث تضطر القيادة العليا إلى ترك الجبهة الرئيسية لمواجهة التمرد الداخلي .

ولابد من الإشارة إلى أن هناك عوامل خارجية من شأنها تأخير حركة الفتح في هذه الحقبة . فقد كانت (فرنسا) تعمل سراً على إثارة المشكلات الداخلية للعثمانيين . وفي ضوء المعلومات الواردة ندرك أن هناك دورٌ سري قامت به (فرنسا) لمحاولـة إيجاد عملاء لها داخل الدولة العثمانية سواء كانوا من النصارى أم من المـسلمين [٣] . وكذلك أثبتت حادثة عام (١٠٧٠هـ/١٦٥٩م) . دعم (فرنسا) للبنادقة سراً [٤] . كـل هذه الظروف أدت إلى رفع مستوى التوتر بين الدولتين . ولما رأت (فرنسا) تغلـب الدولة العثمانية على المشكلات الداخلية التي تثيرها أعلنت الحرب عليهـا ، وحاولـت فتح جبهتين إحداهما برية والأخرى بحرية ، فعملت على دعم (النمسا) لإشعال حرب

---

(1) اوزتونا : تـاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٠٢ ؛ سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٦٩ ؛ مانتران : تاريخ الدولـة ، ج١ ، ص٣٦٦ .

(2) سرهنك : تاريخ ، ص١٧٠ .

(3) هاملتون جيب ، وهارلودبوين : المجتمع الإسلامي والغرب وأثر الحضارة الغربية في الفكر الإسـلامي فـي الشرق الأدنى ، ترجمة : عبد المجيد القيسي ، ١٩٩٧م ، دار المدى للثقافة والنشر ، سوريا ، دمـشق ، ط١ ، ج١ ، ص٢٨٣ .

(4) لمعرفة تفاصيل الحادثة انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص ص٢٩٣ ، ٢٩٤ .

ضد الدولة العثمانية ، وأرسلت أساطيلها لضرب سـواحل (جيجـل)[1] فـي عـام (١٠٧٥هـ/١٦٦٤م) كل ذلك والحصار مستمر على قلعة (كانديا Candi) .

وبعد وفاة (محمد باشا كوبريللي) تولى ابنـه (أحمـد فاضـل كـوبريللي) الصدارة العظمى فواصل سياسة والده في إعادة قوة الدولة ، وقام بقيـادة الأسـطول المتوجه إلى (كريت) بنفسه وأراد السلطان (محمد الرابع) الخروج مع الحملـة إلا أنه لم يخرج ولكن خروج (أحمد فاضل باشا) كان كافيـاً لإعـادة الحماسـة إلـى المجاهدين في (كريت) .

في الحقيقة واجه العثمانيون مصاعب كبيرة في حصار قلعة (كانديا) فكانـت حرباً بالغة العنف ، لكن الخطة الجديدة التي اتبعها الصدر الأعظم الجديد والتي جعلت الجيش العثماني يقضي الشتاء تحـت الأرض دون أن يغادر مواقعه فـي الجزيـرة ، ضمنت استمرار الحصار ، ومن ناحيـة أخرى أظهر العثمانيون تفوقاً فـي اسـتخدام (الألغام الأرضية)[2] . وفي الطرف الأوروبي ضوعفت المساعدات العسكرية التـي كانت تقدم للبنادقة ، واشترك في هذا الحصار أشهر القواد العسكريين في (أوروبـا) في تلك الحقبـة ، أمثـال (فرانسيـسكو مـوروزيني Fran Cesco Morosini) ، والأميـر (فرانسوا دوق فنـدوم Francois Duc Vendeme) ، و (دوق نوانتـل Duc Nointel) . وأصبحت الحرب مسألة كرامة للمسيحيين تجاه المسلمين . ولكـن حرب الألغـام شـكلت ضـغطاً كبيـراً علـى القـوات المتحالفـة ، ومنـذ عـام (١٠٧٩هـ/١٦٦٨م) بدأ البنادقة بطلب الصلح من العثمانيين لوقف القتال ، ويتضح من تصريح السفير البندقي أن الحرب قد أنهكتهم . لكنه اشترط في عرضه الـصلح بقـاء قلعة (كانديا) في أيدي البنادقة كما صرح هذا السفير بأن هذه الحرب لم تعـد حربـاً (عثمانية بندقية) وإنما هي حرب (أوروبية عثمانية) ، وأن المسألة لو كانـت فـي سلطة مجلس أعيان (جمهورية البندقية) لترك (كاندية) منذ مدة طويلة ، خاصة وأن

---

(1) جيجل : ميناء من تأسيس (القرطاجيين) ، وتقع في شبه جزيرة منخفضة ومنبسطة بعيدة عن بجايـة بنحـو ٩٦كلم . انظر : الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية : محمد حجي ، ومحمـد الأخـضر ، ١٩٨٣م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ج٢ ، ص٥١ .

(2) علي سلطان : تاريخ ، ص٢٢٢ .

هذه الحرب قد أصبحت بلاء على البنادقة واستنزفت الكثير من النفوس والأموال ، لكن المجلـس كان يعاني من ضغوط حكام (أوروبا) وعلى رأسـهم (البابـا إينوسـنت العاشر) والملك الفرنسي (لويس الرابع عشر) وذلك إزاء المساعدات التـي بـذلها هؤلاء الحكام للبنادقة.

وفي عام (١٠٨٠هـ/١٦٦٩م) كان (الإنجليز) أول من أستسلم بعد مقتل أحد أمرائهم . وأخيراً اضطر (موروزيني) للتسليم ، وغادرت جميع الأساطيل الأوروبية قلعة (كانديا) قبل إتمام مفاوضات الصلح ، مما أغضب البابا والحكام الأوروبيـين ، وقد عبر البابا عن غضبه بتوبيخ الأمير (موروزيني) لتركه (كانديا) قبـل انتهـاء المفاوضات . أما الملك (لويس الرابع عشر) فقد رفض مقابلة (دوق نواتل) مـدى الحياة . وفي (٥ أيلول) من العام نفسه وقعت معاهـدة الـصلح بيـن العثمـانيين والبنادقة ، أوقفت بموجبها الحرب ، وكذلك سلم البنادقة جزيرة (كريت) للعثمانيين ما عدا ثلاث قلاع تبقـى لـدى البنادقـة وهـي (سـودا Suda) [(١)] ، و (كرابوسـة Grahbosa) [(٢)] ، و (اسبينالونفه Spinalonga [(٣)]) [(٤)] .

ورغم هذا الانتصار الذي حققه العثمانيون في هذه الحرب ، فقد عد المؤرخون هذا الفتح أحد أسباب ضعف الدولة وانحطاطها . ذلك لأنه كلفها الكثير مـن الأمـوال والرجال ، هذا عدا السنوات الطويلة التي استغرقها منذ عام (١٠٥٥هـ-١٠٨٠هـ ـ وحتى عام ١٦٤٥م-١٦٦٩م) في وقت كانت الدولة بحاجة إلى كل ما سبق أكثر مـن

---

(1) (سودا Suda) : خليج يقع في الساحل الشمالي الغربي لجزيرة كريت ، واسم لقلعة فوق صخرة كـالجزيرة يمتد ناحية البحر وميناء طبيعي شمالي غرب كريت . انظر :
Ismail Hami : izahli osmanli , cild . 2 , s.478 .

(2) (كرابوسة Granbsa) : قلعة في الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه في شمال غرب جزيرة كريت . انظر :
Ismail Hami : izahli osmanli , cild . 3 , s.975 .

(3) اسبينالونفه Spinalonga) : قلعة في الجزيرة الواقعة في مدخل الميناء الذي يحمل الاسم نفسه شمال شـرق كريت . انظر :
Ismail Hami : izahli osmanli , cild. 3 , s.975 .

(4) انظر : اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥١٠ ، ٥١٢ ؛ أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعـد مضي الفتوحات النبوية ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، دار صـادر ، بيـروت ، ط١ ، ج٢ ، ص٢٠٧ ؛ سـرهنك : تاريـخ ، ص١٧٤ .

حاجتها لفتح هذه الجزيرة . كما أن الدولة بذلك فتحت على نفسها جبهة بحرية جديـدة ضد (أوروبا) [1] .

ولكن بالنظر إلى هذا الحدث نجد أن فتح جزيرة (كريـت) كـان ضـرورة إستراتيجية كما أشرنا إلى ذلك سابقاً . واستطاعت الدولة أن تقف بصمود أمام تحديث الأساطيل الأوروبية ، وأن تثبت أنها قد استعادت نشاطها وقوتها البحرية وإن لم تكـن كما في السابق والأهم من ذلك أن الدولة تنبهت إلى ضرورة تقوية الأسطول وتطويره حتى لا تفاجأ بأساطيل الدول الأوروبية المتطورة .

---

(1) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢٢٢ .

ب- حملة (خوتين Hotin) ضد بولونيا وازدياد نفوذ الإنكشارية عام (١٠٣١هـ/١٦٢١م) .

تبيـن فيمـا سبق من أحداث أن حركات التمـرد فـي كـل من (ترانسلفانيا) و (الأفـلاق) ، و (البغـدان) وتدخـل (بولونيا) لإثارة هذا التمرد كانـت مـن عوامل إرباك سياسـة الدولة العثمانية ، وأداء جيوشـها فـي الحـرب (العثمانيـة النمساوية) ، وفي الدور الثاني من فتح جزيرة (كريت) . وهذا يعني أن هذه المسألة بحاجة إلى وضع حلٍ لها .

ويمكننا تصنيف هذه المشكلة ضمن المشاكل الإقليمية والدينية وذلك بالنظر إلى أسبابها ، فالموقع المهم لهذه المناطق جعل منها نقاطاً إستراتيجية مهمة ، فقد كانت بلاد (المجر) جداراً بين العثمانيين وبين بلادٍ مسيحية [1] كما أن هذه الإمارات لا تخضع للسيادة العثمانية خضوعاً تاماً حيث يحكمها حكام مسيحيون . وكانت سياسـة الدولـة العثمانية مع الدول المسيحية الأوروبية تتم عن طريق هؤلاء الأمـراء المـسيحيين ، ورغم الخلاف المذهبي بين بعض أمراء هذه المناطق وبين (الإمبراطورية الرومانيـة المقدسة) و (قيصرية روسيا) إلا أن هذه الإمارات كانت تشملها خطط البابوية فـي شن الحملات الصليبية ضد العثمانيين ، وأخيراً فإن هذه المناطق تحوي أرضاً خـصبة وغنية بالمعادن مما يجعلها ذات أهمية اقتصادية كبيرة [٢] .

بعد انتهاء الحرب العثمانية النمساوية ، في عام (١٠١٥هـ/١٦٠٦م) ، عـادت المشاكل للظهور في (بولونيا) ، التي كانت تحرض (القوزاق) التابعين لهـا لـشن هجمات على سواحل الأناضول ، وفي الوقت نفسه كان (التتـار) التـابعون للدولـة العثمانية يردون بالهجوم على الأراضي البولونية . وكادت أن تنـشب الحـرب بـين (بولونيا) والدولة العثمانية لولا تقدم (البولونيين) بطلب التفاوض مما أدى إلى توقيع صلح بين الطرفين في عام (١٠٢٦هـ/١٦١٧م) [٣] وتعهد الطرفان بالحد من نـشاط كل من (القوزاق) و (التتار) . ولكن البولونيون عادوا إلى نقض الصلح في عهـد السلطان (عثمان الثاني) ويستدل مما تذكره بعض المصادر التي تتحدث عن فتـور

---

(1) البحراوي : فتح العثمانيين ، ص١٣٥ .
(2) أوغلي : الدولة ، ج١ ، ص٤٦ .
(3) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٤٦ ؛ محمد حرب : البوسنة والهرسك ، ص٤٧ ؛
Hammer : Buyuk , cild 7 , p . 467 .

العلاقات (العثمانية الفرنسية) في (١٠٢٨هـ/١٦١٨م) أن لفرنسا يداً في تمرد البولونيين وكذلك كانت الدول الكاثوليكية الأخرى تشارك (فرنسا) في تحريضها للبولونيين وامتناعهم عن دفع الجزية وتدخلهم المستمر في شؤون (الأفلاق Eflak) ، و (البغدان Boghdan) ، وتعديهم على الحدود العثمانية ، وإيوائهم للعصاة من أمراء القوزاق) ، وجديرٌ بالذكر أن عام (١٠٢٨هـ/١٦١٨م) شهد إعداداً لحملة صليبية ضخمة من قبل البابا (سيكتوس الخامس) حيث ركز البابا في خططه على دور الأمراء المسيحيين التابعين للسلطان العثماني أو المجاورين له وخاصة (ملك بولونيا) ، وأمراء (الأفلاق) ، و (البغدان) ، و (ترانسلفانيا Transilvanya) ، إلا أن هذا المشروع لم يتم كما ينبغي بسبب وفاة هذا البابا (1) .

غير أن السلطان (عثمان الثاني ١٠٢٨هـ/١٦١٨م-١٠٣٢هـ/١٦٢٢م) المعروف بحماسته لإعادة هيبة الدولة إلى ما كانت عليه من قوة ، أراد أن يضع حداً لتدخل (بولونيا) المستمر ، وإذا كان تأخر خروج السلطان (محمد الثالث) – كما مر بنا – في الحرب النمساوية قد أطال من فترة تلك الحرب ، فإن السلطان (عثمان الثاني) لم يتردد في الخروج لقيادة الجيش رغم محاولات بعض المغرضين من رجال الدولة ، وتدخل سفير (انكلترا) لمنعه من الخروج للحرب .

كان (عثمان الثاني) مدركاً للأحوال المضطربة التي كان عليها الجيش العثماني وخاصة فرقة (الإنكشارية) وعدم رغبتهم في الخروج نظراً لتأخر رواتبهم الناتج عن تردي الأحوال الاقتصادية للدولة بعد خوضها (الحرب النمساوية) ، ولكنه كان يأمل في الحد من نفوذ (الإنكشارية) وسيطرتهم على الأمور في مركز الدولة . ويمكن القول أن الحملة التي خرجت في عام (١٠٣١هـ/١٦٢١م) والتي عرفت بحملة

(1) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ١٩٤٦م ، القاهرة ، ج١ ، ص٥٧٥ ؛ المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٧٦ ؛ لوثروب ستودارد ، المجلد٢ ، ج٣ ، ص٢٥٩ ؛
Hakki yildiz : Dugustan gunumuze kedar buyuk islam Tarihi , cild . 10 , Istanbul , cild . 10 , s. 434 .

(خوتين Hotin) [1] قد حققت نصراً كبيراً علـى (البولـونيين) و (القـوزاق) ، ويعود الفضل – بعد توفيق ا عـز وجـل – إلى الدور الذي قامت به كلاً من قوات (تتار القرم) وفرقة (الصاعقة) . وكان هذا النصر مشجعاً على التقـدم ومواصـلة الحرب ورفض الصلح الذي تقدم بعرضـه (البولونيون) ولكن تخاذل الصدر الأعظم (حسين باشا) وقوات (الإنكشارية) في الهجوم الأخير أربك نظام الجيش وأدى إلى استشهاد بعض القواد ، ووجد السلطان نفسه مرغماً على قبول الصلح الـذي عرضـه البولونيون والذي سلموا بموجبه قلعة (خوتين) ، وكذلك تعهدوا بالاستمرار في دفـع الجزية السنوية إلى خان (القرم) [٢] .

في الحقيقة لقد حققت هذه الحملة نجاحاً عسكرياً كبيراً ، إلا أنها أسـفرت عـن نتائج خطيرة ، فعلى الصعيد الداخلي ، كشفت هذه الحملة للـسلطان ضـرورة إعـادة ضبط قوات (الإنكشارية) وتنظيمها ، كما ظهر عدم الوفاق والانسجام بـين القيـادة المتمثلة في (السلطان) وبين هذه الفرقة ، ولذلك عزم السلطان (عثمان الثاني) على استبدال هذه الفئة بجيش جديد يتكون من عناصر مصرية أو أناضولية [٣] ، وهو مـا أدى إلى مقتله على أيدي الثوار من فرقة (الإنكشارية) عـام (١٠٣٢هـ ـ/١٦٢٢م) وازدياد شوكتهم وتحكمهم في شؤون الدولة .

---

(1) نسبة إلى قلعة خوتين أو هوتين كما يسميها العثمانيون (Hotin) : وتقع على خـط عـرض (٣٠,٤٨) فـي الساحل الجنوبي لنهر الدنيستر Dnyester في رومانيـا ، وهي المدخل إلـى بودوليـا Podolya . انظـر : اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٥٧ .

(2) لمعرفة ما جرى في هذه الحملة . انظر : اوزتونا : تاريخ ، ج١ ، ص ص٤٥٦ ، ٤٥٧ ؛ Hakki yildiz : Dugustan , cild . 15 , s . 435 .

(3) نزار قازان : سلاطين بني عثمان بين قتال الإخوة وفتنة الإنكشارية ، دار الفكر اللبنـاني ، بيـروت ، ط١ ، ١٩٩٢م ، ص٦١ .

جـ- جهود العثمانيين لحماية شمال البحر الأسود ووسط أوروبا .

لعل من توفيق الله أنه في الوقت الذي هبت فيه رياح الفوضى داخل العاصـمة العثمانية بعد مقتل السلطان (عثمان الثاني) أن (أوروبا) كانت قـد انـشغلت فـي الحرب المعروفة (بحرب الثلاثين عاماً) (١٠٢٨هـ/١٦١٨م وحتـى ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م) ولكن الأمر الذي يجب التنبيه عليه هو نمو القوة الروسية التي كانت تراقـب الأوضاع داخل الدولة العثمانية بكل حرص وحذر ، بل إن الحكومة الروسية خصصت جهازاً إدارياً في (موسكو Mosco) [1] لمتابعة السياسة الخارجية والتركيز على تتبع أحوال الدولة العثمانية .

لم تكن (روسيا) في نظر العثمانيين قبل القرن (١٠هـ/١٦م) سـوى إمـارة تدفع الجزية لخان (القرم) التابع للدولة العثمانية ، وكـان الـروس بحكـم الموقـع الجغرافي لدولتهم يبحثون عن مخرج لهم من الحصار المفروض عليهم من قبـل دولٍ معادية لهم (كالسويد) و (بولونيا) غرباً ، والدولة العثمانية التي أغلقت الطريق نحو (البحر الأسود) في وجه الروس ولذلك كانت نظرة الروس شديدة العداء للعثمـانيين فبالإضافة إلى الخلاف الديني بينهما ، كان الروس يرون أن العثمانيين استولوا علـى (القسطنطينية) مقر البطريرك (الأرثذوكسي) وهو أمر يوغر صدور الروس ضـد العثمانيين [2] . ومن هذا المنطلق كانت أهداف الروس واحدة منذ نشأة دولتهم ويمكـن إيجاز هذه الأهداف في :

١- السيطرة على المضائق التركية في سبيل الوصول إلى المياه الدافئة، وبالتالي منافسة الأمم الأخرى وهذا هدف ظاهري حقيقته الـسيطرة على (القسطنطينية) وهزيمة الإسلام هناك وإدخال المسلمين فـي حظيرة النصرانية .

---

(1) موسكو : مدينة عظيمة وسط بلاد روسيا ، كانت عاصمة لها ، ثم نقلها بطرس الأول إلى مدينة سان بطـرس برج ، وهي حالياً عاصمة اتحاد روسيا . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص١٨٣ .

(2) البطريق ، ونوار : تاريخ أوروبا ، ص ص٢٤٧ ، ٢٤٨ ؛ أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٢٢٨ .

٢- استرجاع (القسطنطينية) من أيدي المسلمين وإعادتها إلى (الكنيسة الأرثذوكسية) والقصد من هذا الهدف هزيمة المسلمين أيضاً وتدمير وحدتهم وترابطهم .

٣- التوسع في الجهات الجنوبية والجنوبية الشرقية بحجة الوصول إلى الأراضي الحارة المنتجة لبعض السلع والتقليل من ضغط السكان الروس في المناطق التي يقطنونها . والقصد الحقيقي يكمن في هزيمة المسلمين في تلك المناطق وتشتيتهم ويحتج الروس في هذه النقطة بمنافسة الأمم الغربية [١] .

ولما تعسر على (قيصرية روسيا) الوصول إلى المياه الدافئة في بداية الأمر والاتصال بالمراكز الحضارية والتجارية في (أوروبا) لجأت إلى الاتجاه شرقاً متجنبة لفت أنظار العثمانيين أو الاحتكاك بهم ، وبسبب انشغال العثمانيين بحدودهم الغربية في (أوروبا) فإنهم لم ينتبهوا إلى الخطر الروسي منذ وقت مبكرة ، ولم تتبلور حقيقة الخطر الروسي بشكل واضح إلا بعد استيلائهم على (استراخان) عام (٩٦٤هـ/١٥٥٦م) مما جعل العثمانيين يقودون حملة على (استراخان) لتخليصها عام (٩٧٧هـ/١٥٦٩م) ، ويخططون أيضاً لربط (بحر الخزر) بـ(البحر الأسود) بقناة يجري شقها بين نهري (الدون) و (الفولغا) ، وكان الغرض من الحملة التي نفذها العثمانيون على (استراخان) وتنفيذ هذا المشروع هو تحقيق عدة أهداف تدل على شمول تفكيرهم ، مثل تخليص أراضي (استراخان) ، وضمان الأمن في شمال (البحر الأسود) ، وتيسير عملية إمداد الجيش العثماني بالمؤن عن طريق البحر من الشمال في حالة الحرب مع (الصفويين) ، وكذلك تدعيم التحالف مع إمارتي (الأوزبك) [٢] ،

---

(1) علي حسون : العثمانيون والروس ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ص ص٤٥ ، ٤٦ .

(2) الأوزبك : اسم لشعب يتكلم التركية ومتأثر بالثقافة الفارسية وتسمى بلادهم قديماً بـبلاد (الصغد) حكمها العرب في القرن (٢هـ/٨م) ثم آلت لخوارزم في القرن (٨هـ/١٤م) ثم إلى القبيلة الذهبية في (١٠هـ/١٦م) ثم دخلت تحت الحكم الروسي سنة ١٨٧٥م وأخيراً أصبحت جمهورية سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م وتعرف بجمهورية (أوزبكستان) . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٢٦٢ .

و (بخارى) [1] السنيتين في (آسيا الوسطى) ضد الشيعة في (إيران) وضد (قيصرية روسيا) الأرثوذكسية [2] .

ولكن هذه النتائج لم تتحقق بشكلٍ تام لأن مشروع شق القناة ظل فكرة مجردة .

وإذا كان العثمانيون قد قضوا على الخطر الروسي ولو بشكل مؤقت من خـلال حملة (استراخان) في أواخر القرن (١٠هـ/١٦م) فإنهم قد فتحوا مجالاً آخر للروس عن طريق الضربة التي وجهت إلى (بولونيا) عام (١٠٣١هـ/١٦٢١م) ، والتي أدت إلى إضعافها في تلك الفترة . وكانت معاهدة (خوتين) التي تلت هذه الضربة في العام نفسه لم تحقق النفع للعثمانيين بالقدر الذي حققته للروس على المدى البعيد ، فمن ناحية جعلت هذه الضربة (بولونيا) المعادية للروس في وضـع حـرج . علمـاً أن بقـاء (بولونيا) قوية وقادرة على مواجهة الروس أمر من شأنه أن يحفظ توازن القوى فـي المنطقة ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الضربة في العمق (البولوني) أعطت (روسيا) نموذجاً في كيفية القضاء على (بولونيا) [3] وهو ما سيتحقق على المدى البعيد ويجعل الدولة العثمانية في مواجهة مباشرة مع الروس في القرن (١٢هـ/١٨م).

ولـم تمـض عشـر سنـوات علـى مقتـل السلطـان (عثمـان الثـاني) حتـى عـادت المشاكـل إلـى منطقـة (البحـر الأسـود) واتفـق ذلـك مـع حـدوث فوضى داخلية في الدولة العثمانية بسبب خروج (محمد أباظة باشا) [4] والي

---

(1) بخارى : إمارة تقع بوسط آسيا في (تركستان) يحدها جنوباً أفغانستان ، دخلت تحت حكم المسلمين في القرن (١-٢هـ/٧-٩م) ثم حكمت من قبل أمراء (خراسان) ثم احتلها (جنكيز خان) ثـم دخلـت تحـت طاعـة الأوزبك ، في القرن (١٠هـ/١٦م) وظلت إلى أن احتلها الروس عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م . انظر : الموسـوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٣٣١ .

(2) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ص٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(3) اوزتونا : تاريخ ، ج١ ، ص٢٥٧ .

(4) أباظة محمد باشا : كان أحد رجال الثائر (جنبولاد) وقد أسره العثمانيون ثم أرادوا قتله ولم يبق على حياتـه إلا تدخـل (خليل آغا) الإنكشاري الذي ولاه فيما بعد عدة مناصب منها ولاية أرضروم عـام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م ، وقد عرف (أباظة محمد باشا) بعدائه الشديد للإنكشارية ، وكان نجاحه مثار إعجاب السلطان مراد الرابع ، ولكن حساده أوغروا صدر السلطان عليه فأمر بقتله عام ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م . انظر : دائرة المعـارف الإسلامية ، ج١ ، ص١٢٦ .

(أرضروم Erzeroum) [1] ثائراً في عام (١٠٣٢هـ ـ/١٦٢٢م) ، وكـذلك كانـت تمردات (الجلالية) [٢] قد نشبت في (الأناضول) والولايات العربية أضف إلى ذلـك ثورة الجند في العاصمة نفسها ، ولم يستطع السلطان (مصطفى الأول) فعـل شـيء بسبب قصر مدة حكمه (سنة واحدة عام ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م) كما أن السلطان (مـراد الرابع ١٠٣٢هـ-١٠٥٠هـ/١٦٢٣م-١٦٤٠م) الذي تولى بعده كان صغيراً في السن وكان زمام الأمور بأيدي حريم القصر والصدور العظام [٣] . ورغم أن موقف الدولـة لم يكن حرجاً بدرجة كبيرة في (الميدان الأوروبي) إلا أن موقفها في (آسيا) كـان حرجاً للغاية . فقد استغل (الشاه عباس الصفوي) هذه الأوضاع للتقدم حتى (بغداد) التي سقطت في أيدي القوات الصفوية بسهولة وذلك في عام (١٠٣٤هـ ـ/١٦٢٤م) . ولـم يستمر الوضع هادئاً في (الميدان الأوروبي) فقد استغلت كل من (بولونيا) و (قيصرية روسيا) هذه الأوضاع وحرضوا (قوزاق أوكرانيا) لمهاجمة حدود الدولة العثمانية الأمر الذي شكل خطورة على وضع العثمانيين في الشمال الأوروبـي ، وزاد الأمر سوءاً أن خانات (القرم) الذين يعتمد عليهم العثمانيون في التصدي (للقوزاق) قد انشغلوا بالصراع الداخلي على الحكم [٤] . وظلت هذه المشاكل معلقة دون إيجاد حلٍ لها .

ولكن في عام (١٠٤٢هـ/١٦٣٢م) دخلت الدولة في مرحلة جديدة وذلـك لأن السلطة الفعلية غَدت بيد السلطان (مراد الرابع) وتحت سيطرته فبدأ بإقرار الأوضاع الداخلية والتخلص من عناصر الفساد داخل الدولة ، أما في الخـارج فقـد رأى هـذا السلطان البدء بالجبهة الشرقية (الإيرانية) فأنفذ عدة حمـلات عسكريـة لاستعـادة (بغداد) و (شمال العراق) ولكن قسوة المناخ ، وبعد المسافة كانت عوامـل مهمـة

(1) (أرضروم Erzeroum) : مدينة في الأناضول تقع على خط عـرض ٣٩,٥٥ ، وطـول ٤١،١٧ ، وهـي مركز لولاية ولواء يحملان الاسم نفسه ، تقع على سفح جبل غير بعيد عن نهر الفرات فتحها العثمانيون سـنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م . انظر : موستراس : المعجم ، ص٤٥ .

(2) الجلالية : في الأصل الاسم الذي يطلق على أتباع (جلال) الذي ثار على العثمانيين في (طورهال) علـى أنـه المهدي المنتظر . ثم أصبح هذا الاسم يطلق على الثائرين في وجه الدولة . انظـر : سـهيل صـابان : المعجم ، ص٨٦١ .

(3) البكري : نصرة ، ص ص٢٠٢ ، ٢٠٣ ؛ المحامي : تاريخ ، ص٢٨٢ ؛
Shaw : History , cild . 1 , p.p.268 , 269 .

(4) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٣ .

لفشل هذه الحملات ، كما أن محاولة العثمانيين في إقامة تحالـف مع حكام (الهند) و (تركستان) لتطويق (إيران) قد تعرضت للفشل . وإزاء هـذه المعـضلات قـرر الـسلطان (مـراد الرابـع) الخـروج بنفـسه علـى رأس الحملـة فـي عـام (١٠٤٨هـ/١٦٣٨م) وكان خروجه باعثاً على صمود الجنود ممـا أدى إلـى نجـاح الحملة في استرداد (بغداد) وانتهت الحرب (العثمانية الصفوية) بمعاهـدة (قـصر شيرين) [١] عام (١٠٤٩هـ/١٦٣٩م)[٢]. وعلى أساس هذه المعاهدة رسمت الحـدود بين الدولتين .

كان العثمانيون أثناء خوضهم الحرب (الصفوية) قد أنفذوا بعض الحملات إلى منطقـة (البحـر الأسود) فـي عام (١٠٣٥هـ/١٦٢٥م) وذلك لوضع حدٍ لهجمات (القوزاق) ، وكذلك عملوا على تهدئة الأوضاع في (القرم) وذلك بدعم (جانبـاي كيراي) ضد أمراء (القرم) المتعاونين مع (روسيا) و (بولونيا) . وقد نجحت هذه الحملات في التصدي لهم طيلة عام (١٠٣٥هـ/١٦٢٥م) . وتحاشياً لخروج الإمارات التابعـة لهم عن السيطرة العثمانية ولقطع اتصال بين هـذه الإمـارات (الأفـلاق ، والبغدان ، وترانسلفانيا) وبين الدول المجاورة لها والمحرضة لها على الثـورة [٣] . بذل العثمانيون جهودهم في إقامة شريط أمني حولها، وهـذا الأمـر كـان اسـتمراراً للسياسة التي اتبعتها الدولة قبل ذلك لحمايـة نفوذهـا فـي (شمـال البحـر الأسـود) عندمـا أقامـت شريطـاً أمنيـاً وراء تلـك الـسواحـل ، فوسعـت منطقـة (سلسترة Silstra – وآقكرمـان) [٤] بحيـث تأخـذ معهـا (بنـدر

(1) قصر شيرين : يقع على الجنوب الشرقي من كركوك ، على الحدود العراقية ، الإيرانية . انظر : اوزتونـا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٨٣ .

(2) لمعرفة المزيد عن الحروب (العثمانية الصفوية) . انظر : اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٧٨ .

(3) Shaw : History , cild , s.270 .

(4) (سلسترة Silistra) : مدينة محصنة في بلغاريا بنيت على الطرف المنبسط من نهـر الـدون عنـد سـفح منحدرات صغيرة تحمل الاسم نفسه ، وتتبع لواء (روسجق) وتقع حالياً في (رومانيا) . انظر : موستراس : المعجم ، ص٣٠٣ . =

= آقكرمان : ميناء في رأس خليج صغير مقابل شبه جزيرة القرم ، يصب فيه نهر الدنيستر Dniestr ، واسـم هذا الميناء حديثاً (ديستروفسكي Diestrovsky) . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص١٧٤ .

(Bandery) [1] ، كما شاءت استكمال تلك الدائرة بتشكيل إيالة (أكـري Egri) ثـم إيالة (قمانيجة Kamenets) [2] فيما بعد وسوف تمتد سياسة حماية الـشمال حتـى الربع الأخير من القرن (١١هـ/١٧م) لتشمل أوكرانيا [3] ، كما سنرى .

ورغم هذه الجهود المبذولة في سبيل استمرار سياسة حماية منطقـة (البحـر الأسود) فقد كانت الحركـات الاستقلالية عائقاً في وجه الـسيطرة العثمانيـة علـى المنطقة ، فبعد وفاة السلطان (مراد الرابع ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م) وحدوث فـراغ فـي السلطة داخل العاصمة العثمانية . بدأت بعض القـوى المتربـصة بالدولـة . تعبـث وتتحرك باستقلالية ، ففي الوقت الذي انشغلت الدولة بفتح جزيرة (كريـت Guirid) عاد الصراع مع (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) بعد توقفه لمدة (٥١ سنة) وذلك بعد انتهاء (حرب الثلاثين عاماً) – سابقة الذكر - ، وقد نشب الصراع في هذه المرة حول إمارة (ترانسلفانيا) وكان بقاء هذه الإمارة كقلعة للبروتستانت خـلال (حـرب الثلاثين عاماً) عنصراً مهماً للتوازن ضد (آل هابسبورج) .

ويعد ذلك نجاحاً عظيماً بالنسبة للعثمانيين ، ولكن أمير (ترانسلفانيا) (جورج راكوكزي Gyorgy Rakoczi) بدأ منذ عام (١٠٦٨هـ/١٦٥٧م) بحركته الاستقلالية بالتعاون مع ملك (السويد) . وكان هذا الأخير قد طلب من العثمانيين التحالـف معه لشن حرب على (بولونيا) . ولما كانت الدولة تخوض الحـرب فـي (كريت) فقد رفضت هذا الطلب . فعمـل ملك (السويد) على الالتفاف حول الدولـة وتجاوزهـا بالتحالف مـع (جورج راكوكزي) فأعلـن (جورج) نفسه زعيماً (بروتـستانتياً) فانضم إليه أميري (الأفلاق) و (البغدان) وتشعب الأمر بانضمام (قيصرية روسيا) وذلك بهدف اقتسام (بولونيا) بين القيصر الروسي وأمـير (ترانـسلفانيا) ، وكـان الصدر الأعظم (محمد باشا كوبريللي) يعلـم جيـداً أهميـة (ترانـسلفانيا) فـي

---

(1) (بندر Bandery) : مركز لواء بوجاق المكون من أراضي بسرابيا الجنوبية في البغدان ، ويقع بين نهـري بروت ودنيستر على ساحل البحر الأسود . انظر :
Ismail Hami : izhli osmanli , cild . 2 , s.478 .

(2) (قمانيجة Kamenets) : تقع على مسافة ٢٠كلم في الشمال الشرقي من قلعة خوتين على الضفة الشرقية من نهر دنيستر . انظر : أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٢١ .

(3) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٤ .

توطيد سياسة الدولة في (أوروبا الوسطى) لكونها معبراً بين (المجر) و (بولونيا) ، كما أنها تنطوي على أهمية كبيرة بالنسبة لـسياسة الـشمـال التـي ركـز عليهـا العثمانيون منذ زمن [1] . وإثر الشكوى التي تقدم بها سفير (بولونيـا) لـدى البـاب العالي تحرك الوزير (محمد باشا كوبريللي) نحو (ترانسلفانيا) للحـد مـن أطماع (راكوكزي) التوسعية ، واستطاع الانتصار عليه بالقرب من سواحل (فـستولا) [2] عام (١٠٦٩هـ/١٦٥٨م) [3] . وهرب أمير (ترانـسلفانيا) إلـى (الإمبراطوريـة الرومانية المقدسة) . وظل فيها إلى أن مات عام (١٠٧١هـ/١٦٦٠م) . أما الوزيـر (محمد باشا كوبريللي) فقد قام بعدة تغييرات إداريـة لـضمان اسـتمرار الحمايـة والسيطرة العثمانية على المنطقة ، فعمـل على نقـل مركـز إمـارة (الأفلاق) إلى (بخارست Bucarest) [4] بعـد أن كـان فـي العاصـمة الـسابقة (تاركوفيـسته Tirgoviste) [5] ومنذ ذلك الحين أصبحت (بخارست) عاصمة لـ (رومانيا) [6] .

أما إمارة (ترانسلفانيا) فقد جعل البروتستانت الموجودين بها تحـت الحمايـة العثمانية المباشرة ، وكذلك قلص هذه الإمارة وألحقها بإيالة (بودين Bodin) وانتزع قلعة (وارات Varat) من (النمسا) وحولها إلى إيالة جديدة [7] .

---

(1) يوسف الثقفي : لمعان الضوء ، ص٢٣٩ ؛ أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٦ .

(2) فستولا Vistula : النهر الرئيسي في بولند (بولونيا) طوله ١٠٧٢كلم ينبع من جبال الكارابات ويجري نحو الشمال وصب في البحر البلطي عند دانزج . انظر : الموسوعة العربية ، ص١٣٠٠ .

(3) إبراهيم حليم : التحفة الحليمية في تـاريخ الدولـة العليـة ، مؤسـسة الكتـب الثقافيـة ، بيـروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص١٣٣ ؛ أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٠٢ .

(4) بخارست : عاصمة رومانيا وأكبر مدنها تقع على نهر (دامبوفينا) رافد نهر الدانوب . انظـر : الموسـوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٤٢٥ .

(5) تاركوفيسته Tirgoviste : المركز القديم لإمارة الأفلاق في رومانيا ، تقع شمالي غرب بخارست على بعـد ٩٠كلم منها . انظر :
Ismail Hami : izahli , cild . 3 , s. 975 .

(6) رومانيا : تقع جنوب شرق أوروبا ، عاصمتها (بخارست) مساحتها ٢٣٧,٣٨٤ كلم٢ ، يحدها مـن الـشرق البحر الأسود ، وأوكرانيا ، ومولدافيا ، ومن الشمال أوكرانيا وهنغاريا ، ومن الغـرب يوغـسلافيا وجنـوب بلغاريا. انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٩٠١ .

(7) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥٠٢ ، ٥٠٣ .

كانت هذه الإجراءات طريقاً لوضع حلٍ تام لمشكلة (ترانسلفانيا) ولكن عصيان (أباظه حسن باشا) في (الأناضول) قد بلغ حداً خطيراً وتطلب إخماد هذا العصيان تأجيل النظر في مشكلتي (كريت) و (ترانسلفانيا) وبالتالي تأخير وضع حلٍ لها .

في الواقع لابد من الإشارة إلى أن جهود الصدر الأعظم (محمد باشا كوبريللي) أعادت الدولة إلى طريق الاهتمام بحركة الجهاد والفتح من جديد ، وقد بدت آثار هذا الاهتمام في سياسة الدولة في وسط وشمال (أوروبا) ، فبعد مرور (٥٦عاماً) على معاهدة (ستيفاتورك) عادت الحرب بين العثمانيين والنمسا التي كانت تساند تمرد (جورج راكوكزي) وكان انتزاع (محمد كوبريللي) قلعة (وارات) من (النمسا) ، ثم دخول (أحمد كوبريللي) الصدر الأعظم الجديد (إمارة ترانسلفانيا Transilvanya) عام (١٠٧٣هـ/١٦٦٢م) [1] . من الأسباب التي جعلت (النمسا) تعلن الحرب على الدولة العثمانية ، وخلافاً لما جاء في معاهدة (ستيفاتوروك) أنشأ (النمساويون) قلعة (سرينفار Serinwar) [2] على الحدود العثمانية ، وتمخضت الحروب التي نشبت بين الطرفين عن سقوط قلعة (أويفار Uivar) [3] في يد العثمانيين ، كما حقق الجيش العثماني نصراً كاسحاً على الجيش المكون من عدة دول أوروبية ، وتقدم العثمانيون نحو (سلوفاكيا) [4] و (بوهيميا) [5] ، و (مورافيا Moravia) [1] ، و (سيليزيا Silosie) [2] ،

(1) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٦٩ .

(2) سرينفار Serinwar : تقع إلى الشرق من نهر (راب) وإلى الجنوب من (فيينا) ، ويسميها الأتراك يني قلعة . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٩٦ ؛ أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٠٦ .

(3) (أويفار Uivar) ، وبالألمانية (نوهزل Neuhausel) تقع شمال غرب بودابست على الشرق من فيينا بـ ١١٠كلم ، ومن براتسلافا بـ ٨٠كلم . انظر : اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٠٦ .

(4) سلوفاكيا : ولاية مساحتها ٤٨٩٥٦ كلم ، عاصمتها (بارتسلافا) تتاخم مورافيا وسيليزيا غرباً ، والنمسا من الجنوب الغربي ، والمجر جنوباً ، وروثنيا شرقاً ، يقع معظمها في جبال الكربات من أدنى أجزاءها قريب من نهر الدانوب وجنوبها جزء من سهل المجر . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٩٩٩ .

(5) بوهيميا : مقاطعة قديمة مساحتها ٥٢٠٦٤كلم٢ بقرب تشيكوسلوفاكيا ، عاصمتها (براغ) ، تفصلها عن (بافاريا) غابة بوهيميا ، وعن سكسونيا جبال ارزجبرج ، وعن سيليزيا السوديت . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٤٤٩ .

و (بولونيا) حيث بلغت الدولـة أقـصى فتوحاتهـا نحـو الغـرب فـي هـذا العـام (١٠٧٤هـ/١٦٦٣م) حتى أن الجيش العثماني أقترب من مدينة (فيينا) حيث أسـسوا إيالة (أويفار Uivar) في جنوب (سلوفاكيا) [٣] .

وبطبيعة الحال أثار هذا التقدم الإسلامي الذي أعاد إلى الأذهان تفوق الدولة في عهد (سليمان القانوني) رعباً شديداً في الأوساط الأوروبية ، ولـذلك نهـضت دول (أوروبا) لمساعدة (امبراطور النمسا) في مواجهة (العثمانيين) . وبـالرغم مـن الخلاف الذي كان بين (الإمبراطور ليوبولد الأول) و (لويس الرابع عـشر) ملـك (فرنسا) فقد وسط (الإمبراطور) البابا (اسكندر السابع) لطلب النجدة من الملـك الفرنسي . فانضم إلى صفوف (النمسا) أشراف (فرنسا) ونخبة من فرسان أوروبـا المشهورين أمثال (دي كوليني) أشهـر أمراء (الراين) ، حلفاء (لـويس الرابـع عشر) ، وكذلك (دي ستروزي Von Strozzi) ، و(مـونتي كوكـوللي Monte Cuculli) وهو أشهر قائد عسكري في (أوروبا) في (ق١١هـ/١٧م) [٤] . وكـان لوجود هذا الأخير تأثيراً كبيراً على مجرى الأحداث .

وفي عام (١٠٧٥هـ/١٦٦٤م) عبـر قسم من الجيش العثمـاني نهـر (راب Raba) [٥] بالقرب من معبد (سانت غوتـارد Sant Gotard) [٦] فـي (مـوجر

---

(1) مورافيا Moravia : منطقة من تشيكوسلوفاكيا ، تقع إلى الشرق من بوهيميا وقد سميت بهـذا الاسـم تبعـاً لمجموعة الأنهار المعروفة باسم مورافا عاصمتها برنو Brno . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٩٥ .

(2) سيليزيا : منطقة تاريخية في أوروبا الوسـطى يخترقهـا نهـر (أوديـر Oder) حكـم البولونيـون سـنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م الجزء الجنوبي منها ، ثم اسـتولى عليهـا الألمـان ، ثـم أعيـدت إلـى بولونيـا عـام ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م ما عدا الجزء التشيكي ، وطردت بولونيا الألمان الذين استوطنوها ثم أصبحت جـزءاً مـن بولونيا . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص ص٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(3) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٠٦ .

(4) المحامي : تاريخ الدولة ، ص ص٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(5) نهر راب : نهر ينبع من استريا الشرقية بالنمسا ويجري نحو الجنوب الشرقي إلى المجر ثم في اتجاه الـشمال الشرقي ليلتقي بنهر الدانوب . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٨٤٩ .

(6) سانت جوتارد : سميت بهذا الاسم نسبة لكنيسة قديمة حصلت المعركة بالقرب منها ، في المدينـة النمـساوية المعروفة بنفس الاسم وتقـع هذه المدينة على الجانب الغربي من نهر (راب) . انظر : المحـامي : تـاريخ الدولة ، ص٢٩٧ .

سدروف Mukkesrof) ولكـن (مونتي كوكوللي) قام بنسف الجسر قبـل عبـور القسم الآخر من الجيش العثماني . فأبيد القسم الأول عن بكرة أبيهم من قبـل القـوات الأوروبية ، وعرفت هذه المعركة باسم (معركة سانت غوتارد) ، وعلى الرغم مـن الهزيمة العسكرية التي تعرض لها الجيـش العثماني فـي هـ ـذه المعركـ ـة إلا أن انتصـار (النمسـا) لم يكن حاسماً فيها ، فقد تعـرض (الهابـسبورج) لخـسائر فادحة . ولذلك فإنهم لم يخاطروا بخوض حربٍ أوسع ضد العثمانيين فسعوا في طلـب الصلح ومن ناحية أخرى كان النمساويون بحاجـة إلـى هذا الصلـح حتى يتفرغـوا لمناوأة السياسـة الفرنسيـة . وعلى ذلك عقدت معاهدة (فاسفار Vasvar) [١] بـين العثمانيين والنمساويين في عام (١٠٧٥هـ/١٦٦٤م) وحقق العثمانيون في مآربهم مـن هذه الحرب حيث أقرت المعاهدة سيادة الدولة العثمانية على (ترانسلفانيا) وضـمنت كذلك استمرار معاهدة (ستيفاتوروك) ، وبقاء عامة القلاع مثل (أويفـار Uivar) ، و (نوفيكراد Novegrda) [٢] و (ينـي قلعـة) [٣] التـي فتحهـ ـا العثمانيـ ـون بأيديهم [٤] ، وتمكن العثمانيون بعد ذلك من مواصلة فتح جزيرة (كريـت Guirid) كمـا سبقت الإشارة إلى ذلك .

وبالنظر إلى هذه الأحداث نجد أن هذه الحروب أعادت للجيش العثمـاني ثقتـه بنفسه وهذا يعني أن العثمانيين حققوا نصراً معنوياً ، حتى أن هذه المكاسـب أعـادت للدولة انتعاشهـا السياسـي إزاء الدول الأوروبيـة ، حيث بدا الوقت مناسباً للرد على (فرنسا) التي كانت تعمل على مساعدة أعداء الدولة في حروبها التي ذكرناها سابقاً . فقام الصدر الأعظم (أحمد كوبريللي) بحرمان فرنسا من امتيازاتها الاقتصادية ، بـل

---

(1) (فاسفار Vasvar) : قصبة تركية تبعد عن حدود النمسا ٢٥كلم ، وتقع بالقرب من قانيجه وهي مركز أحـد الألوية المجرية . انظر :
Ismail Hami : izahli osmanli , cild . 3 , s . 975 .
ولمعرفة بنود المعاهدة . انظر : طقوش : العثمانيون ، ص٢٧٨ .

(2) (نوفيكراد Novegrad) : تقع في المجر إلى الشمال من (بودابست) والي الشمال من نهر الدانوب وهـي أحد مراكز الولايات القديمة في المجر . انظر :
Ismail Hami : izahli osmanli , cild . 4 , s. 532 .

(3) يني قلعة سبق التعريف بها تحت مسمى سرينفار .

(4) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٧ .

وزاد على ذلك بأن منح كلاً من (جنوة) و (انكلترا) امتيازات تضاهي الامتيـازات الفرنسيـة السابقـة . وتداركـاً لهذا الضـرر الاقتصادي الذي لحق (بفرنسا) أرسل (لويس الرابع عشر) سفيره (نواتل Nointel) . وعندمـا حضر هذا السفيـر لدى البـاب العالي أخذ يتحدث عن ثروة مليكه وقوته العسكرية ، وذلك في حضرة السلطان (محمـد الرابع) ولما لم يرق هذا التهديد الضمني للصدر الأعظم أجابه باستخفاف : " أجل أن إمبراطور فرنسا عاهل عظيم ولكن سيفه لا يزال جديداً " [1] .

ولما رأى (لويس الرابع عشر) أنه قد فشل في تهديده أرسل سـفيره للمـرة الثانية على رأس أسطول حربي وذلك لإرهاب الدولة العثمانية ، ولكن محاولته الثانية لـم تفلح أيضاً . ورد عليه الـصدر الأعظـم قـائلاً : " أن هـذه المعاهـدات (أي الامتيازات) لم تكن إلا منحاً سلطانية لا معاهدات اضطرارية واجبة التنفيذ وأنه إن لم يرتح لهذا الجواب فما عليه إلا الرحيل " [2] .

وبسبب هذا الموقف كادت الحرب أن تقع بين الدولتين لولا أن الوزير الفرنسي (كولبير) استطاع بمساعيه السياسية أن يقنع مليكه بعدم جدوى محاربـة العثمـانيين منفرداً وأن يتحايل لدى السلطان حتى عادت العلاقات إلى سـابق عهـدها فـي عـام (١٠٨٤هـ/١٦٧٣م) [3] .

---

(1) بيهم : فلسفة التاريخ العثماني : كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أي حد بلغت عظمتهـا ، مكتبـة صادر ، بيروت ، ١٣٣٤هـ/١٩٣٥م ، ط١ ، ج١ ، ص٢٨٩ .

(2) علي الصلابي : الدولة العثمانية ، ص٣٠٨ ؛ المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٩٨ .

(3) المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٩٨ ؛ العزاوي : الدولة العثمانية ، ص٢٦٠ .

د- معاهدة (بوجاش Buezcaj) وخروج بولونيا عن التبعية العثمانية عام (١٠٨٧هـ/١٦٧٦م)

لقد شجعت الانتصارات التي حققها العثمانيون في (وسط أوروبا) على عـودة الروح الجهادية إلى ما كانت عليه في السابق ، الأمر الذي جعلهم يفكرون فـي فـتح جديد ، وكانت رغبة العثمانيين في إكمال حماية (شمال البحر الأسود) دافعاً لاختيار (أوكرانيا) كميدان للجهاد ، وبطبيعة الحال فإن دخول العثمانيين إلى هـذه المنطقـة سيجرهم إلى الاشتباك مع (بولونيا) و (قيصرية روسيا) .

فبعد حملة (خوتين) ساد الهدوء في منطقة (شمال البحـر الأسـود) وظـل العثمانيـون يراقبون المنطقـة إلى أن سنحـت لهم الفرصـة للدخول في حرب ضد (بولونيـا) وانتـزاع السيطـرة علـى (أوكرانيا) ، فقد كان القسـم الجنوبي من

(أوكرانيا) والذي يقع على سواحـل (البحر الأسود) يسكنه (قوزاق الدنيبر) [1] و (الأكرانيون) ويسود فيه المذهب (الأرثوذوكسي) تحت حماية (خان القرم) التابع للعثمانيين ، أما القسـم الشمالي فيسكنـه (قوزاق الزابوروج) [2] وهو تحت سيطرة (بولونيا الكاثوليكية) وكان هذا القسم محلاً للنزاع بين (البولونيين) وبين (الروس) الذين بدأ تدخلهم في المنطقة يزداد شيئاً فشيئاً ، وتم تقسيم هذا الجزء بين (الروس) و (البولونيين) على أن يكون نهر (أوزي Uzo) [3] هو الحد الفاصل بين القسمين [4] مما سيثير مشكلة مذهبية ولذلك لجأ (قوزاق الزابوروج) إلـى العثمـانيين طـالبين الدخول في حمايتهم ، وطلب أميرهم (دور شنكو) الحماية من العثمـانيين ، ولعـل اللهجة التي استخدمها الصدر الأعظم في تهديده (لملك بولونيا) خير شاهد على مـا بلغته الدولة من الثقة في قوتها فقد جاء في رسالته إلـى (الملـك البولـوني) : " إن شريعتنا تأذن لنا بأن نعتبرك حربياً ، وإنا لقادرون على أن نذيقك مغبة التحرش بالأسد الرابض ، غير أنا نريد أن نرمق ضعفك ونبدأ بعامل الشفقة بإنذارك ونـصحك بـأن تسحب سريعاً أجنادك من بلاد (القوزاق) وأن تعتذر عما بدر منك . وإذا أبيت تقضي عليك شريعتنا بالموت وعلى مملكتك بالخراب ، وعلى شعبك بالرق . وذلك ، فـضلاً عما يلقى على عاتقك تجاه العالم من مسؤولية هذه المصائب " [5] .

---

(1) نهر الدنيبر : نهر في (بيلاروسيا) و (أوكرانيا) ينبع من تلال (فلداي) ويجري جنوباً ويصب في البحـر الأسود . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٨٠٦ ؛ شمس الدين سامي : قاموس الأعـلام ، ج٣ ، ص٢١٦٥ .

(2) الزابوروج : مدينة في جنوب (أوكرانيا) على نهر الدنيبر وهي المركز الرئيسي لقوزاق الزابوروج وحينمـا استقروا فيها كان جنوب (أوكرانيا) تابع لبولندا ، ولكنهم منحوا حكماً ذاتيـاً مقابـل حمـايتهم الحـدود وأدى الاضطهاد البولندي للعقيدة الأرثوذكسية إلى ثورة القوزاق ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م ، وتحول ولائهم إلـى روسـيا ، فأخذت روسيا من بولندا الضفة اليسرى لنهر الدنيبر ومدينة كييف ، وتقلصت امتيازات القـوزاق بعـد ثـورة (مازيبا) ثم ألغيت عام ١١٨٩هـ/١٧٧٥م . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٩١٥ .

(3) نهر (أوزي Ozu) : هو نهر الدنيبر الذي يقع في ثغر أوزي في الشمال الغربي من البحر الأسود ، ويجري هذا النهر في الجهة الشرقية من أوديسا . انظر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٦٦٠ .

(4) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٧١ ؛ أوغلي : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٧ .

(5) بيهم : فلسفة ، ج١ ، ص٢٨٩ .

وتبعاً لذلك تجدد القتال بين (بولونيا) والدولة العثمانية . وبالتعاون بين جيشي (القوزاق) والعثمانيين في عام (١٠٨١هـ/١٦٧٠م) تقدم العثمانيون نحو (بولونيا) وانتزعوا (قمانيجة Kemanets) وكذلك سيطروا على أراضي (بودوليا Podolie) [1] وبذلك وسعوا شريط الأمن في الشمال إلى مساحات أبعد حتى وصلوا إلى (لفوف Lwow) [2] و (وارسو) [3] . فبدأ البولونيون بطلب اللجوء إلى الصلح وبناء على طلبهم وقع الطرفان معاهدة (بوجاش Buezcaj) [4] عام (١٠٨٣هـ/١٦٧٢م) واعترفت بولونيا بموجب هذه المعاهدة بتبعيتها للعثمانيين وتعهدت بقطع علاقاتها مع (أوكرانيا) .

وقام العثمانيون بتأسيس بكاربكية (لفوف) في (بودوليا Podolie) بين نهري (دنيستر Dnyester) و (بج Bug) [5] . ولكن مجلس الديت أي (مجلس الحاكم)

---

(1) (بودوليا Podolie) : إقليم يقع في غرب أوكرانيا ويحده من الجنوب نهر دنيستر . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٩٩ ؛
Ismail Hami : izahli osmanli , cilld . 3 , s. 975 .

(2) (لفوف Lwow) وبالتركية (ايلباف) وبالألمانية (لمبرج) : مدينة غرب أوكرانيا عند الحضيض الشمالي لجبال الكربات ، مهمة لوقوعها على الطريق بين (فيينا) و (كييف) ، أصبحت قلعة بولندية لصد الغارات الآتية من الشرق ، دخلت تحت حكم البولنديين ثم الاتحاد السوفيتي ، ثم استعادتها بولندا عام ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج٢ ، ص١٦٥١ .

(3) وارسو : يطلق عليها (وارساو) بالبولونية ، تقع على ضفتي نهر (فستولا) في شرقي وسط بولونيا أصبحت عاصمة لبولونيا عام ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م ، تعرضت لغزو السويد عدة مرات ، وقسمت عام ١٢١٠هـ/١٧٩٠م بين النمسا وروسيا وبروسيا ، واستقلت بعد الحرب العالمية الأولى . للمزيد من المعلومات. انظر : الموسوعة العربية العالمية ، ج٢٧ ، ص ص١٢ ، ١٣ ؛ شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، ج٦ ، ص٤٦٥٦ .

(4) بوجاش هي ياسي Jasi : تقع في الشمال الشرقي من رومانيا بالقرب من الحدود الرومانية الروسية . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٦٢ .

(5) نهر دنيستر : طوله ١٣٦٨كلم ، يقع في جنوب غرب روسيا الأوروبية ، ينبع من جبال الكربات ويجري نحو الجنوب الشرقي ، بوجه عام مؤلفاً في بعض أجزائه الحدود بين أوكرانيا ومولدافيا حتى يصب في البحر الأسود في الجنوب الغربي من أوديسا . اسمه بالرومانية (نسترو) . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٨٠٧ .
(نهربج) : نهر بشرقي (أوروبا) وينقسم إلى طوله غربي وينبع من شرقي لفوف ويجري شمالاً مع الحدود البولندية الأكرانية ، أما الجنوبي فيجري في أوكرانيا متجهاً نحو الجنوب الشرقي إلى البحر الأسود . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص١٦٥١ .

البولوني اعترض على هذه المعاهدة ، مستجيباً لتحريضات البابوية و(الإمبراطوريـة الرومانية المقدسة) ، فتجددت الحرب بين الطرفين [1] .

وتقدم الجيش العثماني مرة أخرى في (أوكرانيا) و (بولونيا) وأضطر الملك البولوني (جون سوبيسكي Jhone Sobiesky) لتجديد معاهدة (بوجـاش) تحـت مسمى معاهدة (زوراونا Zorawna) في عام (١٠٨٧هـ/١٦٧٦م) . وتعهد بالتخلي عن (بودوليا) و (قمانيجة Kemanets) للعثمانيين.

ورغم أن الحرب أسفرت عن فتح عثماني بلغ أقصاه في هذه المنطقة ، حيـث أسس العثمانيـون إيالتي (بودوليا) و (قمانيجة) [2] . إلا أنهـا خلعـت بولونيـ ـا عن التبعيـة العثمانيـة . وذلـك بموجـب المعاهـدة الجديدة التـي عرفـت باسـم معاهدة (زوراونا) .

فـي عام (١٠٨٧هـ/١٦٧٦م) توفي الصدر الأعظم (أحمد فاضل كوبريللي) وخلفه في المنصب (مرزيفونلي قره مصطفى باشا) لتدخل الدولة في مرحلة جديـدة تستنفد فيهـا كامـل قوتهـا العسكريـة وتصـل إلى آخـر نقطـة تقـدم لهـا فـي (أوروبـا) .

بدأ (قره مصطفى) عهده بإكمال جهود سلفه في منطقة (أوكرانيا) وقد جرت حروب (أوكرانيا) الدولة العثمانية إلى الصدام مع (قيصرية روسيا) فقد ذكرنا سابقاً أن (لروسيا) نفوذاً على جزء من (أوكرانيا) . ومع مطلع عام (١٠٨٨هـ/١٦٧٧م)

---

(1) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٢١ ؛ المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٩٨ .

(2) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٧ ؛ بول كولز : العثمانيون ، ص١٨٩ ؛ نادية مـصطفى : العلاقـات الدولية ، ص٨٠ .

أنفذ العثمانيون حملة لحصار قلعة (جهرين Czehryn) [1] ، وأبدى الروس مقاومـة شديدة ، فاضطر قائد الحملة السردار (شيطان إبراهيم باشا) ومعاونه (سليم كيراي) خان القرم إلى رفع الحصار عن القلعة ، ولكن الصدر الأعظم قام بعزلهما عن القيادة ظناً منه أن تقصيرهما كان سبباً في فشل الحصار . كما أنه أساء معاملـة القـوزاق ، ونتيجة لهذه الأخطاء التي استهل بها عهده فقد العثمانيون عنصراً مهماً من عناصر قوة الجيش وهو العنصر (القرمي) ، كما أن القوزاق استاءوا من الصدر الأعظم وكـان ذلك سبباً في تمردهم وانضمام قسم منهم إلى الروس [2] .

وفي محاولة لفتح قلعة (جهرين) من جديد خرج السلطان (محمـد الرابـع) للمشاركة في حصارها واستطاع الجيش العثماني الصمود أمام المصاعب الجغرافيـة وتم فتح القلعة بعد (٣٢ يوماً) من الحصار عام (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) وانتهت المعارك بين الروس والعثمانيين بتوقيع معاهدة (أوزي Uzo) في عام (١٠٩٢هـ ـ/١٦٨١م) بموجب هذه المعاهدة اعتبرت منطقة نهر (أوزي) هي خط الحـدود الفاصـل بـين الدولتين ، وتعهد الطرفان بعدم إنشاء أي استحكامات عسكرية على طول خط الحدود ، كما تعهد العثمانيون بمنع (قوات القرم) من التوغل في الأراضـي الروسيـة ، واعترفـت بحـق (قيصـر روسيا) فـي حماية الكنيسـة (الأرثوذكـسية) فـي (كييف Kiev) [3] و (القدس) .

وبالنظر إلى ظروف توقيع هذه المعاهدة نجد أنها المرة الأولى التي يوقع فيهـا العثمانيون معاهدة مع الروس دون وساطة (خان القرم) . أما أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه المعاهدة ، فهي خسارة العثمانيين بانتقال شـريط سـميك مـن الأراضـي الأوكرانية (شمال أوكرانيا) إلى الملكية الروسية ، وتراجع خط الدفاع العثماني على

---

(1) قلعة جهرين Czehryn : تقع على مسافة ٤٠كلم في الجنوب الغربي من مدينة كريمنكو ، وجنـوب شـرقي كييف بمسافة ٢٣٠كلم ، وهي مركز لقوزاق أوكرانيا . انظر : اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٢٥ .

(2) سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٧٦ ؛ المحامي : تاريخ الدولة ، ص٣٠٠ ؛ إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية ، ص١١٢ .

(3) (كييف Kiev) : مدينة ارثذوكسية مقدسة تناقلت السيادة عليها ما بين الدولة العثمانية وبولونيـا وروسـيا ، وتقع إلى الشمال من البحر الأسود وبحر أزوف . انظر : أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٦٦٠ .

نهري (الدنيبر Dnyepre) و (بج Bug) ، والأهم من ذلـك أن روسـيا حققـت مكسباً كبيراً باعتراف العثمانيين بحقها في حماية الكنائس (الأرثوذوكسية) وبإنشـاء بطريركية ارثوذكسية فـي (موسكو) بعـد أن كـان مقـر بطريرك الأرثوذكس في (اسطنبول) ، وسوف ينجم عن ذلك ازديـاد المطالبـات الروسـية بحمايـة جميـع الأرثوذكس في الولايات العثمانية ونزاعات مع بطريرك القسطنطينية . وجملة القـول أن هذه المعاهدة جعلت من الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد الـروس هبـاء منثوراً [١] .

---

(1) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٢٥ ، و . Hakki Yildiz : Dugustan , cild . 11 , s.54

هـ- حصار فيينا الثاني

(١٠٩٥هـ-١٠٩٦هـ/١٦٨٣م-١٦٨٤م)

بالنظر إلى أحداث (شمال البحر الأسود) نجد أن العثمانيين حققوا انتصاراً عسكرياً على الروس ، ولكن هناك أمر تجب الإشارة إليه وهو أن العثمانيين خلال هذه الحروب فقدوا حليفاً قوياً وهو (خان القرم) دون أن يشعروا بأهمية ذلك ، فقد كان هذا (الخان) حليفاً إقليمياً وعسكرياً إذ أن بقاء منطقة بأكملها مواليةٍ للعثمانيين يعد عاملاً من عوامل توطيد الحكم العثماني في المنطقة ، أما وقد انقسم ولاء القرميين بين العثمانيين والروس فقد أصبحت منطقة (القرم) أشبه بإمارات (المجر) التي يتكرر تمردها .

لقد كان النصف الثاني من القرن (١١هـ/١٧م) بداية لحركة جهاديـة نـشطة ومتميزة واقترن هذا النشاط باسم عائلة (كوبريللي) كما هو واضح ، حيث وصـلت الحدود العثمانية إلى أقصى اتساعها في (شمال البحـر الأسـود) وفـي (أوروبـا الوسطى) وكذلك أمنت حدود الدولة من الجهة الشرقية ، وكان لهذا النجاح أثر كبيـرٌ على العثمانيين ، فقد رأى العثمانيون أن المرحلة الصعبة التي خاضتها الدولة بعد وفاة (القانوني) قد انتهت ، وأن الدولة بدأت بالعودة إلى مركزها الأول بقـوة ، ويتـضح ذلك ليس في الانتصارات العسكرية فقط . بل وفي خطابات الـسلاطين إلـى ملـوك أوروبا ، فعلـى سبيل المثال وبخ السلطان محمد الرابع سفير روسيا بعد توقيع معاهدة (أوزي) عام (١٠٩٢هـ/١٦٨١م) قائلاً لـه : " قـل لمليكـك أن يراعي الـصلح وإلا تعرض للعقاب " (١) . وقد شعر العثمانيون أن الوقت قد أصبح مناسـباً لاختـراق الإسلام قلب (أوروبا) وأن يصل إلى عاصمة (الإمبراطورية الرومانية المقدسـة) (فيينا) .

فبينما كانت حركة الجهاد قائمة في (شمال البحر الأسود) كانت هناك أحـداثً مضادة تُرسم ملامحها على أرض المجر . وبطبيعة الحال لابد أن تلقي هذه الأحـداث بظلالها على السياسة العثمانية في وسط (أوروبا) بل وسيكون لها تأثير كبيـر فـي تغيير وجهة التاريخ العثمـاني . فمنـذ انتهـاء حـرب (الثلاثـين عامـاً) سـعت (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) لإخضاع نبلاء المجر (البروتـستانت) لمـذهبها (الكاثوليكي) ، وكانت الحركة الوطنية في المجر في تصاعدٍ مستمر بفعـل النزعـة المعادية (للكاثوليك) .

وقد طلب نبلاء المجر المساعدة من الملك الفرنسي (لـويس الرابـع عـشر) وبطبيعة الحال امتنعت فرنسا عن تقديم العون لهؤلاء النـبلاء أولاً بـسبب الخـلاف المذهبي وثانياً لأنها كانت قد وقعت (سلام نمويجن Nemegven) (٢) مع (النمسا)

(1) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٢٥ .

(2) (سلام نمويجن Nemegven) : هي مجموعة من المعاهدات التي وقعتها فرنسا مع الدول الأوروبيـة كـل على حدة وبموجبها أوقفت فرنسا حربها ضد هولنده . وتنازلت اسبانيا عن عدة مدن لفرنسا ، ورغم أن فرنـسا

في عام (١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م) . ولكن (لويس الرابع عشر) وجه هؤلاء النبلاء لطلب المساعدة من الدولة العثمانية وذلك لجر العثمانيين للدخول في حرب ضد (النمسا) وفي نفس الوقت عمل على إثارة العثمانيين ودفعهم للدخول في هذه الحرب ، خاصة وأن النمساويين قد أنشأوا استحكامات عسكرية على الحدود العثمانية [١] .

أما في الجانب العثماني فإن تنامي النفوذ (الكاثوليكي) النمساوي في (المجر) و (ترانسلفانيا) يتعارض مع سياسة العثمانيين في المنطقة [٢] . ولهذا وجد العثمانيون أنفسهم مضطرين لمساندة ثورة النبلاء (البروتستانت) في (المجر) بناء على طلب (توكلي إيمره Tokeli Imre) أمير (المجر) ، وكذلك (أبافي Abafe) أمير (ترنسلفانيا) . وهكذا تسارعت الأحداث باتجاه الصدام . فاعترفت الدولة بتنصيب (توكلي) ملكاً على (المجر الوسطى) في عام (١٠٩٤هـ/١٦٨٢م) . من جهة أخرى كانت معاهدة (فاسفار Vasvar) الموقعة في عام (١٠٧٥هـ/١٦٦٤م) قد اقترب موعد انقضائها [٣] . وعلى هذا كانت الأوضاع الدولية دافعة لإعلان الحرب بين الطرفين .

ويفهم مما ورد في المصادر أن خطة السلطان (محمد الرابع) كانت تقتضي الوصول إلى قلعة (سرينفار Serinvar) و (كومرون Komorn) [٤] وتأجيل التوغل في أرض العدو إلى العام المقبل وكان الوزير (إبراهيم باشا) يؤيد هذا الرأي ، ولكن الصدر الأعظم كان يرى ضرورة توجيه ضربة قوية لكف النمسا عن

خرجت منتصرة من حروبها ضد هولنده إلا أنها خسرت الكثير من الأموال فضلاً عن الخراب الذي لحق ببعض أقاليمها . انظر : البطريق ونوار : التاريخ الأوروبي ، ص ص٢١٠ ، ٢١١ .

(1) بسام العسلي : فن الحرب ، ج٥ ، ص١٩١ ؛ سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٧٩ ؛ بول كولز : العثمانيون ، ص ص١٩٠ ، ١٩١ ؛ طقوش : العثمانيون ، ص٣٧٨ .

(2) Ahmet Tabak ogolu : gerilem Doemine girerken osmanli maliyesi , Istanbul , 1985 , s . 209 .

(3) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٧٤ .

(4) (كومرون Komorn) : تقع في جنوب أويفار ، على مسافة ١٢ ساعة من استركون . انظر : أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٦٩٨ .

التدخل في شؤون (المجر) ولهذا كان يفضل التوغـل فـي الأراضـي النمـساوية ومحاصرة عاصمتها (فيينا) [1] . وكان هذا الخلاف أولى بوادر الهزيمة .

وفي الوقت الذي كان العثمانيون يعدون العدة لخروج الحملة ، كان إمبراطـور النمسا (ليوبولد الأول) منشغلاً في الحرب مع فرنسا ، وخوفاً من فتح جبهةٍ أخـرى على الحدود (العثمانية النمساوية) حاول أن يجدد معاهدة (فاسفار Vasvar) ولكن دون جدوى .

ولهذا بدأ في البحث عن حلفاء له ، فأعلن أن الحملة العثمانية موجهة ضد العالم المسيحي الغربي [2] . كانت هذه الفرصة من أفضل الفرص أمام البابـا (اينوسـنت التاسع) لإثارة همة كل مسيحيي (أوروبا) للتصدي للحملة العثمانية ، كما قـام هـذا البابا بمساعدة الإمبراطور النمساوي بالمال حتى يضمن تحركـه لمواجهـة الجـيش العثماني ، وكذلك فعل الشيء نفسه مع ملك (فرنسا) [3] .

كان قرار الصدر الأعظم بالتحرك نحو (النمسا) مبنياً على نظرتـه للموقـف الدولي ، فقد كانت حدود الدولة آمنة في الشرق بعـد أن رسـمت الحـدود العثمانيـة الصفوية ، في معاهدة (قصر شيرين عام ١٠٤٩هـ/١٦٣٩م) وكانت الدولة قد وقعت معاهدة مع (بولونيا) وهي معاهدة (زوراونا) عام (١٠٨٧هـ ـ/١٦٧٦م) وكـذلك وقعت مع (روسيا) (معاهدة أوزي) عام (١٠٩٢هـ/١٦٨١م) . أما في الغرب فقد كانت كل من (فرنسا) و (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) قد خرجتا منهكتين من حربٍ ضروس ، أما في (المجر) فقد كان أتباع الأمير (تـوكلي إيمـره Tokeli Imre) راغبين في إقامة دولة (بروتستانتية) تحت الحمايـة العثمانيـة ، وبالنـسبة

---

(1) حول ما جرى من نقاش بشأن وجهة الحملة . انظر : اوزتونـا : تـاريخ الدولـة ، ج١ ، ص٥٢٨ ، ٥٢٩ ؛ سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٨٠ .
(2) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٩ .
(3) Hakki yildiz , Dugstun , cild .11 . s.68 .

(لإنكلترا) فقد كان أحد الأحـزاب وهـو حـزب (الهـويج hwig) [1] مؤيـ ـداً للعثمانيـ ـن [2] .

ولكن السلطان (محمد الرابع) كان رافضاً للتوغل في أراضي (النمـ ـسا) – كما أشرنا من قبل – ولعل ذلك يعود إلى اختلاف نظرته وتقييمه للموقف الدولي عـ ـن الصدر الأعظم خاصة وأن الدول الأوروبية كانت لا ترعى العهود والمواثيـ ـق ، وإذا كانت الدول السابقة الذكر قد وقعت معاهدات صلح مع الدولة العثمانية فـ ـإن احتمـ ـال نقضها لهذه المعاهدات ما زال قائماً ، كما أن هناك دولاً كانت شديدة العداء للعثمانيين، وكان انضمامها إلى (النمسا) أمرٌ مؤكد ، فإذا كان حزب (الهويج hwig) مؤيـ ـداً للعثمانيين ، فإن هناك حزباً آخر وهو (توري Tory) [3] كان منضماً إلى (النمـ ـسا) وكذلك كانت كل من (إيطاليا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، والدنمارك) تقف إلـ ـى جانـ ـب (النمسا) . أما (روسيا) فقد كانت مترددة في الانضمام لهذا التكتل خوفاً من اغتنـ ـام (القرم) و (بولونيا) و (السويد) الفرصة لمهاجمة الأراضي الروسية ، كما كانـ ـت (جمهورية البندقية) ترغب في الانضمام لهذا التكتل لتعويض خسارتها في (كريت).

وفي ربيع سنة (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) أطلق (قره مصطفى باشا) العنان لجيشه المتعدد العناصر فانساب عبر كل الولايات على طول نهر (الطونـ ـه) . وتراجعـ ـت القوات (النمساوية) حتى ارتدت إلى (فيينا) . كانت المدن والقلاع تتساقط في أيدي العثمانيين الذين فتحـ ـوا (بـ ـرجن لاندسـ ـتيريا Burgenland Stiry) و (النمـ ـسا الشرقيـ ـة) ، و (وادي الطونه) و (لينز Linz) ، أما وحدات الصاعقة فقد وصلت إلى حدود (سويسرا) .

---

(1) حزب الهويج hwig : هو الحزب المكون من الطبقة الوسطى (البرجوازية) في (إنكلترا) المؤيـ ـد لـ ـسلطة البرلمان ، العامل على إضعاف سلطة الملك ، وهم ليسوا من الديمقراطيين أو الأمراء أو المتطرفين . وهو لفظ اسكتلندي الأصل . انظر : لانجر : موسوعة ، ج٤ ، ص١١٤٤ ؛ البطريق ، ونوار : التـ ـاريخ الأوروبـ ـي ، ص٢٤٠ .

(2) أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٢٨ .

(3) حزب (التوري Tory) : هو الحزب المشجع لامتيازات الملكية ، بمعنى أنهم كانوا ورثة برلمان الفرسـ ـان وقد تطور هذا الحزب فيما بعد فسمي بحزب المحافظين ، واللفظ (توري) ايرلندي الأصل . انظر : لانجر : موسوعة ، ج٤ ، ص١١٤٤ ؛ البطريق ، ونوار : التاريخ الأوروبي ، ص٢٤٠ .

ونتيجة لهذا التقدم الإسلامي هرب (الإمبراطور ليوبولد الأول) من عاصـمته إلى (لينز) ، أما الجيش العثماني فقـد واصـل تقدمـه حتـى دخـل (براتـسلافا Bratislava) وكامـل (سلوفاكيـ ـا) حتـ ـى حـدود (مورافيـا Moravia) و (غاليجا) فـي شـرق العاصمـة النمساوية [١] حتـى وصـ ـل إلـ ـى (بـافيرا Baviere) [٢] وبذلك فرض حصاراً محكماً على هذه العاصمة .

لقد كانت هذه الحقبة مـن أهم حقب التاريـخ التـي حـددت مصيـر الطرفين (الإسلامي العثماني) و (المسيحي الأوروبي) على السواء ، وقد أدرك الأوروبيون جميعاً معنى حصار (فيينا) من قبـل قـوات إسلاميـة ، ومـدى ما يمكن أن يحيق (بأوروبا) إذا ما سقطت هذه المدينة بأيدي العثمانيين وقد أدى ذلك إلى تغييـر فـي الموقف الأوروبي على إثر إعلانها (للجهاد المقدس) فوافقت (فرنسا) على تأجيـل مهاجمة الحدود الغربية (للنمسا) ، وتعهد (لويس الرابع عـشر) بـسحب القـوات الفرنسيـة المعسكـرة على نهـر (الراين) واستخدامهـا ضد العثمانيين المحاصرين (لفيينا) [٣].

وجديرٌ بالذكر أن أمل العثمانيين في النصر كان يتركز بعد الاعتماد على ا – عز وجل – على جهود (فرنسا) في منع الملك البولوني (جون سوبييسكي Jhone Sobiesky) من المشاركة في الدفاع عن فيينا ، ولكن دون جدوى [٤] . وذلـك لأن فرنسا كما يتضح قد شاركت في الدفاع عن فيينا فأنى يتسنى لها منع البولـونيين عـن ذلك ، ومن جهة أخرى نجح البابا في إقناع (الملك البولوني) بنقض عهده مع الدولة (العثمانية) و (فرنسا) ونتيجة لذلك أخذ (الملك البولوني) خلفه (٢٠٠٠٠ فارس)

---

(1) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥٢٨ ، ٥٣٠ .

(2) (بافيرا Baviere) : إقليم يقع إلى الجنوب من ألمانيا وعاصـمته ميـونخ . المحـامي : تـاريخ الدولـة ، ص٣٠١.

(3) بول كولز : العثمانيون ، ص١٩٢ ؛ طقوش : العثمانيون ، ص٢٨١ .

(4) عبد العزيز نوار : التاريخ الحديث ، الشعوب الإسلامية ، ١٩٧٣م ، دار النهضة العربية للطباعة والنـشر ، ص١٦٠ .

وسار بهم نحـو عاصمة (النمسا) وانضم إليه كـلٌ مـن أميـر (ساكـسونيا) و (بافاريا) [١] .

اعتبر المؤرخون تدخل (جون سوبيسكي) السبب الرئيسي في الفشل الذي مني به العثمانيون في هذا الحصار . ولكن لدى العودة إلى المصادر الإسلامية يتبين لنا أن هناك عوامل أخرى أسهمت في فشل الحصار . فقد كانت المدينة على وشك الاستسلام من شدة الحصار وقد عرض من بداخلها الاستسلام ولكن الوزير (قـره مـصطفى) رفض قبول هذا العرض ، خوفاً من وقوع النهب من قبل الجيش مما يدل على ثقته من سقوط المدينة التي بات دخولها مسألة وقت لا أكثر . وقد ألح الوزراء الذين كانوا فـي هذه الحملة على (قره مصطفى) بدخول المدينة صلحاً ، ولكنه طلب منهم في مقابـل ذلك أن يضمنوا له سلامة المدينة من وقوع النهب وظل الجيش العثماني علـى هـذه الحال عدة أيام . وكان هذا الوقت كافياً لوصول الـدعم العـسكري بقيـادة (جـون سوبيسكي) إلى (فيينا) [٢] .

اعتمدت خطة الدفاع التي وضعها الصدر الأعظم على المهـام المـسندة إلـى القوات القرمية . فقد كان على قوات (القرم) التصدي للقوات البولونية ومنعهـا مـن عبور الجسر المنصوب على نهر (الطونه) . وفي حالة عبور الأعداء الجـسر فـإن مهام التصدي لهم بعد عبوره ستكون من نصيب القائد (مراد كيراي) . ولكن القائـد القرمي لم يقم بأي من الواجبات والمهام التي أسندت إليه . وبطبيعة الحال تسبب ذلـك في خسارة الجيش العثماني أمام القوات (البولونية) ولم يجد الوزير (قره مصطفى) فرصة أمامه سوى الانسحاب إلى (سرينفار Serinvar) [٣] بعد حصار استمر (٥٩ يوماً) .

كان هذا الحدث عظيماً ، وقد تباينت المواقف السياسية والأدبية من هذا الحدث . ففيما يتعلق بالمواقف السياسية على المستوى الأوروبي فقد ابتهجت (أوروبا) ودقـت

---

(1) Hakki yildiz : Dugustan , cild .11 , s. 68 .

(2) Hakki yildiz : Dugustan , cild . 11 , s. 68 .

(3) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٣٤ .

الكنائس أجراسها فرحاً بانسحاب العثمانيين واعتبر ذلك الحدث خلاصاً للغـرب مـن الزحف الإسلامي ، حتى أن (لويس الرابع عشر) اعتبره معجزة ، وعبر عن ذلـك بقوله : " لقد حدثت المعجزة " [1] .

وقبل الحديث عن المواقف الأدبية لابد أن نذكر أن السلطان (محمد الرابـع) استاء كثيراً لدى سماعه نبأ الانسحاب خاصة إذا علمنا أنه لم يعلم عن الحصار إلا بعد ستة أيام من الانسحاب .

أما عن المواقف الأدبية فقد تحدث المؤرخون المسلمون والغربيون عـن هـذا الحدث واختلفت نظرتهم وآراؤهم فيه فقد كتب عنه المؤرخون المسلمون بصفته كارثة وبداية النهاية للوجود العثماني في (أوروبا) ، ورأى بعضهم أن هزيمة العثمانيين في هذه المرة هي هزيمة عسكرية محضة تختلف عن فشل السلطان (سليمان القـانوني) في الاستيلاء على المدينة عام (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) . مما جعله يفك الحصار عنها على أمل أن يعاوده في الربيع القادم [2] . ففي هذه المرة فقد انسحب (قره مصطفى) إلـى غير رجعة . بعبارة أخرى يدل هذا الموقف على (التوقـف) العـسكري للفتوحـات الإسلامية العثمانية في (أوروبا) .

وتبرز أهمية هذه الحقبة التاريخية (ق١١هـ/١٧م) لأنها ستشكل منعطفاً حـاداً لسياسة العثمانيين الجهادية تجاه (أوروبا) حيث تتحول الدولة إلى الدفاع عن ممتلكاتها في (أوروبا) في أواخر هذا القرن والقرون التالية له .

وقد تحـدثت المـصادر الغربيـة عـن فـشل حـصار فيينـا الثـاني عـام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) فكانت فرصة للنيل من الإسلام متمثلاً فـي الدولـة العثمانيـة . فاعتبروا الدين الإسلامي سبباً لتأخر العثمانيين في الناحية العسكرية [3] . وفي الوقـت نفسه مجد الملك البولوني (جون سوبييسكي) كبطل كان له دور كبير في صد الزحف الإسلامي ليس عن (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) فقط وإنما عن غرب (أوروبا)

(1) طقوش : العثمانيون ، ص٢٨٢ .
(2) مصطفى : في أصول ، ص١٥٥ .
(3) ستتم مناقشة هذا الرأي في الفصل الثاني من هذه الرسالة .

بأكمله [1] . وهو رأي مغاير للواقع كما سيتضح من خلال الأحداث التي تلت فشل حصار فيينا .

الأسباب السياسية لفشل الحصار الثاني لفيينا :

١- لعل أولى الأسباب السياسية التي تجدر الإشارة إليها هو اختلاف وجهات النظر بين السلطان والصدر الأعظم . فقد كان السلطان يرى أن الوقت غير مناسب لخوض حربٍ كبرى ضد (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) ، في حين أن الصدر الأعظم كان يرى ضرورة التعجيل بتوجيه ضربة قوية إلى هذه الإمبراطورية وأن الوقت مناسب لذلك ، غير مدرك أن هذه الضربة ستوقظ الروح الصليبية لدى الدول الأوروبية وتؤدي إلى اتحاد هذه الدول ضد العثمانيين رغم ما كان بينهما من خلافات ، ولهذا فإن معظم المؤرخين يحملون (قره مصطفى) مسؤولية هذه الهزيمة منذ خروج الحملة . وفي الواقع إن هذا الوزير بذل جهداً كبيراً في هذا الحصار ولكن تصلب رأيه وعدم أخذه بما أشار به الوزراء ، أضاع فرصة كبيرة من بين يديه .

٢- إن سياسة الحزام الأمني التي اتبعتها الدولة العثمانية في (شمال البحر الأسود) وفي (أوروبا الوسطى) والتي تقتضي فتح المزيد من المناطق المجاورة لهاتين المنطقتين ، أثارت مخاوف الدول الأوروبية في هاتين المنطقتين وبالتالي أرى أن هذا الأمر أدى لوقوع الصراع بين الدولة العثمانية وبين (روسيا ، وبولونيا) من أجل حماية شمال (البحر الأسود) الذي ظل حتى الثمانينات من القرن (١١هـ/١٧م) منطقة محرمة على غير السفن العثمانية ، وكذلك خاضت الدولة حروباً ضد (النمسا) في سبيل حماية النفوذ العثماني في (المجر) . ويمكن اعتبار سياسة العثمانيين في هذه

(1) انظر : مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٧٤ ؛ كولز : العثمانيون ، ص١٩٢ .

المنطقة بالذات عاملاً مهماً جرها إلى هذه الحملة . ويكمن الخطـأ الذي ارتكبه العثمانيون ليس في استمرار الفتح في هـذه الجبهـة ؛ وإنما في التوغل دفعة واحدة في أرض العدو وفي فترة قصيرة جداً فترتب على هذا فقدان للمناطق التي تم فتحها حديثاً ، وكذلك تبعتها مناطق خضعت منذ فترة طويلة للحكم العثماني .

٣- ولابد أن نشير إلى أن (فرنسا) استطاعت استغلال توتر الموقـف بين العثمانيين وبين (النمسا) لجرهم إلى الحرب ضد بعـضهما ، وذلك بامتناع (لويس الرابع عشر) عن دعـم نـبلاء (المجـر) ودفعهم لطلب العون من العثمانيين ، ثم إن (فرنسا) رغم تظاهرها بالوقوف إلى جانب الدولة العثمانية وتأييدها لها ، ورغـم الخـلاف الذي كان بين (فرنسا) و (النمسا) فقد استجابت لمطالـب البابـا بتقديم الدعم العسكري للإمبراطور للوقوف في وجه العثمانيين .

كانت نظرة المؤرخين المسلمين إلى فـشل حـصار (فيينـا) الثـاني عـام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) على أنه خسارة كبيرة للعثمانيين [1] في (أوروبا) مبنية على ما تلى هذا الحدث من انسحاب وهزائم توالت على الجيش العثماني .

فعندما وصل جيش الوزير (قره مصطفى) إلى (سرينفار) قرر البقـاء فيها انتظاراً لوصول بقية القوات العثمانية التي كانت في (ستيريا) و (بـرجن لانـد) . ولما التأم شمل الجيشين انسحب الجميع إلى (بودين) ، ويبدوا أن الهدف مـن هـذا الانسحـاب هـو إعـادة تنظيـم الجيـش ، حيـث كانـت هنـاك فرصـة لإعـادة الهجـوم ، خاصـة وأن قيـادة (جون سوبييسكي) لـم تستمـر بـشكـل دائـم [2] ، وبدا ما كتبـه (سوبييسكي) حول نهاية الحملة على أنه واجه جحوداً من

---

(1) انظر : خاف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص١٧٢ ؛ أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٨ .

(2) كان الملك الفرنسي (لويس الرابع عشر) يرى أنه من الواجب إعطاء الأفلاق والبغدان لبولونيا بحجة أنه لولا الجيش البولوني لكان العثمانيين قد فتحوا (فيينا) ، ومع ذلك لم يكافيء الإمبراطور ولا الملك الفرنسي بولونيا بشيء. وهو موقف يدين فرنسا من جهة ، ومن جهة ثانية يظهر مدى الجحود الذي قوبل به (سوبييسكي) من قبل الإمبراطور والملك الفرنسي . كولز : العثمانيون ، ص١٩٢ ؛ ستودارد : حاضر العالم ، ج١ ، ص٢٦٨ ؛

(النمساويين) بمعنى أن التحالف بينه وبينهم قد انحـل ، ولكـن الهدف الـذي كـان (قره مصطفى) ينشده وهو إعادة الهجوم على (النمسا) لم يتحقق ، فقد مني قـسـم من الجيش العثماني بهزيمتين في معركتي (جكردلن) [1]عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) . واستشهد فيهما عدد من خيرة القادة ، مما أدى إلى إصابة الجيش العثماني بالإحبـاط ، والأهم من ذلك هـو أن هاتين المعركتيـن أسفرتا عـن سقوط قلعتي (جكردلن) و (استراكون Esztergon) . وهما مركزين مهمين لكتائب الـصاعقة العثمانيـة ، ورغـم كل ما حدث كانت هناك فرصة أخرى لدى السلطان (محمد الرابع) والوزير (قره مصطفى) في القيام بهجوم جديد بعد انقضاء الشتاء ، ولكن رغبة المغرضـين في العاصمة العثمانية من أعداء الصدر الأعظم وغيرهم مـن المتـشوقين لمنـصب الصدارة في إزاحته جعلتهم يحيكون مؤامرة ، أدت إلى صدور قرار بإعدامه في عـام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) . وبذلك قضي على الأمل في العودة إلى ترتيب الجيش العثماني تحت قيادة قائدٍ قدير [2] ، وانتهـى عهـد أسرة (كوبريللي) الزاهر لتعود الدولة إلى ما كانت عليه قبل (٢٧عاماً) من الانحدار الإداري والعسكـري .

اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٣٦ ؛ سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٨٠ ؛ Hakki yildiz : Dugustun , cild 11 , s. 74 .

(1) جكردلن معركتان ميدانيتان حدثتا في يومين متتاليين بين الجيش العثماني الذي كان بقيادة (قره محمد باشـا) بكاربك (بودين) وبين قوات (سوبييسكي) حيث استشهد فيها القائد العثماني وهزمت قواته في اليوم التالي . وسميت المعركة باسم ضاحية (جكردلن) بالألمانية (Parkany) التي تقع في الساحل الشمالي من نهر الدون في (تشيكوسلوفاكيا) . انظر : اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٣٥ .

(2) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥٤١ ، ٥٤٢ ؛ وانظر إلى ما أورده المؤرخ جودت بشأن الخطأ الذي ارتكبه السلطان بإعدام (قره مصطفى) : أحمد جودت : تاريخ جودت ، تعريب : عبد القادر أفنـدي الـدنا ، تحقيق : محمد عبد اللطيف الحميد ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، مؤسسة الرسـالة ، بيـروت ، لبنـان ، ط١ ، ص ص١٢٦ ، ١٢٧ .

المبحث الثالث

(بداية انكسار القوة العثمانية)

" نظرية الإزاحة والإحلال "

أ- الدولة العثمانية في مواجهة الائتلاف المسيحي

(الحلف المقدس) (١٠٩٦هـ/١٦٨٤م – ١١١١هـ/١٦٩٩م) .

ب- معاهدة (كارلوفتس Carlovitz)(١١١١هـ/١٦٩٩م) .

أ- الدولة العثمانية في مواجهة الإئتلاف المسيحي

(الحلف المقدس)

(١٠٩٦هـ - ١١١١هـ/١٦٨٤م - ١٦٩٩م)

قبل الخوض في الحديث عن الحروب التي خاضتها الدولة ضد الحلف المقدس ، لابد من توضيح معنى مصطلح الإزاحة والإحلال ، ويمكن تعريفها بأنهـا نتـاج مـا أفرزته الحروب والمؤامرات ضد الدولة العثمانية بهدف استقطاع أراضٍ مـن الدولـة العثمانية وإحلال هذه الدول بدلاً منها .

فإذا كانت الأحداث – السابقـة – قد أسهمـت في إضعاف الروح المعنوية لدى العثمانيين ، فإنها أنعشت في (أوروبا) عظيم الآمال للانتقام من الدولـة العثمانيـة . وفي الوقت الذي انشغل فيه العثمانيـون بتكوين قـوة عـسكريـة جديـدة ، كانـت النداءات فـي (أوروبا) تتعالـى بإخراج المسلمين من هذه القارة ، فأسرع كل مـن قـادة (الهابسبورج) و (البابوية) باستغلال الموقف ، فمن الناحية السياسية عمـل قادة (الهابسبورج) على إزاحة (توكلي إيمره) عـن عـرش المجـر [١] . وذلـك في عام (١٠٩٦هـ/١٦٨٤م) أما من الناحية الدينية فقد أعلن البابا (اينوسنت الحـادي عشر) عن تكوين ائتلاف مسيحي سمي (بالاتفـاق المقـدس) (Sainte Alliane) ويضم كلاً من (الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، البابوية ، ملكية بولونيا ، جمهورية البندقية ، ملكية أسبانيا ، دوقية توسكانا الكبرى ، فرنسا ، رهبـان مالطـة) وسـوف تنضم (قيصرية روسيا) إلى هذا الإئتلاف لاحقاً [٢] .

كان الهدف من هذا الإئتلاف الذي يحمل روحاً صليبية حاقدة إخراج المـسلمين العثمانيين مـن (أوروبا) بـل ويذكر (اوزتونا) أن هنـاك هدفاً بعيد المـدى وهو التخطيـط للسيطرة على (القارة الآسيوية) واستعمارها [٣] .

ويمكن القول بأن حصار العاصمة (النمساوية) وما سببه من مخاوف قد جعل الأوروبيين يتنبهون إلى أوضاعهم المتردية ولهذا أخذ حكامهم يلتقـون رغـم تبـاين توجهاتهم وحدة الصراع بينهم [٤] .

---

(1) كولز : العثمانيون ، ص١٩٣ .
(2) سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٨٠ ؛ ياغي : الدولة العثمانية ، ص١١٣ .
(3) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٤٣ .
(4) طقوش : العثمانيون ، ص٢٨١ .

بعد إعدام (قره مصطفى باشا) عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) حـدثت عـدة تغييـرات إدارية وعسكرية ، وكانت هذه التغييرات سبباً في نكبة الدولة أمام الجيوش المعادية وذلـك بسبب عدم كفاءة القواد العسكريين والإداريين ، وبهذه الفئة واجهت الدولة الإئتلاف المسيحي ، ومنذ عام (١٠٩٦هـ/١٦٨٤م) وهو العام الذي تكون فيه هـذا الإئـتلاف وحتـى عـام (١٠٩٨هـ/١٦٨٦م) فتحت على الدولة عدة جبهات برية وبحرية في آنٍ واحد ، وكان على العثمانيين تقسيم جيوشهم على هذه الجبهات ، ولم يتمكن العثمـانيون مـن الاعتمـاد علـى الموقف الدولي أو التحالفات ، فبناء على العلاقات (العثمانية الفرنسية) كان من المفتـرض أن تبقى (فرنسا) على الحياد ، ولكنها ساندت المتفقين بعدة وحدات عسكرية [1] . وهكـذا يؤكد أن مواقف فرنسا مع الدولة العثمانية كانت مهتزة وغير أخلاقية .

وسوف يتضح من الأحداث والمعارك التي سيتم ذكرها في الصفحات التالية أن الفترة القادمة ستشهد تغيراً جديداً في علاقة (الدولة العثمانية) مـع دول (أوروبـا) التي اتخذت سياسـة هجومية مستغلـة ضعف الموقـف العثماني [2] . وهكذا كرست (الدولة العثمانية) جهودها العسكرية في الدفاع عن ممتلكاتها أمام الجيوش الأوروبية بعد أن كانت قد وصلت إلى قمة مرحلة الهجوم .

خاضـت الدولـة أولى المعـارك ضـد كل مـن (الإمبراطورية الرومانيـة المقدسـة) و (بولونيـا) وبسبب انشغـال الجيش العثمانـي فـي هـذه الجبهـة ، استغل (البنادقة) هذا الوضع وقاموا بإرسال مذكرة إعـلان الحـرب علـى الدولـة العثمانية إلى الحكومة العثمانية وبالفعل شنت القـوات البندقية هجوماً وحققـت عـن طريقـه الاستيـلاء علـى سواحـل (دالماشيـا) [3] و (الهرسـك Hersek)[4] ،

---

(1) دحلان : الفتوحات ، ج٢ ، ص٢١١ .

(2) الوزيناني : الدولة العثمانية ، ص١٧٢ .

(3) دالماشيا : هي الجزء الغربي من يوغسلافيا الواقع على الشاطيء الأدرياتيكي . انظـر : المحـامي : تـاريخ الدولة ، ص١٧٤ .

(4) (الهرسك Hersek) : لواء في ولاية البوسنة مركزه مدينة موستار . خضعت للحكم العثماني منـذ القـرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وقد خرجت من الحكم العثماني وضمت إلـى النمـسا فـي عـام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م ، ثم دخلت سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٨م ضمن الاتحاد اليوغـسلافي ، وأصـبحت جمهوريـة مستقلة بعد حرب استمرت منذ ١٤١١هـ-١٤١٦هـ حتى ١٩٩٠م-١٩٩٥م إثر انهيار الاتحاد اليوغسلافي . انظر : موستراس : المعجم ، ص١٧٦ .

و (ألبانيا) ، و (المورا Moree) ، و (جزيرة آياما فـري Ayama vri)[1] ، و (سبينيك Sebenico) ، و (برفيز Prevezra)[2] .

ورغم محاولة قوات القائد (ماك باشا) التصدي للبنادقة ، وكذلك انتصاره فـي معركة (شين Sign)[3] الميدانية عام (١٠٩٧هـ/١٦٨٥م) ، إلا أن هذا الانتصار لم يكن ذا فائدة استراتيجية ، فعلى إثره تمكن البنادقة من انتـزاع (كـورون Koron) وذبح كافة ما بها من المسلمين . وبهذا يكون القائد البندقي (موروزيني) قـد انـتقم وعوض ما فقده في جزيرة (كريت)[4] .

وباستمرار المعارك زادت حاجة المجاهدين إلى الدعم العسكري ، ولكن تـردي الأحوال الإدارية في العاصمة العثمانية حال دون وصول الإمـدادات بـشكلٍ كـافٍ ، ولذلك فشلت محاولات الجيش العثماني في تنفيذ هجوم موفق لاستعادة ما فقـدوه مـن مدن ، الأمر الذي جعل المؤرخين يؤكدون على أن قدرة الدولة الهجومية قد تفلتت إلى الأبد[5] .

ولما أحست دول الإئتلاف بهذا الوضع الذي أصبح عليه العثمانيون ، جمعت ما لديها من عتاد للهجوم على قلعة (بودين) ، فقد كانـت (النمـسا) حريـصة علـى انتزاعها من العثمانيين نظراً لكونها المركز الاستراتيجي لمنطقة (المجر) ، ورغـم محاولة الجيش العثماني التصدي لهذه القوات ، إلا أن المدينة لم تصمد وسقطت بعـد حصار دام (٧٤ يوماً) ، وذلك في عام (١٠٩٨هـ/١٦٨٦م) .

---

(1) (آياما فري Ayamavr) : جزيرة تقع في ساحل اليونان الغربي فتحها العثمانيون سنة (٨٨٤هـ/١٤٧٩م) . انظر : شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، ج١ ، ص٥١٠ .

(2) (برفيز Prevezra) : مدينة في القسم الأوروبي من الدولة العثمانية في منطقة (إبيرس) مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه في ولاية (يانية) عند مدخل خليج (نارتة) ، حالياً في اليونـان . انظـر : موسـتراس : المعجم ، ص٢٠٥ .

(3) شين : معركة دارت بين العثمانيين بقيادة (فندق مصطفى باشا) بكلربك البوسنه ، وبين البنادقة كان النـصر فيها للعثمانيين ، إلا أنه كان نصراً مؤقتاً . انظر : اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٤٥ .

(4) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٤٥ .

(5) كولز : العثمانيون ، ص١٩٢ ؛ Hakki yildiz : Dugustan , cild .11 – p. 74 .

لقد أدى الفرق بين التجهيزات العسكرية لكلا الفريقين دوره في سقوط المدينة . وباعتبار الأهمية الكبرى لـ(بودين) بالنسبة للحكم العثماني في (المجر) ، يمكننا القول بأن الكارثة الحقيقية لم تكن في فشل حصار (فيينا) ، بل أنها تكمن في سقوط (بودين) . وقد كان لنبأ سقوطها أثره في هيجان الأهالي في العاصمة العثمانية ضد الحكومة [١] .

أما القوات (النمساوية) فقد استطاعت أن تستولي على القسم الأكبر من بلاد (المجر) وكانت هذه هي أهم نتائج سقوط (بودين) [٢] . ومما زاد الموقف العثماني تعقيداً تحرك القوات (الروسية) و (البولونية) صوب الحدود العثمانية في الشمال ، وكذلك تمكنت بحرية (البندقية) تساندها (أسبانيا ، توسكانا ، مالطا ، ميلانو ، السويد ، البابوية) من عبور مضيق (كورنثوس Korinthos) [٣] والاستيلاء على مدينة (أثينا Athena) [٤] عام (١٠٩٩هـ/١٦٨٧م) بالإضافة إلى الكثير من المدن والقلاع في بلاد (اليونان) وعلى الرغم من أن غالبية السكان في أثينا من غير المسلمين إلا أن (البنادقة الكاثوليك) ذبحوهم بلا رحمة .

وحتى هذه الفترة كانت الدولة العثمانية قد فقدت (٢٨٠٠٠كلم٢) من أراضيها لصالح البنادقة ، و (١٠٠٠٠٠كلم٢) لصالح (النمسا) وتضم هذه المساحات مدناً وقلاعاً في غاية الأهمية . الأمر الذي زاد من استياء الأهالي في (اسطنبول) فكانت فرصة استغلها رجال (السراي) لخلع السلطان (محمد الرابع) وذلك في عام (١٠٩٩هـ/١٦٨٧م) .

وقد تزامنت التغييرات في الحكم مع تهاوي المدن في بلاد (المجر) في أيدي القوات النمساوية التي استولت على شمال وغرب منطقة المجر حتى استولت على

---

(1) Omer Faruk : Belgelerle osmanli , cild .2 , s. 372 .

(2) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢٢٦ .

(3) كورنثوس : يقع في الخليج الذي يحجز بين بري اليونان وعلى شاطئه الجنوبي تقع مدينة كورنثه . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص١٥٨ .

(4) أثينا : مدينة تاريخية تقع في سهل (أتيكا) ، وعاصمة بلاد اليونان اليوم ، ومقر الكنيسة اليونانية الأرثذوكسية. انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٥٢ .

مدينة (بلغراد) نفسها عام (١١٠٠هـ/١٦٨٨م) ، وتراجع خط الدفاع العثماني حتى كاد أن يتجاوز نهر (الدون) . وقد تأثر السلطان (سليمان الثاني ١٠٩٩هـ - ١١٠٣هـ/١٦٨٧م-١٦٩١م) لسقوط (بلغراد) وقرر الخروج بنفسه لاستردادها ولكن الوزراء منعوه من الخروج للجبهة خاصة بعد اعتلال صحته [١] .

ويبدوا من سير الأحداث أن الجبهة النمساوية كانت أصعب الجبهات التي واجهها الجيش العثماني ، فقد تمكن هذا الجيش من التصدي للبنادقة في (أكري بوز (Egri Poz) [٢] و (للبولونيين والروس) . إلا أنه لم يتمكن من هزيمة الجيش النمساوي الذي تقدم حتى (بلغاريا) واقترب من (مكدونيا) و (ألبانيا) [٣] .

ونظراً لخطورة الموقف لم يكن أمام السلطان (سليمان الثاني) ووزرائه سوى العودة لتعيين صدر أعظم من أسرة (كوبريللي) التي طالما اقترن اسمها بالانتصارات. خاصة أن الشعب قد استاء من سوء الإدارة والقيادة من قبل (رجب باشا) [٤] . وبالفعل تم تعيين (فاضل مصطفى كوبريللي) في هذا المنصب ، وقد أثبت أنه من أفضل الإداريين والعسكريين ، وذلك لأنه لم يتعجل بخوض المعارك قبل تقييم الوضع الداخلي والخارجي للدولة . حيث أدرك أن الأوضاع على الحدود الرئيسية للدولة لا تختلف عن وضع الحكومة المركزية في العاصمة – رغم تغير السلطان – فعلى المستوى الخارجي فقد العثمانيون السيطرة على الحدود المجرية ، وخرجت عدة مدن وقلاع مهمة عن سلطة الدولة واستولى عليها النمساويون ، وفعل البنادقة الشيء نفسه وكذلك البولونيين وكانت أوضاع الجند العثمانيين تتردى شيئاً فشيئاً ، وبناء على نظرة الصدر الأعظم لهذه الأوضاع رأى ضرورة القيام بإصلاحات خاصة في المجال العسكري فأنجز إصلاحات عديدة في هذا المجال في فترة قصيرة جداً . ونتيجة لذلك تغير الوضع العسكري تغيراً جذرياً ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه من انضباط

---

(1) العسلي : فن الحرب ، ج٥ ، ص١٩٣ ؛ اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٥٦ ؛ Hammer : Buyukosmanli , cild .11 , p. 462-467 & Hakki yildiz : Dugustan , cild .11 , s. 83, 85 .

(2) أكري بوز : جزيرة تمتد أمام الشاطيء اليوناني الشرقي ، أي بمحاذاة أثينا فما فوق ، ويكتبها الأتراك (أغري بوز) واسمها اليوناني هو (يبويار Euboiar) . انظر : المحامي : تاريخ الدولة ، ص١٧٢ .

(3) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٥٦ .

(4) Hakki yildiz : Dugustan , cild .11 , s . 86 .

وقوة كما لو كانت في عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) . وبخروج الصدر الأعظم (فاضـل مصطفى) لقيادة الجيش بدأت القوات العثمانية باستعادة ما فقدته من مدن وقلاع ابتداء من قلعة (شهركوي Schehr Kieui) [(١)] حتى أنه استعاد (بلغراد) نفسها وذلك في عام (١١٠٢هـ/١٦٩٠م) وكذلك استعاد الأراضي من نهر (فـاردار Vardar) [(٢)] حتى نهر (درافا Drava) [(٣)] أي ما يزيد عن (٢٦٠٠٠٠كلم^{2}) بالإضافة إلى كامل (صربيا والبوسنه وبلغاريا) ، ومما يدل على دهائـه وخبرتـه أنـه بعـد اسـتعادة (صربيا) عمل على استرضاء الصربيين والإحسان إليهم وكسب ودهم وبذلك ضمن عدم تفكيرهم في القيام بأي تمرد ضد الدولة في هذه الظروف [(٤)] .

وفي الوقت الـذي ابتهجـت (اسـطنبول) بهـذه الانتـصارات ، اسـتاءت (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) لسماع خبر تعيـين صـدر أعظـم مـن أسـرة (كوبريللي) وعادت إلى أذهانهم أحداث (فيينا) عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) ، ولهـذا سارع النمساويون إلى تحصين عاصمتهم وكذلك تحصين (بودين) .

كان الجيش العثماني يحاول استرداد منطقة (ترانسلفانيا) ، ولكن اتساع الجبهة أدى إلى تشتت جهود هذا الجـيش فـذهبت منطقـة (ترانـسلفانيا) بكاملهـا إلـى (النمساويين) هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هزيمة العثمـانيين فـي معركـة

---

(1) شهر كوي Schehr Kieui : أو (Pirot) : مدينة في الجزء الأوروبي من الدولة العثمانية في ولاية ولـواء نيش . وهي اليوم في جمهورية (صربية) شرق مدينة (نيش) على خط العرض ٤٣,٠٩ والطول ٢٢,٣٥ . انظر : موستراس : المعجم ، ص٣٢١ .

(2) (فاردار Vardar) وقديماً آكسيوس Axius : نهر في البلقان يخرج من سلسلة (شار طاغ) (سكاردوس) (Scardus) ويصب في خليج سلونيك ، طوله ٣٨٨كلم . انظر : موستراس : المعجم ، ص٤٨٥ .

(3) (درافا Drava) : أحد روافد نهر الدانوب طوله ٧٢٤ كلم ، ينبع من جبال الألب الإيطالية ، ويجري شـرقاً مخترقاً كارنثيق (بالنمسـا) ثم جنوباً مكوناً جزءاً من الحدود المجريـة اليوغـسلافية ، ومـاراً بـالأفلاق ، وماربور ، وأزيك. انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج١ ، ص٧٨٧ .

(4) سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٨٥ ؛ أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسـلامية ، ج٢ ، ص٢١٥ ؛ ازتونـا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٦٣ ؛ أوغلي : الدولة العثمانيـة ، ج١ ، ص٥٩ ؛ Hakki yildiz : Dugustan , cild. 11 , s . 85, 87 .

(سلا نكامن) [1] عام (١١٠٣هـ/١٦٩١م) . واستشهاد الصدر الأعظـم فـي هـذه المعركة أضاعت آمال العثمانيين في استرجاع (المجر) . وأعادت إلى الدولة مشكلة (فراغ السلطة) كما أعادت الجيش العثماني إلـى وضـعية الـدفاع أمـام هجمـات (الإئتلاف المسيحي) [2] .

وكما أُنهك الجيش العثماني في القتال ، كذلك كان جيش (النمسا) ولذلك بـدأ الإمبراطور (ليوبولد الأول) في عرض الصلح أكثر من مرة ، ولكن السلطان أبـى قبول الصلح إذ كان يرى أن هناك فرصة في استرداد ما فُقد من مـدن فـي جبهـات أخرى فقد حقق الجيش العثماني انتصاراً على (البولونيين والبنادقة) مما بعـث روح التفاؤل ولهذا خـرج السلطان (مصطفى الثـاني ١١٠٧هـ - ١١١٥هـ /١٦٩٥م-١٧٠٣م) ومعه (شيخ الإسلام فيض ا أفندي) على رأس الحملة الموجهـة ضـد (النمسا) وذلك في (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) وكان لخروجهما أثره فـي حمـاس الجنـد وانتصارهم وتقدمهم في منطقة (بانات Banat) غرب (ترانسلفانيا) [3] فـي إيالـة (طمشوار Timisoara) [4] ولكن روح الجهاد والفتح كانـت قـد نـضبت لـدى العثمانيين ، وكان طموحهم في الوصول إلى (المركز العالمي) قـد خفـت ؛ فـأقنع الوزراء السلطان بضرورة العودة والاكتفاء بما حققوه ، وقد كان باستطاعتهم استرداد (ترانسلفانيا) بشكل كامل [5] .

---

(1) معركة دارت بين القوات العثمانيـة بقيادة (فاضل مصطفى كوبريللي) وبيـن الجيـش الإمبراطوري بقيادة (ماركيزبادن) وسميت بهذا الاسم نسبة إلى صحراء (سلانكامن Salankamen) التي تقع على بعد ٥٠كلـم من شمال غرب بلغراد . انظر : اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٦٥ .

(2) لمعرفة أحداث المعركة . انظر : سرهنك : تاريخ الدولة ، ص ص١٨٦ ، ١٨٧ ؛ علـي حـسون : تـاريخ الدولـة ، ص١٤١ .

(3) بانات Banat : وادٍ يقع في جنوب غرب أردل أو (ترانسلفانيا) في إيالة طمشوار . انظر : اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٧٢ .

(4) طمشوار Timisoara : هي بلدة رومانية تقع بالقرب من الحدود اليوغسلافية شمال بلغراد . المحامي : تاريخ الدولة ، ص١٧٥ .

(5) دحلان : الفتوحات الإسلامية ، ج٢ ، ص ص٢١٦ ، ٢١٧ ؛ أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٧٢ .

في هذا الوقت كانت روسيا تنتظر الفرصة المناسبة لتضرب ضربتها ، وكانت قد انضمت (للإئتلاف المسيحي) عام (١٠٩٨هـ/١٦٨٦م) . وقد اسـتغلت فرصـة انشغال السلطان بالمعارك – آنفة الذكر – لتنفذ هجومها علـى قلعـة (آزاق Azak) ذات المركز الاستراتيجي على (البحر الأسود) وذلك لتحقيق هدفها في الوصول إلى البحار الدافئة . وقد باء الهجوم الذي نفذه القيـصر (بطـرس الأول) علـى قلعـة (آزاق) بالفشل ، ولذلك عاد القيصر إلى بلاده وقام بدراسة أسبـاب الهزيمة بشكل جيد ، واستطاع في أقل من سنة – أي قبل تمكن العثمانيين من إعادة تحصين القلعة – إعادة الهجـوم بعد أن استعان بعسكريين من (اسكتلندا ، فرنسا ، سويسرا ، البندقية ، السويد ، الدانمارك ، هولندا ، انكلترا) وتم تنفيذ الهجوم الروسـي عبـر الأنفـاق . فاستسلمت القلعة بعد (٦٣يوماً) من الحصار قبل وصول الإمدادات إليها . وهو أهـم انتصار حققه (بطرس الأول) على العثمانيين حيث وجدت روسيا أخيراً منفـذاً لهـا على (البحر الأسود) [1] .

لقد أثار احتلال الروس استياء كبيراً لدى العثمانيين ، ولكن أكثر الهزائم التـي أدت إلى هبوط معنوياتهم هي هزيمة الجيش العثماني في معركة (زينتا Senta) [٢] عام (١١٠٩هـ/١٦٩٧م) حين خرج السلطان (مصطفى الثاني) لمواجهة النمساويين الذين كانوا بقيادة (يوجين Eugen) أمير (سافوي Savoie) . وهي المرة الأولـى التي يهزم فيها سلطان عثماني أمام جيش مسيحي . ويذكر المؤرخون أن خيانة أحـد الباشوات وإفشائه أسراراً عسكرية كانت عاملاً مهماً في الهزيمة ، أما العامل الآخـر فقد كان يعود إلى عدم انضباط الجيش العثماني . وقد أثرت هذه الهزيمة على مجـرى التاريخ العثماني ويرى بعض المؤرخين أنها كانت سبباً في إعادة عهد الـضعف إلـى الدولة العثمانية مرة أخرى ، وذلك لأن الدولة فقدت ثُمن قواتهـا ، وخيـرة قوادهـا

(1) المحامي : تاريخ الدولة ، ص٣٠٨ ؛ العسلي : فن الحرب ، ج٥ ، ص١٥٩ ؛ حسون : العثمانيون والروس ، ص ص٧١ ، ٧٢ .

(2) زينتا Senta : بلدة في الشمال الشرقي من يوغسلافيا بالقـرب من الحدود الرومانية . انظـر : المحـامي : تاريخ ، ص٣٠٩ .

والكثير من المعدات الحربية [١] ، والأهم من ذلك أن هذه الهزيمة تعتبر دليلاً على نجاح (الإئتلاف المسيحي) ، ودافعاً لتقدم النمساويين في (المجر) يقول (الكونت مارسيغلي Kontmarsigli) في حديثه عن نتائج هزيمة (زينتا) : " لم يبق بعد الآن علاقة للأتراك بالمجر . والأهم من ذلك ، انقطع أملهم في استعادة المجر " [٢] .

بالفعل لقد كانت هذه الهزيمة النهاية لكل شيء بالنسبة للعثمانيين .

---

(1) كولز : العثمانيون ، ص١٩٤ ؛ سرهنك : تاريخ ، ص١٩١ ؛ اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥٧٥ ، ٥٧٨ ؛ Bir heyet Tarafindn hazirlanmis : Mufasal osmanli Tarihi , Istanbul , 1960 , cild 4 , s.2267 .

(2) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٧٧ ؛ . Hakki yildiz : Dugustan , cild .11 , s. 103

ب – معاهدة

(كارلوفتس Carlavitz)

(عام ١١١١هـ/١٦٩٩م)

بعد هزيمة العثمانيين في معركة (زينتا) عام (١١٠٩هـ ـ/١٦٩٧م) اتـضح للوزراء العثمانيين وفي مقدمتهم الصدر الأعظم (عمجه زاده حسين باشا) وهو مـن أسرة (كوبريللي) أنه لا حيلة إلا في قبول الصلح ، ورغم ذلك فقد كـان الـسلطان (مصطفى الثاني) وقلة ممن حوله يرون أنهم خسروا المعركة ولم يخسروا الحـرب ، وعزم على الخروج لاستعادة (المجر) ، وبهذا لم يكن الموقف العثماني موحـداً إزاء استمرار الحروب ، فقد كان الصدر الأعظم وفئة كبيرة من الـوزراء غيـر مؤيـدين لخروج السلطان للحرب مرة أخرى ، إذ كانوا يرون أن المعارك التي خاضها الجـيش العثماني أدت إلى الإنهاك الاقتصادي والعسكري للدولة ، وأنه لابد مـن وقـف هـذه الحرب وقبول الصلح حتى يستعيد الجيش المنهك قواه ويعمل على اسـتقرار الوضـع الداخلي للدولة [1]. وجدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تتقدم بالصلح [2] . بـل كـان العدو دائماً يبادر بعرض الصلح .

أما الجانب الأوروبي فقد سبقت الإشارة إلى أن (النمسا) تقدمت بالصلح أكثر من مرة ولكن هذا العـرض رفـض مـن قبـل العثمـانيين . ولكـن فـي عـامي (١١١٠هـ/١٦٩٨م) و (١١١١هـ/١٦٩٩م) كان الموقف الأوروبـي موحـداً ضـد (لويس الرابع عشر) الذي بدت أطماعه التوسعية في القارة الأوروبية بـلا حـدود . وكانت حرب (الوراثة الأسبانية) [3] على وشك النشوب ، ولهذا كان يتوجـب علـى الإمبراطور النمساوي (ليوبولد الأول) سرعة إغلاق الجبهة العثمانية قبل أن تتـورط بلاده في الحرب على الجبهتين (العثمانية ، والفرنسية) ولما كانت كل من (انكلترا)

---

(1) كما كانت الأوضاع الداخلية المتمثلة في الفوضى التي حدثت في بلاد العرب وبلاد الرافدين دافعاً آخر لقبـول العثمانيين الصلح . انظر : كولز : العثمانيون ، ص١٩٥ .

(2) أحمـد جودت : تاريخ جودت : ج٢ ، ص١٣٢ ، اوزتونا : تـاريخ ، ج١ ، ص٥٧٨ ؛ أوغلـي : الدولـة العثمانية ، ج١ ، ص ص٥٩ ، ٦٠ ؛ مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٧٨ .

(3) حرب الوراثة الأسبانية : هي حرب نشبت إثر وفاة (شارل الثاني) ملك أسبانيا عام ١١١٢هـ/١٧٠٠م حيث اصطدمت مطامع كل من (لويس الرابع عشر) والإمبراطور (ليوبولد الأول) ، ولما رجحت كفة فرنسا فـي هذه الحرب تخوفت الدول الأوروبية من المطامع الفرنسية التي تخل بتوازن القوى فتزعمـت انكلتـرا تحالفـاً أوروبياً ضد فرنسا ، واندلعت حرب طويلة أرهقت الأطـراف المتحاربـة ، وانتهـت بمعاهـدة (أوترخـت Untrecht) عام ١١٢٥هـ/١٧١٣م . للمزيد من المعلومات حول هذه الأحداث انظر : البطريق ، ونـوار : التاريخ الأوروبي ، ص ص٢١٧ ، ٢١٩ .

و (هولندا) ضد توسعات (فرنسا) فقد انضمتا إلى (النمسا) وشكلت هـذه الـدول حلف سمي بحلف (أوجزبرج) ، وعلى هذا الأساس اختلفت سياسات الفريقين (حلف أوجزبرج) [١] ، و (لويس الرابع عشر) نحو الدولة العثمانية ، حيث عمل كلٌ مـن سفيري (انكلترا) و (هولندا) على إقناع رجال الدولة بقبول الصلح . أما الـسلطان فلم يكن مقتنعاً بالصلح ، فمن ناحية كان يرى أن قبول الصلح يعنـي التنـازل عـن (المجر) (للنمسا) ، وعن (الموره Moree) للبنادقة ، ومن ناحيـة أخـرى فـإن الدخول في صلح مع (النمسا) سيؤدي إلى دخول دول أخرى كالبندقية ، وبولونيـا ، وروسيا ، في هذا الصلح فقد كانت هذه الدول قد دخلت الحرب تحت زعامة (النمسا) وهي لا تستطيع خوض حربٍ ضد الدولة العثمانية منفردة دون مساعدة (النمسا) .

كما أن دخولهم في الصلح سيدفعهم إلى مطالبة السلطان بالتنازل عما فقده مـن مناطق لصالح هذه الدول ، وقد زاد من رفض السلطان للصلح الدور الذي قام به الملك الفرنسي في إقناع السلطان بضرورة الاستمرار في الحرب ضـد (النمـسا) [٢] . لا لشيء ، إلا لشعوره بضعف موقفه أمام الدول الأوروبية .

وأخيراً استطاع سفيري (انكلترا) و (هولندا) إقناع الصدر الأعظـم وبقيـة الوزراء ، بأن الصلح سيكون لصالح الدولة العثمانية مدعين الوساطة والحياد وقد وافق العثمانيون على مبدأ الصلح بناء على وعود (انكلترا) و (هولندا) بالإبقـاء علـى الوضع الراهن ، وعندما عرض سفيرا هاتين الدولتين مطالب الدول الأخـرى علـى الدولة العثمانية والمتمثلة في : إدخال (خان القرم) ضمن معاهدة الصلح ولا شك أن هذا مطلب (روسي وبولوني) ، وأن تكف الدولة العثمانية عن التدخل فـي شـؤون (ترانسلفانيا) بعد أن أصبحت تابعة (للنمسا) ، قبل الصدر الأعظم هـذه الـشروط

---

(1) بالإضافة إلى رغبة (النمسا) في مواجهة الفرنسيين ، كانت ترغب في توقيع الصلح لتقلل من الخسائر التـي حاقت بهـا في حروبها مع الدولة العثمانية . انظر : سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٩٢ ؛ مـانتران : تـاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٨٨ .

(2) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥٧٨ ، ٥٨٠ ؛ دحلان : الفتوحات ، ج٢ ، ص٢١٨ ؛ Hammer : Buyuk , cild .11 , p.575 . & Hakki yildiz : Dugustun , cild .11 , s.103 .

وطلب في المقابل ضمان مصالح الدولة العثمانية في منطقـة (ترانـسلفانيا) ولكـن (النمسا) رفضت هذا الشرط ، فاضطر الصدر الأعظم لسحب هذا الطلب [١] .

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن ما قامت به (انكلترا) و (هولندا) لا يـدخل ضمن مصطلح الوساطة وإنما يدخل تحت مصطلح (الضغوط) .

وهكذا لم تخرج الحملة التي أعدها السلطان لاستعادة (المجر) ، وقبل الحديث عن معاهدة الصلح لابد من الإشارة إلى أن (الإئتلاف المسيحي) لم يـضم (الـشاه الصفوي) فـي هذه المرة . وقد علـق المؤرخ (يلماز أوزتونا) علـى ذلك بقوله : " يبدوا أنه قد انتهت الفترة التي كان لا يمكن لأوروبا فيها مقاتلة الدولـة العثمانيـة إلا بمساعدة إيران ، والآن أصبحت أوروبا مقتنعة بأنها تستطيع تحقيق ذلك بمفردها ، إذا ما اتفقت فيما بينها " . ولأول مرة يعرض فيها (الشاه الصفوي) المساعدة العـسكرية على العثمانيين ، كما أن الدولة العثمانية استعانت بخانات (تركستان) الـذين عملـوا على عزل (روسيا) ومنعها من دخول القرم مما يسر لجيش (القرم) أن يحارب في الجبهة (البولونية) وهو مطمئن على أراضيه من الهجوم الروسي [٢] .

نتائج معاهدة (كارلوفتس Carlovitz) [٣] :

عقدت هذه المعاهدة في عام (١١١١هـ/١٦٩٩م) بين الدولة العثمانية من جهة وبين (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) و (ملكية بولونيا) و (جمهورية البندقية) من جهة أخرى [٤] . أما (قيصرية روسيا) فإنها تأخرت عن الدخول في الصلح لأن القيصر كان يرغب في استمرار الحرب ولذلك تم الاتفاق مع المفوض الروسي علـى هدنة تستمر لمدة سنتين أما الصلح النهائي فقـد وقـع مـع (الـروس) فـي عـام (١١١٢هـ/١٧٠٠م) [٥] .

---

(1) Hakki yildiz : Dugustan , cild 11 , s. 104 .

(2) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٨٠ .

(3) كارلوفتس Carlovitz : بلدة يوغسلافية واقعة على نهر الدانوب إلى الجنوب الغربي من زغريـب . انظـر المحامي : تاريخ الدولة ، ص٣١٠ .

(4) انظر المعاهدة رقم (٨) في الملحق الخاص بالمعاهدات .

(5) Islam ansiklopedisi , Istanbul ,1965 , cild .6 , s. 349 .

ومن أهم النتائج التي تمخضت عنها هذه المعاهدة :

أ- نتيجة إقليمية : فبموجب هذه المعاهـدة اعتـرف العثمـانيون بـسيادة (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) على (المجـر) ، و (ترانـسلفانيا Transilvanya) وأصبحت (بلغراد Beleghrad) حداً فاصلاً بـين الدولتين . ولم يتبق للعثمانيين سوى قسم بسيط من الأراضي الواقعة بين (طمشوار Timisoar) و (صحراء سيرم Sirem) (1) وبهذا تكـون الدولة قد تخلت عن أراضٍ مجموع مساحتها : (٢٤٩٠٠٠كلم^2) تقريبـاً لصالح النمساويين .

أما جمهورية البندقية ، فقد حصلت على بلاد (الموره Moree ، و دالماشيا ، وجزيرة أكري بوز Egri Poz) ولم يحصل العثمانيون إلا على القلاع الواقعة في (بريوزه Preveze) و (ليبانتو Lepanto) ، وبعض القلاع الموجـودة فـي الشريـط الحـدودي (لدالماشيا) مـع (جمهورية البندقية) وبهذا تكون (البندقية) قد حصلت على مساحة تقدر (٣٢٠٠٠كلم^2) .

أما (ملكية بولونيا) فقد حصلت على (قمانيتشه Kemanets ، وأوكرانيـا ، وبودوليا Podoli) أي ما مساحته (٤٥٠٠٠كلم^2) .

أما (قيصرية روسيا) فحصلت في عام (١١١٢هـ/١٧٠٠م) علـى مـساحة قدرها (٢٠٠٠٠كلم^2) وبذلك يكون مجمـوع مـا فقدتـه الدولـة مـن أراضٍ (٣٤٦٠٠٠كلم^2) تقريباً (2) .

وعلى هذا النحو تكـون الأراضـي التـي دار حولهـا الـصراع منـذ عـام (٩٣٣هـ/١٥٢٦م) أي منذ عهد (القانوني) قد تخلى عنها العثمانيون ، ومحى تماماً شريط الأمن الذي أقيم حول (الأفلاق Eflek) و (البغدان Boghdan)

(1) Hakki Yildiz : Dugustan , cild . 11 , s . 105 .

(2) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٨٣ .

ومن ثم لم تجد الدولة العثمانية أمامها إلا زيادة الاهتمام بهاتين الإمارتين أكثر مـن ذي قبل [1] .

ب- أما النتائج السياسية التي أسفرت عنها هذه المعاهدة فهي كما يلي :

١- بالنظر إلى بنود هذه المعاهدة نجد أنها لم تكن اتفاقية عمومية ، بل كانـت عبارة عن عدة اتفاقيات مختلفة عن بعضها البعض وقـد وقعتهـا الدولـة العثمانية مع دول أوروبية فكانت كل دولة من هذه الدول تريد أن تحـصل على نصيب وافر أو على الأقل أن تحافظ على الأراضي التـي حـصلت عليها من الدولة العثمانية مؤخراً [2] .

٢- تدل هذه المعاهدة على نقطة تحول مهمة في (تاريخ العلاقـات العثمانيـة الأوروبية) خاصة وأنها جاءت بعد عدة هزائم تلقاها العثمانيون ، فتحـول الخوف والهيبة من الدولة العثمانية إلى جرأة على رفض دفع الجزيـة أيـاً كان نوعها للسلطان العثماني ، وكذلك تجرأت الـدول الأوروبيـة علـى استقطاع أراضٍ تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الدولة العثمانية مستغلة ضـعف الموقف العثماني . وفي المقابل بدأ يسود بين العثمانيين شعور بـضرورة الحفاظ على ما تبقى لهم من نفوذ في (أوروبا) قـدر الإمكـان وبالتـالي اتضح تحول الموقف العثماني من الهجوم إلى الدفاع .

٣- تعتبر معاهدة (كارلوفتس Carlovitz) أولى الطرق التي اتبعتها الـدول الأوروبية لتنفيذ نظرية (الإزاحة والإحلال) ضد الدولة العثمانية ، فكانت بداية للتقلص الإقليمي والسياسي للعثمانيين في (أوروبا) إذ بدأت الـدول الأوروبية باستقطاع أجزاء الدولة العثمانية تمهيداً لإزالة الوجود الإسلامي من هذه القارة .

٤- لدى العودة إلى مفاوضات الصلح يلاحـظ تحكـم كـل مـن (انكلتـرا) و (هولندا) في إملاء بنود المعاهدة على الأوروبيين وعلى العثمانيين الذين

---

(1) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٦٠ .

(2) Hakki yildiz : Dusgustan , cild . 11 , p.105 .

رضخوا مضطرين لهذا التحكم وسيكون هذا الرضوخ بداية لاعتراف الدولة بمبدأ تدخل الدول الأوروبية في شؤونها والـذي سـيكون إحـدى حقـائق السياسة (العثمانية الأوروبية) في فترات لاحقة .

٥- أما النتيجة الأخيرة فمن باب الإنصاف ذكرها – وهي أن الدولة لم تعط هذه التنازلات بسهولة ، فقد أبدى المفوض العثماني (رامـي أفنـدي) تميـزاً واضحاً في التفاوض مع الأوروبيين ومراجعـة أدق تفاصـيل المعاهـدة ومقارنتها بالمعاهدات السابقة . ولقد عبر (الكونـت مارسـيغلي Kont Marsigli) عن وضعه أمام (رامي أفندي) بقوله : " لا يمكن تـصور عمل أصعب من عقد صلح مع الأتراك من شأنه أن يجلب لهم المـصائب والشقاء ، أو أن يكون سبباً في تركهم مدينة . أما المعاهدة التي أبرمت في (كارلوفتس Carlovitz) فهي أكثر المعاهدات إضراراً بالأتراك من بين المعاهدات التي وقعوا عليها حتى الآن . إن الحرب بالنسبة للأتراك عمـل أسهل وأخف من عقد صلح . فعند جلوسهم على مائدة المفاوضات يغطّون في نقاشٍ لا نهاية له ، ويخلقون كل المصاعب للطرف المقابـل ، وعنـد البحث على مائدة الصلح عن كلمة حدود ، تسليم مدينة ، تخريب أو إنشاء قلعة ، أو كلمة لا تعجبهم في متن هذه المعاهدة ، فإنهم يعملـون كـل مـا يخطر أو ما لا يخطر على البال من فنون الخداع والحيل " (1) .

وبهذه الطريقة كان (رامي أفندي) يحاول تخفيف الأضرار الناتجة عن الحرب التي استمرت (١٦عاماً) ، وتأمين حدود الدولة ، والاحتفاظ بقـدر الإمكـان بـبعض المناطق من خلال هذه المعاهدة .

ورغـم أن هذه المعاهدة كانت مؤشراً على زعزعة الحكم العثماني في كل من (القرم) و (المجر) إلا أن هذا الأمر سوف يستغرق ثلاثة قرون في البلقان . ولاشك أن ذلك كان قبل كل شيء نتيجة لسياسة الاستيطان الثابتة والمنطقة التي جرى عليهـا العثمانيون في البلقان .

---

(1) اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٨٢ ؛ . Islam ansiklopedisi , cild .6 , p. 350

الفصل الثاني

أثر توقف الفتوحات العثمانية على الناحيتين الإدارية والعسكرية في القرن (١١هـ/١٧م)

المبحث الأول :

ضعف النظم الإدارية في القرن (١١هـ/١٧م)

أ- السلاطين العثمانيون منذ نشأة الدولة وحتى (ق١١هـ/١٧م) .

ب- الوزراء العظام منذ نشأة الدولة وحتى (ق١١هـ/١٧م) .

ج- سلطنة النساء والآغوات .

د- حركة الإصلاح في (ق١١هـ/١٧م) .

أ- السلاطين العثمانيون منذ نشأة الدولة حتى (ق١١هـ/١٧م) :

يتأثر النظام الإداري – في العادة – بالأسس والأهداف التي تقوم عليها الدول . فالدولة العثمانية قامت على أساس الفتح ، وهدفها الجهاد في سبيل ا ، ولـذلك تـأثر نظام الحكم فيها بطبيعة الدولة وأهدافها ، فأصبحت الدولة أشبه بالجيش الـذي يرأسـه قائد له السيطرة شبه المطلقة ويساعده أركان حربه . وهذا القائد هو السلطان الذي يأتي في قمة الهرم الإداري يليه المفتي ، والجندي والوزير الأعظم .

إن انتماء الإدارة العثمانية في بداية نشأة الدولة إلى أصول عسكرية ، قد أضفى عليها تماسكاً ونظاماً [١] .

اعتمدت الدولة منذ قيامها على الأسرة العثمانية فكان منهم الأمـراء والـوزراء العظام . وكان هذا الاعتماد أحد أسباب قوة الأسرة العثمانية ورسوخ جـذورها علـى العرش ، ولقد كانت الشجاعة والكفاءة عاملين مهمين لتولي العرش ويقتـضي النظـام العثماني تربية (الشهزادات) أي الأمراء وتعليمهم داخل القصر على أيـدي أشـهر المعلمين . وحتى عام (٩٧٤هـ/١٥٦٦م) كان هؤلاء (الشهزادات) يرسـلون إلـى خارج العاصمة ليكونوا أمراء على السناجق برتبة (سنجق بكي) أي أمير السنجق . ولكـن بعد هذا التاريخ أقتصر الأمر على إرسال أكبر الأمراء ليكون أميراً على أحد السناجق [٢] .

بدأت المهام الوظيفية للسلاطين بالوضوح مع نمـو الدولـة وتوسـعها وتعـدد مسؤولياتها ، ولعل أبرز هذه المهام هي قيادة الجيوش وتعيين أمراء الولايات ، وإقامة العدل بين الرعية ، وحضـور الجلسـات التـي يعقدهـا الديـوان الهمايونـي [٣] .

---

(1) أحمد مصطفى : في أصول ، ص١٠٥ .

(2) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص١٥٨ .

(3) Shaw : history of ottoman . cild.1 . s.236 .

الديوان الهمايوني : دائرة حكومية مرموقة في الدولة العثمانيـة ، وظيفتهـا مناقـشة القـضايا الـسياسية ، والإداريـة ، والعسكرية ، والشرعية ، والمالية ، ... الخ ، من الدرجة الأولى ، وإصدار قرارات بـشأنها . وهي تشبه إلى حدٍ كبير مجلس الوزراء في الوقت الراهن ، وقد تشكلت في عهد الـسلطان (أورخـان بـن عثمان) وتطـورت في عهد (الفاتح) . للمزيد من المعلومات حول الديوان الهمـايوني . انظـر : سـهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص١١٩ .

ولقد اجتاز الحكام العشرة الأول مرحلة بناء الدولة وظهرت كفاءتهم فتعلموا وتربوا جيداً لتصبح بأيديهم مقاليد الأمور ، وأقحموا أنفسهم في شؤون الحكم ، وقادوا جيوشهم . فتمكنوا من تطبيق كفاءتهم بنجاح في قضايا ومشكلات الدولة .

واستطاع هؤلاء السلاطين أن يكونوا لأنفسهم ثلة من المساعدين المجربين ، عرفت (بالديوان الهمايوني) الذي له أهمية خاصة في إعطاء الحكم العثماني صفته المركزية ، حيث يقوم أعضاؤه بتيسير أمور الدولة الأساسية كلها ، وهو أمر عرفته الدول الإسلامية السابقة (1) .

وقد حقق هذا الجهاز أعظم نجاحاته فيما بين القرن (٩-١١هـ/١٥-١٧م) وذلك في سرعة اتخاذ القرارات المناسبة وتطبيقها بشكل رادع (2) . واستمد الديوان الهمايوني قوته من قوة السلطان الذي كان يرأس جلساته ، ولكن منذ منتصف القرن (١٠هـ/١٦م) بدأ هذا الجهاز يفقد أهميته وذلك حينما كف السلطان (سليمان القانوني) عن حضور جلساته (3) .

وبقدر ما تأثر النظام الإداري في الدولة بشخصية السلطان ، كذلك تأثر النظام العسكري ، فكان الإنكشاريون لا يخرجون إلى الحرب إلا بصحبة السلطان ، والواقع إن خروج السلاطين للجهاد كان ذا أثرٍ كبيرٍ على السلاطين أنفسهم ، حتى أن ألقابهم كانت مستمدة من أمجادهم العسكرية .

ولكن مكانة السلطان اهتزت وطرأ عليها التغير ، الأمر الذي أدى إلى حدوث خللٍ في أجهزة الدولة الأخرى . وكانت هناك مظاهر نتجت عن هذا الخلل ولعل أهمها:

---

(1) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص١٤٤ .

(2) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص١٦٩ .

(3) خاف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص١٥٥ ؛ أحمد مصطفى : في أصول ، ص١١٠ .

١- أن السلاطين الذين جاءوا بعد (القانوني) كانوا ضعافاً ، ومنهمكين في لذائذهم وإسرافهم وتحجبهم في القصور ، كما أنهم تخلـوا عـن قيادة جيوشهم ، وتحمل أعباء الحرب [١] .

٢- تكوين بعض الفئات في الدولة ، مراكـز قـوى متعـددة يـصعب السيطرة عليها وتوجيهها لصالح الدولة ، ولعل أبرز هذه المراكز :

أ- الصدور العظام .

ب- رجال السراي .

ج- الجيش .

د- الحريم السلطاني .

٣- إحاطة التحالف النصراني بالدولة العثمانية [٢] ، وتوقـف المبـادرة بالفتح .

ولا يمكن الجزم ، أو تحديد الفترة الزمنية التي ظهرت فيها هذه المظاهر بدقة ، فبعضها له جذور ترجع لفترة مبكرة من عمر الدولة ، ولكن هذه المظاهر بدت أكثـر وضوحاً منذ أوائل القرن (١١هـ/١٧م) .

اعتبر المؤرخون حياة السلاطين المؤسسين للدولة نموذجاً ينبغي أن تُقاس عليه حياة السلاطين الذين حكموا من بعدهم . وقد تميز السلاطين وخاصـة العـشرة الأول بدرجة كبيرة من الكفاءة وكان لبعضهم قدرات نادرة [٣] ، وقد أثرت البيئة البدوية التي ينتمي إليها العثمانيون في تكوين شخصياتهم ، فحينما كانوا على شيء من تلك البداوة ، كانوا ملوكاً حقيقيين يتولون توجيه دولتهم بأنفسهم ، حريصين على انتشار العدل بـين رعيتهم [٤] . ومن المعروف أن الدول عندما تكون في هذه المرحلة تكون أكثـر قـوة

(1) السيد محمد الدقن : دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ، ١٩٧٩م ، المطبعة الفنية ، القاهرة ، ص٧١ .
(2) إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية ، هامش ص١٣٩ .
(3) أحمد مصطفى : في أصول ، ص١٠٥ .
(4) محمد جميل بيهم : فلسفة ، ج٢ ، ص١٠ .

وأقدر على التغلب [1] ، كما أنه من الثابت أن الدول عندما تبدأ تكون همة حكامها منصرفة إلى وضع الأسس وترسيخها مما لا يعطي فرصة للانغماس في متارف الحياة ، وقد بدأ الترف يتسلل إلى حياة العثمانيين منذ اتخاذهم (القسطنطينية) عاصمة لهم [2] . أي بعد انتقال مركز الدولة إلى (أوروبا) وبفتح المزيد من الممالك أصبحت الدولة تضم حضارات سابقة ، حتى بلغت في عهد القانوني مرحلة متميزة من القوة ، ومن غير المعقول أن تمر الدولة بمراكز الحضارات دون أن تتأثر بها ، فالترف أمر طبيعي غير خارق للعادة في مثل هذه الحال . يقول المؤرخ (أحمد جودت) في تاريخه : " فكثرت الفتوحات وضم الكثير من الممالك إلى المملكة العثمانية في زمن السلطان (سليمان) ففي مدة وجيزة بلغت الدولة إلى منتهى درجات الكمال ، وحصلت على ثروة وانتظام خارق للعادة ، فقضى عليها ذلك بتغيير حالتها البدوية . فالاعتراض على هذا ، والزعم بأفضلية البقاء على حالة البداوة لا يقول به إلا من أنكر تصرفات الدهر الطبيعية وتعاونها على الخلق من غير اختيارٍ منهم " [3].

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن انغماس السلاطين في الترف أحد أسباب تخليهم عن جيوشهم ، ولكن من يتتبع حياة السلاطين في (ق١١هـ/١٧م) يجد أن الترف لم يبلغ حداً كبيراً ، ولعل حفل الختان الذي أقامه السلطان (مراد الثالث ٩٨٢هـ - ١٠٠٤هـ/١٥٧٤م-١٥٩٥م) لابنه (محمد) عام (٩٩٠هـ/١٥٨٢م) [4] ، وعهد السلطان (إبراهيم الأول ١٠٥٠هـ-١٠٥٨هـ/١٦٤٠م-١٦٤٨م) الذي سمي بـ (صامور دوري) أو (دور الفرو) وهذا التعبير كناية عن الرفاهية واللهو [5] ، قد تركا انطباعاً بأن القرن (١١هـ/١٧م) هو القرن الذي انغمس فيه السلاطين في حياة الترف والبذخ .

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، ط١ ، ج٢ ، ص١٤٥ .
(2) محمد جميل بيهم : فلسفة ، ج٢ ، ص٢٤ .
(3) أحمد جودت : تاريخ ، ج٢ ، ص١٦٩ .
(4) علي الصلابي : الدولة العثمانية ، ص٥٣٣ .
(5) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٨٩ .

أما امتناع السلاطين عن الخروج لقيادة جيوشهم ، فلم يكن الترف مانعاً رئيسياً في ذلك . وكذلك لم يكن جميع هؤلاء السلاطين ضعافاً ، فقد كان لكلٍ منه سمة تميـزه عن الآخرين ، ولكن العوامل التي أحاطت بفترات حكمهم كانـت ذات تـأثيرٍ علـى قراراتهم وتصرفاتهم ، ولعل من هذه العوامل :

١- خوف السلاطين من حدوث صراعٍ بين أفراد البيت العثماني علـى الحكم أثناء غيابهم ، فإما أن يمكث السلطان في العاصمة متخلياً عن قيادة جيشه ، وإما أن يلجأ إلى قتل إخوته ، مما ولّد مشكلة أخـرى وهي قتل الإخوة ، فعلى سبيل المثال أمر السلطان (مراد الثالـث) عند توليه العرش عام (٩٨٢هـ/١٥٧٤م) بقتل إخوتـه الخمـسة ، وكذلك فعل السلطان (محمد الثالث) بإخوته التسعة عشر ، وتكرر الأمر مع السلطان (عثمان الثاني) فقتل أخـاه (محمـداً) قبـل خروجه إلى حملة (خوتين) عام (١٠٣١هـ/١٦٢١م) [1] وهو أمر خطير كاد أن يؤدي إلى انقطاع النسل العثماني وذلـك حينمـا أراد السلطان (مراد الرابع) أن يقتل أخاه (إبراهيم) الذي لم يتبق من الذكور سواه ، فامتنع (مراد الرابع) عن قتله بعد توسلات والدتـه السلطانة (ماه بيكر كوسم [2]) [3] .

٢- تنامي سلطة الصدر الأعظم فأصبح ينوب عن السلطان حتـى فـي قيادة الجيوش .

٣- اتبع الصدر الأعظم (صوقللي محمد باشا) سياسة تقتـضي عـدم خروج السلطان إلى الحملات ، وذلك منذ عهـد الـسلطان (سـليم

---

(1) محمد فريد المحامي : تاريخ ، ص ص٤٥٩ ، ٢٧٧ ؛ إبراهيم بجـوي : بجـوي تـاريخي ، ١٢٨١هـ ، استانبول ، ج٢ ، ص٦٤٦ .

(2) ماه بيكر كوسم : هي سيدة ذات خيرات كثيرة وهي ابنة قسيس ، قدمت هديـة إلـى الـسلطان أحمـد الأول فتزوجها ، ماتت سنة ١٦٥١م . انظر : أميرة مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمـة الحرمين الشريفين ، مجلة المؤرخ المصري ، العدد ٢٤ ، يناير ٢٠٠١م ، ص٢٩١ .

(3) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٨٩ .

الثاني) [١] ثم جاء من بعده من السلاطين واتبعوا هذه الـسياسة إلا فيما ندر ، فلم يخرج إلى قيـادة الجيـوش مـن سـلاطين القـرن (١١هـ/١٧م) وعددهم (١٢) سلطاناً ، إلا (٤) سلاطين [٢] .

٤- خروج الجيوش العثمانية لأكثر من جبهة في فترة زمنية واحدة رغم أن ذلك كان من سمات الدولة العثمانية في عصر القوة .

٥- أن الجيش وخاصة فرق الإنكشارية قد تنامـت قوتهـا ، وكـادت تصرفات أغاواتهم أن تكون مستقلة عن أوامر السلطان خاصة بعـد أن اعتادوا غيابه عـنهم ، وهنـاك أمثلـة لمعـارك حـدثت فـي (ق١١هـ/١٧م) حيث لم يكن خروج السلطان ذا تأثير إيجابي بـل أدى إلى حدوث بعض المشكلات أثناء المعركة [٣] .

٦- ثم إن الدولة العثمانية لم تكن الدولة الوحيدة في تلك الفتـرة التـي تخلى سلاطينها عن قيادة قواتهم ، فقد كان هناك العديد من الـدول مثل (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) و (فرنسا) قـد وصـلت إلى مرحلة أصبح الحاكم فيها يرسل جيوشه دون أن يكون قائدٌ لها.

والجدير بالذكر أن القرن (١١هـ/١٧م) لم يخل من حكم سلاطين أقوياء كـان لبعضهم أثره سواء على الوضع الداخلي أو الخارجي للدولة ، فعلى سبيل المثـال أدى وصول السلطان (أحمد الأول) عام (١٠١٢هـ/١٦٠٣م) إلى اسـتقرار الأوضـاع الداخلية في الدولة ، فقد قام باتخاذ إجراءات صارمة ضد العصاة في الأناضـول [٤] ، وتميز عن سلاطين تلك الفترة بمباشرته أمور الدولة بنفسه ، واهتم باختيار الـوزراء وكبار رجال الدولة بشكل جيد ووفق في اختيار وزراء مخلصين مثل (قويوجو مـراد

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٨٢ .

(2) إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص ص١٠٩ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٥٣ .

(3) على سبيل المثال هزمت القوات العثمانية في معركة زينتا مع أنها كانت بقيادة السلطان مصطفى الثاني فـي عام (١١٠٩هـ/١٦٩٧م) . انظر الفصل الأول من هذه الرسالة .

(4) Omar Faruk Yilmaz : Blgelerl Osmanli . s. 277 .

باشا) ، ونتيجة لذلك ظل هؤلاء الوزراء فترة أطول قياساً [1] ممن كان قبلهم ، وخاصة في عهد السلطان (محمد الثالث) . أما أهم ما يخلد ذكر هذا السلطان فهو أنه لم يقم بقتل أخيه (مصطفى) الذي يليه ، بل ترك له مجالاً لتولي الحكم من بعده وبذلك ظهرت في الدولة عادة تتيح لأكبر أفراد الأسرة الحاكمة ليعتلي العرش [٢] .

أما على الصعيد الخارجي فقد جاء هذا السلطان إلى الحكم والدولة تخوض الحرب (العثمانية النمساوية) وعلى الرغم من صغر سنه إلا أنه أظهر قدرات الحكام العظام ، حيث أدرك أن الدولة كانت بحاجة إلى فترة من السلم نظراً لتردي الأحوال الداخلية فعمد إلى توقيع معاهدة (ستيفاتوروك Stivatorok) عام (١٠١٥هـ/١٦٠٦م) [٣] حيث تقتضي مصلحة الدولة ذلك ، هذا بالإضافة إلى ما عرف عنه من تدين وعلم ، وشجاعة [٤] ، ولذلك اعتبرت فترة حكمه من أكثر الفترات استقراراً .

ولكن بعد وفاة السلطان (أحمد الأول) عادت الاضطرابات الداخلية ، وذلك لأن الأمراء الذين خلفهم كانوا صغاراً مما أعطى فرصة لتدخل نساء القصر والآغاوات في شؤون الدولة . وبناء على مساعي السلطانة (ماه بيكر كوسم) بويع السلطان (مصطفى الأول) ابن السلطان (محمد الثالث) بدلاً من (عثمان) بن السلطان (أحمد الأول) [5] . ولم يبق (مصطفى الأول) على العرش سوى ثلاثة أشهر ، حيث خلع في نفس العام (١٠٢٧هـ/١٦١٨م) أما عن سبب خلعه فإن المصادر تورد معلومات مختلفة في ذلك . فبعض المؤرخين يصفه بالجهل بأمور السياسة واختلاق المشكلات ، في حين يصفه البعض الآخر بالجنون والإسراف ، أو بالتقشف والزهد . فأما من يصفه بالجهل بأمور السياسة فسندهم في ذلك أن هذا السلطان كان محبوساً عندما كان ولياً للعهد ، ولم يل أياً من إدارة الولايات ، وكذلك

---

(1) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٣٥٠ ، ٣٥١ ؛ المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٧١ .
(2) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٢ .
(3) إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص١١٥ .
(4) علي الصلابي : الدولة العثمانية ، ص٣٠٣ .
(5) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٥١ .

يستدلون بتوتر العلاقات (العثمانية – الفرنسية) في عصره بسبب حادثة كاتم أسـرار السفارة الفرنسية [١] ، ولكن السلطان (مصطفى الأول) لم يكن أول من يـصل إلـى السلطنـة دون أن يتولـى وظيفة (سنجق بك) فكذلك كان سلفه الـسلطان (أحمـد الأول) [٢] ، وأما ما يتعلق بحادثة كاتم أسرار السفارة الفرنسية والتي يحمـل بعـض المؤرخين السلطان (مصطفى الأول) مسؤوليتها فالذي يظهر أن ما فعله السلطان هو الأقرب للصواب وذلك لأن تغاضيه عن تدخل كاتم أسرار السفارة الفرنسية في شؤون الدولة أمراً يمس هيبتها وأمنها . وإذا كانت فرنسا قد حاولت أن تفتعل أزمة من هـذه الحادثة فهذا دأب الدول الأوروبية في سياساتها تجاه الدولة العثمانية .

أما المصادر التي تصف هذا السلطان بالجنون فإنها لم تورد حدثاً يثبت ذلـك ، ويذكر المؤرخ أبو عبد ا البكري في سبب عزله ما يلي : " وكان سبب خلعه بموافقة (مصطفى آغا قيزلار آغاسي) [٣] والوزير (محمد باشا) قائم مقام . وذلك لما لـم يروا فيه أهلية للسلطنة لشدة بذله الأموال وكثرة ركوبه إلى المحلات البعيدة من غيـر تقييد بأمر مركوب ولا غيره ، لأنه كان تاركاً للدنيا وليس براغبٍ فيها ، فتقيـد بـأمر التقشف " [٤] .

ويفهم مما ذكره (البكري) أن زهده وتقشفه كانا مـن أسـباب عزلـه . إذن فالمعلومات الواردة حول شخصية هذا السلطان ضئيلة ومتناقضة ، ويمكن القـول أن عزله كان لعدم كفاءته لا بسبب جنونه ، كما أن هناك فئة مستفيدة من عزله أسـهمت في ذلك وهم (قيزلار آغاسي) والذي يقال أنه روج شائعات حول جنـون الـسلطان وذلك بتحريض من (ماه بيكر كوسم) [٥] ، وفئة العسكريين وهمهم الوحيد الحـصول

---

(1) طقوش : العثمانيون ، ص٥٨٥ ؛ يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٥٨ ؛ علـي حـسون : تـاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ط٣ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، المكتب الإسلامي ، بيـروت ، ص١٣٤ ؛ بسام العلي : فن الحرب ، ج٥ ، ص ص١٧٠ ، ١٧١ ؛ سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص٥٧٥ .

(2) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٤٤ .

(3) قيزلار آغاسي : قيز معناه : بنات . وترجمة الكلمة آغا المحظيات . محمد فريد بك : هامش ص٢٧٦ .

(4) أبو عبد ا البكري : نصرة أهل الإيمان ، ص١٩٣ .

(5) Shaw : History of ottoman , cild1 , s.264 .

على إكرامية جلوس السلطان الجديد [١] ، وبويع الـسلطان (عثمـان الثـاني) عـام (١٠٢٨هـ/١٦١٨م) وعمره ثلاثة عشر عاماً ، وعلى الرغم من صغر سـنه إلا أنـه كان ذا شخصية قوية عازمة على تولي مسؤوليات السلطنة وكـسب الاحتـرام لهـا ، ولذلك تبنى حركة إصلاح شاملة [٢] ، ولكنه لم يمكث في الحكم سوى أربـع سـنوات (١٠٢٨هـ-١٠٣٢هـ/١٦١٨م -١٦٢٢م) فكان ضحية لثـورة الإنكـشارية الـذين اعترضوا على إصلاحاته .

وأعيد السلطان (مصطفى الأول) إلى السلطنة [٣] ، وبعد ذلك صارت الدولـة العوبة في أيدي الإنكشارية يولون الوزراء وينصبونهم بحسب أهوائهم ، وظلت الدولة تعانـي الفوضى (١٨) شهـراً بسبب تصرفـات الإنكشارية ، ولما لم يستطع السلطان (مصطفى الأول) فعل شيء عزله الوزراء ، وأجلسوا السلطان (مراد الرابع) ابـن السلطان (أحمد الأول) [٤] . وذلك في عام (١٠٣٣هـ/١٦٢٣م) وكان عمـره (١٤) عاماً ، ويمكننا تقسيم فترة حكمه إلى دورين ، الدور الأول ويشمل الفترة الزمنية مـن (١٠٣٣هـ-١٠٤٢هـ/١٦٢٣م-١٦٣٢م) وقد اتسمت بالفوضى نتيجة لفراغ السلطة ، وذلك لأن كلاً من الوزراء ، ونساء القصر ، والإنكشارية استغلوا صغر سن السلطان وتنازعوا السلطة ، ويضاف إلى ذلك عصيان (أباظة محمد باشـا) للمطالبـة بـدم السلطان (عثمان الثاني) .

أما على الصعيد الخارجي فقد تقدم الشاه عباس واستولى على بغداد ، وانهزمت الجيوش العثمانية أمام الصفويين عام (١٠٣٤هـ/١٦٢٤م) ، أما الدور الثاني من حكمه ويمتد من عام (١٠٤٢هـ-١٠٥٠هـ/١٦٣٢م-١٦٤٠م) [٥] ، وهي الفترة التي سيطر

---

(1) محمد فريد بك : تاريخ الدولة ، ص٢٧٦ .
(2) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٦٣ .
(3) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢٠٤ .
(4) إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص ص١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ؛ محمد فريـد بـك : تـاريخ الدولـة ، ص٢٧٩.
(5) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٢٦٨ ، ٤٧١ ؛ إبـراهيم بجـوي : بجـوي تـاريخي ، ج٢ ، ص٦٦٠.

السلطان (مراد الرابع) فيها على الحكم وقضى على عناصر الفوضى والفساد وأعاد للدولة حكمها المركزي ، وهيبتها في الخارج أمام أعدائها .

ب- الوزراء العظام منذ نشأة الدولة حتى (ق١١هـ/١٧م) :

تعتبر الوزارة من أقدم الأجهزة الإدارية في الدولة العثمانية ، وتـأتي مرتبـة الوزير بعد مرتبة السلطان ، شأنها في ذلك شأن الدول الإسلامية التي سبقتها .

يدل مسمى الوزارة على مطلق الإعانة ، وهي مشتقة إما من الـوزر (بفـتح الواو والزاي) وهو الملجأ والمعتصم ، لأن الوزير يلجـأ إلى رأيـه . أو من الوزر (بكسر الواو) وهو الثقل ، لأنه يزر ويحمل عن الخليفة أثقاله .

وقد ذكرت الوزارة في القرآن الكريم فقال عز وجل : ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيراً مِّنْ أَهْلِى ٢٩؟% هَـٰرُونَ أَخِى ٣٠؟% ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِى ٣١؟% وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ٣٢؟% ﴾ [(١)] وهنا تأتي الوزارة بمعنى الظهر لأن الحاكم يقوى بوزيره كما يقوى البدن بالظهر .

وقد عرفت الوزارة في عهد الرسول ﷺ ، فقد كان يشاور أصحابه في مهماتـه العامة والخاصة ويخص أبا بكر الصديق رضي ا عنه بالمشورة ، غير أنه لم يـسمه وزيراً ، وكذلك كان أبو بكر رضي ا عنه يستشير أصحابه ، ويقوم بتقـسيم المهـام الإدارية بينهم ، ومع ذلك لم يكن للمسلمين وزيراً متعين المرتبة للوزارة ، وذلك لبعـد الإسلام عن مظاهر الملك ، وكذلك كان الأمر في العصر الأموي فلم يلقب أيـاً مـن رجال الدولة بالوزير .

غير أن الوزارة ظهرت بوضوح في العهد العباسي فظهر لقـب الـوزير [(٢)] ، وهكذا استمر هذا المنصب وتطور مع توالي العهود الإسلامية .

وكان الوزير يلقب في بداية عصر الدولة بلقب (البروانة) وهو لقب فارسـي أُخذ عن سلاجقة الروم [(٣)] . ولقد كان أول وزير في الدولة العثمانية هو علاء الدين بن

---

(1) سورة طه ، آية : ٢٩-٣٠-٣١-٣٢ .

(2) أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، مكتبة وهبه ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م ، ط٣ ، ص ص ٩٢ ، ٩٥ .

(3) طقوش : العثمانيون ، ص٥٧٧ .

عثمان الذي أثبت جدارة في إدارة البلاد في عهد أخيه (أورخان) [1] . ولم يكـن فـي الدولة عند نشأتها سوى وزير واحد ، فلما جاء السلطان (مراد الأول) أضاف إليـه وزيراً ثانياً ، فأصبح أحدهما (وزيراً أعظم) والآخر (وزيراً) فقط ، أما في زمـن السلطان (بايزيد الأول) فقد زاد عدد الوزراء إلى (٣) . واستمر هـذا العـدد حتـى الأعوام الأولى من عهد السلطان (سليمان القانوني) فارتفع عدد الوزراء إلـى (٧) ، وظل عدد الوزراء في تزايـد حتى وصل في عام (١٠٠٨هـ ـ/١٥٩٩م) إلـى (٢٣) وزيراً ، وانقسم الوزراء من حيث المهام إلـى وزراء الـداخل ، ووزراء الخـارج ، وترتب على زيادة عددهم بالمقارنة مع الفترة الانتقالية التي تمر بهـا الدولـة زيـادة الأعباء المالية [2] ، والاضطرابات الإدارية في توزيع السلطات .

وعلى الرغم من زيادة عدد الوزراء إلا أن الوزير الأعظم أو الصدر الأعظم ، ظل على رأس هؤلاء الوزراء ، وذلك لأنه بمثابة الساعد الأيمن للسلطان .

وكان هذا المنصب لا يوجه إلا لمن ثبتت لياقته وأهليته من بين الوزراء ، وذلك بعد أن يتدرج في الوظائف ابتداء من إمارة السنجق ثم إمارة الأمراء ، ثم إمارة أمراء الأناضولي ، وحتى إمارة أمراء الروملي . ولكن الخلل في منصب الوزارة بدأ عندما خالـف السلطان (سليمان القانوني) هـذه القاعدة ووجه الصدارة إلى شخص يدعى (إبراهيم آغا خاص اوطه باشي) . ولم تبد مفاسد هذه المخالفة في عهـده . ولكنهـا أصبحت سنة سيئة لمن جاء من بعده ، حيث أصبح الصدور العظام يعينون عن طريق المحاباة [3] . ومن جهة أخرى أدى الفراغ في السلطة الذي عانت منه الدولة مع أواخر (ق١٠هـ ـ/١٦م) وأوائل القرن (١١هـ ـ/١٧م) ، إلى تنامي سلطة الصدر الأعظم علـى حساب نفوذ السلطان [4] ، ولعل الظروف التي مرت بها الدولة في هذه الفترة ساعدت على نمو سلطة الصدر الأعظم تدريجياً ففي عصر عظمة الدولة وتقـدم الفتوحـات ، كانت الأمجاد التي تحققها الدولة تتم باسم السلطان ، كما كانت جهود السلطان والصدر

---

(1) أميرة مداح : نظرة متأنية ، ص١٧ .

(2) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٣٨٤ .

(3) أحمد جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص ص١٧٧ ، ١٧٨ .

(4) جيب ، وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج١ ، ص١٥٧ .

الأعظم موجهة لعمل واحد وهو الجهاد في سبيل الله عز وجل . ولكن عندما توقفت عمليات الفتح في (ق١١هـ/١٧م) توجهت معظم جهود القائمين على الدولة نحو الاستقرار الداخلي الأمر الذي ساعد على إعطاء منصب الصدر الأعظم صلاحيات أوسع .

كما كان هناك عامل آخر يتحكم في نمو سلطة الصدر الأعظم ويتمثل في الفترة التي يقضونها في هذا المنصب وهي مرتبطة في أكثر الأحيان برضى السلطان أكثر من ارتباطها بكفاءة الوزير [١] ، مما جعل هذا المنصب أكثر خطراً وذلك لحرص الوزراء في هذه الحال على رضى السلطان والتملق له أكثر من حرصهم على أداء مهامهم بإخلاص [٢] ، وكان كثير من الصدور العظام يحملون لقب (داماد) أي الصهر [٣] وبذلك يعتبرون ضمن أفراد الأسرة الحاكمة مما يعطيهم فرصة التدخل السافر وتجاوز صلاحياتهم .

ولدى تتبع أحداث (ق١١هـ/١٧م) نلاحظ أن هناك تفاوتاً كبيراً في كفاءة الأشخاص الذين تولوا الصدارة ، فكان منهم من تميز بكفاءة عالية وإخلاص شديد للدولة وكذلك تولى هذا المنصب وزراء عديمو الكفاءة حريصون على مصالحهم الشخصية .

ولكن ما هي علاقة توقف الفتوح في هذه الدولة بهذا التغيير الذي طرأ على الصدارة العظمى ؟ !

إن المدة الطويلة التي قضتها الدولة في التوسع ، وكذلك السرعة التي ميزت عملية الفتح استنزفت الكثير من طاقاتها . ولذلك كان من الضروري أن تأخذ الدولة برهة من الوقت لتتمكن من إعادة تنظيم المساحات الشاسعة التي ضمتها ، ولكي تتمكن

---

(1) جيب ، وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج١ ، ص١٥٧ .

(2) انظر على سبيل المثال : قام الصدر الأعظم (كما نكش علي باشا) بإخفاء نبأ سقوط بغداد في أيدي الصفويين عام (١٠٣٤هـ/١٦٢٤م) عن السلطان (مراد الرابع) مما أغضب السلطان فأمر بعزله ثم قتله .
انظر : يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٦٨ ؛ إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص١٢٧ ؛ إبراهيم بجوي : بجوي تاريخي ، ج٢ ، ص٦٦٦ .

(3) طقوش : العثمانيون ، ص٥٨١ .

أيضاً من النظر في أحوالها الداخلية . وقد بدت هذه الضرورة بشكلٍ ملح مـع أواخـر (ق١٠هـ/١٦م) وأوائل (ق١١هـ/١٧م) .

ولعل هذا ما دفع الصدر الأعظم (صوقللي محمد باشا) لإتباع سياسة سـلمية عن طريق تجديد المعاهدات وإقامة التحالفات مع الدول الأوروبية [1] ، والتفكير فـي مشروعات تهدف إلى حماية حدود الدولة ، وهـذا يعني أن أي قـرار تتخـذه الدولة لخوض حـربٍ كبرى يعد قراراً خطيراً وفي غير صالحها . ولم يكن الصدر الأعظم (سنان باشا) الذي تولى الصدارة العظمى في عهد السلطان (محمد الثالث) مـدركاً لهذا الوضع ، وذلك أنه حدثت بعض المناوشات بين حاميات الحدود العثمانيـة وبـين الحاميات النمساوية في عام (١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) وكانت رغبـةُ الكثيـر مـن وزراء الدولة تجنب الحرب مراعـاة للظروف التي تمـر بها الدولـة . حتى أن شيخ الإسلام (سعد الدين أفندي) قال : " إنني اكتب تاريخاً للدولة العلية وصلتُ فيه إلى هذا العصر وأريد أن أجعل خاتمة قولي : إن أحد عبيد السلطان أخذ ابن أخي شاه العجم وأحضره من يديه . وأن ملك النمسا عجل بدفع الجزية عن سنتين آتيتين " وكان يقـصد بهـذا القول تجنب الحـرب . إلا أن (سنان باشا) رجح جانـب الحرب ، وقـال لـشيـخ الإسلام : " يمكنك أن تختم الوقائع بقولك إن أحد مماليك السلطان قـبض علـى ابـن أخـي شاه العجـم ، وقبض مملـوك آخر على ملك النمـسا وأحـضره بـين يـدي السلطان " [2] مرجحاً بقوله جانب الحرب . ويذكر المؤرخون أن (سنان باشا) كـان يرى أن هذه الحرب ضرورية لإشغال الإنكشارية عن التمرد ، كما أنه كان يريـد أن يحقق أمجاداً عسكرية عن طريق هذه الحرب ، كما حقق (فرهاد باشا) بطولات فـي حربه ضـد الصفويين [3] . ولكن (سنان باشا) أثبت عجزه وفشله الذريع عندمـا خرج بصفتـه (سرداراً أكرم) أمام جيوش النمسا [4] .

(1) طقوش : العثمانيون ، ص٢٣٦ .

(2) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٢٧ ، ١٢٨ .

(3) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص ص١٢٧ ، ١٢٨ ؛ محمد فريد بك : تاريخ الدولة ، ص٢٦٤ .

(4) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٣٦ .

ويعتبر مجلس الحرب هذا نموذجاً على مدى تأثير الوزراء عديمي الكفاءة والخبرة على مصير الدولة ، ولم يكن من جاء بعد (سنان باشا) من الوزراء يختلفون عنه ، غير أن السمة الوحيدة البارزة هي قصر فترة الصدارة لكل منهم [١] . حتى جاء عهد الصدر الأعظم (قويوجو مراد باشا) فاستمرت صدارته (٤) سنوات (١٠١٥هـ-١٠١٩هـ/١٦٠٦م-١٦١٠م) وقد خدم الدولة في محاربة (الجلالية) [٢] ، وهو من آخر السياسيين المتميزين الذين أدركوا (القانوني) [٣] .

ولقد كان بعض الوزراء ضحايا لمؤامرات الإنكشارية فكان مصيرهم العزل ثم الإعدام مثلما حدث في (الهائلة العثمانية) حيث تم إعدام اثنين من الصدور العظام وهما (دلاور باشا) و (أوهريلي حسين باشا) . واتضح بعد ذلك أن بعض الوزراء ، وعلى رأسهم (داوود باشا) صهر السلطان (مصطفى الأول) كان من المدبرين لهذه الواقعة وذلك سعياً للوصول إلى الصدارة ، وقد أعطى هذا الرجل نموذجاً سيئاً لاستغلال منصبه لمصالحه الشخصية مما أدى إلى كراهية الشعب له وتسميته (بقاتل البادشاه) ، أما خلفه (قره حسين باشا) فكان على غرار سلفه . وقد عزل بعد (٢٥) يوماً من توليته . وهكذا استمر العزل والتولية للصدور العظام خلال سلطنة (مصطفى الأول) ، حتى تولى (٤) صدور عظام في سنة واحدة ، فلم يكمل أي منهم سنة في منصبه [٤] .

وفي الدور الأول من حكم السلطان (مراد الرابع) (١٠٣٣هـ/١٦٢٣م) قضت الدولة تلك الفترة في النزاع بين الوزراء على منصب الصدارة ، وكان كل وزير يصل

---

(1) إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص ص١٠٨ ، ١٠٩ .

(2) الجلالية : هو الاسم الذي أطلق على أتباع جلال الذي ثار في وجه الدولة العثمانية في بلاد طورهال من أعمال طوقاد ، بحجة أنه المهدي المنتظر . وقد أصبح هذا الاسم فيما بعد علماً على الثائرين في وجه الدولة ، وكان يطلق أيضاً على المنتسبين لجلال الدين الرومي شيخ الطريقة المولوية . سهيل صابان : معجم المصطلحات ، ص٨٦ .

(3) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٤٥١ ، ٤٥٢ .

(4) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٤٦٤ ، ٤٦٧ ؛
Hakki dursun yildiz : Dugustan . cild 10 . s. 445 , 446 .
؛ بجوي : بجوي تاريخي ، ج٢ ، ص٦٥٥ .

إلى هذا المنصب يعمل على تصفية من سبقه من الوزراء ، وتعتبر الثورة التي أشعلها الوزيران (خسروباشا) و (داماد طوال رجب باشا) في هـذه الحقبـة مـن أكثـر الثورات تأثيراً على استقرار الدولة . وسببها أن (خسروباشا) ظلم وأعدم الكثيـرين أثناء صدارته ، فعزله (مراد الرابع) عام (١٠٤١هـ/١٦٣١م) فأعلن العصيان على الدولة واعتمد على دعم الإنكشارية في العاصمة لأنه كان آغا لهم ، وكان يوجههم عن طريق (رجب باشا) وقد استهدف هذان الوزيران من أعمال البطش إخافة الـسلطان (مراد الرابع) لجعله أداة طيعة بأيديهم ، فأعدموا الصدر الأعظم (حافظ أحمد باشا) أمام ناظري السلطان الذي اضطر تحت ضغط هذين الوزيرين ، وضغط والدة السلطان (ماه بيكر كوسم) إلى تعيين (رجب باشا) صدراً أعظم وأسماه السلطان (رئيـ ـس الأشقياء) ، ولما قام هذا السلطان بإعدام (خسرو باشا) أعلن الصدر الأعظم (رجب باشا) ثورة جديدة حيث تجرأ وتقدم حتى باب السراي لتهديد السلطان ، وعرفت هـذه المواجهة في التاريخ العثماني باسم (آياق ديواني) . وانتهت المواجهة بإعدام (رجب باشا) عام (١٠٤٢هـ/١٦٣٢م) [1] .

ويبدوا أن هذه الأحداث قد أثرت على شخـصية الـسلطان (مـراد الرابـع) فحرص عند توليه السلطة الفعلية عام (١٠٤٢هـ/١٦٣٢م) على اختيار أربعة وزراء أقوياء ، تولوا منصب الصدارة على التوالي وتميزوا بالقوة الحربية والكفاءة الإداريـة وهم : (طاباني ياصي محمد باشا) (١٠٤٢هـ/١٦٣٢م) وعزل بعد (٤) سنوات . و (داماد بايرام باشا) في عام (١٠٤٧هـ/١٦٣٧م) و (كما نكش قره محمد باشا) عام (١٠٤٨هـ/١٦٣٨م) وقد ظهرت كفاءتهم في استرداد بغـداد مـن الـصفويين عـام (١٠٤٨هـ/١٦٣٨م) [2] .

بيد أن وفاة السلطان (مراد الرابع) عام (١٠٥٠هـ/١٦٤٠م) أعادت مـشكلة سرعة العزل والتولية بين الوزراء ، وتولي ذوي الكفاءات المتدنية ، وتـآمر هـؤلاء

(1) انظر أحداث هذه الثورة في : محمد فريد بك : تاريخ الدولة ، ص٢٨٢ ؛ يلماز اوزتونا : تاريـخ الدولـة ، ج١ ، ص٤٧٠ ؛
Shaw : History of The ottoman . cild1 . s.271 , 272 .
(2) إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص ص١٣٢ ، ١٣٣ .

الوزراء مع بعض المغرضين مما أدى إلى عزل السلطان (إبراهيم الأول) ثـم قتلـه عام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) . وبطبيعة الحال كانت هذه الاضـطرابات إحـدى أسـباب إهمال عملية الفتح في جزيرة (كريت) .

ومما زاد الموقـف تعقيداً تولي السلطان (محمد الرابع) الحكم وله من العمر (٦ سنوات) في عام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) فعادت السلطة الفعلية بيد السلطانة الوالدة وآغوات الإنكشارية وغيرهم من رجال السراي [1] . لتدخل الدولة فيما يعـرف فـي التاريخ العثماني بسلطنة الآغوات وهذا أدى بالتالي إلى عرقلة حركة الفتوحات بالدولة.

(1) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٥٨ ؛ إسماعيل سرهنك : حقـائق الأخبـار ، ج١ ، ص٥٨٧ ؛ علـي سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢١٨ .

ج- *سلطنة النساء والآغوات* :

يطلـق مسمى (الحرم الهمايوني) على القسم الخاص بالحريم فـي (طـوب قابي) . وبما أن الاقتراب من هذا الجناح كان محرماً ، فقد أصبح فيما بعد علماً على الأماكن التي يقيم فيها النساء [(١)] .

أما (الآغوات) فهو جمع لكلمة (آغا) ، وهي كلمة من أصل فارسي وتعنـي السيد ، وقد استعمله الأتراك لدلالات كثيرة ، منها أنه كان يطلق على الضباط الأميين من الإنكشارية ، الذين لا يحتاج عملهم إلى معرفة القراءة والكتابـة ، ومنهـا أيـضاً صاحب المنصب الكبير [(٢)] .

وتعتبر والدة السلطان هي أكثر السيدات نفوذاً داخل السراي وأكثرهن اتـصالاً بمن في خارجه . ويطلق عليها بالتركية (والدة سلطان) أما زوجات السلاطين فهـن أقل نفـوذاً ولهن ألقابٌ يتدرجن في الحصول عليها ، مثل (إقبال) و (خاصكي) و (قادين أفندي) [(٣)] .

وهؤلاء (الحريم) كن في عهد السلاطين الأول في شبه عزله عن بقية الخاصة السلطانية ، كما كن قليلات التأثير على سير الدولة [(٤)] . ولكن تأثيرهن بدأ في الظهور على عهد السلطان (سليمان القانوني) إذ وقع تحت تـأثير زوجتـه خـرم سـلطان المعروفه باسم (روكسلانا) التي تدخلت للتآمر ضد الابن الأكبر لزوجها وهو الأمير (مصطفى) وذلك لتضمن لابنها (سليم) العرش بعد وفاة والـده [(5)] ، وقـد كانـت الشخصية القوية التي تمتع بها (القانوني) عاملاً مساعداً على اقتـصار تـأثير هـذه المرأة في الشؤون الداخلية ، ولكن بعد وفاة هذا السلطان ومجيء سلاطين أقل منه قوة

---

(1) سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص٩١ .
(2) سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص ص١٥ ، ١٦ .
(3) أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ص١٥٥ ، ١٥٦ .
(4) خاف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص١٥٨ .
(5) أحمد مصطفى : في أصول ، ص١٠٢ .

مما أدى إلى تضاؤل نفوذهم أمام زيادة نفوذ الحريم السلطاني ، ففي عهد (مراد الثالث ٩٨٢هـ-١٠٠٤هـ/١٥٧٤م-١٥٩٥م) برزت أربع سيدات وهن :

١- والدة السلطان وتسمى (نوربانو) .

٢- زوجة السلطان واسمها (صفية) (1) وهي من البندقية من أسرة (بافو) .

٣- أخـت السلطان وتسمـى (اسمات) وكانـت متزوجة من الصدر الأعظم (صوقللي محمد باشا) .

٤- سيدة عجوز تسمى (جانفيد خاتون) وهي القيمـة علـى الجـواري فـي القصور السلطانية .

وقد تنافست السيدات الأربع للاستئثار بمراكز القوى . وتجاوز نفوذهن كل حد على عهد هذا السلطان . وانتقلت أنباء نفوذهن إلى الأجهـزة الحكوميـة فـي الـدول الأوروبيـة ، وانعكس ذلك علـى مركز الدولة في أوروبـا فتحملت الدولـة تعديات (جمهورية البندقية) ومنحتها الامتيازات وجددت لها المعاهدات إكراماً لوالدة السلطان (صفية) (2) .

وبعد وفاة (السلطان مراد الثالث) خلفه ابنه (محمـد الثالـث ١٠٠٤هـ-١٠١٢هـ/١٥٩٥م-١٦٠٣م) وقـد حاول هـذا السلطان الاستقلال عـن نفوذ والدته (صفية) إلا أن سيطرتها ظلت قائمة (3) ، حتى إذا توفي ابنهـا وخلفه ابنـه السلطان (أحمد الأول ١٠١٢هـ-١٠٢٦هـ/١٦٠٣م-١٦١٧م) عمد إلى تجريد جدتـه مـن نفوذها وذلك لأنه كان يكره سلطة النساء .

---

(1) صفية والدة سلطان : التحقت بالحريم وهي في الخامسة عشرة من عمرها وقدمت كجارية هدية إلى السلطان مراد الثالث عندما كان أميراً على مغنيسيا ، فأعجبـه ذكاؤهـا وجمالهـا وتزوجهـا ، توفيـت فـي عـام (١٠١٤هـ/١٦٠٥م) عن ثمان وخمسين عاماً ودفنت في قبر السلطان مراد الثالث في آياصوفيا ، لها خيرات كثيرة في استانبول وقرى اسكدار . انظر : ماجدة مخلوف : الحريم فـي العـصر العثمـاني ، دار الآفـاق العربيـة ، القاهرة ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، ط١ ، ص٤٨ .

(2) طقوش : العثمانيون ، ص ص٥٨٦ ، ٥٨٧ .

(3) بيهم : فلسفة التاريخ ، ج٢ ، ص٦١ .

إذن فقـد كان لـسيطرة النـساء جـذور تمتـد إلـى النـصف الثـاني مـن (ق١٠هـ/١٦م) ، غير أن هذه الـسيطرة بلغـت مـداها فـي النـصف الأول مـن (ق١١هـ/١٧م) .

ولعل من المفارقات أن تكون أكثر النساء تدخلاً في شؤون الدولة في هذه الحقبة هي زوجة السلطان (أحمد الأول) أشد السلاطين كراهية لسيطرة النـساء . فعنـدما توفي هذا السلطان استغلت زوجته (ماه بيكر كوسم) صغر سن الأمراء الذين خلفهـم وسيطرت على كافة أمور السراي [(١)] . وعلى الرغم مما تذكره بعض المصادر مـن حسنات هذه المرأة [(٢)] ، إلا أن بعض المؤرخين يحملها جزءاً كبيراً من مسئولية تدهور الأوضاع في فترة نيابتها ، فهي التي سعت لإجلاس (مصطفى الأول) على العـرش عام (١٠٢٦هـ/١٦١٧م) بدلاً من (عثمان الثاني) وذلك لخوفها من (عثمان الثاني) حيث بدت عليه علامات الشدة منذ صغره .

كما كان لها دور في واقعة (الهائلة العثمانية) عام (١٠٣٢هـ/١٦٢٢م) وذلك بالتعاون مع الإنكشارية ورجال السراي [(٣)] ، أما في فترة نيابتها بـصفتها الـسلطانة الوالدة ، أي في الدور الأول من حكـم الـسلطان (مـراد الرابـع) (١٠٣٣هـ ـ - ١٠٤٢هـ/١٦٢٣م -١٦٣٢م) ، فقد أصبحت السيطرة الفعلية بيدها بـشكل مباشـر ، وخاضت الدولة في هذه الحقبة حروباً مع الصفويين حيث فشل الجيش العثمـاني فـي الحفـاظ على (بغداد) كما عاصرت مشكلة (أباظة محمد باشا) وعصيان الوزيرين (خسرو باشا) و (رجب باشا) وكان لها دور في اختيار الـوزراء لمواجهـة هـذه الأحداث [(٤)] ، وببلوغ السلطان (مراد الرابع) الثامنة عشرة من عمره انتهت مدة نيابة والدة سلطان (كوسم) وذلك عام (١٠٤٢هـ/١٦٣٢م) . بعد أن استمرت في منصب

---

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٥٥ .

(2) إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص ص١٤١ ، ١٤٢ ؛ إسماعيل سـرهنك : حقـائق الأخبـار ، ج١ ، ص٥٨٧ .

(3) يذكر بجوي في تاريخه تفاصيل مقتل السلطان (عثمان الثاني) حيث قتل بطريقة مروعة . انظر : بجوي : بجوي تاريخي ، ج٢ ، ص ص٦٥٤ ، ٦٥٥ ؛ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٤٦٢ ، ٤٦٧ .

(4) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

السلطانة الوالدة (٨) سنوات و(٨) أشهر . ولكنها عادت بعد وفـاة الـسلطان (مـراد الرابع) إلى التدخل مما خلق أزمة بينها وبين ابنها السلطان (إبراهيم الأول) الـذي جلس على العرش عام (١٠٥٠هـ/١٦٤٠م) .

واضطر إلى تهديدها بإرسالها إلى (قبرص) ، ولذلك سـعت بالتعـاون مـع آغوات الإنكشارية إلى خلعه عام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) وبويع ابنه (محمـد الرابـع) وعمره (٦) سنوات وأصبحت (كوسم) نائبة السلطنة بصفتها جدة السلطان ولـصغر سنه خضعت الدولة لمدة (٣) سنوات تحت سيطرتها وسـيطرة آغـوات الإنكـشارية ونظراً لتغلب هؤلاء الآغوات على السلطة سميت المدة الممتـدة مـن (١٠٥٨هـ - ١٠٦٢هـ/١٦٤٨م-١٦٥١م) بسلطنة الآغوات ، حيث دبر هؤلاء الآغوات بالتعـاون مع السلطانة (كوسم) مؤامرة ووجهوا تشكيلات الإنكشارية ، والعلماء ، والـوزراء ، لخلع السلطان إبراهيم ثم قتله [1] .

وعادت الفوضى في مركز الدولة في وقت كان الأسطول العثماني يعمل علـى فتح جزيرة (كريت) وشبت ثورات قام بها الإنكشارية والسباهية في العاصـمة عـام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) ، ونتيجة لتجاوزات آغوات الإنكشارية ، ثار الشعب ضدهم عام (١٠٦٢هـ/١٦٥١م) وكانت (خديجة تورخان) [2] والدة السلطان (محمد الرابـع) تقف إلى جانب الثوار للحد من هذه التجاوزات .

أما السلطانة (كوسم) فكانت تعلم أن نهاية سلطنة الآغوات تعني نهاية لسلطتها ولذلك أرادت أن تكسر شوكة (خديجة تورخان) وذلك بقتل (محمد الرابع) وإجلاس الأميـر (سليمان) أخـاه من أم أخـرى ، ولكن حاشيـة السلطـان كشفت خطـة السلطانة (كوسم) فاقتحموا منزلها في (١٠٦٢هـ/١٦٥١م) وقاموا بقتلها خنقاً [3] .

---

(1) انظر تفاصيل هذه الأحداث في : يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٤٨٩ ، ٤٩٧ .

(2) خديجة تورخان : زوجة السلطان (إبراهيم الأول) ووالدة السلطان (محمد الرابع) أسرها التتار في إحـدى غاراتهم على أوكرانيا وهي في الثانية عشرة من عمرها ، وقدموها إلى (كوسم سلطان) ، فأشـرفت علـى تربيتها ، ثم قدمتها هدية لابنها (إبراهيم) فأنجبت له ابنه محمد ثم أصبحت (والدة سلطان) ونائبة للسلطان عندما اعتلى ابنها (محمد) العرش وهو صغير السن . انظر : ماجدة مخلوف : الحريم ، ص٤٦ .

(3) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٩٧ .

وهكذا أعطت هذه المرأة نموذجاً سـيئاً لنفـوذ نـساء القـصر فـي القـرن (١١هـ/١٧م) وقد استمرت في نيابة السلطنة (١١) سنة قضت منها (٨) سنوات أثناء طفولة (مراد الرابع) بصفتها والدة السلطان ، و(٣) سنوات أثناء طفولـة السلطـان (محمد الرابع) .

ولكن لا يمكننا الحكم على دور نساء القصر على أنه دور سيء ، لأن ذلك أمر نسبي فلقد ضربت السلطانة (خديجة تورخان) والدة السلطان (محمد الرابع) مثـالاً في الحرص على مصلحة الدولـة فـي فتـرة نيابتهـا الممتـدة مـن (١٠٦٢هـ - ١٠٦٧هـ/١٦٥١م-١٦٥٦م) فقد ركزت اهتمامها على البحث عن شخص يمكـن أن تعتمد عليه الدولة لتوليه منصب الصدر الأعظم . وذلك حتى تم اختيار (محمد باشـا كوبريللي) الذي كان له فضل بعد ا - عز وجل - في إنقاذ الدولة من الانهيار فـي وقت كانت العاصمة محاصرة من قبل أساطيل البنادقة ، كما أنها تميزت بحسٍ وطني وقاد ، فبالإضافة إلى اختيارها لهذا للوزير ، دأبت على تلقـين ابنهـا دروسـاً فـي التضحيـة ، وإعداده ليكون سلطاناً قوياً ، ولكونها عاصرت نيابة السلطانة (كوسـم) ونتائج تدخلها في شؤون الدولة فقد حرصت على الانسحاب من الحياة السياسية ، ومنع نساء القصر عن التدخل في السياسة ، وبذلك أغلقت الدور الذي عرف فـي التـاريخ العثماني بسلطنة النساء والآغوات (1) .

---

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥٠٠ ، ٥٠١ .

د- حركة الإصلاح في القرن (١١هـ/١٧م) :

أولاً : حركة الإصلاح في عهد السلطان (عثمان الثاني) .

ثانياً : واقعة (هائلة عثمانية) .

ثالثاً : حركة الإصلاح في عهد السلطان (مراد الرابع) .

رابعاً : سمات حركة الإصلاح في القرن (١١هـ/١٧م) .

يتضح لنا من العرض السابق أن هناك حاجة للقيام بحركة إصلاحية شاملة في الدولة ، وأن هذا الإصلاح كان لابد له أن يظهر منذ أواخر (ق١٠هـ/١٦م) .

ولكن لماذا تأخرت حركة الإصلاح ؟ ، وأي الأنماط والنماذج لابد أن يتخذها هذا الإصلاح ؟ ، ومن هي الفئة التي تزعمت هذه الحركة ؟ ، وما هي علاقة حركة الإصلاح بحركة الفتح .

للإجابة على هذه التساؤلات لابد من إيضاح أمرٍ مهم ، وهو أن الدولة العثمانية اعتمدت عند قيامها على الشريعة الإسلامية واتخذت منها قانوناً للحكم في البلاد وعبرت عنه بعبارة : " قانوننامي سلطاني كي شريعي شريفي موافقاتي محرر أولوب " أي القانون الموافق للشريعة الشريفة [1] .

ولذلك كان العلماء يقفون إلى جانب السلاطين لتطبيق هذا القانون ، فاستطاعت الدولة أن تجابه المتغيرات والمستجدات التي طرأت مع مرور الزمن ، ولكن الملاحظ أن مكانة العلماء أخذت تتأخر ، إلى أن طغت عليها مكانة الوزراء وتزايد نفوذهم مع مرور الوقت ، ويمكن القول أن هناك بعض الثغرات التي طرأت مع نشأة النظام العثماني ولكنها لم تظهر إلا في فترة متأخرة ، ولهذا لم تكن هناك حاجة إلى سد هذه الثغرات أو إصلاحها ، ولكن منذ أواخر (ق١٠هـ/١٦م) كانت هذه الثغرات قد اتسعت وتحولت إلى معوقات لاستمرار قوة الدولة ، وهكذا تأخرت حركة الإصلاح إذ لم يكن لدى القائمين على الدولة شعور بضرورة إصلاح النظام العثماني القديم خاصة أن الدولة حتى عهد السلطان (سليمان القانوني) لم تتعرض لهزائم كبرى مما جعلها تبدو في أفضل أحوالها ، ولكن الصحيح أن الدولة في هذه المرحلة كانت على قمة تتلوها هاوية .

ولقد جاءت هزيمة (ليبانتو Lepanto) البحرية عام (٩٧٩هـ/١٥٧١م) بمثابة الإشارة الأولى لتنبيه العثمانيين إلى الوضع الذي وصلت إليه الدولة ، ثم إن الصعوبات التي واجهتها الدولة في الحرب (العثمانية النمساوية) عام (١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) والتي

---

(1) خاف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص٨٧ .

انتهت بمعاهدة (سيتيفاتوروك) عام (١٠١٥هـ/١٦٠٦م) تركت أثراً لـدى القـائمين على الدولة ونبهتهم إلى ضرورة تدارك الوضع الإداري والعسكري للدولة.

حيث بدت أقل قوة بكثير عما كانت عليه في القرن (١٠هـ/١٦م) [١] وبـدأت مظاهر الضعف تظهر في كيانها [٢] وأصبح لابد من بـذل جهـدٍ إصـلاحي لتفـادي الانهيار .

من هنا يتبين أن العامل العسكري كان المظهر الأول للحاجة إلى الإصـلاح ، حيـث كـان الـسياق الـذي وقعـت فـي نطاقـه معاهـدة (سـيتيفاتوروك) (١٠١٥هـ/١٦٠٦م) ، بمثابة الكشف الأول للنقاب عن الأوضاع الداخليـة وآثارهـا السلبية على الإنجاز الخارجي .

ومن الملاحظ أن بعض مؤرخي الغرب يركزون على أسباب معينة في تفسيرهم لتأخر الإصلاح ويعتبرون هذه الأسباب عاملاً رئيسياً وهي :

أولاً : خوف القائمين في الدولة من ضياع مصالحهم الموروثة ، حيـث ركـز هؤلاء المؤرخون على الإنكشارية كأحد معوقات الإصلاح .

ثانياً : انبهار العثمانيين بانتصاراتهم السابقة واستلهامهم من ماضيهم السابق [٣]. ولا يمكننا إنكار دور الإنكشارية كعائق للإصلاح ولكنهم لم يكونوا عائقاً رئيـسياً بـل إنهم برزوا كأهم عوائق الإصلاح نظراً لطبيعة الدولة ، أما مـا يـذكر مـن تَجاهـل العثمانيين للوسائل المتقدمة عسكرياً ، والمستخدمة في أوروبا ، فقد كـان العثمـانيون يرون أنهم لا يزالون يمتلكون موروثاً حضارياً يمكنهم العودة إليه .

ومع ظهور أولى بوادر الخلل في الدولة العثمانية ، رصد علماؤها هذه البوادر وبدءوا بالتنبيه عليها ، مما يدل على أهمية دور العالم المسلم واستمراريته في العطاء .

---

(1) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٤٣ .

(2) وفاء أحمد البستاوي : فكرة الإصلاح في تذاكر أحمد جودت باشا ، رسالة ماجستير غيـر منـشورة ، عـام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم لغات الأمم الإسلامية ، فـرع اللغـة التركيـة وآدابها ، ص٢٤ .

(3) كولز : العثمانيون ، ص٩١ .

وهكذا لفت التطور السلبي في الدولة نظر مثقفي العصر ورجال الحكم ، وهذا يعني أن حركة الإصلاح في (ق١١هـ/١٧م) كانت بزعامة العلماء وبعض رجال السياسة في الدولة .

أما الأسلوب الذي اتبعه هؤلاء المصلحون فهو كتابة وتأليف عدة مؤلفات جاءت على شكل رسائل أو ما يسمى اليوم تقارير تحمل أفكارهم تحت أسماء مختلفة ، أصاب بعضها وأخطأ بعضها الآخر في وضع التشخيص الصحيح للخلل وطرق علاجه [1] . ولكن معظم هذه الرسائل تتفق في عدة نقاط توضح الخلل ، ومن ذلك ما ذكره (الشيخ حسن كافي الآقحصاري) [2] في رسالة أطلق عليها اسم (أصول الحكم في نظام العالم) وأوجز فيها أسباب الخلل فيما يلي :

١- الإهمال في العدالة والضبط بحسن السياسة ، وسببه عدم تفويض الأمور إلى أهلها .

٢- المسامحة في المشاورة والرأي والتدبير وسببه العجب والكبر، واستنكافهم عن مصاحبة العلماء والحكماء .

٣- المساهلة في تدريب العسكر واستعمال آلات الحرب عند محاربة الأعداء وسببه عدم خوف العسكر من الأمراء .

٤- ثم سبب جميع الأسباب وغاية ما في الباب طمع في الارتشاء ورغبة للنساء .

ويلاحظ أن هذا العالم ركز على جانب مهم وهو مجانبة العلماء وفساد الوزراء ، والعسكر [3] .

---

(1) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٢٤٠ ؛ محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار ، ط٢ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، دار القلم ، دمشق ، ص١٥ .

(2) من العلماء الذين ظهروا في بلاد البوسنة في النصف الأول من (ق١١هـ/١٧م) له عدة مصنفات أشهرها الرسالة المذكورة . وستتم الترجمة له في المبحث الأول من الفصل الرابع من هذه الرسالة .

(3) حسن كافي الآقحصاري : أصول الحكم في نظام العالم وترجمه سي ، حجاز ، ولايتي مطبعة سنده ، طبع اولنمشدر ، سنة ١٣٣١هـ ، ص ص ٦ ، ٨ .

أما أشهر رسائل الإصلاح [1] التي قدمت في القرن (١١هـ/١٧م) فهي التي قدمها (كوجي بك) المستشار الخاص للسلطان (مراد الرابع) والمعروف بباعث الإصلاحات التقليدية وقد حدد أسباب التقهقر الذي تمر به الدولة بأربعة أسباب وهي :

١- غياب مشاركة السلاطين في أعمال الحكومة والجيش .

٢- السلطة الكبيرة التي منحت لمنصب الصدارة العظمى .

٣- نمو مراكز القوى لأحزاب القصر ولمجلس الوزراء وتعددها .

٤- النمو المضطرد للمفاسد والرشاوى في كل أركان النظام العثماني وانحطاط نظام التيمار الذي أدى إلى ضعف الجيش وتسيبه وإلى فساد النظام الزراعي ويضاف إلى ذلك فساد النظام المالي [2] .

وعلى كلٍ فإن أغلب المؤلفات الإصلاحية في (ق١١هـ/١٧م) تتفق على أن العلاج الوحيد للخلل هو العودة إلى عهود السلطان (الفاتح) و (سليم الأول) و (القانوني) التي كانت تمثل العصر الذهبي للدولة ، حتى تنعم الدولة من جديد بسابق عهدها من القوة والمنعة .

وقد عبر هؤلاء المصلحون عن هذا الحل بالتمسك (بالقانون القديم) (قانون قديمه رعايت) ويستخدم مصطلح (القانون القديم) للدلالة على التقاليد العثمانية [3] ، يقول (كوجي بك) : " إن تطبيق الشريعة الإسلامية وأحكامها بقوةٍ وحزم هو العامل الأساسي في وقف تدهور الدولة وحفظ الأمن ووقف التمردات والفوضى في البلاد ، ومن ثم تستطيع الدولة التقاط أنفاسها لتتفرغ لإصلاح نفسها ، وإن المسلمين إذا استجابوا لدواعي الشرع بقوة سيرجعون إلى عهد الفتوحات " [4] .

غير أن الأمر الذي يسترعي الانتباه هو أن آخر هؤلاء المصلحين في الربع الأخير من (ق١١هـ/١٧م) (محمد ساري) قد وضع كتاباً نال شهرة واسعة أسماه

---

(1) حول هذه الرسائل . انظر : الفصل الرابع من هذه الرسالة .

(2) قيس بن جواد العزاوي : الدولة العثمانية ، ص ص٣٨ ، ٣٩ .

(3) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ص٢٤٠ ، ٢٤١ .

(4) محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص١٥ .

(نصائح الوزراء ، والأمراء) وقد وجه فيه النقد إلى المصلحين السابقين له ووسائلهم التقليدية ، كما رأى أن الإصلاح لابد أن يكون جذرياً [١] .

---

(1) قيس بن جواد العزاوي : الدولة العثمانية ، ص ص٣٩ ، ٤٠ .

أولاً : حركة الإصلاح في عهد السلطان (عثمان الثاني) :

رغم أن المناداة بضرورة الإصلاح كانت منذ أواخر القرن (١٠هـ ـ/١٦م) إلا أن تنفيذها لم يبدأ إلا بعـد دخول الدولـة في القرن التالـي ، وبالتحديد علـى عهـد السلطان (عثمان الثاني) الذي اعتزم القيام بحركة إصلاح شاملة وذلك بنـاء علـى مشورة أستاذه (عمر أفندي) [(1)] ، ولقد أسهمت عدة عوامل على تبني هذا الـسلطان لهذه الحركة وهي :

١- شخصية السلطان (عثمان الثاني) وتحصيله العلمي ، فعلى الـرغم من صغر سنه (١٣ عاماً) إلا أنه تكشف عن رجل ذي شخـصية قوية عازمة على تولي السلطة ، كما كان تحصيله العلمي ممتازاً ، وكان واسع الإطلاع على الثقافات بما فيها الثقافـات الأوروبيـة ، فأصبحت لديه فكرة جيدة عن (أوروبا) ، ولجودة تحصيله العلمي حمل أفكاراً ابتكارية عن تنظيم الدولة [(٢)] .

٢- تأثره بأستاذه (عمر أفندي) الذي لقنه فكرة كثير من الإصلاحات .

٣- الظروف التي كانت الدولة تمر بها من فسادٍ إداري بعد وفاة (أحمد الأول) .

٤- حاجة الدولة إلى تأديب مملكة (بولونيا) ومن ثم إكمـال سياسـة الحماية وذلك بفتح هذه البلاد وجعلها حـداً فاصـلاً بـين أمـلاك العثمانيين وبين (قيصرية روسيا) .

٥- رأى السلطان من خلال حملة (خوتين) عام (١٠٣١هـ/١٦٢١م) أن الجيش وخاصة فرق الإنكشارية بحاجة إلى إعادة ضبط وتنظيم .

---

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٦٠ .

(2) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٥١ ؛
Shaw : History of The ottman , cild1 , p264 .

أما كيفية القيام بالإصلاحات فقد وضع السلطان (عثمـان الثـاني) برنامجـه الإصلاحي كما يلي :

١- أنه قام بعزل كل من عاونه على الوصول إلى العرش وذلك حتى لا يسيطروا عليه .

٢- أصدر أمراً بتقليل اختصاصات المفتي ونزع مـا كـان لـه مـن صلاحيات تعيين وعزل الموظفين ، وجعل وظيفته قاصـرة علـى الإفتاء وذلك حتى يأمن إمكانية عزله كما حدث لسلفه .

٣- القيام بتغيير حكومي جديد بتعيين (صدرٍ أعظم) جديد ومـسئولين كباراً آخرين كما عزم على التخاص من سيطرة نساء القصر .

٤- أما في المجال العسكري فقد قـرر إلغـاء تـشكيلات الإنكـشارية واستبدالها بجيش جديد مؤلف من عناصر عربية وأناضولية [١].

---

(1) بشأن هذه التدابير الإصلاحية انظر :
Shaw : History of The ottoman . cild1 . s.264 .
؛ يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ط١ ، ص٤٥٩ ؛ إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٤١ ؛ محمد فريد بك : تاريخ الدولة ، ص٢٧٧ .

ثانياً : واقعة (هائلة عثمانية) :

لقد استطاع السلطان (عثمان الثاني) القيام بمعظم ما نوى عليه من إصلاحات في المجال الإداري ولكن النتائج التي أسفرت عنهـا إصـلاحاته العـسكرية أعطـت إصلاحاته طابعاً عسكرياً .

فعندما خرج السلطان في الحملـة التـي عرفـت بحملـة (خـوتين) عـام (١٠٣١هـ/١٦٢١م) والتي سبق الحديث عنها في الفصل الأول عاد من هذه الحملـة وهو غير راضٍ عن وضع الجيش الذي كانت نقاط ضعفه بادية للعيان ، وفـي نفـس الوقت كان أفراد الجيش ناقمين على السلطان الذي حقرهم بصورة علنيـة ، ونتيجـة للنفور بين السلطان وجنده عزم على إلغاء هذا الجيش واستبداله بجيش جديد ، وأعلـن عزمه على مغادرة العاصمة لأداء فريضة الحج ، ولما بلغ ذلك الإنكـشارية هـاجوا وماجوا وألزموا المفتي (خوجه زاده أسعد أفنـدي) إصـدار فتـوى مـضمونها أن السلاطين لا يتكلفون الحج . ونتيجة لإصرار كلٍ على موقفه انقلب الوضع إلى ثورة .

وقد اضطر السلطان إلى التخلي عن موقفه وأعلن عدم تركه العاصـمة إلا أن الثوار تمسكوا بموقفهم وهددوا العلماء والتشكيلات العسكرية الأخرى وأجبروهم علـى مساندة الثورة وتقدموا بعد صلاة الفجر إلى ساحة جـامع الـسلطان (أحمـد الأول) وطالبوا السلطان برؤوس ستة أشخاص ، من بينهم أستاذ السلطان (عمر أفندي) [1] ، ولما رفض السلطان مطلبهم اقتحموا السراي الذي تُركت أبوابه مفتوحة ، حيث عملت السلطانة الوالدة على تسخير رجال السراي لمساندة الثوار ، كما أن السلطان (عثمـان الثاني) لم يجد مساندة من الشعب لقيامه بقتل أخيه (محمد بن السلطان أحمـد الأول) قبل خروجه إلى حملة (خوتين) ، قام الثوار بقتل الصدر الأعظم (دلاور باشـا) ، وظن العلماء أن هذه الأحداث كانت كافية لإخافة السلطان ، فلم يعملوا علـى خلعـه ، ولكنهم علموا أن الإنكشارية كانوا ينوون قتل السلطان وتولية (مصطفى الأول) مرة أخرى والحصول على إكرامية جلوسه على العرش ثم الحصول على إكرامية أخـرى

---

(1) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص٥٧٦ ؛ يلماز اوزتونـا : تـاريخ الدولـة ، ج١ ، ص٤٥٧ ؛ إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص١٢٢ .

عند خلعه جبراً وجلوس السلطان (مراد الرابع) ، وفي ظهر نفس اليوم بويع السلطان (مصطفى الأول) ، وكذلك تبين أن هؤلاء الثوار كانوا يتحركون بإيعاز من كلٍ مـن السلطانة الوالدة (ماه بيكر كوسم) وأخت الـسلطان (مـصطفى الأول) وزوجهـا الوزير (داوود باشا) .

فر السلطان (عثمان) إلى بورصة ، ولجأ إلى (آغا الإنكشارية) ولما لحق به الثوار ، دب الخلاف بين كبار ضباط الإنكشارية وبين الأفراد ، حيـث كـان كبـار الضباط يرون المحافظة على حياة السلطان ولكنهم فقدوا السيطرة على الموقف وانتهى الأمر بأخذ الثوار السلطان (عثمان الثاني) إلى (يدي قللة) وقتلـه بأمر من الوزير (داود باشا) في عام (١٠٣٢هـ/١٦٢٢م) ، وله من العمر (١٧) عاماً [١] . وهكـذا انتهـت هذه الحادثة بقتل السلطان . وبالتالي يمكن القول أن حركة الإصلاح التي كان (عثمان الثاني) ينوي القيام بها قد باءت بالفشل .

لقد كان هذا السلطان مخلصاً فيما نوى القيام به لإنقاذ الدولة من الانهيـار ، إلا أنه ارتكب عدة أخطاء ، وذلك لقلة خبرته وصغر سنه ، وبسبب الظروف من حولـه مما جعل محاولته تبوء بالفشل وتُدخل الدولة في دوامة من الاضـطرابات الداخليـة . وكان من جملة ما ارتكب من أخطاء أنه بدأ بتنفيذ ما كان يرمي إليه بـسرعة ، فبـدأ بعزل الوزراء ، وتقليل صلاحيات المفتي مما ألب العلماء ضده ، وكذلك كل من شعر بأن هذه الإصلاحات تصب في غير صالحه . كما أنه لم يتمكن من اختيار شخـصيات جديرة تعينه على ما عزم عليه ، خاصة وأنه تولى السلطنة فـي فتـرة قلـت فيهـا الشخصيات الفذة التي كـان لها دور في كافة القطاعـات الإداريـة فـي العـصور السابقة [٢] . وأخيراً فإن الخطأ الذي كان له صلة مباشرة بقتله يكمن في حـدة طبعـه الذي دفعه إلى تحقير الإنكشارية بصورة علنية في معركة (خوتين) وتوعدهم بإلغـاء تشكيلاتهم بعد عودته بشكل علني [٣] .

---

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٤٦٢ ، ٤٦٣ ؛ محمد فريد بك : تاريخ الدولة ، ص٢٧٨ .

(2) وفاء البستاوي : فكرة الإصلاح ، ص٢٧ .

(3) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص٧٥٦ .

أما عن النتائج التي أسفرت عنها هذه الأحداث فأهمها :

١- إحساس الإنكشارية بقوة تأثيرهم في الدولة ، وتحكمهم في السلطتين العسكرية والمدنية .

٢- استغلال الشاه عباس هذه الظروف وتقدمه نحو العراق واستيلاؤه على بغداد عام (١٠٣٢هـ/١٦٢٢م) .

٣- ثورة (أباظة محمد باشا) الذي برر ثورته بالمطالبة بدم السلطان (عثمان الثاني) الذي قتل ظلماً ، وانضمام العامة إليه .

٤- عصيان ابن معن الدرزي في الشام [1] . [2]

---

(1) تمرد فخر الدين المعني في لبنان وهو من الدروز منذ عام (١٠١٢هـ/١٦٠٣م) وتم إخضاع ثورته في عهد السلطان (أحمد الأول) ولكنه عاد إلى التمرد بعد أن اتصل به دوق توسكانيا ، فرديناند الأول ، والبابا ، وباسبانيا ، ولما علمت الدولة بذلك هرب إلى (ليفورنو) عام (١٠٢٢هـ/١٦١٣م) ، وظل خمس سنوات في (فلورنسا) ثم عاد بعدها ليجد حفيده (أحمد علي) قد حل محله فاعترف به أميراً على البلاد . وقد تم إخماد تمرده في عهد السلطان (مراد الرابع) عام (١٠٤٤هـ/١٦٣٥م) . وللمزيد من التفصيلات حول هذا التمرد. انظر : بسام العسلي : فن الحرب ، ج٥ ، ص ص١٧٤ ، ١٧٥ ؛ محمد كرد علي : خطط الشام ، ط٢ ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، استانبول ، ج٢ ، ص ص٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(2) إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص ص١٢٥ ، ١٢٦ ؛ مانتران : تاريخ الدولة ، ص ص٣٥٢ ، ٣٥٣ .

ثالثاً : حركة الإصلاح في عهد السلطان (مراد الرابع) :

تعتبر حركة الإصلاح في عهد السلطان (مراد الرابع) محاولة جدية ومؤثرة في الدولة حيث أنها كادت أن تنهض بها من جديد ، فقد عهد إلى مستشاره (كوجي بك) بوضع تقرير يبين فيه أسباب اضمحلال الدولة ، والوسائل التي يرى بأنها كفيلة بنهضتها .

وقد تضمنت رسائل (كوجي بك) التي قدمها للسلطان (مراد الرابع) ومن بعده السلطان (إبراهيم الأول) عرضاً لأسباب الخلل في الدولة بكافة هيئاتها الإدارية والاقتصادية والعسكرية ، والعدلية . كما تضمنت برنامجه الإصلاحي .

أما أسباب الخلل الإداري فقد أرجعها إلى عدة نقاط أهمها :

١- تفشي الفساد في الإدارة نتيجة فساد وجهل رجال الدولة أنفسهم .

٢- انصراف السلاطين عن ممارسة شؤون الدولة الداخلية كحضور الديوان الهمايوني ، أو الخارجية كالخروج على رأس الحملات العسكرية .

٣- تقلد رجال ضعفاء وجهلة مناصب الدولة الكبرى ، وهؤلاء الأشخاص لم يكونوا من أصحاب الخبرة والعلم ، وعلاوة على ذلك كان غرورهم يجعلهم يستنكفون عن سؤال أهل العلم والخبرة ، فأفسدوا بجهلهم هذا نظام الدولة (1) .

كما تعرض (كوجي بك) إلى أسباب الخلل الاقتصادي والعسكري ، والعدلي ، فأشار إلى انحطاط (نظام التيمار) الذي أصبح بأيدي النساء والأطفال والطبقات الاجتماعية العاجزة عن الخدمة في الجيش والدولة . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل شمل الاضطراب تعيين العلماء الذين لم يعد حسب الكفاءة والمعرفة والعدل والسن .

أما عن تنفيذ خطة الإصلاح فقد اعتمدت على إنعاش المؤسسات العثمانية ، وإعادة الصلاحيات إليها وذلك لأن هذا المستشار كان يرى أن هذه المؤسسات

(1) وفاء البستاوي : فكرة الإصلاح ، ص ص٢٧ ، ٢٨ .

العثمانية ، أرقى من أي مؤسسة متطورة في أوروبا ولذلك سمي بباعث الإصـلاحات التقليدية [١] .

لقد كانت فكرة الإصلاح تتطلب عدة أمور منها :

١- عودة السلاطين إلى مباشرة مهامهم المنوطة بهم بأنفسهم ، ومباشرة أمور الديوان الهمايوني للوقوف على أسباب شـكوى الرعايـا وأن يخوضوا الحروب بأنفسهم .

٢- اختيار شخصيات تتوفر فيهم العلم والخبرة من رجال الدولة خاصة الصدور العظام .

٣- مراعاة عدم تغلب نفوذ الصدور العظام على حساب نفوذ الـسلطان والهيئة العلمية حيث كان ازدياد نفوذ الصدور العظام نتيجة طبيعية مع تولي سلاطين ضعفاء الحكم ، فانتقلت بذلك سلطة تصريف أمور الدولة إليهم ، غير أنهم لم يستطيعوا سد الفراغ الذي تركـه ذهـاب سلاطين العصر الذهبي ، ويرى (كوجي بك) أنهم لم يكونوا مـن أصحاب الخبرة والعلم حتى يتقلدوا منصباً مهماً وخطيراً كمنـصب الصدارة العظمى [٢] .

وقد اتخذ السلطان (مراد الرابع) سياسة شديدة وحازمـة فـي تطبيـق هـذه الإصلاحات فتحسنت أحوال الدولة في عهده نظراً لشدته [٣] . غير أن حكمه لـم يـدم سوى سبعة عشر سنة حيث توفي عام (١٠٥٠هـ/١٦٤٠م) وهو في (٢٨) من عمره ، غير أن النظـام الذي أقره في الدولـة حفظ استقرارها حتى السنوات الأولى من عهد أخيه (إبراهيم الأول) وكان الوحيد من بني عثمان الذين ظلوا على قيد الحياة ، وهو أول سلطان يجلس على العرش قبل أن يكمل تحصيله العلمي .

---

(1) قيس العزاوي : الدولة العثمانية ، ص ص٣٨ ، ٤٠ ؛
Shaw : History of ottoman , cild .1 , s. 172 .

(2) وفاء البستاوي : فكرة الإصلاح ، ص٢٩ .

(3) جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص١٩١ .

ورغم تدخل نساء القصر في أمور الدولة في عهده بين الحين والآخر ، حتى أن السلطان مال إليهن إلا أن الصدر الأعظم (كمانكش قره مصطفى) اقتفى أثر السلطان (مراد الرابع) في حزمه .

ويعد إقدام الدولة على فتح (جزيرة كريت) في عام (١٠٥٥هـ/١٦٤٥م) دليل على استمرار سياسة السلطان (مراد الرابع) ولكن منذ وفاة هذا الوزير عام (١٠٥٤هـ/١٦٤٤م) بدأ الاضطراب الداخلي يعود إلى الدولة ، فعادت سيطرة النساء ، وثورات الجند التي أدت إلى عزل السلطان (إبراهيم الأول) في عام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) [1] .

واستمرت الدولة تعيش اضطرابات داخلية وخارجية حتى تولى منصب الصدارة العظمى (محمد باشا كوبريللي) عام (١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) والذي يمكن اعتبار الفترة التي تبدأ بتوليه هذا المنصب وحتى عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) والتي عرفت بدور الكوبريللي بأنها شهدت حركة إصلاحية أخرى أسهمت في إحياء قوة الدولة في الخارج واستقرارها في الداخل .

بدأ محمد (كوبريللي) حياته في القصر العثماني كطباخ ، ثم أصبح كبير الطباخين ، ثم رئيساً للخدم ، فمربي للصقور ، حتى وصل بمساعدة نساء القصر إلى وظيفة (سنجق) في (دمشق) ثم في (طرابلس) وأخيراً في (القدس) . وعندما بلغ السبعين من عمره أو الثمانين تم تعيينه في منصب الصدارة العظمى وذلك بنصيحة من السلطانة الوالدة (خديجة تورخان) وقد وضع هذا الوزير شروطاً لقبوله المنصب تحد من صلاحيات السلطان الصغير (محمد الرابع) وكان الوضع المتدهور الذي مرت به الدولة وعدم وجود الرجل المناسب لهذا المكان واقتناع السلطانة الوالدة بأنه لن يتمكن من القيام بدوره المنتظر دون أن يعطى صلاحيات مطلقة جعلها توافق على هذه الشروط [2] .

---

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٨٨ ؛ إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص١٣٦ .

(2) يوسف الثقفي : لمعان الضوء ، ص ص٢٣١ ، ٢٣٣ ؛
Hakki dursun yildiz : Dugustan gunumz kadar , cild. 7 , s. 53 .

انتهج (محمد باشا كوبريللي) سياسة السلطان (مراد الرابـع) التـي تتـسم بالحزم في إصلاحاته الداخلية ، فعاقب المتهاونين في أداء أعمالهم ، وأصدر قـرارات بالاستبدال والنفي والإعدام بحق من يستحق ذلك . وشملت إصلاحاته ميزانية الدولة ، وكذلك استطاع أن يقضي على الحركات التي قام بها الجلاليين في الأناضول ، وعلى التمرد الذي قام به (أباظة حسن باشا) . وأحبط ثورة كان بطريرك الروم ينوي القيام بها وأعدمه . أما على الصعيد الخارجي فقد اسـتطاع أن يخـضع تمـرد الولايـات الخارجية ، فضلاً عما قام به في رفع الحصار الذي فرضه البنادقـة علـى مـضيق الدردنيل .

وهكذا استطاع (محمد باشا كوبريللي) وأبناؤه من بعده أن يعيد الدولة إلى مـا كانت عليه مـن تماسك ونظـام حتى شبه بعض المؤرخين (دور الكوبريللي) بعهد (القانوني) [(١)] .

وإذا كان الأوروبيون يفتخرون بشخصيات سياسية ذات أثر فعال فـي سياسـة الدول التي ظهرت فيها في القرن (١١هـ/١٧م) من أمثال (ريـشلييه Richelieu) و (مزران Mazarin) و (كولبير Colber) [(٢)] .

فإنه يحق للمسلمين أن يفتخروا بأمثال (محمد باشا كوبريللي) وأبنائـه الـذين ضربوا خير أمثلة بإخلاصهم في توجيه الدولة والرقي بها وإحياء قوتها .

---

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥٠٣ ، ٥٠٤ ؛ يوسف الثقفي : لمعان الضوء ، ص ص٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(2) ريشلييه : من الشخصيات الفذة التي اشتهرت في فرنسا ، تولى الوزارة عام ١٦٢٤م في عهد الملك (لـويس الثالث عشر) تلخصت سياسته في شعار واحد هو (تفوق فرنسا) والقضاء على سيادة أسـرة الهابـسبورج النمساوية .

أما مزران : تولى رئاسة الوزارة بعد ريشلييه عام ١٦٤٣م وكان قد تدرب على يديه وتبنى سياسته وخططه التي ضمنت قوة فرنسا في عهد (لويس الرابع عشر) غير أنه اعتمد الخداع في سياسته مما ألب الرأي العام ضده .

أما كولبير : فقد كان وزيراً للمالية ونشأ في ظل مزران وتدرب على يديه ، وعندما وصـل إلـى الـوزارة استطاع أن يخلص البلاد من الفوضى الاقتصادية واستطاع أن يحقق عظمه فرنسا اعتمـاداً علـى الجانـب الاقتصادي في عهد (لويس الرابع عشر) . انظر : عبد الحميد البطريق وعبـد العزيـز نـوار : التـاريخ الأوروبي ، ص ص١٦٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ .

ويتضح لنا من العرض السابق أن الدورات الإصلاحية التي مرت بها الدولة في هذه الحقبة لاقت نجاحاً والدليل على ذلك أن كل حركة إصلاح لابد أن يتبعهـا نـشاط جهادي عسكري ، غير أن هذا النجاح كان نسبياً ومؤقتاً فبعد عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) أخذت أمور الدولة بالاختلال من جديد . فبعد إعدام (قره مصطفى باشا) عاد التـآمر والتنافس بين الوزراء لتولي منصب الصدارة وقد كان لبعضهم دوراً في إقدام السلطان (محمد الرابع) على إعدام هذا الوزير ، وعلى رأسهم الوزير الثالـث وقـائم مقـام الصدارة (قره إبراهيم باشا) حتى أنه عندما سمع خبر هزيمة فيينا أمـسك المنـديل وأخذ يرقص ، لأنه سيتخذ من هذا الحدث فرصة لعزل (قره مصطفى باشا) وتـولي منصب الصدارة بدلاً منه ، وقد سميت السنوات ما بـين حـصار فينـا حتـى عـام (١١١١هـ/١٦٩٩م) (بسنوات المصائب) [1] نظراً لما تلقته الدولة من هـزائم فـي الخـارج ، وما عانته من اضطرابات وفتـن فـي الداخـل ، حتـى وقعت معاهـدة (كارلوفتس) عام (١١١١هـ/١٦٩٩م) التي تزامنت مع هذه الاضطرابات وتـسببت بعد عدة سنوات في حدوث واقعة (أدرنة) عام (١١١٥هـ/١٧٠٣م) [2] .

وعلى ضوء هذه الأحداث يمكننا القول بأن هذه الدورة الإصلاحية التي أثمـرت الهجوم على (النمسا) قد أعقبها دورة من التردي والفساد الإداري استمر ما يقـارب نصف قرن ، حتى بدأت حركة الإصلاح الجديد مع السلطان محمود الأول (١١٤٣هـ-١١٦٨هـ/١٧٣٠م-١٧٥٤م) حيث استعادت الدولة بعض ما فقدته وذلـك بموجـب معاهدة بلغراد سنة (١٠٥٣هـ/١٧٤٠م) [3] .

---

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥٤٢ ، ٥٤٣ .

(2) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٨٨ ؛ اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٦١ .

(3) نادية مصطفى : العلاقات ، ص٩١ .

رابعاً : سمات حركة الإصلاح في القرن (١١هـ/١٧م) :

من خلال العرض الموجز لحركة الإصلاح فـي (ق١١هـ ـ/١٧م) يمكننـا أن نستخلص أهم سمات هذه الحركة وهي :

١- أنها كانت بزعامة مثقفي العصر سواء كانوا فقهاء أم مـن رجـال السياسة الذين وضعوا رسائل ومؤلفات . إما بدافع الإخلاص للدولة أم بطلب من بعض السلاطين .

٢- أنها ارتكزت على إعادة تنظيم مؤسسات الدولة وفق النظم القديمـة ومن دون السعي لوضع نظم جديدة [1] . ولعل هذا ما جعل بعـض المصادر الغربية تصف هذه الحركات بأنها سطحية وتقليدية . ولكن بالنظر إلى الجوانب التي تناولتها محاولات الإصلاح بالنقد يتـضح أنها تميزت بالشمول والإدراك العميق للأساس الحقيقي للمـشكلة ، وهو البعد عن تطبيق أحكام الـشريعة ، ولـذلك جـاءت دعـوات الإصلاح تنادي بإحياء تراث الأمة الإسلامية والعودة إلـى الكتـاب والسنة . وكذلك جاءت هذه الحركات مستقلة ومحلية وبعيـدة عـن التأثر بالغرب . وذلك لسبب مهم وهو اعتقاد مفكري الدولة أن لديهم رصيداً حضارياً وفكرياً منبثقاً عن التشريع الإسلامي الـذي يمثـل أساس القانون العثماني . لذا فهم بغنى عن أي تجربـة أوروبيـة لا تتناسب مع هذا الأساس .

٣- كانت محاولات الإصلاح مؤقتة وتنقصها الديمومـة والاسـتمرار . وذلك لعدم ترابط جهود المصلحين . من جهة ، وارتباط كل محاولة بشخصيات السلاطين الذين عاصروها من جهة أخرى . مما يـؤدي إلى انتهائها بموت هؤلاء السلاطين وعودة الفوضى من جديد فتظهر

---

(1) وفاء البستاوي : فكرة الإصلاح ، ص٣١ .

الحاجة إلى الإصلاح الذي يضحى ضرورة ملحة تظهر بين الحـين والآخر فتتعدد صوره وتتباين مناهجه [١] .

٤- ارتباط حركة الإصلاح بحركة الفتوح ، فكانت كل محاولة إصـلاح يتبعها نشاط عسكري .

(1) وفاء البستاوي : فكرة الإصلاح ، ص٣١ .

المبحث الثاني :

الأوضاع العسكرية في القرن (١٠هـ/١٦م)

أ- التشكيلات العسكرية البرية منذ النشأة وحتى (ق١٠هـ/١٦م) .

ب- التشكيلات العسكرية البحرية منذ النشأة وحتى (ق١٠هـ/١٦م) .

لم يكن للإمارة العثمانية عند قيامها جيش نظامي تعتمد عليه . فكانت تعتمد على أسلـوب النفير في القتال . حيـث يجتمع لديهـا قواد العشائر المكونة من المجاهدين (الغزاة) الذين كانوا جميعاً من الفرسان ، فإذا انتهت الحرب تفرقت جموعهم واعتمد هؤلاء الفرسان على خيولهم التي كانت مصدر قوتهم وتفوقهم على القوات البيزنطية ، وكان عنصر المفاجأة وعنصر الانتشار الأفقي عنصرين مهمين في إربـاك الجـيش البيزنطي الذي عجز عن سد الانتشار بقوات عسكرية ، ولكن مع استمرار حركة الفتح أدرك (الغازي أورخان) ضرورة تواجد جيش دائم ، وذلك لأن القوات لا تأتي إلـى الحرب في الوقت اللازم .

وقد جاء تطوير هذه القوات وفقاً للفتح العثماني في الأناضول ثم فـي البلقـان لتظهر تشكيلات عسكرية أخرى ، فأصبحت تضم المشاة (يا يا) إلى جانب الفرسـان حسبما اقترح (جاندرلي قرة خليل) قاضي (بورصة) آنذاك ، ومن الجدير بالـذكر أن الجيش العثماني في تلك الفترة كان كله من الأتراك المسلمين الذين انـضموا إليـه راغبين في نشر الإسلام (١) .

وتنقسم القوات البرية العثمانية إلى قسمين رئيسيين وهما :

أ- قوات المركز (أوجاقات القبوقولية) (٢) .

ب- قوات (الإيالات) (٣) .

أ- قوات المركز *(أوجاقات القبوقولية)* :

أما عن تأسيس الجيش الإنكشاري (يني جري) الذي ذاع صيته والذي حـاز جزءاً مهماً في التاريخ العثماني فلم يجري تأسيسـه إلا فـي عهد (مـ ـراد الأول) وذلك بعد انتقال العثمانيين إلى الأراضي الأوروبيـة إثـر فـتح مدينـة (أدرنـة)

---

(1) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٣٨٧ ؛ سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢٦ .

(2) اوجاق : كلمة تطلق على الجماعة التي يلتقي أفرادها في مكان واحد ثم أطلقت كذلك على الصنف من الجنـد كالسباهية . سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص٤٢ .

(3) إيالات : الإيالة هي أكبر التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية ، وتنقسم إلـى سـناجق ، والـسناجق إلـى أقضيات والأقضيات إلى نواحي ، والنواحي إلى قرى . انظر : سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص٤٥.

(٧٦٢هـ/١٣٦١م) [(١)] ، وقد اختلفت المصادر التي تناولت تأسيس هذا الصنف حـول مصدره ، ولكن الظاهر أن المصدر الأساسي للإنكشارية كان من المـسيحيين الـذين اعتنقوا الإسلام فيما بعد . غير أن هناك طريقين لانضمامهم إلى الجـيش العثمـاني ، وهذان المصدران هما : أسرى الحرب ، أي الفتيان النصارى الذين وقعوا فـي أسـر العثمانيين ، حيث يتحرى الاستفادة منهم وفقاً للقانون العثماني (بنجيـك قـانوني) أي قانون الخمس الذي ينص على أن تحصل الدولة على خمس أسـرى الحـرب مقابـل الضريبة المستحقة عليهم . أما المصدر الثاني فهو قانون (الدوشيرمه) [(٢)] وهي جمع عدد معين من أطفال دار الكفر وإعدادهم للمهام الإدارية والقتالية بعد اعتناقهم الإسلام.

ولم يكن الإنكشارية يشكلون معظم الجيش العثماني بل إنها تشكّل جـزءاً مـن الجيش ، ولكنها تعتبر مركزه وأعظمه نفوذاً [(٣)] .

وقد وضع مؤسسو هذه الفرقة نظامـاً دقيقـاً قـاسٍ علـى المـذنبين ورؤوف بالمخلصين حيث يربون على ولاء وانضباط مطلقين ويتعلمون اللغة التركية ومبـادئ الدين الإسلامي ويتمرنون على الأعمال العسكرية في ثكنات خاصة بهـم ، ويقومـوا بخدمة السلطان بغيرة وحماس ووفقاً لهذا النظام فقد كان محظوراً علـيهم الـزواج ، ورغم صرامة هذا النظام فقد كان الباب مفتوحاً أمام الكفـاءات للترقـي إلـى أرفـع المناصب ، وبفضل هذا النظام نشأت فرق الإنكشارية في صدر الدولة جندٌ لا مثيل لهم يجمعون بين الشجاعة والدراية ، وبين الطاعة والتقوى حتى قيل إن أربعين جندياً منهم يقادون بشعرة ، وكان الفرس يتساءلون بمناسبة تقواهم إذا كان بـين جنـود الـسلاطنة أولئك المحاربون الذين يكثرون الركوع والسجود [(٤)] .

---

(1) اينالجك : الإمبراطورية العثمانية ، ص٢٢ .

(2) الدوشيرمه : تعني الجمع والانتقاء أي انتقاء ذوي اللياقة من أبناء المسيحيين وبعد تدريبهم يجري تجنيـدهم ، صدر نظام الدوشيرمه بعد معركة أنقرة ١٤٠٢م حيث توقف الفتح فوجدت الدولة أنه لابد من البحـث عـن مصدر جديد . أميرة مداح : نظرة متأنية ، ص١٩ .

(3) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص١٨٢ ؛ أحمد مصطفى : في أصول ، ص٤١ ؛ يلماز اوزتونا : تـاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٣٨٩ .

(4) قازان : سلاطين بني عثمان ، ص١٠ ؛ أحمد مصطفى : فـي أصـول ، ص٤٤ ؛ بـيهم : فلـسفة ، ج٢ ، ص١٢٩ .

ولم يكن عدد الإنكشارية يتجاوز الألف في بداية الأمر ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ألفا ومائتين في عهد السلطان (محمد الفاتح) و(١٢٠٠٠) في عهد القانوني [(١)] .

وإلى جانب الإنكشارية كانت هناك تشكيلات عسكرية تـؤدي أدواراً مـساندة ، ولعل أهمها : (أوجاق الجبجية) وهم المسئولون عن تـأمين الأسـلحة للإنكـشارية والمحافظة عليها ونقلها أثناء الحرب وإصلاح المعطوب منها [(٢)] ، وكذلك : (أوجـاق المدفعية) أو (الطوبجية) وهي إحدى فرق المشاة التي جرى تشكيلها بعـد تـشكيل أوجاق الإنكشارية ، وقد استخدم العثمانيون المدافع منذ عهد السلطان (مـراد الأول) في معركة (كوسوفو) عام (٧٩٢هـ ـ/١٣٨٩م) كمـا أدت دوراً مهمـاً فـي فـتح القسطنطينية .

وينقسم هذا الأوجاق من حيث المهام إلى قـسمين ، يتـولى أحـدهما صـب المدافـع وتصنيفهـا بينما يتولى الآخـر استخدامها ، ويطلـق على قائد المدفعيـة اسم (طوبجيشباشي) وأما أنواع المدفعية التي استخدمها العثمـانيون فهـي شـايقة ، وبرانقي ، وباجالوشقة ، ومدافع الهاون ، وهذه التسميات تستخدم للدلالة على عيارات وأحجام المقذوفـات وثقلها [(٣)] . وامتثالاً لقوله عز وجل : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [(٤)] .

فقد عمل العثمانيون على تطوير هذا السلاح وكان السلطان (محمد الفاتح) أول من جلب الصناع والمختصين من المجر ، وألمانيا للاستعانة بهم في هذا المجـال [(٥)] . ثم أنهم فاقوا كل دول أوروبا فـي تطـوير هـذا الـسلاح حتـى أن (ماكيـا فللـي

---

(1) سلطان : تاريخ الدولة ، ص١٦٩ .
(2) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٣٩١ .
(3) للمزيد من المعلومات عن أنواع المدافع . انظر : اوغلي : الدولة العثمانيـة ، ج١ ، ص ص٣٤٢ ، ٣٩٣ ؛ يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص ص٣٩٨ ، ٣٩٩ .
(4) سورة الأنفال ، آية : ٦٠ .
(5) سلطان : تاريخ الدولة ، ص١٧٣ .

Machiavelli) [1] في ق(١٠هـ/١٦م) نبه إلى أهمية هذا السلاح وأشار إلى تفـوق العثمانيين فيه بقوله : " تمكن الأتـراك مـن الانتـصار علـى شـاه إيـران عـام (٩٢٠هـ/١٥١٤م) وسلطان المماليك (٩٢٣هـ/١٥١٧م) بفضل الأسلحة النارية " .

وكان للعثمانيين السبق في استخدام المدافع ذات الأخاديد ، ولم تستخدمها أوروبا إلا في عام (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) [2] . ولما كانت المدفعية مـن أهـم أسـباب تفـوق العثمانيين ، فقد تفوقوا بالتالي في إعداد الطرق والتموين وتجهيز حيوانات النقل التـي كانت ترافق قواتهم ، وفي القرنين (٩-١٠هـ/١٥-١٦م) لم تكـن هنـاك أي دولـة تعادلهم في ذلك [3] .

وكما ظهرت لدى العثمانيين مدافع متنوعة وفقاً لثقل مقذوفاتها ، وهـذا التنـوع يرجع إلى استخداماتها فمنها ما هو خاص بتسليح السفن ، ومنها ما هو خاص لمرافقة المشاة والفرسان ودعمهم ، ومنها ما هو خاص بالقلاع والحصون ، وقد ظهرت مهارة العثمانيين في استخدام هذا السلاح في معركة (موهاكس Mohac) عام (٩٣٢هـ/١٥٢٦م) .

وبالإضافة إلى اهتمام العثمانيين بالمدفعية ، اهتموا كذلك باستخدام أسلحة أخرى وكانت هناك فرقاً متخصصة لاستخدامها . ومنها ما يعرف (بأوجاق الخمبرجية) [4] أي رماة القنابل التي تقذف باليد أو بمدافع الهاون ويعرف قائدهـم (بـالخمبرة جـي

---

(1) نيقولا ماكيا فللي : مثقف فلورنسي عاش ما بين عامي (٨٧٤هـ-٩٣٤هـ/١٤٦٩م-١٥٢٧م) في فلورنـسا والتحق بخدمة حكومتها وفلورنسا في عهد أميرها (لوران) الفاخر في عام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) وكان يؤيـد نظام الحكم الجمهوري ، ويكره رجال الكنيسة ويحتقر الرهبان ، ولكنه لم يكن يكره الـسياسي المخـادع إذا خدع الشعب لمصلحة الشعب واضعاً نصب عينيه المبدأ القائل (الغاية تبرر الوسيلة) ألف كتاب (الأميـر) وضمنه كل أفكاره عن أصول الحكم وفن السياسة ، وانتشرت آراءه في عدد من الدول الأوروبية كفرنـسا ، وروسيا وغيـرها من الدول وذلك في القرنين (١٠-١١هـ/١٦-١٧م) . انظر : البطريق ، ونوار : التاريخ الأوروبي ، ص ص٤٠ ، ٤٢ .

(2) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٣٨٢ .

(3) البحراوي : حركة الإصلاح ، ص٥٥ .

(4) (الخمبرة) : اسم لأداة من الأدوات الحربية المستديرة ، يترك داخلها فارغاً ثم يملأ بالبارود وقطع الحديد . وكلمة (خمبرة) كلمة فارسية تعني مدفع صغير . سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص١٠٤ .

باشي) أي رئيس رماة الخمبرة ، أما القوات الخاصة بالألغام (اللغمجيـة) فمهمـتهم هي حفر الأنفاق تحت القلاع أثناء حصارها ووضع المواد المتفجرة فيهـا ، غيـر أن بعض أفراد هذه الأوجاق كـان يوكل إليهـم إقامة الجـسـور ، والقـلاع ، وحفـر الخنادق [1] .

ولما كان أفراد هذا الأوجاق يعتبرون مهندسين حربيين فكانت تعطى لهم دروس في الرياضة والرسم والتحصين . والجدير بالذكر أن العثمانيين كانوا قد أولو اهتمامهم بالخنادق ، وهم أول من نظم بناء الكباري في المعارك [2] .

---

(1) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ص٣٩٥ ، ٣٩٦ ؛ يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٤٠١ .
(2) البحراوي : حركة الإصلاح ، ص ص٥٥ ، ٥٦ .

ب- قوات الإيالات :

وهي التي تشكل القوة الحربية الأساسية في الدولة العثمانية ، وقد تشكلت فـي أوائل عهد الدولة من وحدات مختلفة أهمها : السباهية أصحاب التيمارات (تيمـارلي سباهي) والمشاة (يايا) ، والمسلّم ، واليوروك [1] ، والقوات الأجيرة (جراخور) ، والفدائية (جانباز) [2] والقوات المغيرة (آقينجـي) [3]، والـدلاة [4] (دلـي) [5] وغيرها من القوات الأخرى .

السباهية أصحاب التيمارات (تيمارلي سباهي) :

وهي أهم الوحدات (الخيالة) المتصرفة على الاقطاعات ، والتي تشكل أكثـر الفرق عدداً بين قوات الإيالات . وقد تشكلت على عهد السلطان (مراد الأول) نتيجة للتوسع الإقليمي للدولة ، وهذه الوحدات لا تتلقى راتباً من الدولة ، بل تمنحهم الدولـة قطع أرض تسمى (ديرليك) وتعني (إقطاع) [6] ويطلق على هذا الإقطاع (تيمار) إذا كان صغيراً ، و (زعامت) إذا كان الإقطاع كبيراً [7] . أما المسئول عن التيمـار فإنه يجمع ضرائب حاصلات القرويين العاملين في أرضه ، وفي المقابل يقدم صاحب

---

(1) تطلق مسميات (يايا) و (المسلّم) و (اليوروك) على فرق المشاة وأكثرهم جنود متطوعون من العـشائر التركمانية . يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص ص٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(2) جانباز : نوع من العساكر المستخدمة أثناء الفتوحات الأولى للدولة العثمانية ، وتعني كلمة جانباز بالفارسـية المخاطر دون النظر في العواقب . سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص٨٠ .

(3) آقين : كلمة تركية تعني غاره . وآقينجي تعني مغوار ، وهم جنود الصاعقة . يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٤٠٧ .

(4) (الدلاة) فرقة عسكرية خيالة تشكلت في نهايات ق(٩هـ/١٥م) بالروملي وأصل الكلمة دليل ثم أطلق عليهم (دلي) بمعنى (المجنون) نظـراً للبطـولات الجنونيـة التـي كـانوا يخوضـونها وقـد ألغيـت عـام (١٢٤٥هـ/١٨٢٩م) . سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص١١٥ .

(5) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٣٩٩ .

(6) عندما نقول إقطاع هذا لا يعني أنه مثل الإقطاع الموجود بأوروبا ، فالإقطاع في أوروبا قـائم علـى نظـام الطبقات أي أسياد وعبيد أما في الدولة العثمانية فالإقطاع يختلف تماماً . الباحثة .

(7) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣١٠ ؛ يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٣٨٧ .

الإقطاع للدولة عدداً من الفرسان أو من البحارة لخدمة الأسـطول ، علـى أن تكـون تجهيزاتهم كاملة تتناسب مع محصول أرضه .

وقد بلغ عدد الفرسان المقدمة من الإقطاعات الأوروبية نحـواً مـن (٨٠٠٠٠) فارس . أما الولايات الفارسية ، فقد تعذر إنشاء تيمارات جديدة فيها حيث لا يوجد من يرغب في الحصول على أي منها ، لأنها لم تحتمل أي زراعات بها ، حيث ترتب على كثرة الحملات الحربية في تلك المنطقة أنها خربت ولم تعد صالحة للزراعة [(١)] .

لقد أسهم سباهية التيمار في تتريك وإسلام الأناضـول والروملـي ، وبلغـت تشكيلاتهم أرفع مستوياتها في أواسط (ق١٠هـ/١٦م) ، وكانت كلما اتـسعت الدولـة زاد عدد السباهية ذوي التيمار . ونظراً لأهميتهم فإنهم يعتبرون القوة الجسمية للدولة ، وإليهم يعزى نجاح العثمانيين وتأسيس دولتهم ، ووفقاً لهذا النظام الدقيق توفر للعسكرية العثمانية مصدراً اقتصادياً قوياً . ويضاف إلى ذلك أنهم كانوا بمثابة حماة داخليين وذلك لأن وجودهم مانعاً لظهور العصاة والبغاة داخل الدولة ، ومن هذا يتبين لنـا ارتبـاط التنظيم الإداري بالتنظيم العسكري ، الأمر الذي جعل بعـض المـؤرخين يقولـون أن الحكومة العثمانية والجيش هما وجهان لعملة واحدة [(٢)] .

وعند خوض المعارك فإنه يجري ترتيب هذه الفرق سواء قـوات المركـز أو قوات الإيالات بحيث تؤدي كل فرقة ما عليها من واجبات في تنسيقٍ تام .

فكانت المدفعية وفرقة (جبه جي) تتقدمان الجـيش عنـد الهجـوم ، وكـان الإنكشارية يرافقون طليعة الجيش هذه ، ويتبعهم آغاواتهم وإثنان من قضاة العـسكر ، والمحاسبون ، وكان موكب السلطان نفسه يبدوا بعد هؤلاء جميعاً ، يحيط بـه حرسـه الخاص ، وحجابه . أما القلب فكان يحتله الصدر الأعظم والـوزراء مـع حاشـيتهم الصغيرة ، ووراءهم باشـا الروملـي ، وباشـا الأناضـولي ، وجمهـرة الفرسـان

(1) محمود السيد : تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ص١٩٤ .
(2) اوغلـي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ص٣٩٩ ، ٤٠٠ ؛ يلمـاز اوزتونـا : تـاريخ الدولـة ، ج٢ ، ص ص٣٨٦ ، ٣٨٧ ؛ ياغي : الدولة العثمانية ، ص٩٠ ؛ محمد الدقن : دراسات في تاريخ ، ص٦٢ ؛ كـولز : العثمانيون ، ص١٩٨ .

الإقطاعيـون ، وكان باشا الروماللي يتقدم زميله في الحملات الأوروبية ، في حين كان يتقدم باشا الأناضوللي في الحملات الأسيوية ، ويعتمد الجيش في الهجوم علـى دعـم فرق (المدفعية) وفرق (الآقينجي) ثم فرسان السباهية . في حين يقف الإنكـشارية إلى الوراء في القلب . وكان السلطان يتخذ مكانه خلفهم وإلى جانبهم بيـرق الحـرب والحاشية السلطانية (١) .

وقد أشاد المراقبون الأوروبيون بأداء الجيش العثماني ونظامـه وعلـى سـبيل المثال وصف (مونتي كوكوللي Kont montecuceuli) (٢) قوة واقتـدار الدولـة العثمانية بقوله : " إن الدولة العلية كانت لها سلطة قاهرة ذات بأس وقـدرة ، وكـان عندها عساكر لا تعد ، وكلها في غاية الشجاعة والإقدام ، ألفوا الحـرب والغـارات ، وكانوا متهيئين لها دائماً ، يدخلون ساحات القتال قبل إعـلان الحـرب .. ومـن دأب العثمانيين في الحرب أنهم يتظاهرون بشيء ويفعلون سواه ، ويأتون بصور وحركـات عديدة ستراً لمقاصدهم ونواياهم ففي سنين عديدة أظهروا السفر إلى قتال البندقيين فإذا بهم فجأوا على حين بغتة (راكوكزي ملك أردل) " (٣) .

ورغم تعدد التشكيلات العثمانية وتنوعها إلا أنها اتسمت بالمرونة فـي تغييـر مهامها في الجيش فكانت القوات عموماً على استعداد للخدمة في المـشاة أو الفرسـان على حد سواء ، وكان كل تركي فارس بطبيعته ، ولا يمكن مقارنة أي نوع آخر مـن فرسان أوروبا بهم ، ففيهم جرأة وكفاءة واكتساح لكل شيء ، وخاصة حـين يعملـون كجماعة فلهم نظام حربي له سمات خاصة ، وكذلك تميزت جيوش العثمانيين بإمكانية تحول الإنكشارية إلى فارس ، وتحول السباهي إلى جندي من المشاة (٤) .

---

(1) بروكلمان : تاريخ الشعوب ، ج٣ ، ص٨٧ ؛ علي حسون : الدولة العثمانية ، ص٣٩٤ .

(2) الماريشال (مونتي كوكوللي) والقائد العام للإمبراطورية الرومانية المقدسة وأحد مؤسسي العسكرية الحديثة في أوروبا ألف كتاب (فن الحرب) توفي في عام (١٠٩٢هـ/١٦٨١م) . يلماز اوزتونا : تاريخ الدولـة ، ج٢ ، ص٣٨٥ ؛ جودت : تاريخ جودت ، ج١ ، ص٥٥ .

(3) جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص١٧٦ .

(4) البحراوي : حركة الإصلاح ، ص٥٧ .

وإلى جانب اهتمام الدولة بتسليح الجيش وتدريبه اهتمت أيضاً بإعدادهم روحيـاً وأخلاقياً ليكون جيشاً إسلامياً حقيقياً . فلم يكن به تعاطي للخمر أو القمار أو غيره من العيوب التي عانت منها الجيوش الأوروبية . ولاشك أنه لهذه الأسباب أخذت الجيـوش العثمانية مكان الصدارة دائماً في حروبها ضد أعداء الإسلام [١] .

وقد كتب (جيوفو) عنهم وذكر أسباب تفوق جنود العثمانيين فقال : " لقد فـاق جنود الأتراك جنودنا لأسباب ثلاثة ، الطاعة الفورية لقادتهم ، عدم الاهتمام بأرواحهم أثناء المعركة ، إمكانهم العيش ولمدة طويلة بدون الخمر والنبيـذ ، قـانعين بالـشعير والماء " [٢] .

وقد عرف عن الإنكشارية أنهم في عصر قوة الدولة كـانوا يتحاشـون أثنـاء سيرهم في الطرق أقل تعدٍ على الرعية ، وكانوا في مدة إقامتهم في ثكناتهم العـسكرية لا يفكرون إلا في كيفية الهجوم وانتظاره ، فإما أن يقتلون أو أن يقتلوا ، وذلك لأنهـم تربوا منذ الصغر على بذل النفس [٣] .

---

(1) محمود السيد : تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها ، ص٢٠٢ .

(2) فيكونت مونتجمري : الحرب عبر التاريخ ، تعريب وتعليق : فتحي النمـر ، مكتبـة الأنجلـو المـصرية ، ص٣٥١.

(3) جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص١٧٢ .

التشكيلات البحرية العثمانية منذ النشأة وحتى القرن (١٠هـ/١٦م) :

نشأت الدولة العثمانية كدولة برية ، وفتحت بلاداً كثيرة بالجيوش البرية ، وفتحت المناطق الساحلية من جهة البر أيضاً ، وعندما انتقلت إلى البر الأوروبي لم تشعر بحاجة كبيرة إلى أسطول ، فالبحر ممر ضيق يفصل الأناضول عن القسطنطينية . وكانت الدولة تستأجر سفن الجنويين لنقل الجند العثماني إلى أوروبا في حالات الحرب . وفتحت البلقان واليونان والمجر عن طريق البر ، وقد وصلت الجيوش العثمانية إلى فارس وأقصى البلاد العربية عن طريق البر ، وكانت الدولة العثمانية تستأجر أيضاً السفن اليونانية للعبور بين الجزر البلقانية (١) .

وعندما قامت الدولة بفتوحاتها في البلدان الواقعة على سواحل بحر إيجه ، وبحر مرمره والبحرين الأسود والأبيض شعرت بحاجتها إلى أسطول كبير (٢) .

فوجهت اهتمامها بالأسطول في القرن (٩هـ/١٥م) فأقاموا قاعدة بحرية في غاليبولي منذ عام (٧٩٣هـ/١٣٩٠م) ، وبعد فتح القسطنطينية زادت عناية العثمانيين بالقوة البحرية وحققوا انتصارات باهرة على البنادقة الذين تفوقوا عليهم سابقاً (٣) . وباتساع الدولة وامتدادها على شواطئ طويلة ازدهرت صناعة السفن وذلك بفضل الغابات القائمة على شواطئ البحر الأسود والتي تمدهم بمعين لا ينضب من الأخشاب . أما المعادن الضرورية لصناعة الملاحة فكانت تمدهم بها مناجم (الأفلاق والبغدان) ، في حين كان قماش الأشرعة يستورد من فرنسا (٤) .

وخلال القرنين (٩-١٠هـ/١٥-١٦م) فإن فتوحات الدولة في البحر الأسود ، وفي البحر المتوسط حتى سواحل أفريقيا الشمالية ، وفي البحر الأحمر ، والصراع ضد البنادقة وأهل جنوة والأسبان والبرتغاليين ، والمنظمة المعروفة باسم (فرسان

---

(1) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص١٧٥ .

(2) Ismail Hakki Uzuncarsili : Osmanli Devletinin Merkez ve Bahireteskilati , 1988 , Angara , 3 baski , s. 389 .

(3) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ص٤١٥ ، ٤١٦ .

(4) بروكلمان : تاريخ الشعوب ، ج٣ ، ص ص٨٨ ، ٨٩ .

القديس يوحنا) وحماية التجارة والاتصالات بين أجزاء الأرض العثمانيـة كـل هـذه الأهداف قد أرغمت السلاطين على التكيف مع نمط حربي غريب عن تقاليدهم ، وعلى تبني التقنيات البحرية التي يعتمد عليها خصومهم ، وقد تمكنوا من الوصول إلى ذلـك على نحـو رائع مما كفـل للعثمانيين السيادة في البحر المتوسط وخاصة فـي عهـد السلطان (سليمان القانوني) [١] .

ومن ناحية أخرى فإن هذا الصراع بين القوى الصليبية وبين العثمانيين قد جذب عدداً كبيراً من البحارة المغامرين ، الذين نشأوا في خدمة أسطول الدولة العثمانية ثـم راحوا يكونون أساطيل صغيرة تعمل لحسابهم الخاص وتجاهد ضد أعداء الـدين فـي الوقت نفسه . وعلى رأس هؤلاء كان الأخوان (خير الدين وعروج بربروسا) أبنـاء (يعقوب بن يوسف) ، نشأ الأخوان بجزر الأرخبيل في شرق المتوسط حيث تقع أهم قواعد الأسطول العثماني ، وكان يحشد لخدمته بحارة من الأتراك بجانب عدد كبير من العناصر البلقانية التي اعتنقت الإسلام . والواقع أن البحارة وإن تعـددت أجناسـهم إلا أنهم تدرجوا جميعاً في ظل الأسطول العثماني ، وكان أسطول (خير الـدين) يـضم أجناساً مختلفة من عرب وبربر وترك وأوروبيين اعتنقوا الإسلام [٢] .

أما الترسانات البحرية فقد أنشأت في أول الأمر في (غـاليبولي) علـى أيـام السلطان (بايزيد يلديرم) وبإنشائها تم قطع كل الصلة بين البيزنطيين وبـين البحـر الأبيض ، وكذلك تأسست سيادة إسلامية عثمانية على قسم من مضيق جناقلعة إن لـم يكن كله . واستخدمت سفنها في محاصرة استانبول ، فلما فتحت استانبول بعد ذلـك ، حافظت تلك الترسانـه على أهميتها مدة طويلة حتى جرى توسيعها فـي (ق١٠هـ ـ/ ١٦م) ، وتسمى ترسانة اسطنبول (ترسانة همايون) وهي أكبر مصنع للـسفن فـي

(1) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٠٧ .

(2) أميرة مداح : تاريخ نظام البياربكية العثماني في بعض الولايات العربية في القرن العاشر الهجري / السادس عشـر الميلادي ، رسالة المشرق ، مجلة دورية تصدر عن مركز الدراسات الشرقية ، جامعـة القـاهرة ، مج٨ ، ص٤١٤ .

الدولة ، وقد أنشأت على عهد السلطان (سليم الأول) وزاد الاهتمام بها علـى عهـد (القانوني) فبنيـت المخازن ، وزيد عدد أحواض السفن إلى مائتي حوض [(١)] .

كانت سفن الأسطول تتكون في (ق١٠هـ/١٦م) – شأن كل الأساطيل المقاتلـة في البحر المتوسط وقتذاك – من السفن المزودة بأشرعة قليلة ومجاديف ويطلق عليها في اللغة التركية (جكديري) أو (جكديرية) وكانت الأشرعة تستخدم حين لا يكـون العدو على مرمى البصر ، أما المجاديف فلا تستخدم إلا فـي وقـت الاشـتباك فـي المعركة.

ويجلس المجدفون في أماكن معدة لهذا الغرض ، ويوجهون السفينة إلى الالتحام بسفن العدو ومهاجمتها طبقاً لأوامر قائد السفينة ، وكانت مرتبة السفينة تتحـدد بعـدد الأماكن المخصصة للمجدفين ومن بين السفن التي استخدمها العثمانيون (قادرغة) [(٢)] و (ماثونة) [(٣)] و (باشترده) [(٤)] و (بركنده) [(٥)] و (كاليتا) [(٦)] . [(٧)]

وقد بلغ من اهتمام العثمانيين بتنظيم الأسطول ، أنهم فـصلوا بـين الأسـاطيل البحرية ، وبين الأساطيل النهرية . فبعد فتح بلاد المجر أقامت الدولة أسطولاً للعمـل في نهر الطونه ، كان يطلق عليه اسم (اينجه دوننما) أي الأسـطول الخفيـف ، ثـم

---

(1) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ص٤١٦ ، ٤١٧ ؛ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٤٣٤ ؛ Ismail Hakki : Osmanli Devletinin , s . 395 , 396 .

(2) نوع من السفن وهي أكبرها ، وكان يسمى في الأساطيل الغربية (بالغالي) أو (غالد) وتعمـل بالمجـداف والشراع وتحمل الواحدة منها مدفعية كبيرة وأربع مدافع وسطى وثماني مدافع صغيرة . سـهيل صـابان : المعجم ، ص١٧٢ .

(3) وقد تلفظ (ماونه) : نوع من السفن الحربية ، عريضة وعالية وبها أربع وعشرون مدفع . سهيل صـابان : المعجم الموسوعي ، ص١٩٩ .

(4) باشترده : نـوع من السفن استخدمه العثمانيون قبل اكتشاف السفن الحربية ، وتعمـل بالمجـاديف . سـهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص٥٤ .

(5) بركنده الاسم الذي أطلقه العثمانيون على سفينة Bringantin من سفن الأسطول الأجنبي وهي مـن الـسفن السريعة . سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص٥٤ .

(6) كاليتا : نوع من السفن أكبر من الغرقاتين وأصغر من بركنده وتستخدم لأعمال المطاردة وكانت تحمل مدفعاً في مقدمتها . سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص١٧٥ .

(7) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ١٩٨٠م ، مطبعة جامعة القاهرة ، ج٢ ، ص٨٧٤ ؛ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٤٣٧ .

أناطت قيادته بإيالة الطونه ، وكان هناك أسطول نهري آخر يعمـل فـي (الفـرات) وكذلك في (النيل) .

وكذلك جرى تنظيم الأسطول العثماني وفق تشكيلات حربية مثلما نظمت القوات البرية ، ويعرف قائد القوات البحرية باسم (قبودان دريا) أو (قبطان باشا) ، وهـو المسؤول عن كل ما يتعلق بالشؤون البحرية [١] ، كمـا كـان عـضواً فـي الـديوان الهمايوني ووالياً بحرياً عاماً على إيالة قبطان باشا المسماة (جزائر بحر سـفيد) أي جزر البحر الأبيض ، وهو مستقل تماماً عن القوات البرية ويتلقى أوامره مباشرة مـن الصدر الأعظم ومن السلطان [٢] . وكذلك كان من الرجال المسلحين في الـسفن ذات المجاديف على اختلاف احجامها (الطوبجية) أي الذين يطلقون قذائف مدافعهم علـى سفن الأعداء ، ومنهم من كانوا مزودين بالسيوف الباترة لاستخدامها إذا اقتضى الأمر ونجحوا في التسلسل إلى سفن الأعداء [٣] .

كما يضم الأسطول العثماني إلى جانب الجنود أعـداداً مـن العمـال وأربـاب الصنايع المختلفة كالعزب واللوندية وعمال المجاديف وعمال اليوميـة (ايلاقجـي) ، وعمال الأشرعة (غابيار) [٤] ، ولكل منهم اختصاصات معينة يتعين عليه القيام بهـا بحيث يكونون وحدة متكاملة .

ومما ميز السفن العثمانية وأدى إلى تفوقهـا وخاصـة فـي (ق١٠هـ ـ/١٦م) سرعتها في الحركة والدوران ، وتفوق تسليحها بالمدافع بعيدة المدى [5] .

هذا وقد استمر نمو البحرية العثمانية وتطورها ، ووصلت إلى أوج ازدهارهـا على أيدي مجاهدي البحر في الحوض الغربي للبحر المتوسط [١] . والذين من أشهرهم

---

(1) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ص٤١٧ ، ٤١٨ .

(2) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٤٢٤ .

(3) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص ص٨٧٤ ، ٨٧٥ .

(4) وقد ذكر إسماعيل حقي أوزون جارشيلي الكثير من التفصيلات عن أفراد الترسانة واختصاصهم . انظر :
Ismail Hakki Uzun Carsili : Osmanli devletinin , s . 406 .
؛ اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٤٢١ .

(5) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٤٣٨ .

(كمال رئيس ت٩١٧هـ ـ/١٥١١م) ، و (سـلمان رئـيس ت٩٣٦هـ ـ/١٥٢٩م) ، و (محي الدين بيري رئيس ت٩٦٣هـ/١٥٥٥م) ، و (قليج علي ت٩٩٦هـ/١٥٨٧م) وغيرهم مما نشأوا في مدرسة (خير الدين باشا) [٢] .

وقد بلغت البحرية العثمانية شأناً عظيماً وتفوقت علـى مثيلاتهـا فـي الـدول المعاصرة حتى أدهش تفوقها الدول الغربية ، إلى أن كانت معركة ليبانتو التي اعتبرت ختام المطاف للعصر الذهبي للبحرية العثمانية ، ورغم الهزيمة التي تلقاها الأسـطول العثماني في هذه المعركة ، إلا أن الدولة استطاعت إعادة بناء الأسطول فـي الـسنة التالية مباشرة ، وعاد الأسطول الجديد يمخر عباب البحر المتوسط [٣] . وفـي عـام (٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م) طلبـت (انكلترا) معونـة الأسـطول العثمانـي لمواجهـة الأسطول الأسباني ، ولم تتمكن (انكلترا) من هزيمة وتحطيم الأرمادا الأسبانية الذي يقوده (أندريا دوريا) الجنوي إلا بمساعدة السفن العثمانية [٤] .

أما عمليات الحصار البحري التي اضطلع بها رجال البحر المسلمون فقد كـان لها دور مهم في بسط السيادة العثمانية في البحر المتوسط ، كما كان لسفن الجزائـر ، وتونس دور كبير في بث الرعب لدى الأساطيل الصليبية [5] ، وقد حققت هذه الـسفن عـدة انـزالات فـي مـوانئ غربـي إيطاليـا ، وميـنـاء سـاردونيا فـي عـام (٩٤١هـ/١٥٣٤م) [6] .

ويمكن القول أن لرجال البحر هؤلاء أهمية توازي أهميـة فـرق الآقنيجـي ، والخيالة في الجيش البري [7] .

---

(1) البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة الدارة ، العدد ٤ ، الـسنة الثالثـة عـشرة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٢٠٥ .

(2) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص ص٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(3) جيب ، وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج١ ، حاشية ص١٤٤ .

(4) سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢١٥ .

(5) خليل ساحلي اوغلي : تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني ، بحوث ووثائق وقوانين ، منظمة المـؤتمر الإسلامي ، ص٢٣٢ .

(6) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٢٩١ .

(7) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٤٤٢ .

من خلال هذا العرض تبين لنا مدى ما كانت عليه الدولة العثمانيـة مـن قـوة عسكرية في المجالين البري والبحري ، والدور الذي أدته في بسط هيبة ونفوذ الدولـة في القارة الأوروبية ، وكذلك تقدمها وتنظيمها حتى فاقت الجيوش الأوروبية المعاصرة لها ، وذلك بفضل استمرار حركة الفتح والجهاد .

المبحث الثالث :

الأوضاع العسكرية في القرن (١١هـ/١٧م)

أ- تدهور التشكيلات العسكرية العثمانية البرية في (ق١١هـ/١٧م) .

ب- تدهور التشكيلات العسكرية البحرية في (ق١١هـ/١٧م) .

أ- تدهور التشكيلات العسكرية العثمانية البرية في القرن (١١هـ/١٧م) .

تبين مما سبق الدور الذي قام به الجيش العثماني وخاصة (الإنكشارية) فـي تحقيق مجد الدولة وقوتها ، فكانت الممالك محفوظة ومحروسة من الظلم والاعتـداء ، والثغور الإسلامية وحدودها منيعة لا يتجاوزها الأعداء ، فكان الشعب العثماني في ذلك راتعاً في بحبوحة الراحة والأمن في الحرب والسلم ، فأخذت الممالك في العمران يوماً بعد يوم . فاتسع نطاق الدولة وزادت قواها ، وخاصة في عصر الـسلطان (سـليمان القانوني) .

وكما أخذ الكمال يتدرج في أيام السلطان (سليمان) المشار إليه ، كذلك أخـذ الانحطاط يتكون في الوقت نفسه ، غير أنه لم يشعر بهذا الانحطاط أحد ، لأن الدولـة كانت في أزهى قوتها (١) . فالإنكشارية هم عمـاد الجـيش ، وهـم الـذين أحـرزوا انتصارات عظيمة وأعطيت لهم امتيازات ، وقدمت لهم إقطاعات . قد بدأوا يميلون إلى حياة الدعة والراحة ، وبدأت علامات الضعف تظهر على الجيش ، وكـان الـسلطان يخرج على رأس الجيش فيزيد ذلك من قوة المقاتلين ويرفع من روحهم المعنوية ، فلما قوي أمر الإنكشارية أصبحوا لا يخرجون للقتال إلا إذا خرج السلطان معهـم ، وهـذه بداية التذمر ، وفي عهد القانوني سمح لأكبر ضابط بقيادة الجيش ، وهنا يـصبح هـذا الضابط ذا شأن ، وتصبح له متطلبات مما يؤدي إلى فساد الأمور (٢) .

ومع أواخر القرن (١٠هـ/١٦م) وأوائل القرن (١١هـ/١٧م) قد اختـل نظـام التجنيد عندما تهاونت الدولة في تطبيق القانون المعـروف (بالدوشـرمة) وتـسرب الغرباء إلى صفوف الجند ، ولاسيما أثناء حفلات الختان التي أقامها السلطان (مـراد الثالث) لابنه (محمد) عندما سمحت الدولة للذين أعدوا تلك الحفلات بالانضمام إلـى صفوف الإنكشارية دون تعليم أو تدريب تم اسم (قـول قردشـي) أي إخـوة جنـد السلطـان (٣) ، ويعتقد أن السلطان (مراد الثالث) كان راغبـاً فـي إفـساد تنظـيم

---

(1) جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص١٦٦ ؛ خلف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص١٦٢ .

(2) إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية ، ص ص٩٤ ، ٩٥ .

(3) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٤٠٥ ؛ أماني جعفر غازي : دور الإنكـشارية فـي إضـعاف الدولـة العثمانية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، ج١ ، ص ص١٦٠ ، ١٦١ .

الإنكشارية بعد أن لاحظ مدى خطرهم على الدولة لقوة نفوذهم ، غير أن هذا الإجراء زعزع نظام الأوجاق من أساسه ، فبعد أن كان هذا الأوجاق منذ نشأته وحتى زمن السلطان (مراد الثالث) لا يسمح بالانتظام في سلكه إلا للغلمان الأعاجم فصار بعد ذلك عادة جارية يقبلون الاختلاط ولو كان طالب الانضمام إلى الإنكشارية تاجراً أو صانعاً أو غيرهما ، مما اعتبر نوعاً من المفاخرة ، فآل ذلك إلى فساد هذا النظام خاصة بعد أن انتظم فيه الكثير بالهدايا والرشوة ، مما زوده بعناصر فاسدة (١) .

وقد ترتب على الإجراءات التي قام بها السلطان (مراد الثالث) أن طالب الإنكشارية بإلغاء الحظر المفروض عليهم بعدم الزواج . فاستجاب السلطان لهذا الطلب ، وشُغل الإنكشارية بمشكلات الحياة الزوجية عن الحياة العسكرية التي كانوا منصرفين إليها وضعف استعدادهم الحربي (٢) . كما أدى ذلك إلى زيادة أعدادهم ، إذ لم يكن عددهم بوصفهم فرقة مختارة يزيد على (١٥٠٠٠) رجل (٣) .

إذن فقد دب الفساد في الإنكشارية بصورة واضحة منذ بداية القرن (١١هـ/١٧م) وأخذ على الدوام يستشري وينمو . وعلة العلل في فساد الحكم واضطراب المجتمع اختلال العسكر (٤) . وكان لهذا الفساد أبعاداً سياسية وعسكرية واقتصادية .

فعلى الصعيد السياسي ظهرت آثار تدخلهم منذ عهد السلطان (بايزيد الثاني) وذلك عندما دب الخلاف بين أبنائه الثلاثة (كركود) و (أحمد) و (سليم) ، ونظراً لمحبتهم لسليم فقد أصروا على الطلب من السلطان بايزيد بالتنازل عن الحكم لابنه سليم ، فقبل وترك له الحكم سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) (٥) ، ونتيجة لذلك أحسوا بفضلهم ونفوذهم فأكرهوه على التخلص من بعض رجال الدولة أثناء الحروب الفارسية (٦) .

---

(1) خاف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص ص١٦٣ ، ١٦٤ ؛ اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٤٠٥ .
(2) طقوش : العثمانيون ، ص٢٥١ .
(3) بروكلمان : تاريخ الشعوب ، ج٣ ، ص٨٥ .
(4) البحراوي : حركة الإصلاح ، ص٨٣ .
(5) نزار قازان : سلاطين بني عثمان ، ص ص٤٥ ، ٤٦ .
(6) بروكلمان : تاريخ الشعوب ، ج٣ ، ص٨٥ .

وتعتبر الواقعة التي عرفت في التاريخ العثماني (بالهائلـة العثمانيـة) عـام (١٠٣٢هـ/١٦٢٢م) من أكثر الحوادث دلالة على ما وصل إليه الإنكـشارية بـشكل خاص والجيش العثماني بشكل عام من انحطاط وفساد وذلك بالنظر إلى أسـباب هـذه الحادثة أو بالنسبة إلى نتائجها .

فمن المعروف أن السلطان عثمان الثاني ، قد أدرك ما وصلت إليه الإنكـشارية مـن فساد ، وفـي عام (١٠٣١هـ/١٦٢١م) قاد جيشاً منهم وعبـر نهـر (بـروث Brut) [١] وهزم البولونيين المجتمعين على نهر (دنيستر) ، ولكن تمرد الإنكشارية وخروجهم عن طوع السلطان جعل النصر غير حاسم ، ويقال أن السلطان مـن شـدة غضبه أعدم مائة منهم في أرض المعركة وقرر في نفسه أن يستخدم جنـداً غيـرهم ، فلما نشبت ثورة الدروز [٢] عزم على إخمادها بجيش يجمع مـن مـصر ، فغـضب الإنكشارية واقتحموا قصره ، وقبضوا عليه بين جواريه وزوجاته وقادوه قهـراً إلـى ثكناتهم بعدما أوسعوه سباً وشتماً وإهانة ، ثم أعدموه في (يدي قلله [٣]) [٤] .

إن هذه الواقعة جديرة بالتأمل وذلك لما تحمله من دلائل خطيرة من عدة وجـوه فقد بدأت لأسباب عسكرية ، وسياسيـة ، ثم اقتصادية ، فقد كان الـسلطان (عثمـان الثاني) أول سلطان يقتل بيد رعاياه ، وكذلك شعر الإنكشارية بمدى نفوذهم وقـوتهم ليس في تولية وعزل السلاطين فحسب بل وقتلهم أيضاً ، فضلاً عن تجاهل هذه الفرق

---

(1) نهر بروث Brut : هـو النهر الذي يحد رومانيا من شرقها ويصب في البحر الأسود . انظر : محمد فريـد بك : تاريخ الدولة ، ص٣٥٩ .

(2) الدروز : فرقة باطنية تؤله الحاكم بأمر ا العبيدي ، وقد أخذت جل عقائدها عن طائفة الإسماعيلية نشأت في مصر ثم هاجرت إلى الشام ، وقد حفل النصف الأول من القرن (١١هـ/١٧م) بالكثير مـن ثـوراتهم فـي سورية ولبنان ، وكانت الدولة العثمانية تعمل على عزل وتعيين الولاة لتهدئة المنطقة ولكـن دون جـدوى . انظر : مانع الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصـرة ، ١٤١٨هـ ـ ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ج١ ، ص٤٠٠ ؛ يوسف الدبس : مختصر تاريخ سـورية ، ١٩٨٤م ، ط٢ ، ج٢ ، ص١٥٨ .

(3) يدي قلله : اسم القلعة ومعناه ذات السبع قلل . المحامي : تاريخ الدولة ، ص٢٧٨ .

(4) البحراوي : حركة الإصلاح ، ص٨٣ ؛ محمد فريد بك : تاريخ الدولة ، ص٢٧٨ ؛ Hakki Dursun Yildiz : Dugustan gunumz , cild .10 , s.235 .

للتفوق العسكري وخروج السلطان على رأس جيشه ، وأخيراً فإن هذه الثـورة كانـت فرصة استغلها الإنكشارية في كسب الهبات والعطايا .

أما السنوات التي تلت هذه الأزمة ، فقد انتشرت الرهبـة فيهـا فـي الـدوائر الحكومية وعلا شأن الإنكشارية علواً كبيراً وأخذوا يولون الـوزراء ويعزلـونهم [1] . فنصبوا زعيمهم (داوود باشا) صدراً أعظم ، وفي فترة قصيرة عينـوا سـتة وزراء كبار ، إذ أنهم كانوا يقدمون المنصب لأي شخص يدفع قدراً أكبر من الفضة [2] . ثـم إن ثوراتهم تكررت في (ق١١هـ/١٧م) وهو القرن الذي توقفـت فيـه الفتوحـات ، وتحول الإنكشارية إلى عنصر شغب وفوضى واقتصر دورهم علـى أعمـال التمـرد والعصيان والاعتداء على الأموال والأرواح [3] حتى أصبحت ثوراتهم إحدى الـسمات البارزة في هذه الفترة من التاريخ العثماني ، وكثيراً ما كانت هذه الثـورات لأسـباب اقتصادية ، فمنذ عهد الفاتح أصبح من المعتاد أن يقوم كل سلطان جديد بتوزيع نقـود الإنكشارية (جلوس بخشيشي) [4] لضمان ولاءهم [5] حتى استعلت أيديهم في عهـدي السلطان (محمد الثالث) و (أحمد الأول) وتاقت أنفسهم لاستبدال السلاطين طمعـاً بتجديد العطايا ، ولم يأت السلطان (مراد الرابع) إلى الحكم عام (١٠٣٣هـ/١٦٢٣م) إلا وكانت الخزينة فارغة تماماً ولعدم وجود الأموال في الخزينة فقد جمعـت أوانـي وأطباق السراي وسكت منها عملات ذهبية لدفع إكرامية جلوسه علـى العـرش [6] . ويضاف إلى ذلك العبء المالي الناتج عن زيادة أعداد الإنكشارية ، والذي جعل الدولة تلجأ إلى خفض قيمة العملة عدة مرات من أجل دفع رواتب الجيش [7] . وفـي هـذه

(1) طقوش : العثمانيون ، ص٢٥٢ .
(2) البحراوي : حركة الإصلاح ، ص٨٣ .
(3) ياغي : الدولة العثمانية ، ص٩٥ .
(4) جلوس بخشيشي : هو ما كانت تدفعه الدولة للعلماء والعساكر وموظفي الدولة بمناسبة جلوس السلطان علـى تخت السلطنة ، وقد بدأ استحداثه في زمن السلطان (محمد الفاتح) وأصبح قانوناً متبعـاً للدولـة . سـهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص٥٨ .
(5) أحمد مصطفى : في أصول ، ص١٢٥ .
(6) محمد جميل بيهم : فلسفة ، ج٢ ، ص١٣٤ ؛ يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٦٧ .
(7) خاف الوذيناني : الدولة العثمانية ، ص١٦٥ .

الحالة يلجأ الجنـود إلـى الثـورة ، فعلـى سـبيل المثـال ثـار الإنكـشارية عـام (٩٩٨هـ/١٥٨٩م) وطلبـوا من السلطان (مراد الثالـث) رأس كـل مـن (بـاش دفتردار محمود أفندي) و (دوغانجي محمد باشا) بحجة مسؤوليتهما عن صرف نقود ناقصة العيار ، واضطر السلطان لتنفيذ هذه المطالب [١] .

وفي محاولة من الدولة لقمع مثل هذه التمردات أعلن الصدر الأعظـم (سـنان باشا) الحـرب على النمسـا عام (١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) على الرغم مـن اعتـراض المفتي [٢] ، وذلك لشغل الإنكشارية بالحروب ، وقد سبقت الإشارة إلى ما جنته الدولة من نتائج غير مواتية في موضع سابق من هذه الرسالة .

ولم تكن الثورات والتمردات قاصرة على الإنكشارية ، فقد امتدت إلى السباهيين والعلوفجيين (المأجورين) ، وغني عن القول ما كانت تسببه هذه التمردات في زمـن الحرب من حرج لمركز الدولة أمام الأعداء ، ففي عـام (١٠١٢هـ/١٦٠٣م) أيـام الصدر الأعظم (سنان باشا) جمـع من هرب وتخلـف عن الجيش أثنـاء الحروب (العثمانية النمساوية) ورغم تهديده وتوعده لهـم إلا أنهـم ازدادوا عنـاداً وهربـاً ، وانضموا إلى الجماعات والعصابات المتمردة ، واضطر (سنان باشا) للجـوء إلـى الإنكشارية للقضاء على هذا التمرد [٣] .

ويعد لجوء الدولة إلى الاستعانة بفرقٍ من الجيش للقضاء على تمرد فرقٍ أخرى مستغلة سوء العلاقة بينهما بسبب تعارض مصالحهما ، أو قيام الدولة بتصعيد الصراع بينهما نموذجاً للوضع السيء الذي وصلت إليه ، ففـي عـام (١٠١٦هـ/١٦٠٧م) استعانت الدولة بعساكر (السكبانية) في الأناضول للتـصدي للإنكـشارية وعـساكر القبوقولية [٤] .

---

(1) إبراهيـم حليم بك : التحفة الحليمية ، ص١٠٥ ؛ يلماز اوزتونا : تاريخ الدولـة ، ج١ ، ص٤٢٨ ؛ أمـاني غازي : دور الإنكشارية ، ج١ ، ص٢١٢ .

(2) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص٥٦٧ .

(3) Shaw : History of The ottoman , cild .1 , s.257 , 258 .

(4) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٠ .

وفي عهد السلطان (مراد الرابع) شارك كل من الإنكشارية والسباهية في العصيان الذي قام به (خسرو باشا) عام (١٠٤٢هـ/١٦٣٢م) الذي عزله السلطان عن الصدارة العظمى غير أن السلطان (مراد الرابع) والذي عرف بقوة شخصيته وشدة بطشه أمر بقتل (خسرو باشا) وعزم على إبادة فرقهم ، فأمر بقتل رؤسائهم الذين شاركوا في الفتنة ، ثم وسع عمليات القتل لتشمل كل من شارك فيها ، ونتيجة لهذا التصرف الحازم ، لجأ الإنكشارية إلى خداعه فتظاهروا بالالتزام بقواعد الانضباط العسكري ، ولكن لم يمض شهران حتى قاموا بمساندة العصيان الذي قام به (رجب باشا) فأمر السلطان بقتله ورمى جثته من شبابيك القصر حتى يراها الإنكشارية ، ولما رأى هؤلاء أنهم يواجهون سلطاناً قوياً هدأت ثائرتهم بانتظار فرصة أخرى مؤاتية [١] .

وكانت هذه الفرصة في عام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) وهي الفترة التي انشغلت فيها الدولة بفتح جزيرة كريت ، حيث حدثت مواجهات بين السباهية والإنكشارية بسبب الاتهام الذي وجهه السباهيون للإنكشارية بمسؤوليتهم عن مقتل السلطان (إبراهيم الأول) في العام نفسه . ولكن فرق الإنكشارية دحرت السباهيين بشكل دموي ، وقد عبر (يلماز اوزتونا) عن هذه المواجهة بقوله : " تقاتل صنفا الجيش الهمايوني الذي كان قدوة للعالم في نظامه ، في حرب ميدانية وفي ساحة السلطان أحمد وأمام سراي البادشاه ، وقد مات المئات من القتلى " [٢] .

وكذلك تكرر الأمر في عهد السلطان (محمد الرابع) وذلك عندما ثارت مجموعة من (العجمي أوغلان) [٣] وسبب ثورتهم امتناع السلطان عن تخريج

---

(1) طقوش : العثمانيون ، ص٢٥٢ ؛ وللمزيد من التفاصيل بشأن ثورة (خسرو باشا) . انظر : يوسف آصاف : تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن ، تقديم : محمد زينهم عزب ، ط١ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ص ص٨٢ ، ٨٣ ؛
Shaw : History of ottoman , cild. 10 , s.172 .

(2) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٩٦ .

(3) العجمي أوغلان : الأولاد المجلوبون من بلاد النصارى عن طريق الدوشرمة أو المأخوذين من بين الأسرى بغية استخدامهم في الجيش الإنكشاري . وقد تكون المصطلح من كلمتين : العجمي : أي غير المسلم ، أو غير الماهر في العمل ومن ليست لديه خبرة ، وأوغلان : أي الولد أو الشاب أو الفتى . سهيل صابان : المعجم ، ص١٥١ .

مجموعة من جنود (العجمي أوغلان) الذين اعتاد السلاطين عند جلوسهم على العرش أن يخرجوا دفعة منهم ويوزعونهم على القصر للخدمة ، أو على لواء (القابي قولي) وانضم إليهم (السباهية الخيالة) في ثورتهم ، وفي محاولة لإنهاء هذا التمرد ، أصدر شيخ الإسلام (عبد الرحيم أفندي) فتوى تقضي بإعدام هؤلاء الثوار ، وتولى ضـباط الإنكشارية التنفيذ ، وبذلك حدث صدام عنيف وفتنة بين قسمي الجيش ، ورجحت كفـة الإنكشارية الذين قضوا على عددٍ كبير من الخيالة (١) .

وإذا كانت هذه الثورات ذات أثر سلبي في زمن الحرب ، فإنها تمثل عاملاً من عوامل الفوضى في زمن السلم وذلك لما يحدث فيها من سلب ونهب وإرهاب للأهـالي وقطع الطرق . ويضاف إلى ذلك اتساع الهوة بين فرق الجيش العثماني (٢) . وعلـى هذا الأساس يمكننا القول أن هناك علاقة واضحة بين توقف الفتوحـات فـي القـرن (١١هـ/١٧م) وبين الأوضاع التي وصلت إليها التشكيلات العسكرية العثمانية ، وكذلك يمكننا القول بأن الدولة تعتبر المسؤول الأول عن تردي أوضاع الجيش ، فبالإضـافة إلى تهاونها في تطبيق نظام الدوشيرمة ، اضطرت الدولة إلى التجنيد بصورة عشوائية في زمن الحـرب وزادت من أعداد الجند المأجورين في حروبها المتعددة تحت مسمى (قابي خلقي) أو (الفتية الغرباء) ، فعلـى سبيـل المثال كان عـدد هـذه الفـرق (٤٨٠٠٠) في عام (٩٧٥هـ/١٥٦٧م) ، ثم ارتفع في عام (١٠٣٠هـ/١٦٢٠م) إلـى (١٠٠٠٠٠) (٣) وبعد انتهاء الحروب فإن الدولة تعمل على تسريحهم مـن الخدمـة ، وبذلك كونـت مثل هذه المجموعـات المصدر البشـري للمتمرديـن الذيـن عرفـوا (بالجلالية) والتي انتشرت في مناطق مختلفة من الدولة (٤) ، وكذلك انـضمت إلـى المتمردين ، جماعات السكبان المسلحة ، والتيماريين الذين فقدوا تيماراتهم وانخفـضت عوائدهم نتيجة للتمردات ، ولذلك أصيبت الدولة بشلل تام في وقت صعد فيه الإيرانيون

---

(1) Omer Faruk Yilmaz : Belgelerle osmanli , cild .2 , s.347 .

(2) Shaw : Histoy of ottoman , cild .1 , s.271 , 280 .

(3) Nuray Bozbora : osmanli Yonetiminde ornavutluk ve Arnavut Ulusculugu`nun . Gelisimi , s.111.

(4) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٤٩ .

هجماتهم المضادة ما بين عامي (١٠١٢-١٠١٩هـ ـ/١٦٠٣-١٦١٠م) [(١)] ، وعنـدما تلجأ الدولة إلى الاستعانة بالإنكشارية للقضاء على هـذه التمـردات ، فـإن آغـوات الإنكشارية يشعرون بفضلهم على الدولة لتخليصهم إياها من الثوار سواء كـانوا مـن السباهية أم من غيرهم ، ويفرضون نفوذهم وسلطانهم حتى أنه يفـوق نفـوذ الـصدر الأعظم ، فعندما استعان الصدر الأعظم (محمد صوفي باشا) بهم في القضاء علـى ثورة السباهية في عام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) اضطر أن يكافئهم بامتيازات كثيرة ، وهي امتيازات تشكل عبئاً مالياً على الدولة [(٢)] ، وهكذا أصبحت الإنكشارية أصـعب قيـادة وأشد مراساً .

ولما حاول السلطان (مراد الرابع) تقليص نفوذهم – خاصة بعد قتلهم (عثمان الثاني) – فقد عمد في عام (١٠٣٢هـ/١٦٢٢م) إلى إلغاء العمل بنظـام الدوشـيرمة بغية الإقلال من الجنود الإنكشارية وظل العمل به يقل شيئاً فشيئاً حتى إذا ما انتـصف (ق١١هـ/١٧م) صار النظام حبراً على ورق . وبذلك هدِم الأساس الذي قامت عليـه إحدى المؤسسات الحاكمة في الدولة منذ أول نشأتها ، ولم يكن غياب الدوشيرمة أمـراً يؤسف له كثيراً من وجهة النظر العامة ، ولكنه كان بالنـسبة إلـى القـوة العـسكرية العثمانية أمراً مميتاً ، لأنه يعني انهيـار النظـام المـتقن المتـين للتـدريب الإداري والعسكري ، وقد أدى إلغاء الدوشيرمة إلى اقتصار الدخول إلى أوجاق الإنكشارية على المسلمين الأحرار ، ولكن سرعان ما ظهرت لهم مطالب تخالف النظام الذي قام علـى أساسه هذا الأوجاق ، فقد فرضوا على الدولة إلغاء مبـدأين رئيـسيين مـن مبـادئ الإنكشارية ، وهما :

١- منع الإنكشارية عن الزواج قبل إحالتهم إلى التقاعد ، وهو مطلـب سبق للإنكشارية فرضه كما أسلفت .

---

(1) خليل اينالجك : الدولة والرعايا ، الاجتهاد ، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمـة والنـشر ، بيـروت ، الـسنة العاشرة ، العدد ٤١ ، ٤٢ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ص٩٧ .

(2) Omer Faruk : Belgelere osmanli , cild .2 , s.347 .

٢- منع الإنكشارية من الاشتغال بالحرف والتجارة ، وترتب على هذين المطلبين صعوبة عيشهم فـي الثكنـات وخـضوعهم للانـضباط والتدريب ، كما أصبح من المألوف لهم أن يزيدوا إيرادهم ويشغلوا ما أوجدوه لأنفسهم من فراغ بالأعمال الصناعية والتجارية (١) ، أو الاعتماد في معاشهم على بعض الصناعات اليدويـة ، أو الالتحـاق بخدمة السفراء الأجانب (٢) ، وهم بذلك قد انحرفوا عن الهدف الذي أسس أوجاق الإنكشارية من أجله وهو الجهاد في سبيل ا .

وفضلاً عن أعمال السلب والتخريب التي صاحبت ثورات هؤلاء الجند فقد كانت هناك إشارات تدل على أن الانحلال الخلقي قـد وجـد طريقـه إلـيهم ، ففـي عـام (٩٨٢هـ/١٥٧٤م) استهل السلطان (مراد الثالث) عهده بإصدار قرار يمنع فيه شرب الخمر الذي أفرط الإنكشارية فيه ، فثار الإنكشارية لذلك ، واضطروه لإباحتـه لهـم بمقدارٍ لا يذهِب العقل (٣) .

وفي عام (١٠٤٣هـ/١٦٣٣م) منع السلطان (مراد الرابع) استعمال التبـغ ، وكذلك منع تناول القهوة في المقاهي في حين سـمح بتناولهـا فـي البيـوت ، أمـا المشروبات الكحولية فقد منع شربها حتى في البيوت ، ولتطبيق هذه القرارات هـدمت كافة المقاهي لأنها كانت مركزاً لتجمع الجيش والمداولة في السياسة بدلاً مـن قيـامهم بالتدريب العسكري في ثكناتهم (٤) .

أما في المعارك ، فبعد أن كان الجيش العثماني نموذجاً يقتدي به في أخلاقـه ، أصبح هذا الجيش يتعرض للمدن التي يمر بها بالنصب والتخريب ، ويكفي ما قام بـه الجيش من عمليات التخريب للمدن والقرى التي قطعها في طريقه إلى (فيينـا) عـام

---

(1) جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج١ ، ص ص٢٢٠ ، ٢٢١ .
(2) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٣٩١ .
(3) محمد فريد بك : تاريخ الدولة ، ص٢٥٩ ؛ علي حسون : الدولة العثمانية ، ص١٠٦ .
(4) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٧٢ ؛ أماني غازي : دور الإنكشارية ، ج١ ، ص٢١٨ .

(١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) ، والنزاع والاختلاف حول مصير الغنائم بعد حـصار المدينـة والذي كان أحد أسباب فشل الحصار [(١)] .

أما في الأعوام التي تلت هذا العام فقد أصبحت القوات التي يطلق عليها (القابي خلقي) وهو اسم يطلق على الأشخاص الذين يعملون بجوار كبار رجال الدولة ، مثـل الصدر الأعظم ، وولاة الولايات ، وأمير الأمراء ، وهي التي تعتمد عليها الدولة فـي بعض الأحيان لحماية الشعب من اللصوص ، وقاطعي الطرق ، وضمان سيادة الدولـة خارج المدن ، ولكنهم أصبحوا مصدراً لخوف الأهـالي ، وذلـك لقطعهـم المـستمر للطرقات ، وأخذهم المؤن من الشعب دون مقابل وذلك أثناء الحروب ، فعندما تستخدم الدولة قسماً من هؤلاء الجنود وحرس الحدود وحرس السواحل ، في معاركها ، كـان هناك قسمٌ آخر يقوم بأعمال السرقة والنهب في الأناضول ، وعجزت الدولة عن صـد هذه القوات ، وعلى الرغم من إصدار الفرمانات الكثيرة بهذا الشأن إلا أنها لـم تـأت بنتيجة ، وقد امتدت هذه الحركات إلى الولايات العربية كالشام ، والعراق [(٢)] .

أما مستوى التدريب والتنظيم فقد انخفض عما كان عليه في القـرن (١٠هـ ـ/ ١٦م) وإذا كان المراقبون الأوروبيون قد اثنوا على مستوى التنظيم في الجيش العثماني سابقاً [(٣)] . فإن هذه السمة قد بدأت بالانخفاض تدريجياً ، وقد كانت أحـداث معركـة (موهاكس) عام (١٠٩٩هـ/١٦٨٧م) والتي هزم فيها الجـيش العثمـاني ، وخـسر (٢٠٠٠٠) جندي ، وفر من بقي منهم تاركين ذخائرهم في المعركة ، وكان انـسحابهم على غير المعتاد بشكل غير منظم ، شاهداً على ذلك [(٤)] .

ومن جهة أخرى فإن هناك تغييرات عسكرية أدخلت علـى أسـاليب الجيـوش الأوروبية وذلك مع اقتراب النصف الثاني من (ق١١هـ/١٧م) ، وقـد سـاعد علـى ظهورها دخول هذه الدول في ما عرف (بحـرب الثلاثـين عامـاً) (١٠٢٨هـ ـ -

---

(1) أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية ، ج٢ ، ص٢٠٩ .

(2) Ahmet Tabak ogolu : gerilem Doemine osmanli , s.221.
؛ أماني غازي : دور الإنكشارية ، ج١ ، ص١٦٩ .

(3) كولز : العثمانيون ، ص١٩٥ .

(4) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص551 .

١٠٥٨هـ/١٦١٨م-١٦٤٨م) ولعل من أهم تلك التغييرات الزيادة الضخمة في حجـم الجيوش ، وكذلك أصبحت تلك الجيوش إلى جانب زيادة أعدادها جيوشاً دائمة ، وكذلك أصبحت عادة معظم الدول الأوروبية الاحتفاظ بقواتها في إطار نظام ثابت على طـول مدار السنة ، وذلك لسببين :

١- أن التكتيكات الحربية الجديدة تحتاج إلى مدة أطول للتدريب .

٢- إن هذه الطريقة أكثر اقتصاداً بالنسبة للدول .

ويضاف إلى ذلك أن هذه القوات كانت تحمي الحدود وتكون مستعدة لحمـلات الشتاء ومع زيادة نطاق الحروب ، فقد كبرت بالتـالي التزاماتهـا الاقتـصادية [1] ، وأصبح الأمر باهظ التكاليف ، في حين ظلت القوات العثمانية بعيدة عن تلك التغيرات حتى انتهى إلى أن يصبح تنظيمها عتيقاً غير متماشٍ مع العصر ، ولا يعمل بالكفـاءة المطلوبة وبدا الجيش العثماني – رغم بسالته – غير قادر علـى اللحـاق بالعـصر . وكذلك كان من الصعب إدخال تغييرات على الأساليب والتقنيات العسكرية التقليديـة ، يضاف إلى ذلك أن الدولة أهملت تقاليدها وأنظمتها العسكرية القديمة ، فعلـى سـبيل المثال يذكر (حسن كافي الآقحصاري) إحدى الطرق التي استخدمتها الدولة في إدخال الأهالي ضمن التشكيلات العسكرية بعد أن أهمل الجند الأصليون الانتظام بها ويقول : " فعِلم من هذا أنه لا ينبغي أن يكلف أو يجبر صنف على عمل صنفٍ آخـر ، لأنـه يوجب اختلالاً وتشوشاً ، كما وقع في هذا العصر لجبر الرعايا وأهل الـصنايع علـى المحاربة بإهمال العسكر فيها ، وحيث أهمل العسكر في دفع الأعـداء ، ثـم أجبـروا الرعايا وأهل الصنايع على المحاربة ، فتعطل أمر الزرع والحـرث فتـشوش أمـر المعاش على الكل ..... ولعمري إن هذا لخلل عظيم في الملك ..... وهذا مـن سـنة إحدى وألف إلى هذا الآن " [2] .

ولتفسير هذا الانخفاض في مستوى الجيش العثماني أمام الجيوش الأوروبية لابد من توضيح بعض الأمور ، فلقد كانت القوات العثمانية باعتبارها جيوشاً إسلامية ذات

---

(1) فيكونت مونتجمري : الحرب عبر التاريخ ، ص ص٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(2) حسن كافي الآقحصاري : أصول الحكم ، ص١٤ .

هدف محدد وواضح تعتمد على الجنود النظاميين وعلى المتطوعين والمجاهدين ، بينما كانت الجيوش الصليبية والأوروبية ، تعتمد علـى المرتزقـة حتـى نهايـة القـرن (٩هـ/١٥م) [1] ، وقد ذكر (الكونت مونتي كـوكللي) قبـل هزيمـة فيينـا عـام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) أنه " لا يمكن الانتصار على الأتراك ما لم يؤسس جيش نظـامي دائم في أوروبا كالأتراك " أما عن الأعداد الضخمة فقد كان المراقبون الأوروبيون في الفترة نفسها يذكرون أن للدولة العثمانية جنوداً لا يحصى عددهم وهم مدربون بـشكل ممتاز وحتى عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) ظن الأوروبيون أن الجيش العثماني لا يمكـن أن يهزم [2] . ومن شهادة هؤلاء المراقبين يمكننا القول أن الجيش العثماني ظل يمتلك العديد من جوانب التفوق ، ولكن هذه الجوانب انتقلت إلى الجيـوش الأوروبيـة إثـر احتكاكها بالجيش العثماني في (ق١١هـ/١٧م) .

فعلى سبيل المثال استخدم الجنرال الفرنسي (فيوبن Vauben) الذي يعتبر أبا الاستحكامات الحديثة في الجيوش الأوروبية ، استخدم لأول مرة في قلعة Maestrichl في هولندا عام (١٠٨٥هـ/١٦٧٣م) فن الاستحكامات العثمانيـة بعـد أن درس فـن الموانع والتحصينات الهندسية العثمانية عندما كان ضمن الوحدات العسكرية الفرنـسية التي حاربت ضد الأتراك في قلعة (كانديه) أثناء حصار جزيرة كريت ، وعلى إثـر إحرازه النصر ، وافقت جميع الجيوش الأوروبية الرئيسية في أواخر (ق١١هـ/١٧م) على استخدامه [3] . وكذلك فإن الأسماء الكبيرة التي لمعت في سماء فن الحرب وتألقت خلال هذه الفترة من أمثال (سوبيسكي) و (شارل أمير اللورين) وسـواهما ، لـم تظهر إلا من خلال فن الحرب الإسلامي الذي نقله العثمانيون إلـى الغـرب ، عبـر الحـروب المستمرة ، كمـا أن تقسيم قواتهـم إلى فرسـان خفيفة (هوسار) وثقيلة (دراغون) وتفوق المجريين والهنغاريين في هذا المـضمار ، لـم يكـن إلا بـسبب الاحتكاك المستمر بالقوات العثمانية والتعلم منها ، ومحاولة محاكاتها [4] .

---

(1) بسام العسلي : فن الحرب ، ج٥ ، ص٥٠٦ .
(2) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص ص٣٨٤ ، ٣٨٥ .
(3) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص ص٣٨٤ ، ٤٠١ .
(4) بسام العسلي : فن الحرب ، ج٥ ، ص٥٠٩ .

لقد كانت مدرسة الحرب العثمانية هي المدرسة التي أيقظت الروح العسكرية في أوروبا الوسطى خاصة وفي كافة الدول الأوروبية بصورة عامة [١] .

وهناك عاملٌ آخر كان له دورٌ في انخفاض مستوى القـوات العثمانيـة أمـام أعدائها وهو مدى تأثير القادة العسكريين على أداء الجيش ، ولدى العودة إلى أحـداث الحروب (العثمانية النمساوية) فعلى سبيل المثال كان (سنان باشا) الذي خرج للقيادة بصفته صدراً أعظم وسرداراً أكرم نموذجاً للقيادة العسكرية السيئة وتدل علـى ذلـك الأخطاء التي ارتكبها ومنها : الانسحاب بقواته إلى المشتى تاركاً الجـيش النمـساوي يحاصر بعض القلاع المهمة مثل (بلغراد) ويقول المؤرخ يلماز اوزتونا عنه ، " ولم يمر أكثر من جيل واحد على الزمن الذي كان ينتصر فيه أمراء اللواء على الأباطرة ، والآن يرتجف الصدر الأعظم أمام الفويفودات [٢] العصاة " يضاف إلى ذلك الأخطـاء التي ارتكبها أثناء قيادته لعدد من المعارك ولعل أعظم هذه الأخطاء تـضحيته بجـيش الصاعقة عند اجتياز نهر (الطونه) إلى مدينة (روسجق) [٣] حيث عمد إلى تـأخير عبور هذه الفرقة لحرصه على الغنائم ، فاستغل الجيش النمساوي هذه الفرصة وقصف الجسر وغرقت أعداد كبيرة من كتائب الصاعقة ، ونتج عن ذلك أن الجيش أصبح في حاجة كبيرة إلى كتائب جديدة ، ولذلك حلت خيالة القرم محل هذه الكتائب [٤] .

أما أشهر الحملات العثمانية في النصف الثاني من (ق١١هـ/١٧م) وهي الحملة على فيينا عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) ، فعلى الرغم من نجاحها في بداية الأمـر إلا أن الأخطاء العسكرية التي ارتكبها الصدر الأعظم (قره مصطفى باشا) كانت سبباً فـي إخفاق الحملة ومن هذه الأخطاء :

---

(1) بسام العسلي : فن الحرب ، ج٥ ، ص٥٠٧ .

(2) الفويفودات جمع فويفودا : وهم اسم أطلقه العثمانيون على أمراء الأفلاق والبغدان وأصله سلافي بمعنى سائق الجيش . سهيل صابان : المعجم ، ص١٦٩ .

(3) روسجق : مدينة في تركية الأوروبية في بلغارية مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه في ولاية علـى نهـر الدانوب . موستراس : المعجم الجغرافي ، ص٢٨١ .

(4) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٤٢٣ ، ٤٣٧ .

١- أنه وزع جيشه على مساحة واسعة جداً وكان يهدف من ذلك قطـع المساعدات الأوروبية القادمة للمحاصرين داخل القلعة ، إلا أن هـذا التوزيع صعب عليه جمع هذا الجيش وسرعة توجيهه نحو القـوات الأوروبية المتعددة .

٢- إضاعة الوقت بانتظار سقوط المدينة ، لخوفه من وقوع النهب مـن قبل الجيش الأمر الذي أعطى فرصة لتجمع الجيوش الأوروبيـة ، وكذلك أدى إلى إنهاك الجيش .

٣- إهماله لأمر الجسر الذي كانت حراسته من مهام خان القرم (مـراد كيراي) وكان هذا الإهمال ناتجاً عن علاقة الكراهية بين خان القرم وبين الصدر الأعظم بسبب سوء معاملة الأخير ، فظن خان القرم أن فشل الحصار سيؤدي إلى سقوط (قره مصطفى) وعزله ، دون أن يقدر المخاطر العظيمة التي ترتبت على فشل الحصار [1] .

٤- سوء العلاقة بين الصدر الأعظم وأركان حربه ، وبسبب هذه العلاقة السيئة تعمد الوزير (قوجا إبراهيم باشا) الانسحاب بقواته تاركـاً أرض المعركة .

٥- ارتكب الصدر الأعظم خطأ تكتيكيا وهو أنه بدأ بحصار (فيينـا) قبل أن يفتح قلعة (سرينفار) الواقعة بـين فيينـا وبـين الحـدود العثمانية ، ولو فتحها لاتخذ منها مقراً لعسكره ولكنه تركها ، وبذلك بعدت المسافة بين مقر الحصار ، وبين الأراضي العثمانية ، ونفذت المـؤن والذخائر وانتشر الجوع بين الجند ، وكذلك يـذكر (فـون هامر) أن الصدر الأعظم أرسل إحدى فرق الخيالة لعبـور نهـر

(1) انظر ما قاله خان القرم بشأن العلاقة بينه وبين الصدر الأعظم في : يلماز اوزتونا : تاريخ الدولـة ، ج١ ، ص٥٣١ .

الطونة دون أن يجهزها بالخيام والمؤن ، كما أن هطول الأمطـار لمدة يومين متتاليين أثر على أوضاع الجند [(١)] .

أما الحروب التـي اشتعلت بين الدولة العثمانية و(الحلف المقدس) بعد حصار (فيينا) فقد خاضتها الدولة بقيادة عسكريين تنقصهم الكفاءة إلا فيما ندر ثم إن الهزائم التي تلقاها الجيش العثماني في هذه المعارك أثرت على روحه المعنوية ، فعلى سـبيل المثال عندما استشهد (فاضل مصطفى باشـا) فـي معركـة (سـلانكامن) عـام (١١٠٩هـ/١٦٩٧م) وذاع خبر استشهاده فر الجيش من أمام أعدائه رغم قوة موقفه ، أما في معركة (زينتا) والتي هزم فيها الجيش العثماني ، فقد كاد السلطان (مصطفى الثاني) أن يقع في أسر النمساويين وبعد إنقاذه بصعوبة أدعى جنـود الإنكـشارية أن الصدر الأعظم (الماس محمد باشا) هو المسئول عن هذه الهزيمة وقاموا بقتلـه فـي أرض المعركة [(٢)] .

وهناك تطور جديد أسهم في إظهار الجيش العثماني أقـل تفوقـاً فـي بعـض المعارك أمام الجيوش الأوروبية فبعد (حرب الثلاثين عاماً) لجأت (النمسا) وسائر دول وسط أوروبا إلى إلغاء بعض التشكيلات العسكرية بسبب قلة فاعليتها ، وفي نفس الوقت زادت من أعداد أفراد سلاح المشاة المدرب تدريباً جيداً ، وذلك بسبب قلة تكلفته مقارنة بسلاح الفرسان ، وقد أثبت سلاح المشاة قدرته على مجابهة الفرسان مهما كان كثيفاً ، وعندما يدعمه سلاح المدفعية فإن فاعليته الهجومية تزداد وهكـذا فإنـه كلمـا ازدادت هجمات الخيالة عنفاً كلما زادت خسائرها ، خاصة إذا كانـت مـن الطـراز القديـم [(٣)] .

---

(1) حول أحداث حملة فيينا انظر :

Richard Kreutel : Vigana Onlerinde karmustafa pasa , ceviten Mujdat Karauerli , istanbul , 1994 , s. 16 , 18 .

Hammer : Buyuk , cild .11 , s.449 . ؛

(2) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥٦٦ ، ٥٧٧ .

(3) كولز : العثمانيون ، ص١٩٦ .

وعلى ضوء زيادة أهمية المشاة يمكننا تفسير قلة أهميـة الخيالـة ، وتـضاؤل الحاجة إلى (السباهية) أصحاب (التيمارات) ابتداء من القرن (١١هـ/١٧م) ورغبة الخيالة في الانتساب إلى الإنكشارية [1] .

إذن فقد كانت ساحة (حرب الثلاثين عاماً) ميداناً لتطوير الأسـاليب الحربيـة الأوروبية غير أنها لم تكن الميدان الوحيد ، فقد كانت الدول الأوروبية في هذه الفتـرة تخوض تجارب حربية أخرى في مستعمراتها الجديدة ضد بعضها البعض ، في حـين كانت الدولة العثمانية تخوض حروباً إما ضد الصفويين في إيران ، أو ضد من حولها من الدول الأوروبية وذلك وفقاً لامتدادها الجغرافي ، وهذا يبين أهمية تنـوع سـاحات المعارك في تطوير النظم العسكرية .

وهذا يبين لنا أيضاً أن الإسلام لم يكن يوماً ما عاملاً مـن عوامـل تـأخر أو انخفاض مستوى الجيش العثماني ، ولكن الظروف الخارجية ، والتغيرات السريعة التي حلت بجيش العدو ، كان له الدور الأكبر .

ورغم كل ما ذكر ، فإن الدولة العثمانية حافظت على وجودها في أوروبا رغم كل التحديات والتهديدات التي واجهتها وهو ما يجعلنا نحكم على أن الانحطاط الذي بدأ يدب في جيشها كان نسبياً ، خاصة وأن الدولة مرت خـلال القـرن (١١هـ/١٧م) بفتـرات إصلاح شامل لمختلف المجالات . ولعل أهم الإصلاحات التي تمـت بهـذا الشأن ، هي تلك التي قام بها الصدر الأعظم (محمد باشا كوبريللي) فـي النـصف الثاني من القرن (١١هـ/١٧م) ، وشملت كلاً مـن الـسباهية ، والإنكـشارية ، أمـا السباهية فكان إصلاحهم وإعادة النظام إليهم من السهولة بمكان ، ولما كانوا قد شاركوا الإنكشارية في عصيانهم وتمرداتهم ، فإن هذا الوزير عمل على قمع هذه التمـردات ، وتطهير صفوفهم من عناصر الفساد سواء في الأناضول أم الولايات الأخرى ، ولمـا حاول السباهية اغتياله . قام بحذف أسماء الآلاف منهم ، وأعدم عدداً من قادتهم ، وذلك في عام (١٠٧٠هـ/١٦٥٩م) [2] . وقد ساعده على ذلك أنه لم يكن لهم ما للإنكشارية

---

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٣٩٧ .

(2) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٣٦٦ ، ٣٦٧ .

من أتباع مستعدين للدفاع عنهم ضد أي تهديد لمصالحهم ، وبناء على هذه الإصلاحات أصبح من الصعب على قادتهم إيجاد الجند الكافي للقيام بالاستعراضات التقليدية أيـام قبض الأعطيات (1) .

أما الإنكشارية فقد كان إصلاحهم أصعب بكثير نظراً لكـونهم أقـوى مراكـز الجيش العثماني ، ولقد أدى استخدام الدولة إياهم في قمع تمرد السباهية إلى أن يكونوا أصعب انقياداً وأشد مراساً (2) . واعتباراً من القرن (١١هـ/١٧م) وإلى نهايته ، أصبح تقليل أعداد الإنكشارية من أهم المشاكل التي واجهـت المـصلحين مـن الـسلاطين والصدور العظام (3) .

ومع ذلك لم تكن محاولاتهم للإصلاح تتعدى بعض التدابير العنيفة والإجراءات الزجرية وفي عام (١١١٣هـ/١٧٠١م) صدر فرمـان سـلطاني لإصـلاح أوجـاق الإنكشارية ، وعلى ذلك جرى طرد الدخلاء على الأوجاق وانخفض إلى النصف عـدد جنوده الذين كانوا (٧٠٠٠٠) ، كما قامت الدولة في الاتجاه الآخر بحركـة تنـسيقات (تصفيات) جادة في أوجاقات القبوقولية الأخرى المشاة منها والراكبة ، ويمكن إيجـاز الصيغة العامة لحركات الإصلاح العسكري في (ق١١هـ/١٧م) بأنها كانـت تحتـذي عصر السلطان (سليمان القانوني) .

ولكن معاهدة (كارلوفتس) (١١١١هـ/١٦٩٩م) التي تلت (سنوات المصائب) وهي السنوات التي تلقت الدولة فيها هزائم أمام (الحلف المقـدس) ، كانـت بمثابـة الصفعة التي جعلتها تعترف بتردي أوضاع الجند . وحاجتها إلى إصـلاح جـذري ، وضرورة الإطلاع على التطورات التي بدأت بالظهور في غرب أوروبا نتيجة الثـورة العلمية فبدأت بإرسال السفراء إلى الدول الأوروبية مع بداية (ق١٢هـ/١٨م) لفتـرات أطول وطلبت إليهم تسجيل مشاهداتهم في المجالات العسكرية والسياسية والاكتشافات ، ووضع تقارير بهذا الشأن ولذلك سيكون المجال العسكري أول المجالات التـي تتجـه

---

(1) جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج١ ، ص ص٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(2) المرجع نفسه ، ج١ ، ص ص٢١٩ ، ٢٢٠ .

(3) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٣٩٥ .

نحو التغريب ولكنها ستتم بـبطء وتواجـه العديـد مـن المـصاعب فـي آخـر (ق١٢هـ/١٨م)[1] .

ب- *تدهور التشكيلات العسكرية البحرية في القرن (١١هـ/١٧م) :*

(1) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ص٢٣٦ ، ٤٠٦ ؛ نادية مصطفى : العلاقات ، ص٩٤ .

بدأت مظاهر الضعف في البحرية العثمانية منذ أواخر (ق١٠هـ/١٦م) كما هو الحال في المؤسسات الأخرى ، وكان السبب الأهم وراء هذا الضعف هو تعيين قـواد على الأسطول من غير العارفين بشؤون البحرية [١] ، وقد بدا ذلك واضحاً منذ هزيمة العثمانيين في معركة (ليبانتو) عام (٩٧٩هـ/١٥٧١م) فعلـى الـرغم مـن تجديـد الأسطـول بسرعة فائقة إلا أن الأشخاص الذين تولوا أمـر الأسـطول كـانوا مـن المغمورين [٢] ، كما أنه لم تكن بعد هذه المعركة حملات بحرية كبرى في هذه الفترة ، فمن المعروف أن هذه الحملات إحدى عوامل نمو وتطوير الأسطول العثماني ، ولكـن منذ ذلك التاريخ لم يخرج الأسطول إلى البحر الأبيض لخوض حروب كبرى ، بل من أجل المحافظة على السيادة العثمانية في الجزء الشرقي من هذا البحر ، ومع ذلك فقـد ظلت الغارات البحرية السريعة التي يقوم بها رجال البحر في أوج نشاطها وكان لهـا أثرها في بث الرعب لدى السفن الصليبية في هذا البحر [٣] .

كانت هذه الغارات موجهة بشكل رئيسي نحو السفن التابعة (لفرسان القـديس يوحنا ، والبابويه ، وأسبانيا) ، وكانت سفن إيالات الجزائـر ، تـونس ، وطـرابلس الغرب ، تؤدي دوراً مهماً في هذه الغارات [٤] . وفي عهد السلطان (أحمـد الأول) اشتكى (هنري الرابع) ملك فرنسا من تعديات سفن هذه الولايات وادعى أنها تـساعد سفن الإنكليز في الإغارة على سفن الفرنسيين والبنادقة ، وبناء على هذا الإدعاء عزل السلطان هؤلاء الولاة دون التحقق من الأمر ، والحق أن مثل هذه الإجـراءات هـي إحدى عوامل ضعف البحرية في ولايات الشمال الأفريقي [٥] . غير أن الدولة العثمانية في بعض الأحيان كانت تتغاضى عن مثل هذه الشكاوى – شأنها شأن بقيـة الـدول – وذلك لأن هذه الغارات كانت تعتبر قوة بحرية ضاربة غير رسمية مهمتها محاربة من لا يمكن الإعلان عن معاداته وحربه من الدول ، وذلك حتى لا تـزداد قـوة فيعـسر

(1) اوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٤٢١ .
(2) جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج١ ، ص١٤٥ .
(3) مونتجمري : الحرب عبر التاريخ ، ص٣٧١ .
(4) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٥٣ .
(5) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٣٨ .

صدهـا [١] . وبعبارة أخرى كانت هذه الغارات إحدى الوسائل لحفظ توازن القوى في البحر الأبيض ولعل ذلك ما يفسر وجود بعض الغارات التي تقوم بها السفن العثمانيـة ضد سفن فرنسية وهولاندية وانكليزية ، بل إن السفن العثمانية سواء كانت للأتـراك أم للجزائريين قد وصلت إلى أماكن بعيدة ، ففي عـام (١٠٣٥هـ ـ/١٦٢٥م) وصـلت غاراتها إلى ميناء (Looe) قرب (بليموث) وجزر (سلي Seilly) فـي انكلتـرا وأسسوا قاعدة في هذه الجزر وكذلك أسسوا قاعدة لهم على جزيرة (لندي) التي تقـع على مقربة من قناة (بريستول) . وفي عام (١٠٤١هـ/١٦٣١م) اسـتطاعت هـذه السفن أن ترغم الموانئ الانكليزية على دفع ضريبة لهم وكذلك تمكنوا من الوصول إلى (بحر المانش) وخليج (بسكاي) وبذلك قطعوا المواصلات بين انكلتـرا وفرنـسا ، وبين فرنسا وأسبانية [٢] .

لقد كانت البحرية العثمانية تشق هذه الغارات لإثبات قوة أسطولها . ولكن فـي عهد السلطان (مراد الرابع) انشغلت الدولة بالحروب الإيرانية (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م) عن الاهتمام بالأسطول . حيث ظلت السفن العثمانية تشيد على الطراز القديـم ، فـي حين تطورت صناعة السفن لدى الأساطيل الأوروبية ، وكذلك قلت أساطيل الـشمال الإفريقـي من فعالياتهـا البحرية نتيجـة للشكاوى المتكررة من قبـل فرنسا وانكلترا والبندقيـة ، وقد أدى ذلك إلى اتجاه فرق (اللوند) في هذه الولايـات إلـى التجـارة البحرية [٣] .

أما عن المحاولات التي جرت لتطوير صناعة السفن فقد جرت إحداها في عام (١٠٣٤هـ/١٦٢٤م) حيث جرت صناعة السفن علـى الأسـلوب الأوروبـي حيـث استخدمت السفن الشراعية وأصبح ملاحوها يدعون بالقليونجية بـدلاً مـن العـزب ، وكذلك نظمت مهام الجنود داخل هذه السفن ، وافتتحت الدولة مدارس بحرية جديـدة ، وبذلك خطت الدولة خطوة نحو تطوير الأسطول [٤] .

---

(1) خليل ساحلي : تاريخ الأقطار ، ص٣٣١ .

(2) للمزيد من التفاصيل حول هذه الغارات . انظر : يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص ص٤٤٤ ، ٤٤٧.

(3) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٤٥ .

(4) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢١٦ .

ومع اقتراب النصف الثاني من (ق١١هـ/١٧م) خاضت الدولة أكبر المعـارك البحرية بعد معركة (ليبانتو) وهي فتح جزيرة (كريت) فكانت فرصة مناسبة لتجديد نشاط الأسطول العثماني ، وبطبيعة الحال كان نجاح المشروع يعتمـد علـى التفـوق البحري ، وقد حقق العثمانيون هذا التفوق بعد عدة نكـسات ، كانـت إحـداها عـام (١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) والتي اعتبرت أقل بقليل من نكبة (ليبانتو) . ورغـم تراجـع مستوى الأسطول البندقي في تلك الفترة إلا أنه بدا أكثر تفوقاً من الأسطول العثمـاني وذلك لأن الدول الأوروبية عمدت إلى تطوير صناعة السفن وتسليحها بأعداد كبيرة من المدافع [١] .

وقد أدى ذلك إلى تنبه الدولة إلى هذا الأمر ، فـصدرت الأوامـر فـي عـام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) إلى دار صناعة السفن لتشييد السفن من نوع (الغليـون) [٢] ، وبينما كانت الدول الأوروبية تمد البنادقة بالسفن ، كانت ولايـات الـشمال الإفريقـي والإسكندرية تـؤدي دوراً مهمـاً فـي مـساندة الأسـطول التركـي ، وفـي عـام (١٠٦١هـ/١٦٥٠م) تمرد جنود البحرية العثمانية في إحدى المعارك ، وكـان سـبب تمردهم هو أن سفن الأعداء أكبر وأكثر متانة من سفن العثمانيين ، وتوافق ذلـك مـع تمكن بعض السفن العثمانية من القبض على سفينة تتبع أسـطول (فرسـان القـديس يوحنـا) وكان هذين الحدثين عاملين مساعدين على إتقـان صـناعة الـسفن لـدى العثمانيين ، حيث أرسلت هذه السفينة إلى العاصمة واتخذت نموذجـاً فـي الـصناعة والتسليح [٣] .

وإلى جانب الأسباب التقنية كانت أوضاع الجنود من العوامل التي عرقلت فـتح جزيرة (كريت) ، ففي الوقت الذي أرسـلت الـدول الأوروبيـة أفـضل بحاريهـا وعسكرييها لمساندة البندقية فـي كريـت مـن أمثــال (فرانسيـسكو مـوروزيني

---

(1) جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج١ ، ص١٤٦ ؛ إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٣٧ .

(2) الغليون : وهو نوع من السفن الحربية وهي كبيرة الحجم تتحرك بالأشـرعة ، وأصـل الكلمـة (Calion) الإيطالية أو الكلمة الفرنسية (Calion) . سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص١٧٥ .

(3) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص ص١٥٧ ، ١٥٩ .

الذي [1] (Tomas mocenigo و (توماس موتشينجو ، (Francesco Morosini يسميه العثمانيون (القبطان الأعـور) ، لم يكن القادة العثمانيون على مستوى عـال من الكفاءة ، ولذلك كثر العزل والتولية بينهم ، فبعضهم جبن ولم يخرج للقتال [2] . أما الجنود فكانوا حديثي عهد بالجندية ولم يسبق لهم خوض معارك بحرية ، فـضلاً عـن كونهم من أجناس مختلفة ، ورغم العقوبات بالعزل والتجريد مـن الرتـب العـسكرية العالية إلى طائفة الفورسة [3] [4] . إلا أن ذلك لم يكن ليؤثر على أوضـاع الجنـد ، يضاف إلى ذلك الفوضى التي عمت مركز الدولة مما شتت جهودها بين القضاء علـى التمردات ، والالتفات للحروب الخارجية ، وقد أثر ذلك على إدارة المعارك في كريت حيث تم عزل القبودانات المتميـزين مـن أمثـال (مـصطفى باشـا) فـي عـام (١٠٦٦هـ/١٦٥٥م) وتعيين من هم أقل منه كفاءة وخبرة ، من أمثال (جاليجي زاده مصطفى باشا) الذي كان حريصاً على ثروته ، و (جركس كنعان باشا) الذي حرص على بقائه في منصبه ونيل الألقاب والترقيات أكثر من حرصه على سـير المعـارك بنجاح ، ثم إن فرق (اللوند) سئمت طول المعارك ، وتردي أوضـاعها الاقتـصادية بسبب تأجيل مرتباتهم إلى ما بعد الحرب ، فتركوا السفن دون عودة مما أدى إلى نقص في عدد الجند [5] .

أما الأخطاء الإستراتيجية فقد كان لها دور في تأخير الفتح فعلى سـبيل المثـال أهمل العثمانيون حماية مراكزهم في أرخبيل اليونان ، فاستولى عليها البنادقة واتخـذوا منها مصائد للأسطول العثماني وحاصروا الدردنيل وحالوا دون وصـول الإمـدادات لمحاصري كانديا [6] .

---

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥١٢ .
(2) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢١٧ .
(3) الفورسة : الأسير المحكوم عليه بالأشغال الشاقة والذي يستخدم للتجديف في الـسفن الـشراعية الحربيـة ، ومعنى (فورسه) أي المجبر . سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص١٦٨ .
(4) تعد معركة نقشة البحرية نموذجـاً على ما ذكر ولمزيد من المعلومات حول أحـداثها . انظـر : إسـماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص ص١٥٩ ، ١٦٠ .
(5) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص ص١٦٥ ، ١٦٦ .
(6) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢١٨ ؛ جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج١ ، ص١٤٦ .

إلا أن سير الأحداث قـد تبدل مع الإصلاحـات التي أدخلهـا الصدر الأعظم (محمد باشا كوبريللي) على البحرية ، فقد أشرف بنفسه على المعارك فـي ضـفتي الدردنيل ، واهتم بالاستحكامات الحربية وزودها بالمدافع وقاد بنفسه المعارك البحريـة حتى استطاع أن يحرر المضيق من حصار البنادقة ، أما الجند فقد عاقـ ـب الجبنـاء منهم ، وكافأ من ظهرت شجاعته وكان منهم أحد الجنود ويـدعى (محمـد) الـذي استطاع أن يصوب مدفعه على أحد مخازن البارود في سـفن العـدو ممـا أدى إلـى تفجيرها ومقتل أميرها (توماس موتشينجو) وألفٌ ممن معه كما أضر كثيراً بالـسفن المجاورة له . والجدير بالذكر أن هناك قيادات بحرية قد لمعت بسبب ما قدمتـه مـن بطولات في هذه المعارك من أمثال (مراد باشا بكاربك بودابست) و (محمـد آغـا حاكم طرابلس) و (كوجك محمد) وكذلك ضرب المحاصرون لقلعة (كانديا) أمثلة للبطولة والبسالة ، سواء في صبرهم وتحملهم ، وكذلك في استخدام الألغام الأرضـية بمهارة ، وحسن معاملة أهل القلعة عند استسلامها [1] .

لقد كانت أحداث فتح جزيرة كريت فرصة مناسبة للإطلاع على التطور الـذي طـرأ على صناعة السفن ، واضطر العثمانيون لمتابعـة هـذا التطـور فاستخدمـوا (الغلايين) وادخلوا عليها بعض التحسينات ، غير أنهم لـم يتمكنـوا مـن مجـاراة الأساطيل الأوروبية في وقت قصير ، فلم تجن الدولة أي فائدة من استخدام هذا النـوع من السفن [2] وذلك لعدة أسباب منها :

١- أن صناعة الغلايين تحتاج إلى مهارة وخاصة في صناعة الأشرعة وهو أمر لم يتمكن العاملون في دار الصناعة من الإلمام به في هذه الحقبة الزمنية .

٢- قلة الملاحين العثمانيين المدربين علـى تـسييرها والمنـاورة بهـا لاختلاف التكتيك المستخدم في السفن الشراعية الجديدة عنـه فـي السفن العثمانية القديمة ، كما أن صناعتها تتطلب نفقات كبيرة .

---

(1) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥٠٢ ؛ إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولـة ، ص ص١٦١ ، ١٦٨ ؛ أبو عبد ا البكري : نصرة أهل الإيمان ، ص ص٢٣١ ، ٢٣٢ .

(2) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٨٧٥ ؛ أحمد جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص٢٤٩ .

٣- إن استخدام السفن الشراعية يقتـضي تأسـيس إدارة مـستقلة فـي الأدميرالية وهو أمر لم يرحب به الضباط البحريون القدامى ، كمـا أن الطائفة الجديدة التي جندت من أجل استخدام (الغلايين) لم تكن موضع ترحيب بين القبودانات وأمراء البحر القدامى وذلك لخـوفهم من أن يؤدي تفوق الطائفة الجديدة إلى شهرتها والتفات نظر الدولـة إليها [1] .

من أجل هذه الأسباب اقتصرت دار الصناعة في اسطنبول على إخراج الـسفن القديمة كالجكدير ، والبورتن ، بينما اقتصر استخدام (الغلايـين) علـى الأسـاطيل المصريـة والجزائرية والتونسية ، حيث أبدوا مهارة في اسـتخدامها فاقـت مهـارة البنادقة [2] .

غير أن الدولة عادت للاهتمام بتطوير أداء الأسطول واستخدام (الغلايين) بعد الانتهاء من فتح جزيرة كريت وخاصة مع استمرار (دور الكوبريللي) ، حيث عمـل الصدر الأعظم (قره مصطفى باشا) على صناعة (الغلايين) الحربيـة ، وزودهـا بعدد كبير من المدافع كما أنشأ فيها (عنابر) أي مخازن ، وأدخل بعض التغييـرات على الرتب البحرية وخصص سناجق للصرف عليها ، مما أدى إلى تحـسن وضـعها واستقرار مرتباتها .

وكذلك جلب رجالاً مهرة في استخدام هذا الصنف . وقد ظهـرت فائـدة هـذه التحسينـات في الحروب التـي خاضتها الدولة ضد (الحلف المقـدس) بعـد عـام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) . واستطـاع العثمانيـون التغلـب علـى البنادقـة واسـترداد

---

(1) حول هذه الأسباب بشيء من التفصيل . انظر : أحمد جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص ص٢٥٢ ، ٢٥٣ ؛ جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ص١٤٧ .
(2) أحمد جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص٢٥٣ ؛ إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص٢٢٠ .

جزيرة (ساقيز) [١] عام (١١٠٦هـ/١٦٩٤م) واستعاد الأسطول مكانته البحرية واستمرت هذه المكانة حتى النصف الأول من(ق١٢هـ/١٨م) [٢] .

ومن هذا العرض الموجز عن الأوضاع العسكرية في الدولة العثمانية يمكن القول بأنه إذا كان تاريخ الدولة العثمانية منذ نهاية (ق١٠هـ /١٦م) وحتى أواخر (ق١٢هـ/١٨م) قد درج على تفسيره على ضوء فشل وهزائم المؤسسة العسكرية فمن الواضح أن هناك أبعاداً أخرى متداخلة تبين أن المسؤولية لا تقع على الجيش مجرداً عن الإطار المحيط به فقد جرت تغييرات اجتماعية وسياسية هائلة لا يمكن فصلها في أسبابها ونتائجها عن الجيش العثماني ، ومن ثم فإن تدهور نظام الجيش بأكمله لم يكن إلا جزءاً من إطار كلي أوسع كان يحدث في نطاقه تحول الدولة من دولة فتح إلى كيان يحاول الحفاظ على بقائه . ومن دولة ذات حكم مركزي إلى دولة يزداد فيها تدريجياً وزن قوى اجتماعية مختلفة على حساب سلطة السلاطين ، وعلى حساب الطابع العسكري الإقطاعي وتنظيم المجتمع والدولة ، ومع ذلك فقد كان إخلاص بعض القوى سواء الصدور العظام وحتى الإنكشارية لمؤسسات النظام القديم هو الذي حفظ للدولة تجانسها خلال القرون الطويلة التي استغرقها خبوها ثم تدهورها وسقوطها [٣] .

وكذلك تبين لنا أهمية التجديد والإصلاح في كافة المجالات وضرورة اقتناع العامة بما يصبوا إليه الحكام من تعديلات لا تخرج بالدولة عن أسسها ، ومن ناحية أخرى لم يكن الإسلام سبباً في التأخر العسكري الذي منيت به الدولة ، بل كان الجهاد حافزاً لاستمرار تطويرها عسكرياً ، وإن طرأ على هذا التطوير شيء من الجمود ، فهو بفعل الظروف الخارجية والداخلية التي اتضحت من هذا العرض .

---

(1) ميناء يقع على الساحل الشرقي لجزيرة (ساقزاطه سي) في الأرخبيل اليوناني ، قريبة من ساحل آسيا الصغرى . موستراس : المعجم الجغرافي ، ص٢٩١ .

(2) أحمد جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص ص٢٥٤ ، ٢٥٦ ؛ يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٤٢٣ ؛ إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص١٤٧ .

(3) نادية مصطفى : العلاقات ، ص٩٥ .

الفصل الثالث

أثر توقف الفتوحات العثمانية على الناحية الاجتماعية والاقتصادية في القرن (١١هـ/١٧م)

نجحت الدولة العثمانية في أن تجمع خلال تاريخهـا التقليـدي أناسـاً اختلفـت أجناسهم وتباينت أديانهم في إطارٍ من السلم والتعايش . وكان العثمانيون يطلقون علـى ذلك النظام الاجتماعي وتعايش الناس اسم (نظام العالم) (نظام عالم) . وأطلق عليه الأوربيون اسم (Pax ottoman) أي السلام العثماني (1) .

فكيف استطاع العثمانيون أن يصلوا إلى هذا المستوى من التعايش بـين هـذه الفئات المختلفة ؟ !

لما بدأ العثمانيون بالفتح شرعوا بدعوة الناس إلى دين ا ورحبوا بكـل مـن شرح ا صدره للإسلام ومنحوه حق المواطنة الكاملة فاعتنق الكثيـر مـن الألبـان الإسلام . أما من ظل على دينه من أهل الأرياف ، فقد أصبحوا رعايا يؤدون الجزيـة ومقدارها دينار بندقي واحد لكل فرد وذلك في مقابل تمتعهم بالحماية العسكرية من قبل الدولة (٢) .

لقد كان الحكام العثمانيون الأوائل ذوي نظرة إدارية وسياسية ثاقبة إلى جانـب تفوقهم العسكري ، فهذا (عثمان بك ٦٨٠هـ-٧٢٥هـ/١٢٨١م-١٣٢٤م) مؤسـس الدولة وخليفته (أورخان ٧٢٥هـ-٧٦٤هـ/١٣٢٤م-١٣٦٢م) الذي سار على نهـج والده في خطواتـه للتقدم بنظامها الاجتماعي ، سواء فـي تـشكيل إدارة الأراضـي المفتوحة ، وتوزيع التيمارات ، وتوزيع الضرائب المفروضة على العسكريين أو على المسلمين من غير العسكريين ، وعلى المسيحيين (٣) .

ولقد ضرب السلطان (محمد الفاتح) أعظم الأمثلة في تسامحه مـع بطريـرك القسطنطينية إذ منحه حق الرئاسة الدينية والمدنية للمسيحيين وألزم القـضاء والحكـام المسلمين بتنفيذ أوامره وأحكامه على الرعايا النصارى (٤) . كان المجتمـع العثمـاني يضم عناصر أخرى كالعرب واليونان والأرمن والصرب وغيرهم ولا شـك أن هـذا

---

(1) أكمل الدين أوغلي : الدولة ، ج١ ، ص٦٠٥ .

(2) علي حسون : تاريخ الدولة ، ص ٤٠٧ .

(3) Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali Tarihi Hakkinda Tertkikler , 1989 , Ankara , 2 Baski , s . 1 .

(4) البحراوي : حركة الإصلاح ، ص٢٤ ؛ قيس العزاوي : الدولة العثمانية ، ص ص ٨٢ ، ٨٣ .

التركيب المعقّد يرجع إلى اتساع الرقعة الجغرافية التي تسيطر عليها الدولة . ورغـم تعدد هذه الأعراق إلا أن المجتمع لم يكن قائماً على أسس عرقية . بـل علـى أسـس فكرية وعقدية حيث كانت نظرة العثمانيين للحكم والسياسة والإنسان تلعب دوراً مهمـاً في ذلك . فلم تسع الدولة إلى استيعاب أحدٍ أو محاولة إذابته (١) .

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى افتقار الدولة العثمانية إلى الرابطة القومية بين رعاياها كإحدى السلبيات ، في وقت كانت أوروبا تسير بسرعة نحو الدولة القومية المركزية المتجانسة .

غير أنه لا يمكن مقارنة النظام الاجتماعي الإسلامي العثماني بـالنظم القوميـة التي اعتمدت عليها الدول الأوروبية في تأسيس مجتمعاتها . وذلك للاختلاف الجـذري بين النظامين .

وعلى كلٍ فقد كانت صفة عثماني – لا تركي – هي الصفة المفضلة لدى أبنـاء الدولة . فلم يكن رعاياها الذين لا يتكلمون التركية يعتبرون أنفسهم بمعزلٍ عن كيـان الدولة السياسي . إذ كانت الدولة العثمانية تعتبر نفسها دولة إسلامية .

إذن فمصطلح (عثماني) ليس له مدلول قومي ، بل إنه يرتبط بأسرة حاكمـة مثله في ذلك مثل مصطلحات تاريخية كثيرة . أما لفظ تركي فإنه لم يستخدم في العصر العثماني إلا قليلاً وذلك للإشارة إلى الرعاة التركمان ثم بعد ذلك إلى الفلاحين الجهلـة الذين يتكلمون اللغة التركية ويقطنون قرى الأناضول .

أما عن انتشار الإسلام ، فلم يكن تهرباً من الجزية . والحقيقة إن ذلك مرجعـه إلى ما تميزت به الإدارة العثمانية من كفاءة . وإفساحها الفرص في شـتى المجـالات أمام رعاياها المسلمين أياً كان أصلهم . وهكذا كان الذمي يصبح عثمانياً بمجرد اعتناقه الإسلام مما ترتب عليه ازدياد أعداد العثمانيين بمرور الوقـت مـن الآلاف إلـى الملايين (٢) .

---

(1) أكمل الدين أوغلي : الدولة ، ج١ ، ص٥٥١ .

(2) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول ، ص ص٣١ ، ٣٢ ، ٤٠ .

لقد حرص السلاطين العثمانيون على نشر العدل بين رعاياهم واعتبروا رفاهية الشعب من أهم الواجبات التي يتعين عليهم القيام بها . ولعل خير دليل على ذلك هـو تقسيمهم للمجتمع إلى رعايا وعسكر سواء كانوا مسلمين أم غيـر مـسلمين . ويمكـن تعريف العسكر بأنهم الأشخاص الذين اعترف لهم الـسلطان بمرسـوم خـاص منـه بصلاحيات دينية ، أو إدارية ، وهذه الفئة معفية من دفع الضرائب لكونها فئـة غيـر منتجة . أما الرعايا فهم الذين لا يشاركون في الحكم بشكل من الأشكال ، وغالبيتهم من التجار والحرفيين والفلاحين ووظيفتهم دعم الحكام عـن طريـق الإنتـاج وتأديـــة الضرائب . في حين يتوجب على الفئة الأولى وعلى رأسها السلطان تطبيـق أحكـام الشريعة الإسلامية والقوانين العثمانية العرفية وضمان سيادة العدل في الـبلاد ورفـاه الأهالي . واعتبر العلماء أن التزام كل فئة بواجباتها من أهم أسـس اسـتقرار وقـوة الدولـة .

ويشكل القرويون الذين يعملون بالزراعة والرعي كثافة سكانية كبيرة في الدولة حتى اعتبر الفلاح عماد الاقتصاد العثماني . حيث يعتمد جزء كبير من اقتصاد الدولـة على إنتاج الفلاحين وعلى الضرائب التي يدفعونها . ولذلك كان الفلاح موضع اهتمـام الدولة في عصر قوتها واستقرارها [(١)] . يقول السلطان سـليمان القـانوني : " سـيدنا جميعاً والذي يطعمنا هو القروي " [(٢)] . ويتضح من ذلـك أن القـرويين فـي الدولـة العثمانية أفضل حالاً بكثير من نظائرهم في أوروبا والذين يعتبرون أقناناً للأرض .

وبوجه عام يعتبر المجتمع – حتى القرن ١٠هـ/١٦م – أسعد حالاً فـي ظـل الحكم العثماني وذلك لتمتعه بقسط وافر من الأمن والعدالة وبنظام ضريبي أقل وطأة .

ولكن كياناً سياسياً بهذا الاتساع وبهذا التنوع لا يمكنه أن يظل دون حـوادث أو مشكلات أو دون تطور . غير أنه يمكن السيطرة على هذه الأمور طالما كـان علـى

(1) خليل إينالجيك : الدولة العثمانية ، ص ص١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

(2) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٥٠ .

رأس الدولة حاكم يمكنه فرض سلطته وهيبته ونهجه السياسي . ويمكنه أيضاً الحد من تجاوزات رعاياه [1] .

(1) مانتران : تاريخ ، ج١ ، ص٣٥٠ .

المبحث الأول

الركود الاقتصادي وفقد مصادر الدخل

أ- اختلال نظام التيمار .

ب- الغنائم .

إن الاستقرار والأمن والرخاء الذي عرف في المجتمع العثماني ظل حتى منتصف ق(١٠هـ/١٦م) . أي أنه ارتبط باستمرار قوة الدولة في الداخل والخارج .

ولاشك أن الدولة حافظت على وضعها الاجتماعي وتشكيلها الأساسي وذلك باعتمادها نظاماً مالياً يدار بأصول معينة ، وكان المسئولون يتبعون طرق الإصلاح للوصول إلى التكامل ، وبالفعل وصلت إليه في منتصف ق(١٠هـ/١٦م) ، ولكنهم أهملوا هذا النظام فيما بعد [(١)] .

غير أن هناك بعض العوامل التي بدأت بالظهور ومهدت الطريق لحدوث أزمات اجتماعية منذ أواخر ق(١٠هـ/١٦م) وأوائل ق(١١هـ/١٧م) . وتعددت هذه العوامل وتنوعت ، فانعكست على الأوضاع الاجتماعية في الدولة .

ولعل أهم ما يلاحظ ، هو ارتباط هذه الانعكاسات بالعامل الاقتصادي الذي له دور مؤثر على استقرار الوضع الاجتماعي .

ولابد لنا من إعطاء صورة موجزة عن بعض المبادئ في الاقتصاد العثماني وذلك حتى يتسنى لنا تفهم الفرق بين الوضع الاجتماعي والاقتصادي للدولة قبل وأثناء فترة البحث .

فنظراً للطبيعة الجهادية التي لازمت الدولة العثمانية منذ نشأتها ، تكون النظام الاقتصادي من عناصر متعددة تمثل مصادر دخل للدولة ولعل أهم هذه المصادر :

١- نظام التيمار [(٢)] .

٢- خمس الغنائم وهي التي تجمع من الحروب نتيجة الفتح والحرب .

٣- الجزية التي تدفعها بعض الدول النصرانية المستقلة [(٣)] ، أو الولايات التابعة للدولة العثمانية كالأفلاق والبغدان . بالإضافة إلى أموال الجزية من غير المسلمين الذين يعيشون داخل الدولة .

---

(1) Ziya Karamursal : Osmanli Mali , s.1 .

(2) سبق التعريف به في التمهيد ص٢٣ .

(3) جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج٢ ، ص٩ ؛ علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص١٨٩ .

٤- واردات الجمارك وإنتاج المناجم والممالح والمزارع وغيرها .

٥- الأوقاف .

٦- الضرائب .

وتعتبر واردات التيمارات والأوقاف مصدرين مهمين لخزينة الدولة . ويمكن القول إن إيراداتهما قد تكفل سبل العيش الكريم لكل العاملين في الوظائف العامة ، حتى (السلطان) نفسه ، وذلك إن طبقت أصول النظامين (التيمار والأوقاف) تطبيقاً جيداً.

وتعد الغنائم من أهم مورد لخزينة الدولة ، وكان أول إيراد من الغنائم قد وصل إلى (٣٠٠٠٠) دوقه ذهبية ، بعد فتح مدينة (بورصه Bursa) ، وكذلك عندما استولى خير الدين بربروسا سنة (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) في إحدى غاراته على شواطئ الأرخبيل اليوناني على ما قيمته (٤٠٠٠٠٠) قطعة ذهبية ، وأموالاً كثيرة أخرى ، وبوجهٍ عام فقد بلغت واردات الدولة في عهد (القانوني) (٥٣٧٠٠٠٠٠٠) إسبره [١] والإسبرة تساوي (١٠٠٠٠٠٠) قطعة ذهبية ، وعادة ما يذهب خمس الغنائم لصالح بيت المال وكانت مصروفات الدولة أقل بكثير من وارداتها في تلك الفترة ، ونتيجة للتنظيم المالي المتفوق الذي وضعه العثمانيون فقد كانت الأموال التي ترد من خمس الغنائم مخصصة لجنود (القابي قولي) والخياله ، والعلماء . ولما كان الإنفاق يتم بطريقة معينة ، فقد كان الفائض من الواردات في ازدياد مستمر . ويخصص هذا الفائض للبنية التحتية في الدولة ، كإنشاء الجوامع ، والمدارس ، والخانات ، والطرق وغيرها في المدن . ولذلك اعتبرت الدولة العثمانية بلاد السعة والبركة [٢] .

ولكن على الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تؤلف كياناً سياسياً وبشرياً وجغرافياً واقتصادياً متكاملاً ، إلا أنها بحكم موقعها الجغرافي لم تكن في منأى عن التطورات والتغيرات التي تحدث في أماكن أخرى من العالم .

---

(1) الإسبرة : هي الأقجة (أي النقد المالي) المحرفة من إسبرو الرومية . سهيل صابان : المعجم الموسوعي ، ص١٥ .

(2) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص١٩٠ ؛ جيب : المجتمع الإسلامي ، ج٢ ، ص٩ ؛ Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s.2. ؛ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٥٨٥ .

لقد بدأت الأوضاع السياسية والعسكرية مع بداية ق(١١هـ ـ/١٧م) بـالتغير ، وغني عن القول بأن هذه التغيرات انعكست سلباً على اقتصادها . وهكذا فإن الأزمات الاقتصادية بدأت تشق طريقها نحو الدولة ، وقبل التفصيل في هذه الأزمات لابد مـن الإشارة إلى أنها ترجع إلى عامل داخلي ، وعوامل خارجية .

أما العامل الداخلي فإنه يتمثل في اختلال نظام التيمـار ، فمـن المعـروف أن العثمانيين اعتمدوا بشكل كبير على هذا النظام الذي حقق لهم مصدراً مالياً وعـسكرياً مهماً ولفترة طويلة ، حتى أواخر ق(١٠هـ/١٦م) . غير أنه جرت بعض التجـاوزات في منح التيمار ، وذلك في عهد (سليمان القانوني) ، حيث عمل هذا السلطان علـى منح بعض من أراضي التيمار لثلاثمائة من الخيالة الذين اختارهم ليكونوا حرساً خاصاً به . وقد أعطيت لهم هذه الأراضي على سبيل الالتزام . وتعتبر هذه الطريقة إحـدى الطرق التي تحقق للدولة سرعة كبيرة في جباية أكبر قدر من إيرادات الأراضي [١] .

ويعرف (الالتزام) بأنه بتقديم مصادر الدخل الحكومي المتمثل في (الإقطاع) لأشخاص في مقابل مبالغ مالية مقطوعة . بحيث يدفعها (الملتزم) مقدماً للدولة ، مع أضعاف مضاعفة من الرعايا [٢] .

غير أن هذا النظام كان مجحفاً بحق الرعايا بشكل كبير ولذلك صرفت الدولـة النظر عنه [٣] .

ولكن مع بداية القرن (١١هـ/١٧م) وبسبب الظروف المالية السيئة التي كانـت الدولة تعاني منها ، ورغبة من الدولة في إيجاد مصادر مالية جديدة فقد عمـدت إلـى استرداد الأراضي من السباهية الذين تم منحها لهم في مقابـل خـدماتهم العـسكرية . ومنحتها من جديد لمسئولين كبار في الدولة . فحلوا محل السباهية [٤] . ولمـا ازدادت الحالة المالية سوءاً . أصبحت الدولة تجدد الالتزام للملتزم مهما كانت صفاته ، وذلـك

---

(1) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٧٩ .
(2) سهيل صابان : المعجم ، ص٣٥ .
(3) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٢٧٠ .
(4) Nuray Bozbora : osmanli , s.112 .

قبل انتهاء فترة الالتزام الأول . وجرى العمل بنظام الالتزام على عهد السلطان (مراد الثالث) بشكل واسع . وإذا كانت الدولة قد انتفعت بادئ الأمر من تحصيل إيرادات الالتزام ، وإلقاء عبء جباية الضرائب من الفلاحين إلا أن الهدف الآخر الذي كانت ترمي إليه هو تحقيق مصلحة الملتزمين والفلاحين من خلال التعاون بينهما وتبادل المنافع ، لم يتحقق ، والواقع أن الذي حدث من الناحية العملية كان على العكس من ذلك تماماً . فالملتزمون أخذوا يستغلون الفلاحين وينهبونهم وينتزعون منهم كل ما يملكون وبذلك أساءوا إلى الفلاحين وإلى اقتصاد الريف [(١)] .

ونظراً للأموال التي تدرها هذه الاقطاعات على الملتزمين فقد حرصوا على تقديم الهدايا للسراي وكبار رجال الدولة للحصول عليها . وبطبيعة الحال فقد كان هؤلاء الملتزمون يحولون إيرادات الاقطاعات والتي يفترض أن تعتمد لنفقة الجيوش إلى منافعهم الشخصية [(٢)] .

ويضاف إلى ذلك أن هؤلاء الملتزمين أهملوا المهام التي أوكلت إليهم كالحفاظ على الأمن والنظام . مما أسهم في نشر الفوضى . ثم إنهم تفننوا في أساليب ابتزاز الأموال من الفلاحين بوضع الضرائب الباهظة والمصادرات واتهام الأبرياء بالجنايات بقصد ابتزاز أموالهم .

أما السباهيون الذين أهمل أمرهم فقد ظهر التذمر فيما بينهم بسبب حرمانهم من الأراضي لصالح الملتزمين ، وإزاء تضاؤل أهمية فرق السباهية من الناحية العسكرية بسبب التحول إلى استخدام المشاة والأسلحة النارية ، كل هذه الأمور أسهمت في اضمحلال التيمار كمنظمة عسكرية ، ونظام إداري اقتصادي .

ولقد حلت فرق (القابي قولو) محل السباهية في الأهمية فاستطاعت أن تشكل طبقة مميزة ذات امتيازات خاصة . بل إنهم دخلوا في خدمة أمراء المقاطعات وأبناء الملتزمين . وعملوا بالتجارة ، حتى استطاعوا أن يستخدموا نفوذهم في الحصول على الالتزامات ، الأمر الذي أدى إلى وقوع الصراع على المصالح بين هؤلاء الجنود وبين

---

(1) إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية ، ص٨٨ .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة ، ج١ ، ص٢٧٠ ؛ جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج١ ، ص٢٢٧ .

الأعيان الذين كانوا يسعون للحصول على نفس الالتزامات . وعلى ذلك انهار التوازن بين المركز والإيالات في أعقاب هذه التغيرات المختلفة ولم ينصلح أمر إدارة الإيالات لتعود مرة أخرى إلى سابق عهدها [١] .

والجدير بالذكر إن اختلال نظام التيمار بهذه الطريقة قد لفـت أنظـار العلمـاء ومستشاري السلاطين . فلم يتوانوا عن التنبيه إلى خطورة الأمر وضرورة إيجاد حـل لإعادة فاعلية التيمار كما كان في سابق عهده .

ففي أوائل ق(١١هـ/١٧م) قام الصدر الأعظم (قويو مراد باشا) بتعيين مـن يدعى (علي أفندي) أميناً على الدفتر الخاقاني . فقام هذا الأخير يجمع القوانين والنظم الخاصة بنظام التيمار والزعامة ووضع في ذلك كتاباً في عـام (١٠١٧هـ ـ/١٦٠٧م) باسم (قوانين آل عثمان در خلاصة ، مضامين دفتر ديوان) ، وهو أول كتاب جامع يضعه أحد المسئولين في الدولة . ويتحدث فيه عن نظام التيمار بالتفصيل ، وقد أرجع المؤلف الخلل إلى أمرين أساسيين :

الأول : هو تراجع السباهي صاحب التيمار عن المشاركة في الحرب مع جنود السنجق . أما الثاني : فهو عدم القيام بالتفتيش المنظم على الجنود .

وكذلك وضع كتاباً آخر عرف باسم " كتاب مستطاب " لمؤلف مجهول يتنـاول بتوسع نظام التيمار وتدهوره . وركز المؤلف على الحديث عن توزيع التيمارات على غير مستحقيها مقابل مبالغ من المال وما ترتب عليه من مساوئ [٢] .

وفي عهد السلطان (مراد الرابع) كانت هناك محاولات لإصلاح التيمار وذلك بناء على التوصيات التي أوردها (قوجي بك) في رسالته التي تضمنت الدعوة إلـى العـودة بنظام التيمار إلى ما كان عليه من حيث توزيعـه وفقـاً لإحكـام الـشريعة

---

(1) انظر : أكمل الدين أوغلي : الدولة ، ج١ ، ص٢٤٨ ؛
Shaw : History of ottman . cild – p . 238 .
؛ محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ ، ج٢ ، ص٤٨ .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٢٧١ .

الإسلامية ، وفي سبيل تحقيق ذلك ، اهتم السلطان بالتفتيش العام على هذه الأراضي . وألغى براءات التيمار التي لم يحضر أصحابها .

وفي النصف الثاني من ق(١١هـ/١٧م) لاحظ السلطان (مصطفى الثاني) منذ أن كان ولياً للعهد المضار التي ترتبت على العمل بنظام الالتزام ، كما أن الظروف العسكرية السيئة التي كانت تمر بها الدولة في أعقاب فشل حصار فيينا عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) ، وزيادة نفقات الحروب ، دفعت الدولة إلى إقرار النظام المعروف باسم (المالكانه) في عام (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) وذلك بأن تبيع الدولة مقاطعات الالتزام للأشخاص مدى الحياة . وهو نظام قد جربته الدولة في شرق الأناضول وجنوبه الشرقي وفي سوريا منذ مطلع ق(١١هـ/١٧م) إلا أن إقراره كسياسة مالية لم يحدث إلا في عام (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) فكانت المقاطعات تباع بالمزاد لمن يقدم أعلى الأسعار . وفي المقابل تتخلى الدولة عن حقوقها المالية والإدارية لصاحب المالكانه . فلا يتدخل موظفو الدولة في شؤونها [١] . ولما كان هذا النظام يعطي أبناء صاحب المالكانه الأولوية في شرائها بعد وفاته ، فقد أدى ذلك إلى توارث مقاطعات الالتزام ، وقد ظن السلطان (مصطفى الثاني) أن هذا النظام سيؤدي إلى توفير دخل كبير للخزينة من أقصر الطرق ، وفي أسرع وقت كما أنه سيحسن العلاقة بين الملتزمين والرعايا ، غير أن هذه الطريقة ساعدت على استئثار الملتزمين واستبدادهم . كما أن تصرفات هؤلاء الملتزمين أصبحت أكثر استقلالية عن الدولة [٢]. مما جعل الدولة العثمانية أشبه بإمارات متحدة أكثر منها دولة .

وقد لجأت الدولة في بعض الفترات من ق(١١هـ/١٧م) إلى إصدار الفتاوى الصارمة في حق أصحاب التيمار الذين أهملوا واجباتهم .

---

(1) وفاء البستاوي : فكرة الإصلاح ، ص٢٩ ؛ أكمل الدين أوغلي : الدولة ، ج١ ، ص٢٧٢ .

(2) Nuray Bozbora : osmanli . s.113 . ؛ محمد جميل بيهم : فلسفة ، ج٢ ، ص٤٨ .

غير أن كافة الجهود التي بذلتها الدولة لإعادة تفعيل نظام التيمار باءت بالفشل . ولم تأت بالنتائج المرجوة . ويمكن إيجاز أهم النتائج الاقتصادية التـي ترتبـت علـى اضمحلال نظام التيمار فيما يلي :

١- أن الرسوم التي كانت تجمع لمنفعة خزينة الدولة قد قلت ، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار توقف الفتوحات منذ نهاية ق (١٠هـ/١٦م) ، وانقطاع الغنائم ، وفي المقابل زيادة نفقات الإدارة والجيش التي أصبحت تـدفع مـن خزينـة الدولة بعد أن كان نظام التيمار يسد جزءاً كبيراً من هذه النفقات . مما ألحق أضراراً فادحة بالخزينة وأضعف من اقتصاد الدولة .

٢- بيع أراضي التيمار إلى الأفراد من أجل توفير دخل كبير للخزينة وذلك من قبل الدولة . ولكن الأمر انتهى إلى أن يقوم أمراء المقاطعـات ببيـع هـذه الأراضي بنفس المبدأ من أجل توفير دخل خاص بهم . وليس لخزينة الدولة.

٣- أدى انتقال الأراضي من السباهيين إلى أيدي كبار الموظفين إلى خروج هذه الأراضي عن كونها تيماراً يمنح في مقابل الخدمة العسكرية ، وتحولت إلى مصدر اقتصادي يغذي طبقة الأعيان والطبقة العسكرية المأجورة التي كثـر وجودها في الدولة تدريجياً في تلك الفترة .

٤- انتقال الأراضي إلى أفراد غير قادرين على الخدمة العـسكرية ولا علـى إدارة الأراضـي الزراعية ، مما أسهـم في تدمير الاقتـصـاد الزراعـي للدولة [١] .

هذا بالإضافة إلى النتائج العسكرية التي تم ذكرها في المبحث الثالث من الفصل الثاني من هذه الرسالة [٢] .

تعتبر الغنائم التي كانت الدولة العثمانية تكسبها في حروبها مصدراً مهمـاً مـن المصادر الاقتصادية الكبرى منذ نشأتها ، ويمكن أن تدخل الجزية أو الضرائب التـي

---

(1) انظر : جيب وبوين : المجتمع ، ج١ ، ص ص٢٩٠ ، ٢٩١ ؛
Nuray bozbora : osmanli . s. 112 – 114 .

(2) انظر ص١١٨ من الرسالة .

يتلقاها العثمانيون من الدول التابعة لهم في أوروبا ضمن الغنائم ، فقد كانت هذه الدول تعقد المعاهدات مع الدولة العثمانية ، لرغبتها في التعايش بسلام . ولذلك فهي مضطرة لدفع مبالغ سنوية تقررها الدولة العثمانية ، وهكذا فإن كلاً مـن البندقيـة ، وجنـوه ، والإفـلاق ، والبغدان ، وترانسلفانيا يرسلون هذه الجزية للـسلطان العثمـاني تحـت مسمى (الضرائب) ، وهذه الأموال تعد عاملاً مهماً لزيادة واردات الدولة . وظلـت كذلك حتى عهد السلطان (سليمان القانوني) ، وكان خمس هذه الغنائم يذهب لـصالح بيت المال وفقاً لأحكام الشريعة . وعلى الرغم من ارتفاع واردات الدولة وخاصة فـي عهد القانوني إذ وصلت إلى (٥٣٧٠٠٠٠٠٠) إسبره . إلا أن القسم الأكبر مـن هـذه الموارد يذهب إلى الجيش سواء كان رواتـب الجنـد ، أو تـسليحهم ، وإمـداداتهم ، ومكافآتهم . ولما كانت الحروب التي خاضتها الدولة مكللة بالنجاح فإن نفقات الجيش لم تكن تمثل مشكلة كبيرة ، وكان هذا الاقتدار المالي أحـــد عوامـل تفـــوق الجـيش العثماني [١] .

وبناء على ما سبق نستنتج أن هناك علاقة بين نجاح فتوحـات الدولـة وبـين انتعاشها اقتصادياً .

غيـر أنه بعد عهد (القانوني) حدث تغير كبير أدى إلى نقص فـي خزينـة الدولة ، وذلك طبقاً لاعتبارات كثيرة ، منها سجية الحكام ، وأوضـاع الإنكـشارية ، وحروب الدولة العثمانية مع الدولة الصفوية والدول الأوروبية ، أو تصالحها مع بعض الدول الأخرى [٢] .

وكذلك الدولة العثمانية منذ نهاية ق(١٠هـ/١٦م) دخلت مرحلة التوقف فلم تعد الفتوحات مع مطلع القرن (١١هـ/١٧م) بذلك النشاط المسبق .

---

(1) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص١٩٠ ؛

(2) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص١٩٠ ؛
Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s.3-7 .

ولما كانت المغانم الحربية تغطي جميع أوجه النقص الاقتصادي وتعمـل علـى التخفيف من المشاكل المالية . فمن الطبيعي أن يؤدي توقف هذه المغانم المترتب على توقف عمليات الفتح إلى ظهور هذه المشاكل في أوضح أشكالها .

إن رواتب الجند والتي يجب على الدولة أن تدفعها لهم كل ثلاثة أشهر وخاصة وحدات (القابي قولي) تأتي في مقدمة النفقات الأساسية لخزينة الدولة ، ومنذ بدايـة ق(١١هـ/١٧م) . أصبحت هذه النفقات تزيد عن نصف الميزانية العامة للدولة وفـي بعض الأحيان كانت تصل إلى ثلثي الميزانية .

ونظراً للظروف الاقتصادية التي بدأت الدولة بالمرور بها فقد أصـبح تـأخير مرتبات الجند من أولى المشكلات التي تسبب للدولة أزمة طاحنة وذلـك لأنهـا تفـتح الطريق إلى تمردهم وعصيانهم [١] .

ومـن المعروف أن عهد السلطان (مراد الثالث) قـد شـهد كـسراً لنظـام الدوشرمة . وذلك عندما سمح لأفراد من الرعايـا المـسلمين بالالتحـاق بأوجاقـات والقبوقولية ، وذلك بأعدادٍ كبيرة جداً حيث استخدمت هـذه الأعـداد فـي الحمـلات العسكرية على الجبهتين الفارسية الصفوية ، وعلى الجبهة الأوروبية فلـم تنتـه هـذه الحملات حتى أصبحت أعداد الإنكشارية ضعف ما كانت عليه وقد ترتب علـى ذلـك إرهاق خزينة الدولة بما لم يسبق له مثيل ، خاصة أن الأموال المتوفرة بها لـم تكـن تكفي نفقات العدد الأول لهذه المؤسسـة [٢] . وعلى سبيل المثال كان عدد الجنود فـي عام (١٠٠٤هـ/١٥٩٥م) (٦٤٤٢٠) جندياً . أما مرتباتهم فقد بلغت (١٧٨,٢٠٠٠٠٠) أقجة . وهذا يعنـي وجود عجـز في الميزانيـة الخاصة بالدولة . مما جعل السلطان (مراد الثالث) يلجأ إلى الخزينة الخارجية . وذلك لأن العجز المـالي فـي الخزينـة الداخلية بنسبة (٧٠٠٠٠٠٠) أقجة [٣] .

---

(1) Ahmet Tabak oglu : gerilem Doemine , s.205 .

(2) جيب وبوين : المجتمع ، ج١ ، ص٢١٩ .

(3) Ahmet tabuk oglu : etgerilem Doemine , s.212

؛ Zhya Kara Mursal : Osmanli mali , s.26 .

وتكرر الأمر في عهد السلطان (محمد الثالث) حيث لجأ إلى سك عملة ناقصة العيار ، وكانت الإجراءات الاقتصادية التي اتخذتها الدولة حيال هذه المشكلة قد زادت من المصاعب المالية والمعيشية لهؤلاء الجند . كما أنها اضطرتهم للبحث عـن عمـل إضافي . وهو ما يتنافى مع مهامهم الأساسية . في حين تركـت بعـض مجموعـات الإنكشارية العمل العسكري . ومما زاد الأمر سوءاً . أن الزعماء العسكريين كـانوا لا يخطرون الدولة بترك هذه المجموعات عملها العسكري بـسبب ضـعف المرتبـات ، فكانت هذه المرتبات تدفع باستمرار لتذهب إلى هؤلاء الزعماء (1) . وهذا يـدل علـى الفساد الإداري الذي لحق بهذه المؤسسة وأسهم في تدهورها .

ويضاف إلى مشكلة مرتبات الجند مشكلة أخرى وهي تمويل الجيش وتسليحه ، فقد كان الجيش العثماني مضرب المثل فـي العناية بتمويل الجيش وتـسليحه بـشكل مثالي . وذلك بشهادة مراقبي الغرب أنفسهم (٢) .

غير أن تغير الظروف العسكرية وأساليب تجهيز الجيوش في ق(١١هـ/١٧م) قد ألقى بظلاله على الأوضاع الاقتصادية للجيش العثماني . وذلك لأن زيادة الاعتمـاد على الأسلحة النارية قد دفعت الدولة إلى تجنيد أعدادٍ إضافية لاستخدامها دون أن تكون هناك مصادر جديدة لتمويلها وتسليحها ، هذا عدا الأعداد التي سوف تستعمل لخدمـة الجيش في أعمال التعدين ، والمهندسين العسكريين ، كل هذه الضغوط أدت إلى إهمال نظام تمويل الجيش بالطعام والسلاح (٣) .

ويمكننا أن نشير إلى الحروب التي خاضتها الدولة في ق(١١هـ/١٧م) للدلالـة على مدى ما استنفذته هذه الحروب من الطاقات الاقتصادية للدولة ، فقد أدت الحروب التي خاضتها الدولة ضد النمسا ، وكذلك الحروب التي خاضتها ضد الـصفويين إلـى إفساد التوازن الاقتصادي ، وتأتي الحرب الطويلة التي خاضتها الدولة لفـتح جزيـرة كريت من (١٠٥٥هـ حتى ١٠٨٠هـ /١٦٤٥م حتى ١٦٦٩م) كأوضح النماذج فـي

---

(1) Ahmet tabak ogln : gerim Doemine . s.212 .

(2) انظر : يلمازاوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٥٣٤ .

(3) Nuray bozbora : osmanli . s.114 .

؛ كواز : العثمانيون ، ص٢٠٢ .

هذا الشأن فالفساد الإداري والتعامل بالرشوة بين المسؤولين ، وتأخر اعطيات الجند ، ثم الحصار الذي فرضه البنادقة على الدردنيل وانتشار القحط والغلاء في العاصمة كل هذه الأمور أدت إلى نقص واردات الخزينة التي لم يكن بها ما يسد الحاجة ، ويذكر أن عدد الجنود في عام (١٠٥٥هـ/١٦٤٥م) قد بلغ (٥٩٠٠٠,٢٥٧) جندي . وهؤلاء يستحقون سنوياً ما يقدر بـ(٢٦٣١٠٠٠٠٠) أقجة . غير أن الفساد الإداري ، وتدخل نساء القصر ، أفرغ خزينة الدولة . ويذكر أيضاً أن الجنود المحاصرين لقلعة (كانديا Candi) لم يكونوا يجدون ما يسد جوعهم . ولم يحصلوا على مرتباتهم . مما أدى إلى خلع السلطان (إبراهيم الأول) [(١)].

ولدى استعراض أهم الأحداث التي مرت بالدولة العثمانية في هذه الفترة يتبين أن فترات الحرب كانت أطول من فترات السلم .

ويضاف إلى طول هذه الحروب تتابعها وتزامنها فقد خاضت الدولة حرباً في جبهتين مع بداية النصف الأول من ق(١١هـ/١٧م) ، وكانت هاتين الحربين سبباً في إفلاس خزينة الدولة . ولما كانت الدولة تخوض حرباً بحرية لفتح جزيرة كريت عام (١٠٥٥هـ/١٦٤٥م) فإنها كانت تخوض حرباً برية ضد ترانسلفانيا في عام (١٠٧١هـ/١٦٦٠م) وأخرى في المجر عام (١٠٧٢هـ/١٦٦٢م) ، حتى عام (١٠٧٦هـ/١٦٦٥م) [(٢)] .

أما عن نتائج هذه المعارك والحروب الطويلة فلم تكن بمستوى النجاح الذي حققته الحروب في ق(١٠هـ/١٦م) . إذ لم تعد الدولة العثمانية بالدينامية التي عرفت في هذا القرن . ولذلك لم تعد هناك غنائم بالمستوى نفسه . في وقت كان يتعين عليها

---

(1) Shaw : history . cild 1 . s. 281 .
؛ جودت : تاريخ ، ج٢ ، ص١٢٤ .
؛ Ismail Hakki Uzun Carsili : Osmanli Tarihi , 1988 , Ankara , 4 . Baski , cild 3 , Kisim. 2 , s.575 , Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s.33 .
(2) خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ ، ص٢٧٦ .

الاحتفاظ بجيش مكلف يتضخم عدده باستمرار . وفي المقابل يظل عدد التيمارات ثابتاً بينما يكون عدد الحائزين عليها من محاسيب كبار الوجهاء في تزايد مستمر [(١)] .

وتعد الحملة التي جهزتها الدولة لحصار فيينا عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) من أكبر الحملات تكلفة حتى أنها تسببت في حدوث أزمة مالية كبرى وذلك لأن الدولة عملت على إعداد جيش ضخم وتدريبه وخوض حرب في جبهة واسعة .

والجدير بالذكر أن (قره مصطفى باشا) الذي أعد هذه الحملة كانت له أهداف اقتصادية بالإضافة إلى الأهداف السياسية والعسكرية . فقد كان يرغب في مد مساحة الدولة باتجاه الغرب للعمل على زيادة مصادر دخل الخزينة . وذلك لأن الأراضي الجديدة إن تم فتحها فإنها ستعمل على تنمية وزيادة أراضي التيمار التي ستدر على الدولة المزيد من الأموال . ولو نجحت هذه الحملة كما كان يخطط لها هذا الوزير . فلربما كان لهذا الفتح أثره . شأنه في ذلك شأن ضم مصر على عهد السلطان (سليم الأول) حيث أدى ضم مصر إلى تخفيف حدة الضيق المالي وشدة سنة الإزدلاف [(٢)] . ولكن الفشل الذي منيت به الحملة على فيينا تبعته خسائر مالية فادحة ، فمثل ما لم يتحقق أمله بوجود مصادر مالية جديدة . فلقد زادت نفقات الحروب الطويلة التي أعقبت هذا الفشل . بل إن كثيراً من الأراضي الزراعية والغنية بالمعادن التي كانت تابعة للدولة العثمانية أصبحت ميداناً للمعارك ، مما أدى إلى خرابها وتوقف العمل فيها . ونتيجة لهذه الحروب أصبحت النفقات الخاصة بميزانياتها أكبر من إيراد الخزينة . وعلى سبيل المثال بلغت النفقات الخاصة بالحملات العسكرية ما نسبته ٥٦,٨% من الميزانية العامة لعام (١١٠٣هـ/١٦٩١م) ثم ازدادت هذه النسبة في العام التالي لتصل إلى ٨٣,٥% [(٣)] .

---

(1) مانتران : تاريخ ، ج١ ، ص ص٣٦١ ، ٣٦٢ .

(2) خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ الأقطار ، ص ص١١٧ ، ٢٧٦ ؛ أكمل الدين أوغلي : الدولة ، ج١ ، ص٢٢٥ .

(3) Ahmet tabak oglu : gerlem Doemine , s. 207 .

وبناء على ما جاء في معاهدتي كارلوفتس (١١١١هـ/١٦٩٩م) واستانبول عام (١١١٢هـ/١٧٠٠م) فقد خسرت الدولة ما مجموعه (٣٤٦٠٠٠كم٢) من أراضـيها . وترتب على ذلك عدة أمور منها :

١- خسارة الإيراد الخاص بهذه الأراضي . والذي يقدر ما بين اثنتـين وعشرين وسبعة وعشرين مليون أقجه .

٢- إلغاء جميع الضرائب التي كانت تدفعها دول الحاف المقدس كجزية للسلطان العثماني . بمعنى آخر فُقد مصدر آخر من مصادر الدخل.

٣- حرمان الدولة من القوات العسكرية التي تأتيها من الولايات التابعـة لها والتي يتراوح عددها ما بين (١٦٠٠٠) و (١٨٠٠٠) جندي .

٤- عندما فقدت الدولة مصادر الدخل الخاصة بالمناطق المفقودة لصالح دول الحاف المقدس . ظلت مجموعات كبيرة من رعايا هذه المناطق تابعة للحكم العثماني وهاجرت إلى المركز مما مثّل عبئاً اقتـصادياً جديدة لهذه الجموع التي فقدت أعمالها وأسباب عيشها .

٥- أن هذه المعاهدة جعلت من الإصلاحات المالية التي قام بها (حسين باشا كوبريللي) هباء منثوراً . ففـي عـام (١٠٠٢هـ ـ/١٦٩٠م) استثنى هذا الوزير الإيالات التي تضررت من الحـرب مـن دفـع الضرائب الباهظة ، ونظم عملية جمع رسوم الجمارك ، والضرائب تنظيماً دقيقاً ، وقام بإصلاح العملة ، مما ساعد على تخطي الأزمـة المالية . ولكن هذه المعاهدة ألغت ما ترتب على هذه الإصـلاحات من فوائد .

٦- ومما يدل على أن نفقات الحروب غير الناجحة كانت تكلف الدولـة الكثير هو أن السنوات التي تلت معاهدة كارلوفتس والتي تمثل بداية مرحلة السلم الطويلة ، عادت فيها ميزانية الدولة إلى الانتعاش إلـى حدٍ ما حتى أنه اجتمع في خزينة الدولة أكثر من خمـس وأربعـين

مليون أقجة وذلك في عام (١١١٣هـ/١٧٠١م) [١] إذ لم تعد الدولة تخوض تلك المعارك الطويلة التي تلزمها الكثير من النفقات .

(1) خليل اوغلي : من تاريخ ، ص١١٧ ؛
Ahmet tabak ogln : gerlim Doemine . s. 210 , 211 .
Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s.11 , 12 . ؛

المبحث الثاني

محاولات الدولة لإنعاش الوضع الاقتصادي

المشاكل ، والوسائل ، والحلول

أ- *الامتيازات والمعاهدات التجارية والتجارة الداخلية .*

ب- *الإزدلاف .*

ج- *ترشيد الإنفاق وإصلاح الميزانية .*

د- *الضرائب .*

هـ- *تغيير قيمة النقد .*

لا يمكن تناول الجانب الاقتصادي للدولة العثمانية دون التعرض لموضوع مهم وهو " الامتيازات الممنوحة للدول الأجنبية " وذلك لأنها تمثل أحـد أوجـه العلاقـات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية . فلقد مرت هذه العلاقـات بتطـورات عدة حتى أصبح للدولة العثمانية دور في التجارة الدولية .

وترجع أولى العلاقات بين العثمانيين والدول الأوروبية إلـى ق(٨هـ ـ/١٤م) وذلك عندما اتخذ العثمانيون من (بروسه Burusa) عاصمة لهم (٧٢٧هـ/١٣٢٦م).

فكانت مركزاً سياسياً وتجارياً وأكبر سوق للتبادل التجاري بين الشرق الآسيوي والغرب الأوروبي . ولم تأت سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٢م) حتى وقعت الدولـة العثمانيـة معاهدة تجارية مع جنوة ، هذا فضلاً عن العلاقات التجارية مـع المـدن الإيطاليـة الأخرى [١] .

وبفتح القسطنطينية شهدت العلاقات التجارية بين العثمانيين والمـدن الإيطاليـة تطوراً آخر . فقد عمل الفاتح على تشجيع الجالية الجنوية والتي كان لها دور كبير في نمو التجارة وأبقى لها امتيازاتها وزاد عليها . فكان الجنويون أداة لنمو ثروة المدينـة من جهة وواسطة للاتصال بالدول الأوروبية من جهة أخرى . ولقد أضحـت طـرق التجارة التي كانت مفتوحة أمام السفن الغربية في أيدي عثمانية [٢] . ولتنظيم التجـارة الخارجية وضعت الدولة قانون التجارة (أمان نامة) ، وهو قانون يـسمح للأجانـب بالاتجار داخل أراضي الدولة ، وذلك حسب الاتفاقيات المعقودة مع بلادهم [٣] .

إن الموقع الاستراتيجي للعاصمة العثمانية ، والتطور المستمر لها الـذي كـان يزداد بفضل رعاية السلاطين واهتمامهم جعل من الدولة العثمانيـة مركـزاً تجاريـاً ووسيطاً مهماً في التجارة الدولية . وظلت كذلك حتى اكتشاف رأس الرجاء الصالح .

ولم تكن العلاقات الاقتصادية بين العثمانيين وأوروبـا بمنـأى عـن الأحـداث السياسية . فعندما وصلت الدولة العثمانية إلى أوج قوتها ، وشكلت عاملاً مهماً لتوازن

---

(1) خليل اينالجيك : تاريخ الدولة ، ص ص١٩٢ ، ١٩٣ .

(2) محمد طقوش : العثمانيون ، ص ص٩٦ ، ٩٨ .

(3) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص١٩٣ .

القوى في أوروبا ، وبحكم مركزها العالمي ، اتبع العثمانيون سياسة فعالة . ففي كـل الأماكن دعموا القوى المعارضة للبابوية وللهابسبورج . مثل (الكالفنيين فـي فرنـسا وهنغاريا ، والأراضي المنخفضة) وكذلك دعموا (الموريـسكوز) فـي أسـبانيا ، والملكيات الناشئة في فرنسا ، وإنكلترا ، فبالإضافة إلى الحملات العسكرية المتتابعة ، عبر العثمانيون عن دعمهم بإعطاء الدول الصديقة (فرنـسا ، وإنكلتـرا) امتيـازات تجارية ، وعلى المدى الطويل فإن هذه الامتيازات قد أعطت دفعاً قوياً لاقتصاديات هذه الدول[1]. وبفضل هذا الدعم تقدمت هذه الدول في المجالين الاقتصادي والاستعماري .

وكانت معاهدة عام (٩٤٤هـ/١٥٣٥م) الموقعة بين الدولة العثمانية وفرنسا من أكثر المعاهدات أهمية ، وقد حظيت باهتمام كبير من جانب دارسي العلاقات الدوليـة الإسلامية [٢] . وإذا كان العامل السياسي ذا دور كبير في منح هذه المعاهـدات فـإن العامل الاقتصادي كان له دور مهم أيضاً . وذلك لأن السلطان (سـليمان القـانوني) أراد إعادة الطريق التجاري إلى البحر المتوسط ، بعد أن تحـول إلـى رأس الرجـاء الصالح فقام بتوقيع هذه المعاهدة ليشجع الدول الأوروبية علـى الإبحـار عبـر هـذا الطريق.

غير أن الدول الأوروبية وبدافع من روحها الصليبية ، كانت تبدي رغبتها فـي التحول ، ثم تعمل في الخفاء على الكيد للدولة العثمانية في حين أن السلطان (سليمان القانوني) كان يرى أنه لا قيمة لهذه الامتيازات ما دامت القوة بيده حيث يمكنه إلغاءها متى شاء ومنحها متى أراد [٣] .

وكان لتوازن القوى دوره في حصول انكلترا على امتيازات تجارية ، وذلك في عام (٩٨٨هـ/١٥٨٠م) ، فقد أدى العداء بين انكلترا وأسبانيا إلى فتح باب المفاوضات بين انكلترا والدولة العثمانية ، ومن ثم إرسال السفراء الإنكليز إلى العاصمة العثمانيـة في عام (٩٨٣هـ/١٥٧٥م) وقيام علاقات اقتصادية بين الدولتين . ومن خـلال هـذه

---

(1) خليل اينالجيك : الدولة والرعايا ، الاجتهاد ، العدد ، ٤١ ، ٤٢ ، ص٩٨ .

(2) نادية مصطفى : العلاقات ، ص٢٦ .

(3) على حسون : تاريخ الدولة ، ص ص١٠٥ ، ١٠٦ .

المفاوضات ، استطاعت انكلترا إحياء تجارتها في منطقة الليفانت . وتدريجياً حصلت على معاهدة الامتيازات التجارية في عام (٩٨٨هـ/١٥٨٠م) ، وهي تضاهي الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا من قبل . ورغم اعتراض فرنسا على هذه المعاهدة لتعارضها مع اتفاقها المذكور شبه الاحتكاري ، الذي يسمح بمقتضاه لكافة السفن بما فيها السفن الإنكليزية بالإبحار تحت حماية العلم الفرنسي ، إلا أن الامتيازات الإنكليزية استمرت لمدة (٧) سنوات ، وهكذا ظهرت إلى الوجود شركة الليفانت الإنكليزية ، وشركة التجار الأتراك [(١)] .

ومع تراجع القوة العثمانية في ق(١١هـ/١٧م) أصبحت الدولة ميداناً للتنافس التجاري بين الدول الأوروبية ، والتي كانت تسعى للحصول على امتيازات تجارية على غرار الامتيازات الفرنسية . ولعل خروج السفير الإنكليزي مع السلطان (محمد الثالث) في معركة (إكري Egri) (١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) خير دليل على ذلك .

إن الظروف السياسية والعسكرية التي كانت تعيشها الدولة مع مطلع ق(١١هـ/١٧م) فرضت عليها ضرورة الإبقاء على معاهدة الامتيازات التجارية الفرنسية ، بل وتجديدها في عام (١٠١٣هـ/١٦٠٤م) [(٢)] . ومنح كلاً من إنكلترا والبندقية امتيازات تجارية في العام نفسه ، حتى أن معاهدة (ستيفاتوروك Stivatorok) (١٠١٥هـ/١٦٠٦م) [(٣)] لم تخل من بعض البنود التي تمنح بولونيا بعض التراخيص الجمركية . ولم يأت عام (١٠١٢هـ/١٦١٢م) حتى وقعت هولنده أولى المعاهدات التجارية مع الدولة العثمانية . وهي معاهدة تضارع بنودها بنود المعاهدات الفرنسية والإنكليزية [(٤)] . ونظراً لأن البندقية امتنعت عن المشاركة في بعض العمليات العسكرية التي كانت تقوم بها فلورنسا ، و (رهبان مالطه) فقد أرسل السلطان (أحمد الأول) خطابات إلى ولاة كل من (آيامافري Aya Mavri) ،

---

(1) جون باتريك كينروس : القرون العثمانية قيام وسقوط الإمبراطورية ، ترجمة وتعليق : ناهد دسوقي ، منشأة المعارف ، بدون تاريخ ، ص ص ٣٥١ ، ٣٥٣ .

(2) انظر نص المعاهدة رقم (١) .

(3) انظر نص المعاهدة رقم (٢) .

(4) بسام العسلي : فن الحرب ، ج٥ ، ص١٧٠ ؛ محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص٤٧٤ .

و(بروية ـ زه Prevez) ، و (نـ وارين Navarin) [1] ، و (كـ ورون Koron) يوصيهم بعدم التعرض للحدود والسفن البندقية ، فاستغلت البندقية هذه الظـ روف فـ ي الحصول على معاهدة تجارية في عام (١٠٢٤هـ/١٦١٥م) تحتوي على أربعة عـ شر بنداً بالإضافة إلى البنود القديمة التي كانت ضمن الامتيازات التي حصلت عليهـ ا مـ ع فتح قبرص (٩٧٩هـ/١٥٧١م) [2] ، ولكن تدهور العلاقات العثمانية البندقية خـ لال فتح جزيرة كريت (١٠٥٥هـ/١٦٤٥م) أدى – بطبيعة الحال – إلى تدهور العلاقـ ات التجارية بين الدولتين . ومن ناحية أخرى كان ارتفاع تكلفة الحملة واستنزاف الموارد الاقتصادية وعدم قدرة الدولة على الصمود بمفردها خلال العمليـ ات البحريـ ة ضـ د البنادقة قد استدعى طلب المعونة من السفن الإنجليزية والهولندية ، وفي مقابـ ل هـ ذه المساعدة البحرية الإنجليزية عام (١٠٦٦هـ/١٦٥٥م) حصلت إنكلترا على تـ سهيلات جديدة لتجارها على الأراضي العثمانية [3] . وكانت هذه التداعيات إحدى أسباب تدهور العلاقات الفرنسية العثمانية . وبالتالي إلغاء الامتيازات الممنوحة لفرنسا ومنـ ع الـ سلع الفرنسية من المرور بمصر . ولما تحققت فرنسا من حرمانها من نفوذها في الأراضي العثمانية المترامية الأطراف قفلت راجعة إلى سياسة المصانعة والتملق وظلـ ت علـ ى ذلك لمدة ثلاث سنوات حتى استطاعت أن تعقد مع الدولة العثمانيـ ة معاهـ دة جديـ دة تضمنت الامتيازات التي سبق وأن حصلت عليها عـ ام (١٠١٣هـ ـ/١٦٠٤م) ، هـ ذا فضلاً عن بعض المواد المتعلقة بالأماكن المقدسة في فلسطين [4] . وذلـ ك فـ ي عـ ام (١٠٨٤هـ/١٦٧٣م) [5] .

كانت الدول الأوروبية تعمل على توقيع المعاهدات التجارية مع الدولة العثمانية بشكل متتابع فعلى سبيل المثال وقعت البندقية معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية فـ ي

---

(1) (نوارين Navarin) : ميناء وقلعة وقاعدة بحرية على الساحل الغربي من شبه جزيرة المـ ورة . انظـ ر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٧٢٢ .

(2) Hammer : Buyuk , cild 7 , s.486 , 487 , 488 .

(3) نادية مصطفى : العلاقات ، ص ص٧٩ ، ٨٠ .

(4) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ ، ج٢ ، ص٩٣ .

(5) انظر نص المعاهدة رقم (٥) .

عام (١٠٨٠هـ/١٦٦٩م) و (١٠٨١هـ/١٦٧٠م) [1] ، أي قبل مضي عام على انتهاء الحرب . وإذا كانت الدول التي خرجت للتو من حرب ضروس ضد الدولة العثمانية قد استطاعت الحصول على هذه المعاهدات وفي وقت قياسي ، فإن إنكلترا لن تكون بمنأى عن مثل هذه الفرص . كيف لا وهي ما زالت على علاقة جيدة بالدولـة العثمانيـة . ولذلك حصلت على بعـض الامتيـازات التجاريـة فـي المعاهـدة الموقعـة عـام (١٠٨٦هـ/١٦٧٥م) [2] . وكذلك الأمر مع ايرلانده عام (١٠٩١هـ/١٦٨٠م) [3] .

وبالنظر إلى طبيعة بنود هذه المعاهدات نجد أنها في أغلبهـا بنـود اقتـصادية ولكنها لا تخلو من بعض البنود المتعلقة بالجانب السياسي أو الديني أو القضائي . كما أنها تصب في جانب صالح الدول الأوروبية وتحقق لهم الكثير من المصالح المكتـسبة على مختلف الأصعدة . فعلى سبيل المثال ينص البند الثالث من المعاهدة الموقعة بـين الدولة العثمانية وفرنسا عام (١٠١٣هـ/١٦٠٤م) إمكانية ممارسـة رعايـا أسـبانيا ، والبرتغال ، وكاتالونيا ، وراجوزه وفلورنسا بممارسة العمـل التجـاري فـي الدولـة العثمانية تحت راية العلم الفرنسي مع أنها دولٌ شديدة العداء للدولة العثمانية . وكـذلك ينص البندان الرابع والخامس على منح الحرية الدينية لزيارة الأماكن المقدسة في مدينة القدس وممارسة الطقوس الدينية للفرنسيين ولرعايا الدول الصديقة لفرنسا .

أما البنود الخاصة بالجانب الاقتصادي ، فهي من أكبر المكاسب التي حـصلت عليها فرنسا وكأن هذه البنود قد وضعت لمراعاة الجانب الفرنـسي فقـط . حتـى أن السلطان العثماني قد تكفل بمعاقبة (رجال البحر) في حال تعرضهم للسفن الفرنـسية ولهذا نجد الملك الفرنسي يستغل مثل هذه البنود في تقديم الشكاوى باستمرار ضد ولاة الشمال الإفريقي وهي شكاوى لا تقوم على أي أساسٍ من الصحة في أغلب الأحيان[4].

وتأتي البندقية في المرتبة الثانية في الاستفادة مـن المعاهـدات والامتيـازات الموقعة مع الدولة العثمانية . فقد حصلت على الكثير من الإعفاءات الجمركية في عام

(1) انظر نص المعاهدة رقم (٤) .
(2) انظر نص المعاهدة رقم (٦) .
(3) انظر نص المعاهدة رقم (٧) .
(4) لضرب مثالاً على ذلك انظر : إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٣٨ .

(١٠٢٤هـ/١٦١٥م) كما استطاعت أن تحصل على موافقة السلطان على منع كل من الجزويت [1] والأرمن [2] والرومان [3] زيارة بيت المقدس وذلك لأنهم كـانوا يتعـدون على حدودها ، كما استطاعت البندقية إقناع السلطان بعدم السماح للمسلمين بالبناء على جبل الزيتون . والتخلي عن تحويل كنيسة (بك أوغلي) [4] إلى مسجد وكانت مطالب السلطان (أحمد الأول) تتمثل في السماح للمسلمين الفارين مـن أسـبانيا بـالمرور بأراضي البندقية وعدم التعرض لهم ، وكذلك عدم التعرض لأهالي (راجوزة) الـذين كانوا على علاقة جيدة مع العثمانيين [5] .

ومن هذه البنود يتبين لنا مدى استغلال الدول الأوروبيـة للظـروف الـسياسية للتدخل في الجوانب الدينية ، حتى أن الدخول إلى الأماكن المقدسة في الدولة العثمانيـة أصبح محل نزاع بين هذه الدول ، مما يمس بهيبة الدولة وسيادتها على هذه الأماكن . كما أنه يؤثر على نظام الملل الذي تعتمده الدولة في معاملة أهل الذمة من رعاياها .

كما يتضح أن هذه المعاهدات تحتوي على بنود دينية إلى جانب البنود السياسية والتجارية .

وإذا كانت الجوانب السلبية لهذه المعاهدات تطغى على الجوانب الإيجابية . فما هو الدافع من وراء منحها ؟

---

(1) الجزويت : فرقـة كاثوليكية يسوعية تنتشر في أوروبا بصفة عامة وفي البرتغال وأسبانيا وفرنـسا بـصفة خاصة ، وهي جمعية دينية متعصبة تأسست في القرون الوسطى في أوروبا ، وأسهمت في القـضاء علـى المسلمين في الأندلس وعرفت بعدائها الشديد للمسلمين . انظر : مانع الجهني : الموسوعة الميـسرة ، ج٢ ، ص٦٤٢ .

(2) الأرمن : وهم من الأرثوذكس ، وتتفق الكنيسة الأرمينية في أفكارها ومعتقداتها مع الكنيـسة المـصرية وإن كان لها ترتيب خاص بها . انظر : مانع الجهني : الموسوعة الميسرة ، ج٢ ، ص٦٠٧ .

(3) الرومان : وهم من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وهي تخالف الكنيسة المصرية في طبيعة المـسيح ، بينما توافق الكنيسة الكاثوليكية الغربية بأن للمسيح طبيعتين ، وتتبعها كنائس أورشليم ، واليونان ، وروسيا ، وأوروبا الشرقية ، وهي برئاسة بطريرك القسطنطينية . انظر : مانع الجهني : الموسوعة الميـسرة ، ج٢ ، ص٥٩٣ .

(4) بك أوغلي : من الأحياء المشهورة في استانبول وأغلب سكانه من غير المسلمين وبه سبعين كنيسة . انظر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٦٤٦ .

(5) Hammer : Buyuk . cild .7 , s. 487 , 488 .

يمثل العامل الجغرافي دافعاً مهماً لمنح هذه المعاهدات . ذلك أن مركز الدولـة يقع في القارة الأوروبية . بل إن جزءاً لا يستهان به من مساحتها يقـع فـي الجـزء الشرقي من هذه القارة ، الأمر الذي يفرض عليها ضرورة التعامل التجاري مع الدول المجاورة . ومن الطبيعي أن يكون هذا التعامل قائماً على معاهدات تجارية .

ويأتي العامل السياسي أيضاً كأحد العوامل المهمة التي ركزت عليها المـصادر التاريخية في تفسير منح السلطان (سـليمان القـانوني) للامتيـازات لفرنـسا فـي ق(١٠هـ/١٦م) حيث كانت الأوضاع السياسية والعسكرية تقتضي ذلك [1] .

غير أنه لا يمكن تفسير منح المعاهدات التجارية للدول الأوروبية بنـاء علـى الأحداث السياسية بشكل مطلق في ق(١١هـ/١٧م) . وذلك لأن هـذه الـدول وفـي مقدمتها (فرنسا ، وإنكلترا) كانت تدعم الدول المعادية للدولة العثمانية وقـد سـبقت الإشارة إلى ذلك في الحرب العثمانية النمساوية ، وتكرر الأمر في فتح جزيرة كريت ، وكذلك في الربع الأخير من ق(١١هـ/١٧م) عندما تكاتفت الدول الأوروبية بما فيهـا فرنسا للدفاع عن العاصمة النمساوية ، وللاشتراك في الحلف المقـدس ضـد الدولـة العثمانية .

ويقدم أحد المؤرخين تفسيراً لمنح الامتيازات لفرنسا رغـم مواقفهـا المتذبذبـة فيقول : " غير أن الظروف السياسية ساعدت مرة أخرى فرنسا على استرداد نفوذها . ذلك أن السلطنة العثمانية صارت منذ القرن السابع عشر تتلمس نصيراً لها على حـل خلافاتها التي أخذ بعضها برقاب بعض ، ولاسيما مع النمسا وروسـيا . واضـطرت تحت هذه الحاجة الماسة لأن تتناسى تلون فرنسا حيالها ، وأن ترتمي فـي أحـضانها وتستجيب لمطالبها " [2] .

وعلى الرغم من هذا المبرر الذي ذكره المؤرخ – فإن فرنسا لم تكن لتناصـر الدولة العثمانية ضد دولة نصرانية ، وكان ذلك واضحاً في الأحداث السياسية منذ بداية القرن (١١هـ/١٧م) وحتى نهايته . أما إنكلترا وهولانده فإن مناصرتها للدولة العثمانية

---

(1) قيس العزاوي : الدولة العثمانية ، ص ص٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(2) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ ، ج٢ ، ص١٠٢ .

بعد هزائمها أمام الحلف المقدس في أواخر هذا القرن ، فقد كانت ضغوطاً في حقيقتها وذلك لتجنح إلى السلم . وعلى هذا الأساس تم التوقيع على معاهدة (كارلوفتس) كمـا سبق أن أشرت إليه .

أما العامل الاقتصادي فيمكن القول بأنه يمثل الجانب الإيجابي لهذه المعاهدات إذ يمكن اعتبارها إحدى الطرق التي اتبعتها الدولة لتعويض ما أصابها بعد تحويل الطريق التجاري العالمي إلى رأس الرجاء الصالح فتكون بذلك قد كسرت الحصار الاقتصادي البحري ، وذلك بالسماح للأوروبيين بالتجارة في أراضيها . وهناك جانب مهم لا يمكن إغفاله ، فعلى الرغم من أن الاقتصاد العثماني يقوم على ما يسمى بالاكتفاء الذاتي . إلا أنها كانت تهتم باستيراد المواد اللازمة للرعية وخاصة طوائف الحـرفيين والفلاحـين الذين كانت الدولة تشرف عليهم بشكل كامل باعتبارهم من الفئات التي تنتج ضرورات الحياة الأساسية وبالتالي فإن عملهم كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمحافظة علـى النظـام الاجتماعي والسياسي .

ولهذا سمحت الدولة لتجارة الاستيراد بأن تنشط وتمر عبر أراضيها عن طريق تجارها والتجار الأجانب ، وعن طريق الامتيازات الأجنبية للـدول الأوروبيـة التـي وفرت أنواع المواد غير المتوفرة في الدولة العثمانية ، وعلى رأسها الفضة [١] .

ولكن النتائج التي ترتبت على الامتيازات الممنوحة للأوروبيين لم تكن لتـصب في صالح العثمانيين إلا بشكل ضئيل ونادر . فالدول الأوروبية وخاصة فرنسا وإنكلترا وهولانده ، كانت تستغل هذه الامتيازات في القيام بعمل فعال داخل الدولة العثمانيـة ، وذلك عن طريق نشاطها الاقتصادي ، ولذلك حرصت على استمرار علاقاتها السياسية والتجارية مع الدولة العثمانية . بل وتطويرها . ويبدو ذلك واضحاً في استغلالها للبنود المتعلقة بالأوضاع الحقوقية والدينية ، فنصبت كل دولة مـن نفـسها وصـية علـى النصارى القاطنين في الأراضي العثمانية باختلاف طوائفهم [٢] .

(1) أحمد مصطفى : في أصول ، ص١٣٣ ؛ علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص١٩٤ .

(2) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٣٤٤ ، ٣٤٧ .

ولقد كانت المعاهدة الموقعة في عام (١٠١٣هـ/١٦٠٤م) بين الدولة العثمانيـة وفرنسا تحوي بنوداً خاصة بالبعثات التنصيرية . وهكذا حصل العمل التنصيري وللمرة الأولى على ترخيص بالعمل داخل الدولة العثمانية . ولن تتأخر الكنيسة في اسـتغلال هذا الترخيص . حتى أن (لويس الرابع عشر) أوصى بمحاولة جذب المسلمين إلـى الدين النصراني إن أمكن ذلك . وبالنظر إلى المعاهدة عام (١٠٥٩هـ/١٦٤٩م) نجـد أن الحماية الفرنسية قد شملت كل المؤسسات الدينية والتعليمية والاقتـصادية الخاصـة بالنصارى داخل الدولة العثمانية ، بل وكذلك شملت المتعاونين مع القنصليات حتى لو كانوا من المسلمين . ولم يكن الأمر قاصراً على فرنسا . بل شمل باقي الدول الأخرى التي كانت على علاقة تجارية مع الدولة العثمانية فمثلما ارتبطت مـصالح الكاثوليـك بفرنسا والنمسا ارتبطت مصالح الأرثوذكس بروسيا ، وهكذا [١] .

وإذا كان ارتباط الرعايا النصارى بالدول الأوروبية يعد أمراً خطيـراً ، فـإن الأكثر خطورة هو ارتباط أحد الولاة الذين عينتهم الدولة العثمانية بهذه الدول ، ولعـل ما فعله الأمير (فخر الدين المعني الثاني) من التحالف مع (دوق توسكانا فرديناند الأول) عام (١٠١٧هـ/١٦٠٨م) يعد مثالاً واضحاً على ذلك [٢] .

ويضاف إلى هذه النتائج نتيجة أخرى وهـي أن الـدول الأوروبيـة اعتبـرت الامتيازات التجارية الممنوحة لها حقاً مكتسباً لا يمكن التنازل عنه .

الأمر الذي دفع الصدر الأعظم (أحمد باشا كوبريلي) إلـى التهديـد بإلغائهـا والتذكير بأنها منحة ، وليست حقاً مكتسباً [٣] ، وذلك إثر الموقف الفرنسي أثنـاء فـتح جزيرة كريت .

أما على الصعيد الاقتصادي فقد كانت الدولة العثمانيـة فـي منظـور الـدول الأوروبية عبارة عن إمبراطورية قوية تعتمد على أراضي شاسـعة ، وتـستمد منهـا

---

(1) قيس العزاوي : الدولة العثمانية ، ص ص٨٨ ، ٨٩ .

(2) سبقت الترجمة له في الفصل الثاني ، وللمزيد من التفاصيل بشأن مخططه مع دوق توسكانا . انظر : قـيس العزاوي : الدولة العثمانية ، ص ص٩١ ، ٩٤ .

(3) محمد فريد بك : تاريخ الدولة ، ص٢٩٨ .

موارد ضخمة وتسيطر على جزء كبير من تجارة البحر المتوسط ولا يبدو أنها تعـاني كثيراً من استخدام الغرب لرأس الرجاء الصالح للوصول إلى ثروات الهنـد والـصين والشرق الأدنى ، أو التأثر الكبير من انتشار الفضة الأمريكية في الدائرة الاقتـصادية لأوروبا الغربية [1] وهي في الوقت ذاته مصدر مهم للمواد الخـام بحيـث أن الـدول الأوروبية قد تتعرض لمشكلات اقتصادية في حال قطع صلاتها التجارية مـع الدولـة العثمانية فهي منتج مهم للأخشاب المستخدمة في إنشاء السفن ، والحرير ، والصوف ، والقطن ، وشمع العسل ، والزيت ، والمواشي ، والمنسوجات ، وكان التعامـل بـين الطرفين العثماني والأوروبي يتم عن طريق المقايضة في بعض الأحيان ، ولكن نظراً لأن صادرات أوروبا الغربية لم تكن تكفي لمقايضتها بالصادرات العثمانية فقد لجـأت الدول الأوروبية إلى التعامل النقدي مما أدى إلى تدفق الذهب والفضة الأمريكية إلـى داخل الدولة العثمانية كمسكوكات نقدية ، الأمر الذي أسهم في ظهور مشكلات ماليـة جديدة ، ومن أهم هذه المشكلات اختلال قيمة العملات العثمانية ، ورفض فئات كبيـرة من المجتمع العثماني التعامل بهذه العملات .

وإذا كانت الدول الأوروبية قد حققت الكثير من المكاسب الاقتصادية من خـلال تعاملها التجاري مع العثمانيين ، فإن هذا التعامل أدخل العثمانيين في مشكلات وأزمات اقتصادية ، وذلك لأن السياسة الاقتصادية للدولة كانت قائمة على ما يـسمى باقتـصاد القرية ، أي الاعتماد على تنشيط التجارة الداخلية وتقديم المساعدات للتجـار ، وعـدم فرض الضرائب الباهظة التي تعرقل الحركة التجارية ، كل ذلك مـن أجـل تحقيـق رفاهية الشعب [2] . غير أن حركة الصناعات التقليدية في هذه الفترة لم تعد كما كانت في القرن (١٠هـ/١٦م) من حيث رواجها بل اتجهـت نحـو الركـود إزاء ظهـور الصناعات الأوروبية الجديدة التي بدأت تنافس الصناعات العثمانية في أراضي الدولـة نفسها ، وذلك لأن الأوروبيين كانوا يشترون المـواد الخـام مـن الدولـة العثمانيـة ويصنعونها في أوروبا ومن ثم يعودوا لتصديرها إلى العثمـانيين مـرة أخـرى [3] .

(1) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٤٩ .

(2) يلمازاوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٥٩٣ .

(3) Shaw : History , cild .1 , s . 240 .

ونتيجة لهذه الدورة هبط الإنتاج اليدوي الحرفي في المدن والقرى ، إذ أن تطور القوى الإنتاجية الصناعية الأوروبية سبب ضعفاً كبيراً في إنتاج السلع والحرف الصغيرة [١] .

وكذلك أدت دورة تصنيع المواد الخام إلى اتجاه الاقتصاد العثماني نحو وضـع التبعية الاقتصادية لأوروبا [٢] .

وغني عن القول أن هذا الوضع قد سبب أزمـة ماليـة للتجـ ـار والحـ ـرفيين العثمانيين ، ولعل هذا ما دفع بعضهم للجوء إلـى تهريـ ـب بعـ ـض الـ ـسلع والمـ ـواد الأساسيـة ، وذلك في ظل ازدياد الطلب الأوروبي على هذه المواد كالقمح ، والقطن ، والحرير ، والسلاح ، والبارود ، ووسائل الدفاع ، مما أضر بالاكتفاء الذاتي للدولـة ، وأدى إلى تضعضع الصناعات المحلية التي تعتمد على هذه المواد وانهيارها نـسبياً [٣] وإلى جانب اعتماد الاقتصاد العثماني على الاكتفاء الذاتي ، فقد كان العثمانيون يعملون على استيراد بعض المواد والسلع لتغطية النقص الذي قد يواجه الحرفيين ، فيما كانت الدول الأوروبية تسير نحو الرأسمالية باعتمادها على تـصدير الـسلع التـي تنتجهـا للحصول على المعادن النفيسة . وهو وضع يمثل خطورة على الاقتصاد العثماني .

ويذهب البعض إلى القول بأن تحجر العثمانيين وتمسكهم بنظام الحرف القديم قد حال دون تطورها نحو الرأسمالية ، في إشارة إلى عدم إدراك العثمانيين للمشكلة [٤] . ولكن كما يذكر المؤرخ (يلماز اوزتونا) إن الدولة العثمانية في القرن (١١هـ/١٧م) كانت لا تزال غنية إلى درجة غفلت فيها واستصغرت معها انجازات أوروبا في هـذا المجال [٥] . ومن ناحية أخرى فإن النظام الاقتصادي العثماني مستمد مـن الـشريعة الإسلامية ومن الطبيعي أن لا يتفق مع النظم الاقتصادية الغربيـة الرأسـمالية التـي تتعارض في أسسها ومبادئها مع التشريع الإسلامي القويم ، وكذلك لا يمكـن تجاهـل

---

(1) عمر ناقيتشفيتش : رسالة إصلاح ، ص٢٣٦ .
(2) نادية مصطفى : العلاقات ، ص٧٤ .
(3) Ahmet tabakogol : gerlilem Doemine , s . 236 .
(4) أحمد مصطفى : في أصول ، ص١٣٤ .
(5) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٦٠٥ .

الأوضاع السياسية التي تمر بها الدولة – في هذه الفترة – والتي جعلتها تصرف جل طاقاتها في إيجاد حلول للمشكلات العسكرية ، ومواجهة التحالفات الصليبية المتوالية .

وعلى الرغم مما سبق ذكره . فقد كانت الدولة العثمانيـة ذات بنيـة صـناعية تمكنها من الصمود إلى حدٍ ما أمام نمو الرأسمالية الأوروبية ، ممـا جعـل خطـورة الوضع تأخذ شكلاً نسبياً . فعلى سبيل المثال كانت لدى الدولة القـدرة علـى تغطيـة احتياجاتها من الصناعات الحربية . ولكن زيادة الطلبـات الخارجيـة علـى الأفـرع الصناعية الأخرى وعلى المواد نصف المصنعة ، مثل وسائل صناعة الحياكة والنسيج بصفة خاصة أدى إلى توقف في هذه الصناعات . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخـرى فإن التجار الأوروبيين الذين عرفوا مدى جودة صوف أنقرة قد بدأوا في شراء العديـد من أنواع المنسوجات من أسواق أنقرة . وذلك بهدف تصنيع مثلها ومنافسة الـصناعة العثمانية . ولذلك بدأت المنسوجات المعروفة باسم (لوندرا) تـشاهد فـي الجمـارك العثمانية . وفي فترة قصيرة بدأت هذه المنسوجات تطغى على المنسوجات العثمانيـة بشكلٍ تدريجي [(١)] حتى أن التجار تقدموا بشكوى في عام (١٠٥٦هـ/١٦٤٦م) ، وذلك لأن الحرير القادم من النمسا وإيران ، وبلاد الموره قد غزا الأسواق . وطالبوا بوقـف إدخال هذا الحرير حتى يتمكنوا من بيع الحرير والنسيج المتكدس لديهم .

ونظراً لأن المعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية مع الدول المذكورة ، والتي تمنح رعايا تلك الدول حرية ممارسة التجارة دون أن تتعرض لهم الدولة بأي إجراء ، فقد أدى ذلك إلى ذهاب هذه الشكاوى سدى [(٢)] .

وفي النصف الثاني من ق(١١هـ/١٧م) أدت الهزائم التي منيت بها الدولة أمام التحالف المقدس وتدخل بعض القوى الأوروبية للضغط على الدولة العثمانية كـإنكلترا وهولانده إلى زيادة التسهيلات المقدمة لتجار هذه القوى . وكانت إنكلترا وهولانـده ، وفرنسا ، وروسيا هي أهم هذه القوى . وفي ضوء ما تقدم نجد أن الـدول الأوروبيـة كانت المستفيد الأول من التجارة العثمانية ، وكذلك أدى التعامـل التجـاري العثمـاني

(1) Ahmet ogolu : geblim Doemine , s . 237 .

(2) Ismail Hakki Uzun carsili : Osmanil Tarihi , cild 3 , Kism 2 , s. 575 , 576 .

الأوروبي إلى تدهور القاعدة الاقتصادية العثمانية والدور العثماني كوسيط في تجـارة الغرب مع الشرق ، وأضحى الميزان التجاري يميل لصالح الغرب ، بعبـارة أخـرى جعلت الامتيازات من الدولة العثمانية سوقاً لمنتجات أوروبا [(١)] .

والجدير بالذكر ، أن الأوروبيين حاربوا تطور الصناعة العثمانية المحلية حتـى تظل القاعدة الصناعية لها محدودة إلى أقصى حد . ففي أواخر القرن (١١هـ ـ/١٧م) ومطلع القرن (١٢هـ/١٨م) حاول العثمانيون استغلال الهدوء النسبي الذي ساد بـين عامي (١١١١هـ -١١٢٣هـ/١٦٩٩م -١٧١١م) للالتفات إلى التصنيع وتنمية ثروات الدولة ، وذلك من أجل التغلب على الأزمات المالية بعد أن اتضحت صعوبة التغلـب عليها عن طريق الفتوحات . فعمدت الدولة إلى إنشاء دار حديثة لسك العملـة ، كمـا كانت هناك محاولات لإنشاء مصنع متطورٍ للنسيج . غير أنه اتضح تأخر العثمـانيين في هذا المجال بالنسبة لبقية الدول الغربية التـي كانت تنافـس لكـسب الـسوق العثمانية . وهذه الدول غير مستعدة لتشجيع وتطوير الصناعة في الأراضي العثمانية ، بل على العكس اجتهدت لإعاقتها ، وسعت لإحباط خطط التطوير فيها ، ولقد كان تجار الدولة العثمانية على علم بذلك ، وهو ما دعا الصدر الأعظم (رامي محمد باشا) في عام (١١١٥هـ/١٧٠٣م) إلى منع استيراد الأقمشة الإنجليزية ، وأصر علـى إنـشاء مصنع للأقمشة ، لكن جميع هذه الإجراءات التي اتخذت مـن أجـل إعـادة وقـوف الاقتصاد العثماني ضد الاقتصاد الغربي كانت تجابه بالرفض من قبـل الأوروبيـين . وذلك لأنها تؤدي إلى تضررهم وفقدهم أهم مناطق التسويق لمنتجاتهم . وكان المشروع الوحيد الذي سانده الأوروبيون هو مشروع إنشاء دار الطباعة . حيث شـجع بعـض السفراء الغرب (إبراهيم متفرقة) على إنشاء أول مطبعة حديثة في استانبول ، وذلك في عام (١١٤١هـ/١٧٢٨م) [(٢)] .

ولعل من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور هي تلك التـأثيرات الـسلبية لهـذه الامتيازات ، كاعتماد العثمانيين في تجارتهم الداخلية على المسلمين في حين ظل جزء

---

(1) نادية مصطفى : العلاقات ، ص١٠٧ .

(2) خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ ، ص١٢٠ ؛ Ahmit ogolu : gerlilem Doemine , s.237 .

كبير من تجارتها الخارجية في أيدي غير المسلمين ، وكان هؤلاء بمثابة العملاء للدول الأوروبية أثناء الأزمات السياسية ، ففي الحرب العثمانية الكريتية مارس البنادقة تجارتهم باسم التجار اليهود واليونانيين . مما يعني استمرار النشاط التجاري للبندقية داخل الأراضي العثمانية رغم انقطاع الصلات السياسية ، ومن جهة أخرى نشط الرعايا العثمانيون من صرب ، وأرمن فضلاً عن اليهود واليونانيين الذين كانت لهم هيمنة كبيرة في القرن (١١هـ/١٧م) في هذا المجال ومن المؤسف أنهم استغلوا تسامح الدولة العثمانية وثقتها في اختراق القوانين بشكل سري والتآمر على الدولة ، حتى أن مؤامراتهم أدت في بعض الأحيان إلى وقوع اسطنبول في ضيق اقتصادي ، فلم تعد قادرة على توفير احتياجاتهم من المؤن والمواد الغذائية إلا عن طريق هؤلاء الرعايا الذين أصبحوا بمثابة وسطاء ماليين . كما أن الجيش العثماني لم يعد قادراً على تجهيز جنده بدونهم [(١)] .

وقد نتج عن هيمنة هؤلاء الرعايا النصارى على التجارة الخارجية قيام علاقات بينهم وبين الدول الأوروبية على حساب المصالح العثمانية – على المدى البعيد – ولسوف يتحول اليهود من وسطاء إلى شركاء في التجارة الخارجية ، ليس باسمهم على نحوٍ مباشر في البداية ، وإنما بالارتباط بعدد من الأجانب أو باستئجار سفن إنجليزية . وقد حدث ذلك خلال حرب كريت ، أما اليونانيون الذين كانوا على اتصال بالأعيان والتجار العثمانيين ويعملون أيضاً لحساب الغربيين فإنهم سيقتربون منهم أكثر ويستدرجون في الوظائف حتى يصبحوا مترجمين أو سكرتاريين لدى القناصل والسفراء ، ورويداً رويداً فإن هذا الأمر سيؤدي إلى خلق ركيزة بشرية موالية لهؤلاء الدول الأوروبية على المستوى المحلي وهي التي تمكنهم من ممارسة نفوذ سياسي بالاستناد إليها . وهذا ما حدث في القرن (١٢هـ/١٨م) [(٢)] .

تبين لنا مما سبق أن " الامتيازات الأجنبية " كانت إحدى الطرق التي سلكتها الدولة للصعود بوضعها الاقتصادي بعد تحول الطريق التجاري العالمي إلى رأس

---

(1) بول كولز : العثمانيون ، ص٢٠١ .

(2) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٢٨٦ .

الرجاء الصالح ، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى إحدى مظاهر الخلل الاقتصادي إن لم تكن من أسبابه .

وإزاء الأزمة المالية التي داهمت الدولة في القرن (١١هـ ـ/١٧م) لـم يقـف المسئولون في الدولة مكتوفي الأيدي بل كانت هناك محاولات على الـصعيد الـداخلي للحد من آثار هذه الأزمة ولعل من أبرز الحلول التي لجأ إليها هؤلاء المسؤولون :

١- الازدلاف .

٢- تغيير قيمة النقد .

٣- إعادة صياغة الميزانيات .

٤- الضرائب .

كأي دولة من الدول الإسلامية اعتمدت الدولة العثمانية على الأشهر القمرية في تسديد مرتبات الجند والموظفين ، بينما كانت تجمع الضرائب علـى أسـاس المواسـم الفصلية أي حسب الأشهر الشمسية ، ونظراً لوجود أحد عشر يوماً كفرق بين الـسنة القمرية والسنة الشمسية ، فإنه يلاحظ انطباق كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية على ثلاث وثلاثين سنة قمرية . وعلى هذا الأساس تجد الدولة نفسها مجبرة أمـام هـذه الـسنة المزدلفة – والتي لم يقر لها حساب – على تسديد رواتب سنة ليس لها مـداخيل مـن الضرائب [1] ، وبمرور الوقت تحول هذا الأمر إلى مشكلة مالية .

فلم يكن من الممكن الأخذ بالنظام الشمسي في النفقات – في دولة إسلامية كبرى – كما أن الضرورات الاقتصادية جعلت من غير الممكن الأخذ بالتاريخ الهجري فـي الجباية لأن دخل الرعايا مرتبط بالمواسم الزراعية والتجارية ، وبالتـالي فـإن دخـل الدولة مرتبط بدخل الرعايا [2] .

---

(1) خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ ، ص٩٠ ؛
Ahmet ogolu : gerlilem Doemine , s. 203 .

(2) البحراوي : من خصائص التاريخ ، الدارة ، العدد ٤ ، ص٢٠٧ .

وهكذا فإنه بعد كل ثلاث وثلاثين سنة تجد الدولة نفسها أمام ميزانية أقرت فيها المصروفات دون أن يكون هناك دخل ويتوجب عليها إيجاد مخرج من هـذه الأزمـة وهي أمام احتمالين .

١- فإما أن تتوفر في كل سنة مبالغ مالية تعادل مصروفات أحد عـشر يوماً ، وهو الفرق بين السنتين . وبالتالي تدفع رواتب بدلاً عن كـل سبع أو ثمان سنوات مرة . ونتيجة لـذلك تـوزع رواتـب الـسنة المزدلفة على الثلاث وثلاثين سنة ويكون التوقيت حسب المدة : سنة (١٦٥٣م) (١٠٦٢هــ) أو (١٠٦٣هــ) ثـم سـنة (١٦٦٢م) (١٠٧٢هـ/ أو ١٠٧٣هـ) وسـنة (١٦٧٠م) (١٠٨١هـ/ أو ١٠٨٢هـ) هي تأدية خمس مرتبات عوضاً عـن أربـع مرتبـات سنوياً.

٢- وأما أن تضطر لأن تسوف وقت دفع المرتبات إلى حـين تحـصيل المداخيل .

ولقد كانت الدولة عند دخول السنة السابعة أو الثامنـة بعـد سـنة الازدلاف ، تضطر إلى تسويف الدفعة الأولى من الرواتب مدة ثلاثة أشهر ويضاف إليهـا ثلاثـة أشهر أخرى عند دخول سبع أو ثمان سنوات أخرى ، وهلم جراً ، حتى حصول سـنة ازدلاف أخرى . حيث تصبح الرواتب المتأخرة أو المسوفة أربعة أقساط أي رواتـب سنة كاملة .

وقد تلجأ الدولة إلى مماطلة الجند ، فإذا نفذ صبرهم لجأت إلى أحـد التـدابير التالية :

١- مضاعفة الضرائب بحيث تجمع مرتين عند دخـول الـسنة الثالثـة والثلاثين ، أو إحداث ضرائب إضافية .

٢- الالتجاء إلى الاقتراض من الخزينة الداخلية .

٣- تخفيض العملة .

٤- العمل على تطبيق اثنين أو ثلاث من هذه التدابير في وقت واحد .

وذلك حسب الظروف ، وخلق حالة تكون وفقاً للوضـعية الإسـتعجالية [١] ولا يخفى ما يمكن أن ينتج عن آثار سلبية عن تطبيق أي من الحلول السابقة وخاصة على الرعايا الذين يدفعون الضرائب .

والجدير بالذكر أن (سنوات الازدلاف) قد ظهرت كإحدى المشكلات منذ فترة سابقة لفترة البحث . ولكنها ظهرت كإحدى أصـعب هـذه المـشكلات فـي القـرن (١١هـ/١٧م) عندما تزامنت مع سنوات الحرب .

ففي سنة (١٠٢١هـ/١٦٢١م) أي بعد انتهاء المرحلة الثانية من الحروب مـع إيران لجأت الدولة إلى تأخير دفع رواتب الجند ، الأمر الـذي أدى إلى نكسـة حملـة (خوتين) عام (١٠٢١هـ/١٦٢١م) ومعارضة الجند للـسلطان (عثمـان الثـاني) وخلعه ثم قتله ، وقد أدى العجز في الميزانية في هذه الفترة إلى إفراغ الخزانة الداخلية (الخاصة) . كما اضطرت الدولة إلى تحويل بعض الأواني الذهبية والفضية وسك ما يحصل منها إلى عملات نقدية لحل الأزمة المالية .

أما في سنة (١٠٥٤هـ/١٦٤٤م) الموافقة لحكم السلطان (إبراهيم الأول) فقد تفاقمت الأزمة المالية ، وعندما حان الموعد المعتاد لتأجيل دفـع القـسط الأول مـن رواتب الجند " أي بعد ثماني سنوات من سنة الازدلاف " تطور الوضع السياسي فـي العاصمة بشكل خطيـر وأدى إلى خلع السلطـان (إبـراهيم الأول) ثـم قتلـه ، واعتلاء السلطان (محمد الرابع) العرش ، وخلال هذه الفترة – وما صـاحبها مـن اضطرابات – أصبحت الخزينة فارغة ولم تتمكن الدولة من سد العجـز إلا بفـرض ضرائب مستحدثة ، وجباية بعض الضرائب قبل موعدها بسنة أو سنتين سلفاً ، وأخيراً نفد صبر الجند عندما تسلموا رواتبهم بنقد مغشوش سنة (١٠٥٤هـ/١٦٤٤م) . الأمر الذي أدى إلى ثورتهم ومطالبتهم برؤوس بعـض أهل الديـوان ، وانتهى الأمر بعزل (ملك أحمد باشا) .

---

(1) خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ ، ص١٠٤ .

أما في سنة (١٠٨٨هـ/١٦٧٧م) فقد لجأت الدولة بالإضافة إلى ضريبة العوارض ، إلى الاقتراض من الخزينة الداخلية وذلك من أجل سد العجز للسنوات التي سبقت والتي تلت سنة الازدلاف المذكورة وقد وافقت هذه الفترة الحملة ضد بولونيا سنة عام (١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م) وحملة جهرين (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) ، والحملة ضد روسيا عام (١٠٩٢هـ/١٦٨١م) وأخيراً الحملة ضد النمسا وفشل حصار عاصمتها سنة (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) ثم خلع السلطان (محمد الرابع) عام (١٠٩٩هـ/١٦٨٧م). وأهم ما يميز هذه الفترة من الناحية المالية ، هو أن الاقتراض من الخزينة الداخلية كان كبيراً جداً حتى أنه أدى إلى استنفاذها [١] .

ومما سبق يتضح أن اللجوء إلى السنة المزدلفة لم يكن حلاً جذرياً للمشكلة الناتجة عن التعارض بين وقت جباية الدخل وصرف المستحقات .

ومع استمرار الأزمة المالية كانت الدولة مضطرة لإعادة النظر في مصروفاتها . ولعل مسألة (ترشيد الإنفاق) من أهم المسائل التي طرحها (حاجي خليفة) في رده على تساؤلات السلطان (محمد الرابع) عن أسباب الأزمة [٢] . وذلك لأن زيادة مصروفات الدولة عن وارداتها يعد وضعاً غير طبيعي ، خاصة إذا علمنا أن الدولة استطاعت أن تضع أسسها الأولى معتمدة على ما يفيض من وارداتها .

ويذكر أن عهد السلطان (بايزيد الثاني) شهد أول زيادة في الإنفاق . وذلك لأنه زاد كثيراً في الأعطيات والمرتبات لموظفي الدولة ، هذا سوى ما كان ينفقه في العمران والبناء الذي بدأ يتجه نحو الفخامة ، ويبتعد عن البساطة ، وهذا ما جعل عهده بداية لزيادة نفقات الدولة عن وارداتها .

ثم إن نفقات الدولة كانت في تزايد مستمر بسبب الحروب المتوالية ، وكانت الحرب الكريتية من أشد الحروب التي أنهكت الدولة [٣] . فقد كانت نفقات الدولة

---

(1) للمزيد من المعلومات المفصلة حول سنوات الازدلاف في ق(١١هـ/١٧م) انظر : خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ ، ص١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ .

(2) قيس العزاوي : الدولة العثمانية ، ٣٩ .

(3) Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s.3 , 9 .

وخاصة في سنوات الحرب تزيد بشكل مستمر . حتى أن الوضـع الاقتـصادي فـي الحـرب الكريتية قد وصل إلى حد الفاقة ، وفي الوقت الذي كان الـسلطان (محمـد الرابع) تحت وصاية والدته (خديجة تورخان) كانت مسئولية الحكم تنتقل مـن يـد وزير إلى آخر . وفي عام (١٠٦٢هـ/١٦٥١م) تم اختيار (طرخونجي أحمد باشـا) أمير أمراء مصر سابقاً لتولي مهام الصدارة العظمى ، وكان رجل سلطة مؤثر وخبير بالأسباب التي أدت إلى الأزمة المالية في الدولة . وقد بين للسلطانة الوالدة أن هنـاك أموراً يجب القيام بها لإخراج الدولة من الأزمة بشكل عام وأهم هذه الأمور :

١- إتمام فتح جزيرة كريت .

٢- تأسيس أسطول جديد .

٣- توفير الأموال اللازمة لتغطية كافة مصروفات واحتياجات الدولة .

٤- التمكن من تحصيل هذه الأموال سواء من الشعب أو حتى من أفراد السلطة الحاكمة .

٥- القضاء على جميع المناصب والوظائف المستحدثة لأسباب سياسية والتي لا طائل منها (١) .

وهكذا نجد أن (طرخونجي أحمد باشا) ركز على الجانب الاقتصادي وخاصة على إيجاد مصادر دخل للدولة وتقليل النفقات .

وحتى يتمكن من تأمين مصادر دخل للخزينة قام بالإجراءات التالية :

١- معاقبة المرتشين وسارقي الأموال التي تخص الدولة ، حتـى أنـه عاقب بعض الموظفين والمسئولين رفيعي المستوى الذين يعملون في مؤسسات لها أهميتها كخزينة الدولة ، والترسانة البحرية ، ومصانع الأسلحة .

٢- استرداد التيمارات من أصحابها الذين لم يؤدوا الخدمة العسكرية في مقابل هذه الأراضي ، وكذلك استرداد الأراضي التي كانـت فـي

---

(1) Shaw : History , cild .1 , s.282 .

ملكية ذوي المناصب الكبيرة في القصر ، وقام بإعادة توزيع هـذه الأراضي بنظام الالتزام وتعيين أفضل المـسئولين ممـن تميـزوا بالكفاءة للإشراف على هذه الأراضي .

٣- أما أهـم الانجازات التـي قام بها هـذا الـوزير . فهـو إعـداد ميزانية العام المالي القادم قبل حلوله . وتكمن أهمية هذا العمل ، في أن (طرخونجي أحمد باشا) هو أول من قام بإعداد الميزانية على هذا النحو في التاريخ العثماني ، وذلك لأن الميزانيات فـي الدولـة العثمانية كانت عبارة عن عرض لموارد الدخل والنفقات التي تمت في العام السابق على هيئة تقرير يعد في آخر العام ، بحيث تؤخـذ هذه النفقات بعين الاعتبار في العام المقبل .

ولكن (طرخونجي أحمد باشا) قام بوضع ميزانيته علـى أسـاس تصوره لدخول النفقات المتوقعة لمؤسسات الدولة ، وحرص علـى عدم تجاوز الإنفاق الفعلي لهذه المؤسسات عن ما حدده في تقريره ، وهو بذلك يكون قد أعتمد على أسس حديثة للنظام المالي .

٤- أما الإجراء الأخير فهو الذي عجل بنهاية هذا الوزير . حيـث قـام بتعديل توزيع نظام الضرائب وقام بفرض جزء منها على المسئولين والولاة ، وذلك للتخفيف على الشعب من جهة ، ولتحقيـق مـصدرٍ جديدٍ للدخل وإحداث نوع من التوازن . ومن ناحية أخرى فقد قـام بإلغاء ثلث المناصب المتفرعة من مناصب سابقة والتـي لا طائـل منها.

فكان من شأن هذه الإجراءات إعادة التوازن الاقتصادي للدولة حتى أنه تجمـع لدى الخزينة (٢٤٠٠٠٠٠٠) أقجة ، وقللت النفقات إلـى (٢٥٠٠) أقجـة لـولا أن المتضررين منها بدأوا بالتآمر عليه ورفع الشكاوى ضـده . نظـراً لتناقـضها مـع مصالحهم ، فوحدوا موقفهم ضده وأذاعوا شائعات حول محاولات هذا الـوزير لخلـع السلطان (محمد الرابع) وتولية أخيه (سليمان الثاني) مما أدى إلى إعدامه في عـام

(١٠٦٤هـ/١٦٥٣م) ، وبذلك وصلت إصلاحاته المالية إلى طريق مسدود ، وبالتالي عادت الأزمة المالية إلى سابق عهدها [١] .

أما حركة الإصلاح المالي التي شهدتها الدولة على يد الصدر الأعظم (محمد باشا كوبريلي) فقد كانت أكثر نجاحاً من سابقتها ، فقد مكنته صرامته من إلزام المسئولين بتطبيق بعض الإجراءات ومنها :

١- الحد من النفقات الزائدة وخاصة نفقات الحريم في القصر السلطاني .

٢- إلزام التيماريين بتجديد رخص الحصول على التيمار في مقابل دفع ضريبة على التجديد .

٣- جمع الضرائب بشكل منتظم .

٤- استطاع أن يأخذ قرضاً – إلزامياً من حائزي الثروات الضخمة مع تقديم ضمانات السداد – وذلك لدفع رواتب الجند في أول الأمر ، ثم استقامت الأمور له . واستمرت الرواتب تدفع بشكل دائم ومنتظم .

ولم يأت عام (١٠٧١هـ/١٦٦٠م) حتى استعادت الميزانية توازنها من الناحية العملية . فبلغت الإيرادات (٥٨٠٠٠٠٠٠٠) إسبره ، بينما بلغت النفقات (٥٩٣,٠٠٠٠٠٠) إسبره وهو ما يشهد على جهد ضخم في مجال تصحيح الأوضاع المالية [٢] . بحيث تقلص الفارق الكبير بين الإيرادات والنفقات .

وقد سار ابنه (أحمد فاضل باشا) على نفس المنهج . وبالرغم من أن الدولة العثمانية منيت بالهزيمة في معركة (سان جوتار Sant Gotar) ، إلا أن المعاهدة التي وقعها الطرفان ، والتي ضمنت حصول الدولة العثمانية على جزية قدرها (٢٠٠٠٠٠) عملة ذهبية قد أدخلت مورداً جديداً للدولة [٣] .

---

(1) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٦٢ ؛
Shaw : History , cild. 1 , s . 182 , 183 .

(2) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٦٧ .

(3) Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s.10 .

واستمرت الجهود لإقرار الوضع المالي ، ففي عهد السلطان (سليمان الثاني) قام الصدر الأعظم (مصطفى باشازاده) بإصلاح نظام الجمارك ، وإبطـال المظـالم والبدع التي استحدثت منها لزيادة واردات الدولة في حال الضيق ، كما أبطل عادة دفع الرسوم وتقديم الهدايا للوزراء في المناسبات . محاولاً بذلك نشر العدل ، ونتيجة لـذلك زادت واردات الخزينة .

ولكن جهوده أثارت بعض من لم يدركوا آثارها على المدى البعيد ، وفي ذلـك يقول المؤرخ أحمد جودت : " إلا أن الناس اعترضوا عليه قائلين : يا هل ترى ، مـا فعل هذا الوزير من التدبير في شأن النقود بعد أن أبطل هذه البدع الظالمة ، والواردات الرسمية التي كانت واسطة لإنقاذ الإدارة من الضائقة المالية ؟ ! وهل هذا الوقت ملائم لإجراء مثل هذه الأمور ؟ ! " (1) . غير أن (مصطفى باشا) كان مدركاً ببعد نظـره أن هذه المظالم والبدع التي يعتبرها البعض إحدى موارد الدولة هـي الأسـاس الأول لضيق الأمة ، وكساد التجارة ، والزراعة ، وركود الـصناعة . وإرهـاق الأهـالي ، وبالتالي فإن ذلك يؤدي إلى نقص واردات الدولة . وأن مراعاة العدل في قيام النظـام المالي هو الضمان الأول لقوته . ولم تكن إجراءاته قاصرة على إقامـة العـدل بـين المسلمين من الرعايا بل إنها شملت غير المسلمين أيضاً حيث قام في هذا الشأن بعـدة أمور منها :

١- إلغاء الضرائب الاستثنائية وخاصة تلك التي تؤثر على (النصارى) في الروملي .

٢- الحد من النفقات المدنية للدولة .

٣- إعانة الفلاحين للعودة إلى الأراضي التي طردهم منها النمساويين .

٤- إعادة الثقة في العلاقات ما بين الدولة وبين الرعايـا فـي منـاطق الصرب والإفلاق ، لكسبهم إلى جوار الدولة .

---

(1) جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص١٢٩ .

٥- فرض الرقابة على أداء موظفي الولايات عن طريق إنشاء مجـالس للأعيان (١) .

وبفضل ا أولاً ، ثم بفضل هذه الجهود زادت واردات الدولـة إلـى خمـسة أضعاف ما كانت عليه ، حتى تحقق للخزينة ما يقدر (١٢٠٠٠٠٠٠) أقجه خلال ثلاث سنوات من (١١٠١هـ-١١٠٣هـ/١٦٨٩م-١٦٩١م) كما أن الرقابة المفروضة على أداء الولاة والموظفين أعادت السلطة الحقيقية للدولـة ، حتـى أن الجنـود الثـائرين باستمرار رغبوا في الخروج معه إلى الحرب وكان ذلك سبباً – بعد فضل ا – فـي انتصاره في حروبه وعلى الرغم من الشكاوى والهمز واللمـز الـذي أثـاره بعـض المغرضين حول هذه الإجراءات إلا أن الدولة استمرت على سياسة الحد مـن زيـادة النفقات حتى الربع الأول من القرن (١٢هـ/١٨م) . خاصة بعد نجاحهـا فـي إعـادة التوازن الاقتصادي للدولة ، ولم يأت عام (١١٤٣هـ/١٧٣٠م) حتى تـوفرت سـيولة مالية تقدر (بأربعين مليون أقجة) وخاصـة بعـد توقيـع معاهـدة (بـساروفجه) (١١٣١هـ/١٧١٨م) غير أن ذلك مما ساعد على ظهور الترف في الفترة التي عرفت باسم عهد اللاله وبالتالي عودة العبء المالي على خزينة الدولة من جديد (٢) .

ولم تقتصر أهمية الجانب العدلي على ميزانية الدولة والحد من نفقاتها . بل إنها شملت جانباً مهماً وخاصة بالنسبة للرعايا وهو ما يتعلق بالضرائب .

فمما لاشك فيه أن اتساع رقعة الدولة وزيادة عدد سكانها يقتضي زيادة الموارد المالية . ولقد كانت الدولة في بادئ الأمر تسعى جاهدة للاكتفاء بهذه الموارد ، ولكـن سرعان ما بدا واضحاً أن هذه الموارد لم تعد كافية لتغطية احتياجات الدولة وخاصـة النفقات العسكرية ، باعتبار أن الغنائم والأسلاب لم تعد متوفرة بما فيه الكفاية لتمويـل المشروعات العسكريـة في (ق١١هـ/١٧م) . ولذلك لم يعد أمام المسئولين العثمانيين سوى فـرض الضرائب الاستثنائيـة على الرعايا . وقد أطلق على هذه الضرائب اسم

---

(1) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(2) جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص ص١٢٩ ، ١٣٠ ؛
Ahmet ogolu : gerlim Doemine , s. 261 , 262 .

(ضرائب العوارض) وهو مصطلح يدرج تحته الكثير من الجبايات المالية . مثل (بدل التيمار) ، و (بدل الوظيفة) ، و (الضريبة الامدادية) . وغيرها [١] .

وكانت الاستعانة بهذه الضرائب (العوارض) تتم في أول الأمر بين الحين والآخر ، أو في أوقات الضيق المالي . إذ يجد السلطان وقتذاك من الحاجة ومن المصلحة العامة ما يبرر فرض هذه الضرائب [٢] . والجدير بالذكر ، أن أول ضريبة عوارض فرضت في عهد السلطان (بايزيد الثاني) ، وذلك لازدياد أوجه الإنفاق ، حتى فاقت موارد الدولة . ومع ذلك لم تعمل هذه الضريبة على تغطية النقص ، حتى أن منحة جلوس السلطان (سليم الأول) دفعت بعد اقتراض الخزينة من التجار . ولكن ضريبة العوارض تحولت بعد ذلك إلى مصدر أساسي للدولة . فمع بداية النصف الأول من القرن (١١هـ/١٧م) . ونتيجة لكثرة الحروب التي خاضتها الدولة وتحت الحاح الحاجة إلى المزيد من الموارد لتمويل الحملات العسكرية وتسديد مرتبات الجند ، أصبحت هذه الحملات تمول عن طريق (ضرائب العوارض) [٣] .

والجدير بالذكر أن أكثر هذه الضرائب يقع على عاتق الفلاحين ، أما سبب استيائهم فلم يكن من ديمومتها ، وإنما كان بسبب الزيادة في مقدارها ، أو فرض المزيد منها تحت مسميات جديدة ومتعددة ، سواء كانت بشكل نقدي أو عيني أو خدمة بدنية . وتكمن المشكلة في أن بعض الولاة كانوا يأخذون الضرائب الباهظة عنوة من أفراد الشعب . ففيما يتعلق بالضرائب النقدية منهم يأخذون مبالغ إضافية لأنفسهم فضلاً عما يجبى لخزانة الدولة ، أما الضرائب العينية فكانت مصدراً آخر لإرهاق الأهالي فعلى سبيل المثال تجاوز بعض المسؤولين صلاحياتهم فيما يعرف بضريبة النزل بشكل فاق طاقة الأهالي . أما الضريبة التي كانت تؤدى على هيئة خدمة بدنية ، فقد تحولت إلى أحد أشكال السخرة . مما وضع دافعي الضرائب في أسوء الأحوال – بالنظر إلى

---

(1) كولز : العثمانيون ، ص١٩٩ ؛ خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ ، ص٢٦ ، ٢٧ .
(2) جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج٢ ، ص ص١٠ ، ١١ .
(3) خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ ، ص٢٧٣ ؛
Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s . 4 .

الظروف المالية والعسكرية التي تمر بها الدولة – وأدى ذلك إلى تـذمرهم وشـكواهم باستمرار [(1)] .

وقد جمعت الدولة في الحملة على إيران عام (١٠٣٧هـ - ١٠٣٨هـ/١٦٢٧م -١٦٢٨م) (٣٩,٦ مليون أقجة) لتمويل الحملة [(2)] . أما في النصف الثاني من القـرن (١١هـ/١٧م) وبعد حصار (فيينا) فقد جمعت (٣٢٧,٥ مليون أقجة) للإنفاق علـى الجيوش التي واجهت الحلف المقدس .

ويبدو أن زيادة الأعباء المالية قد فرضت على الدولة تغيير بعض النظم فمـن المعروف أن الدولة قد حظرت عادة تدخين التبغ ، وتناول القهوة في المقاهي وشـرب الخمر . ونظراً لاستمرار بعض أفراد الشعب في تدخين التبغ رغم هذا الحظـر فقـد وضعت الدولة ضريبة عرفت باسم (رسم الدخان) وذلك في عهد السلطان (سـليمان الثاني) حيث وضعت هذه الرسوم على بائعي شتلات التبغ وعلى الحوانيت والمقـاهي التي تقدمه ومع ازدياد أعداد المدخنين ارتفعت عوائد هـذه الضريبة وبلغت وارداتهـا (٥٠٠٠٠٠ أقجة) . وكذلك يمكن أن يقال الشيء نفسه عن الخمور والقهـوة ، فقـد وضعت الدولة رسوماً على الخمور عرفت باسم (رسم الخمـر) وذلـك منـذ عـام (١١٠٠هـ/١٦٨٨م) . وقد ضجر النصارى في الروملي من الرسوم التـي فرضـت على هذه الخمور وعلى مزارع العنب الخاصة بهم . وثاروا في وجه الدولـة . ولمـا كانت نار الحرب بين الدولة والحلف المقدس مشتعلة انضم بعض هؤلاء الثائرين إلـى الأعداء [(3)] .

أما ضريبة القهوة التي عرفت باسم (رسم البدعة) فقـد ارتفعت عائداتها إلى (٤٠٠٠) كيس وذلك في عهد السلطان (مصطفى الثاني) وكانت هذه الرسـوم فـي ازدياد مع ارتفاع سعر القهوة فـي الأسواق الخارجية وزيادة الطلـب عليهـا فـي الداخل . غير أنه إذا أُخذ في الاعتبار انخفاض قيمة العملة العثمانيـة أمـام العمـلات

---

(1) Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s.9 .

؛ Hammer : Buyuk , cild . 11 , s . 475 , 476 .

(2) خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ الأقطار ، ص٢٧٣ .

(3) Ahmet tabak oglu : gerlim Doemihne , s.274 .

الأخرى . يتضح لنا أن حاصلات هذه الضريبة ستكون منخفضة القيمة ، ولـم تكـن هناك فرصة لرفع الضريبة أكثر من ذلك . وذلك لأن الدولة كانت مكبلة بالمعاهـدات والامتيازات التجارية الموقعة مع الدول الأوروبية [(١)] .

وفي عام (١٠٩٩هـ/١٦٨٧م) أدى استنفاذ الحملات العـسكرية الكثيـر مـن الأموال إلى فرض نوع من ضرائب العوارض عرف باسم (إمداد الحملـة) . وقـد أصدر السلطان (محمد الرابع) قراراً بأن تجبى هذه الضريبة من طوائف كانت قـد أعفيت – سابقاً – من الدفع كالعلماء بدءاً من شيخ الإسلام ، وحتى المدرسين . ولمـا قابل العلماء هذا القرار بالاعتراض . اكتفت الدولة بتخفيض قيمة الضريبة . وتكـرر الأمر في العام (١١٠٠هـ/١٦٨٨م) . حيث اقتضى تجهيز حملة بالقرار دفـع قيمـة الضرائب . فكان على كل عائلة أن تجهز ثلاثة من الجنود مما جعل الأهالي يضجرون ويقدمون الشكاوى بهذا الشأن الأمر الذي جعل الدولة تعمل على تخفيض الـضريبة ، بحيث تتولى كل عائلة تجهيز اثنين من الجنود [(٢)] .

غير أن ما ذكر سابقاً من الإجحاف بحق الرعايا بهذا الشأن لا يمكن تعميمـه . فقد تخللت القرن (١١هـ/١٧م) محاولات لتدارك الوضع سواء من قبل الـسلاطين أو الوزراء ، وإن كانت هذه المحاولات لم تقدم حلاً جذرياً للمشكلة الاقتصادية .

فعلى سبيل المثال شعر الصدر الأعظم (محمـد كـوبريللي) بفداحـة هـذه الضرائب فأمـر الموظفين بالتوقف عن تحصيلها ، وكذلك سار ابنه (أحمـد فاضـل باشا) على نفس النهج . غير أن (قرة مصطفى باشا) الذي جاء من بعده لم يـستطع ضبط الأمور الماليـة . فعاد إلى تحصيل الضرائب التي ألغاها سلفه ، ولما جاء بعده (مصطفى باشا) كان إلغاء الضرائب من جملة إصلاحاته ، كما حكم بأحكـام قاسـية على من ظلم الشعب من الموظفين ، وأحدث نوعاً جديداً من الـضرائب علـى دخـل

(1) Ahmet Tabak oglu : gerlim Doemihne , s. 275 .

(2) Hakki yildiz : Dugusttn , cild .11 , s. 57 .

موظفـي الدولـة . غير أن هذه الإصلاحات تنتهي بوفاة القـائمين عليهـا ، فتعـود المشكلة [1] .

أما الحل الآخر الذي لجأت إليه الدولة للتصدي للأزمة المالية التي اجتاحتها في القرن (١١هـ/١٧م) ، والمتعلقة بقيمة النقد فقد ظهر كأحد مظاهر الخلل ، بل كان في حد ذاته أحد أسباب المشكلة الاقتصادية . وقد بدأت مشكلة تنـاقص قيمـة العمـلات العثمانية مع اكتشاف القارة الأمريكية . فمن المعروف أن الدولـة العثمانيـة اهتمـت بمعدني الذهب والفضة لأهميتهما في سك النقود . فكانت تعمل على استخراج الـذهب من مناجم البلقان بالدرجة الأولى ، أما الفضة فقد كانت تستخرج من مناجم الروملـي وبعض المناجم القليلة في الأناضول . وذلك حتى أواسط القرن (١٠هـ/١٦م) . وعقب اكتشاف أمريكا وتزايد مقادير الذهب والفضة . فقد بدأت تنهمر الكميات الضخمة مـن هذين المعدنيين على أسبانيا . ومن ثم إلى الدول الأوروبية الأخرى . وفي خلال العقد التاسع من القرن (١٠هـ/١٦م) بدأت الريالات الأسبانية تدخل الأراضـي العثمانيـة بوفرة . وهذه الوفرة والتخفيض المتعمد في عياراتها في بعض البلدان ، كانت الـسبب وراء الزيادات غير العادية في الأسعار بشكل مضاعف ، ولقد أخذت الدولة العثمانيـة بنصيبها من تلك الزيادة ومع زيادة كميات الفضة ، طغى استخدامها علـى اسـتخدام الذهب . وأصبحت المعاملات التجارية تتم بحساب العملة الفـضية . ونتيجـة لعجـز الفضة العثمانية عن منافسة الفضة الأمريكية ، فقـد أغلقـت منـاجم البلقـان . أمـا الضربخانات التي تعتمد على تلك المناجم ، فقـد أصـبحت تـسك عمـلات ناقـصة ومغشوشة [2] . مما يعني انخفاض قيمة العملة العثمانية . ومما زاد الطين بلة ، تزامن هذه المشكلة مع مشكلات عسكرية وسياسية على الـصعيدين الـداخلي والخـارجي . فالحروب الكثيرة التي خاضتها الدولة مع أواخر القرن (١٠هـ/١٦م) ومطلع القـرن (١١هـ/١٧م) ، تطلبت الكثير من النفقات ، في الوقت الذي انخفـضت المـدخولات

---

(1) Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s . 10 , 11 .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٦٦٢ .

السنوية ، وهكذا نجد أن الوضع الجديد للنظام الاقتصادي الـدولي وتـراكم الثـروات الأوروبية قد أدى إلى تخريب النظام الاقتصادي للدولة [١] .

فقد انخفضت قيمة أسعار المواد الأولية التركية بالنسبة للتاجر الأوروبـي فـي حين ارتفعت بالنسبة لنظيره العثماني . وإزاء النفقات المتفاقمة وخاصة نفقات الجيش ، وضعف القوة الداخلية ونظام الضبط والربط ، حيث بدأ السلاطين والأمـراء والـولاة يعيشون في ترف على حساب الغير ، كما بدأ رأس المال يتجمع في أيدي فئة قليلة من المجتمع ، لجأت الدولة إلى بعض الإجراءات للخروج من الأزمـة أو التخفيـف مـن حدتها . وكانت هذه الإجراءات تنجح أحياناً في التغلب على الصعوبات الماليـة لـسد حاجات الجيش ، والعناصر غير المنتجة بمشقة كبيرة ، كما كانت الدولة تقوم بـبعض المناورات كإغراق السوق بالعملة مع ضعف الرصيد الذهبي – أو مـا يعـرف فـي عصرنا بالتضخم النقدي – [٢] . ويذكر أن أول من أصدر عملة ناقصة العيـار هـو السلطان (محمد الثاني) في عام (٨٥٥هـ/١٤٥١م) ، وعنـدما رأى الفائـدة التـي تحصلت للخزينة من هذا الإجراء ، أصبح تطبيقه في حكم العادة ، ومنذ الربع الأخيـر للقرن (٩هـ/١٥م) زاد انخفاض قيمة الأقجة ، كما تزايـدت كميـات الزائـف منهـا والمزور منها بين أيدي الناس . ومن ثم اقتضى الأمـر إعـادة ضـبط وزن الأقجـة وعيارها من جديد ، وهي عملية كان يتم اللجوء إليها بين الحين والآخـر ، وعرفـت باسم " تصحيح السكة " (سكة تصحيحي) .

وتـم ذلك فـي عهد (بايزيد الثاني) ثم تكرر الأمـر فـي عهـد (سـليمان القانوني) [٣] . ويلاحظ أن العملات في بعض الفترات تكون أصغر من حيث الـسمك والوزن ، وفي أحيان أخرى يكون الفرق في قطر العملة .

وقد وضع (إسماعيل غالب) في كتابه (تقويم المسكوكات) وصفاً دقيقاً لهـذه العملات . وذلك من حيث الوزن ، والقطر .

---

(1) قيس العزاوي : الدولة العثمانية ، ص٣٤ .

(2) نادية مصطفى : العلاقات الدولية ، ص١٠٦ ؛ عمر ناقيتشقيتش : رسالة إصلاح ، ص٢٣٦ .

(3) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٦٦٧ ؛
Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s . 19 , 21 .

ففي عهد (محمد الثالث) تناقصت قيمة العملة الذهبية لتصل إلى (١٨٠) أقجة في مقابل العملة الذهبية . أما في عهد (أحمد الأول) فقد شـاعت الفوضـى بـسبب تأسيس العديد من دور الضرب في مختلف أنحاء الدولة ، حيث شاع الغش والنقص في عيار العملة .

أما في عهد (عثمان الثاني) فقد سكت عملة رديئة ، وقد وصفت بأنها أخـف من الورق ، ولعدم تقبل الناس لها فقد اضطرت الدولة لسك عملة ذهبية تساوي الواحدة منها (١٢٠) أقجة وعرفت باسم عملة (بكير آغا أفندي) وهو الدفتردار المسئول عن سكها ، ونظراً للضائقة المالية فإن العملات الجديدة لم تكن كافية ، ولذلك سمح بتداول العملات القديمة ، ونظراً لكثرة النفقات في عهد (مـصطفى الأول) فقـد أصـبحت الخزينة خاوية ولم يستطع (مراد الرابع) دفع منحة جلوسه للجند إلا بعد أن أحـضر آلة سك العملة إلى القصر ، وذلك لاستخدام نفائس القصر كمصدر لمعـدني الـذهب والفضة ، وقد وصل سعر العملة الذهبية في عهده إلى (٢٥٠) أقجة [1] .

ولقد حاول السلطان (إبراهيم الأول) محاولة للإصلاح الاقتصادي خاصة مـع ظهور مشكلة نقص الغذاء الذي تزامن مع فتح جزيرة (كريت) فأصدر أمراً بضرب عملة جديدة مضبوطة العيار وذلك بعد أن أمر بإلغـاء كـل العمـلات الموجـودة ، وأصبحت قيمة العملة الذهبية الجديدة (١٦٠) أقجة بعد أن كانت تساوي (٢٥٠) أقجة ، هذا بالإضافة إلى تسوية ميزانيـة الدولة بالتنسيـق مع الـوزير (كمـا نكـش قـره مصطفى) . كما أصدر قراراً إلى قاضي اسطنبول يخبره فيه بأنه لـن يتهـاون فـي معاقبة كل من يتلاعب بقوت الشعب . والجدير بالذكر أن هذا السلطان يعتبر أول مـن تصدى لمشكلة انخفاض العملة [٢] ، وانخفاض الميزانية [٣] . لإيجاد مخرج من الأزمة المالية ، ولذلك اعتبر المؤرخون عام (١٠٥٣هـ/١٦٤٣م) وهو العام الموافـق لهـذه الإصلاحات ذا أهمية كبيرة . وذلك لنجاح (كما نكش قره مصطفى) فـي الحـصول

---

(1) إسماعيل غالب : تقويم مسكوكات عثمانية ، قسطنطينية ، ١٣٠٧هـ ، ص ص١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٩٨ ؛
Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s . 27 , 29 .

(2) وهذا الأمر يؤكد عدم صحة ما يقال عن جنون هذا السلطان .

(3) Omer Faruk : Belgerle , cild .2 , s.341 .

على واردات أعلى للدولة [١] . غير أن مشكلة انخفاض قيمة العملة قد عادت مع خلـع هذا السلطان .

أما المحاولة الثانية لتحسين الوضع المالي فقد كانت في الربع الأخير من القرن (١١هـ/١٧م) فقد أعد الوزير (قره مصطفى كوبريللي باشـا) خطـة تقـوم علـى تخفيض عدد الجنود الانكشارية والخيالة بدلاً من تخفيض قيمة النقد ، وذلـك بهـدف التقليل من نفقاتهم التي تمثل عبئاً كبيراً على خزينة الدولة ، كما كان يهدف مـن وراء هذا الإجراء رفع أجور هؤلاء الجنود ، وبالتالي رفع كفاءاتهم ، كما فكر فـي تنظـيم الضرائب في الإيالات ، وسك عملة جديدة مضبوطة العيار بدلاً من العملـة ناقـصة العيار . وذلك لتحسين الظروف المعيشية للأهالي [٢] .

وإذا كانت هذه الإجراءات قد أسهمت في إصلاح الوضع الاقتصادي ، وبالتالي خروج حملة عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) لحصار فيينا ، فإن فشل هذا الحصار قـد أدى إلى حدوث الأزمة المالية مرة أخرى [٣] . ولتغطية نفقات مواجهـة الحلـف المقـدس عمدت الدولة إلى عدة أمور ، وعلى رأسها ، سك عملة جديدة نحاسية تسمى (المانفير) لتحل محل (الإسبره) التي كانت قد فقدت قيمتها بالكامل تقريباً [٤] ، كما عملت الدولة على أن تكون نصف واردات الجزية ، وأوقاف الرومللي والأناضـول ، مخصـصة لخزينة الدولة ، فاستطاعت بذلك أن تجمع ما يقرب من أربعين ألف كيس من النقود . وعلى الرغم من ذلك فإن الأموال المحصلة لم تفِ لـسد احتيـاج الخزينـة والعجـز الموجود بها [٥] حتى أن الدولة كانت تعمد في بعـض الفتـرات إلـى إذابـة الأدوات والمشغولات الذهبية الموجودة في القصر السلطاني لسكها عملات ذهبيـة وفـضية ، وذلك إما لدفع منحة جلوس السلطان – كما حدث في عهد (سليمان الثاني) – أو دفع المستحقات ومعاشات الضباط المتأخرة .

---

(1) إسماعيل غالب : تقويم مسكوكات ، ص٢٠٠ ؛
Ziya Kara Mursal : Osmanli Mali , s.31 .

(2) Hakki yildiz ; Dugustun , cild .1 , s.493 .

(3) Ahmet Tabak Oglu : gerilem Domeine , s.238 .

(4) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٣٧٥ ، ٣٧٦ .

(5) Ahmet Tabak ogolu : gerilem , s.278 .

ولقد أدى العجز الذي منيت به خزينة الدولة إلى استخدام معدن النحاس في سك العملة بدلاً عن الذهب والفضة وخاصة فـي الـسنوات مـن (١٠٩٥هـ ـ/١٦٨٣م – ١١١١هـ/١٦٩٩م) . وتخللت هذه الفترة عدة سنوات عادت فيها الدولـة إلـى سـك عملات من الذهب والفضة وذلك لأن العملات النحاسية منخفضة القيمة مما يعنـي أن هناك حالة من عدم الاستقرار الاقتصادي . فقد كان هناك فرق بين سعر البيع وسـعر الشراء ، فعلى سبيل المثال ، كان القرش يساوي عند البيع (١٢٠) أقجة ذهبية ، فـي حين كان يساوي عند الشراء (١٦٠) أقجة ذهبية ، أما الأقجة الفضية فقد تدنت قيمتهـا تدريجياً ، في هذه الفترة من (١٠٩٧هـ -١١١١هـ/١٦٨٥م-١٦٩٩م) حيـث فقـدت ٤٥,٩% من قيمتها [١] . أما نتائج هذا الاختلال فقد كان على أصعدة مختلفة . فعلـى الصعيد الداخلي كانت الدولة مضطرة لسداد رواتب الجند بالعملة الناقصة العيار وكان ذلك سبباً في تأزم العلاقة بين الإنكشارية والتجار ، وقيام الإنكشارية بحركات التمـرد التي لا تنتهي [٢] ، هذا بالإضافة إلى ارتفاع أسعار السلع والمواد الغذائية إلى ما يقرب الضعفين ، حتى أن أهالي اسطنبول في عام (١١٠٣هـ/١٦٩١م) استنكروا هذا الوضع المتأزم بسبب استغلال بعض التجار للأزمة واحتكار السلع لرفع الأسعار مما استدعى تدخل الدولة لحل الموقف بتغيير قيمة الأقجـة [٣] . كما أن هذه العملات ذات القيمـة المنخفضة كانت باعثة على استياء شريحة عريضة من المجتمع العثماني ، فلم تستطع الدولة إقناع الجنود بقبولها مما زاد من سخطهم واضطرابا تهم ، أما بقية أفراد المجتمع فقد اقتصروا في استخدام العملة التي عرفت بالمنقور في عهد (سليمان الثاني) علـى المبيعات الرخيصة وذلك لتدني قيمتها وارتفاع نسبة معدن النحـاس فيهـا ، وارتفـاع الفرق بين سعرها (كعملة نحاسية) وبين القيمة المعدنية التي يشتمل عليها فاضطرت الدولة لسحبه من التداول ، والعودة إلى السكة الفضية من جديد [٤] . وقد أدى اسـتياء الناس من انخفاض قيمة العملة إلى تسميتها بمسميات تدل علـى ذلـك . ففـي عهـد

---

(1) Ahmet Tabak ogolu : gerilem , s. 284 , 285 .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٤٠٥ .

(3) Ahmet Tabak grilem , s.286 .

(4) خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ الأقطار ، ص١٢٠ .

السلطان محمد الرابع أطلق على العملات التي سكت من خليط من المعادن الرخيـصة اسم (جنجن أو الميخانة ، أو قيزل) أي الغجري ، و (الشراب) ، و(الأحمر) أي النحاسي [١] .

ومن ناحية أخرى فقد كان لاختلال قيمة النقد نتائج أخرى ذات تـأثيرات علـى العلاقات التجارية الخارجية ، فقد أدى تدفق المعادن من الدول الأجنبية إلـى تحـول الدولة العثمانية إلى سوق للعملات فأصبحت ضـرائب الإيـالات تـؤدي بالريـالات الأسبانية المعروفة بالقروش السوداء ، أو بالريـالات الأسـدية الهولنديـة المعروفـة بالقروش ذات الأسود . وبطبيعة الحال تعددت العملات المتداولة والمختلفـة القيمـة ، فإلى جانب العملات المذكورة سـكت العملـة المعروفـة (بالزولوطـه) فـي عـام (١٠٨١هـ/١٦٧٠م) وهي في الأساس العملة البولندية (الأسـدية) وتحتـوي علـى أربعين في المائة من النحاس . وكذلك سك (الثلاث) وهو قرش يمثل ثلث (الزولوطة) والجدير بالذكر أن تدفق العملات وتعددها في أراضي الدولة أدى إلى استغلال البعض لهذا الوضع والقيام بتزوير العملات أو تهريبها [٢] . والمتاجرة بها . ونتيجة لتزييـف العملات اختلت موازيين البيع والشراء في الداخل ، فيما استغلت الطوائـف اليهوديـة والنصرانية هذه الظروف للإتجار بالعملة ، حيث تأخذ الأموال الناقصة العيـار إلـى الدول الأوروبية . ثم تحضرها إلى الدولة العثمانية مرة أخرى ولكن بسعر أعلى مـن السعر السابق وكانت هذه العمليات سبباً في نزول الـضربات القاصـمة بقـوة البيـع والشراء في الدولة ، خاصة وأن التجار الأوروبيين كانوا يرفضون التعامل مـع هـذه العملات المخفضة ويطالبون إما بالدفع بعملة جيدة أو المقايضة [٣] .

إذن فقد حاولت الدولة العثمانية التصدي للأزمة المالية من خلال تغييـر قيمـة النقد ، غير أن النفقـات الداخلية ، ومرتبات الجنـد وتمويـل الحمـلات العـسكرية الخارجية ، والتعامل مع الدول الأوروبية المتآمرة ضد الدولة العثمانية ، كل ذلك جعل

---

(1) جيب ، وبوين :المجتمع الإسلامي ، ج٢ ، ص٦١ ؛ إسماعيل غالب : تقويم مسكوكات ، ص٢٢٣ .

(2) Ahmet tabak ogolu : gerilem , s. 282 , 283 .

(3) Hakki Dursun Yilldiz : Dugustan gunumuze , cild. 10 , s.493 .
؛ مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٣٦٤ ، ٣٦٥ .

من تغيير قيمة النقد أحد معوقات حركـة الفـتح بـصورة واضـحة فـي القـرن (١١هـ/١٧م) .

المبحث الثالث

التمرد الداخلي

يتبين لنا من العرض السابق أن الدولة العثمانية تعرضت مـع حلـول القـرن (١١هـ/١٧م) للعديد من الأزمات ، ومن الطبيعي أن تنعكس هذه الأزمات على الأمن والاستقرار الذي عرف به المجتمع العثماني ، فظهرت هذه الانعكاسات فـي حركـات عصيان وتمرد قامت به فئات مختلفة ، ووفقاً لتنوع العوامـل تنوعـت سـمات هـذه

الحركـات وكان لبعضها طابع معين ، في حين تداخلت أكثر من سمة فـي بعـضها الآخر ، وبالرغم من الحديث عن بعض التمردات التي قام بها الجند في الفصل الثـاني من هذه الرسالة ، إلا إنه لابد من العودة لهذه التمردات في هذا الجزء مـن البحـث ، وذلك لانضمام هؤلاء الجنود إلى الكثير من التمردات أو تزعمهم لها .

عند الاطلاع على أحداث التاريخ العثماني منذ منتصف القرن (١٠هـ ـ/١٦م) وحتى القرن (١١هـ ـ/١٧م) فإننا نلاحظ تكرر إطلاق مسمى الجلاليين علـى بعـض المتمردين ، حتى سميت هذه الفترة في بعض المصادر باسم (عصر الجلاليـين) [(١)] ولعل للظروف التي ظهر فيها هؤلاء المتمردون أثر على النتائج التـي نجمـت عـن تمرداتهم ، خاصة وأنها تتزامن مع خوض الدولة حرباً خارجية .

فعلى سبيل المثال حدث أن فرت إحدى فرق العلوفجية من أمام العدو في معركة (كرزت) [(٢)] في عام (١٠٠٥هـ ـ/١٥٩٦م) وعقاباً لهذه الفرقة أطلق علـى أفرادهـا مسمى (فراري) تحقيراً لهم وعبرة لغيرهم ، كما قامت الدولة بقطع مرتباتهم وهنـا ادعى أحد زعماء هذه الفرقة ويدعى (عبد الحليم قره يازجي) أن النبـي صـلى ا عليه وسلم جاءه في المنام ووعده بالنصر على (آل عثمان) وفتح ولايـات آسـيا . وبمثل هذه الأكاذيب استطاع أن يجذب السذج من الذين انضموا إليـه وشـقوا عـصا الطاعة . واستطاع التغلب على والي (القرمان) ، ودخـل (عينتـاب) عنـوة [(٣)] . وبسبب اتصال الحروب في الخارج ، لم تكن هناك فرصة لقمـع هذا التمـرد الـذي أطلق على أصحابه (الجلالية) ، فشنوا الغارات على الأناضول وعاثوا فيها فـساداً ، والأدهى من ذلك أنهم دفعوا الفلاحين إلى التمرد علـى التيمـاريين [(٤)] . واسـتمرت أحداث هذا التمرد حتى عام (١٠١٢هـ ـ/١٦٠٣م) ، حيث عانت منطقة الأناضول مـن الفوضـى وحركات السلب والنهب من قبل المتمردين حتى أطلق على الفترة ما بـين

---

(1) Mustafa Akdag : genel Cizgileriye XVII , Yuzuil Turkiye Tarihi , s.206 .

(2) معركة كرزت : اسم للسهل الذي حدثت فيه معركة إكري بقيادة السلطان (محمد الثالث) وقد تـم التطـرق إليها في الفصل الأول من هذه الرسالة .

(3) محمد فريد بك : تاريخ الدولة ، ص٢٦٨ .

(4) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٥٠ .

(١٠١٢هـ/١٦٠٣م وحتى ١٠١٧هـ/١٦٠٨م) مسمى (الهروب الكبير) وذلك لأن مجموعة كبيرة من الشعب وخاصة المقيمين في القرى المفتوحة حديثاً كانت مخيرة بين الانضمام إلى المتمردين أو بين الرحيل عن قراهم نتيجة لانعدام الأمن . ومن ناحية أخرى وجدت الدولة نفسها في مواجهة تمرد آخر ناتج عن تمرد الفلاحين ، وهو أشد خطراً منه لأنه وقع في العاصمة العثمانية نفسها . فالتمرد الذي قام به (قره يازيجي) قد تسبب في الإضرار بالتيماريين في الأناضول ، فطالبوا الدولة بتعويضات عما خسروه ولما لم تتمكن الدولة من تعويضهم نظراً لما سببه التمرد السابق من نقص في دخلها . ثار السباهية أصحاب التميارات وطالبوا بنهب ما في المساجد من تحف ذهبية وفضية ، ولم تجد الدولة سوى الإنكشارية للاستعانة بهم في القضاء على المتمردين [1] .

ومما سبق نستنتج أن التمرد السابق حمل أكثر من سمة ، كما تسبب في أزمة عسكرية وأعباء اقتصادية في آنٍ واحد .

وكذلك شهد النصف الأول من القرن (١١هـ/١٧م) تمرداً كان بقيادة والي أنقره (قلندر أوغلي) وذلك في عهد السلطان (أحمد الأول) وانضم إليه الكثير من الجلاليين وتعاون معهم بعض من (البكاربكيين) وكذلك بعض (أمراء الألوية) أو (السنجق بكي) ، فاختل الأمن في الأناضول وتدهور الوضع الاقتصادي المتميز الذي ساد في القرن (١٠هـ/١٦م) ، فأرسلت الدولة الوزير (قويوجو مراد باشا) وذلك في عام (١٠١٦هـ/١٦٠٧م) ، فقتل الكثير من الجلاليين حتى إذا وصل إلى (حلب) أخمد هذا التمرد في عام (١٠١٧هـ/١٦٠٨م) ، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يتم القضاء على الجلاليين بشكل نهائي ، وذلك لأنهم كانوا يمثلون قسماً من شعب الأناضول [2] . ولذلك استمر ظهورهم بين الفترة والأخرى حتى النصف الثاني من القرن نفسه . فظهر منهم الثائر (حسين أباظة باشا) في وسط الأناضول متزعماً الجلالية وذلك في عام (١٠٦٨هـ/١٦٥٧م) وهو من أبناء السباهي ، وانضم إليه عدد

---

(1) بسام العسلي : فن الحرب ، ج٥ ، ص١٦٦ .

(2) يلمازأوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٤٥١ ، ٤٥٢ .

من الباشوات المعزولين وجماعة من عساكر السباهي الذين فروا من عقوبات أصدرها (محمد باشا كوبريللي) في حقهم . وقد طالب هؤلاء المتمردين بعزل هذا الوزير وتوجيه الصدارة إلى (طيار زاده أحمد باشا) وهو من حزبهم ، والجدير بالذكر أن أعداد هؤلاء المتمردين كانت في تزايد ، في حين كانت الدولة تحارب البنادقة في جزيرة (كريت) أما (محمد باشا كوبريلي) فقد كان يخضع ثورة (ترانسلفانيا Transilvanya) ، ومما صعب الموقف أن (كنعان باشا) والي (بروسة) الذي أرسله (محمد الرابع) لإخضاع هؤلاء المتمردين انضم إليهم . غير أن الدولة لجأت إلى حلٍ سلمي ، فقام شيخ الإسلام (بروسه لي أسيري محمد أفندي) بإصدار فتاوى ينصح فيها الثوار بالتراجع عن ثورتهم . وكان لذلك أثر جيد حيث عاد الكثير منهم إلى جيش الدولة مما أضعف موقف (حسين أباظه باشا) وأدى إلى استسلامه في حلب حيث قتل مع مجموعة من رؤسائها عام (١٠٦٩هـ/١٦٥٨م) [1] .

ومن الملاحظ في هذه الثورة التعاون بين الجلاليين والسباهية ، كما أن مثل هذه التمردات كادت أن تتسبب في مشكلة أخرى ، فهي تحول دون قيام موظفي الدولة بجباية الضرائب . بل إنها كانت تحول دون مرور ولاة الأناضول إلى مقر ولاياتهم إلا بحراسة مشددة [2] .

أما التمردات ذات الطابع العسكري . فهي من أكثر التمردات التي حدثت في تاريخ الدولة بشكل عام وفي القرن (١١هـ/١٧م) بشكل خاص .

وعادة ما تكون هذه التمردات إما بسبب تخفيض قيمة العملة وما يترتب عليه من مشكلات ، أو بسبب تأخير مرتبات الجند وخاصة (الإنكشارية) وكانت أولى الثورات التي قام بها الجند في التاريخ العثماني ، في عام (٨٤٦هـ/١٤٤٢م) ، فبسبب الأزمات والمصاعب المالية التي تمر بها الدولة يحصل الإنكشارية على مرتبات غير مجزية أو أنهم لا يحصلون على أية مرتبات ، ويؤدي ذلك إلى ثورتهم وتسببهم في

(1) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٧٠ .
(2) خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ ، ص٧٣ .

أحداث عنيفة [1] . أو أنهم كما أشرنا سابقاً يعمدون إلى خلع السلاطين وتغيير الوزراء للحصول على الإكراميات . ويمكن اتخاذ ثورة السباهية في عهـد (الـسلطان مـراد الرابع) مثالاً على ثورة الجند من أجل المال ، فقد اعتاد السباهية على مطالبة الأغنياء بالمال فلا يسعهم المخالفة ، وكل من خالف هجموا على بيتـه واسـتباحوا حريمـه . وكانوا يرسلون الشمع السكندري إلى الأغنياء والوزراء مطـالبين إيـاهم بـالأموال ، ولكنهم تجرأوا وأرسلوا الشمع إلى السلطان ذاته . فسايرهم ووزع علـيهم الأمـوال ، غير أنهم طالبوه بولايات في (الروملـي) و (الأناضـولي) فأجـابهم الـسلطان واستدعى كبارهم – ويصفهم البكري بأنهم شرارهم – فظنوا أنه سيلبي مطالبهم غيـر أنه أمر بإغلاق السراي فور وصولهم وأعمل فيهم السيف وكانوا أربعمائـة شـخص وأمر بإلقائهم في البحر أما أتباعهم وهم عشرون ألفاً فقد هربوا إلى الأناضول معلنـين استمرارهم على العصيان حتى أرسل إليهم عسكراً من الإنكشارية للقضاء عليهم [2] .

ومن الملاحظ محاولة السلطان تجاوز التعامل بعنف مع هؤلاء الجند غير أنـه اضطر للجوء إلى العنف لإخماد عصيانهم . في حين كان الجنـد يـستغلون الفرصـة ويعيثون فساداً عندما يستدعيهم السلطان للنظر في مشكلاتهم . وهو ما تكرر من قبـل الإنكشارية والسباهية في عام (١٠٤١هـ/١٦٣١م) فقاموا بقطع الطرق علـى سـكان العاصمة العثمانية وسلبوا مال الأمة وقتلوا الكثيرين وذلك لإجبار السلطان على قبـول مطالبهم [3] .

أما في النصف الثـاني مـن القـرن (١١هـ/١٧م) وخاصـة بعـد عـام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) فقد أثرت الهزائم التي مني بها الجيش العثمـاني أمـام الحلـف المقدس على معنويات الجند في العاصمة ، فتمردوا على الدولة وامتدت تمرداتهم إلـى الجنود المحاربين في الجبهـة تحت قيادة (سليمان باشا) الصدر الأعظم فـي ذلـك الوقت ، وقد أسهم حرمان هؤلاء الجند من رواتبهم ونقص المؤن لديهم في إصـرارهم

---

(1) خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ ، ص١٠٧ ؛ مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٦٣ .

(2) البكري : نصرة أهل ، ص ص٢١٣ ، ٢١٤ .

(3) Shaw : History of The ottman , cild .1 , p.171 .

على التمرد [١] ، ومطالبتهم بقتل هذا الوزير . ورغم تنفيذ السلطان (محمد الرابـع) لهذا المطلب ، استمرت الفتنة التي امتدت للمطالبة بعزل السلطان لاتهامه بالتقـصير ، وبالفعل فقد كان السلطان (محمد الرابع) محباً للصيد مشتغلاً به ، ويقضي معظم وقته في غابات أدرنة ، ولذلك لقـب بالصياد واجتمـع العلماء وقرروا خلعـه وتولية أخيه (سليمان الثاني) [٢] ، ورغم قيام هذا الأخير بصرف الهبات على الإنكشارية متجاوزاً عنهم ، إلا أن هذا الإجراء لم يسكن من ثائرتهم بل إنهم توجهوا إلى قـصر الـصدر الأعظم (سياووس باشا) وقتلوه واستباحوا حريمه [٣] ، ولما حاول (فاضل مصطفى كوبريللي باشا) القائم مقام إخماد هذا التمرد عمل الثوار على التخلص منه وسعوا في تعيينه محافظاً على (الدردنيل) ، وكذلك سعوا في نفي شيخ الإسـلام (دبـاغ زاده محمد أفندي) . واستمرت الفوضى في العاصمة العثمانية حتى أن سـكانها تـصدوا بأنفسهم لهؤلاء المتمردين ، ولكنهم عندما تيقنوا من أن الأمور أصـبحت فـي أيـدي هؤلاء المتمردين ، اتجهوا إلى السراي ، وانضم إليهم أصـحاب الحـرف والتجـار ، وطالبوا السلطان بإخراج الراية الشريفة لقتال هؤلاء الطغاة ، وقام الـسلطان بـإخراج الراية الشريفة ، وأعلن أن كل من يتخاف عن قتالهم سيعد من زمرة الكفـار ، وكـان لهذا التصرف أثره المباشر حيث رأى الثوار أن اسطنبول كلها تقف ضـدهم فهـرب بعضهم إلى الجبال ليعيش مع قطاع الطرق ، ومنهم من قتل وظل التمرد في الولايات الأخرى دون القضاء عليه [٤] .

وغني عن القول إن مثل هذه التمردات كانت سبباً في ضياع كثيرٍ من القـلاع لصالح النمسا والبندقية .

---

(1) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٣٧٥ .

(2) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢٢٦ .

(3) للمزيد من المعلومات حول ما ارتكبه الإنكشارية في قصر (سياووس باشا) انظر : محمد جميـل بـيهم : فلسفة ، ج٢ ، ص١٣٥ .

(4) Hakki Dursun yildiz : Dugustan gunumz , cild .11 , s. 80 , 81 . ؛ إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٨٤ ؛ مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٣٧٥ ، ٣٧٦ .

وكذلك كانت هناك تمردات لها علاقة بالعاملين الديني والسياسي ومن الملاحـظ أن مثل هذه التمردات تهدف إلى الخروج والانفصال السياسي عن الدولـة العثمانيـة وذلك من خلال استغلال العامل الديني ، ومثل هذه الحركات قام بها ولاة متمردون في الشام وولاة متمردون في مناطق الحكم الأول مركزية في أوروبا .

أما بلاد الشام ، فنتيجة للعداء بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية النـصرانية قام أعداء الدولة منهم بحبك المؤامرات ضد الإسلام ، ودفعوا بعضاً من طلاب الزعامة وشجعوهم على العصيان ، وقد أراد هؤلاء الصليبيين أن لا تهدأ حركات العصيان في لبنان ، وذلك نظراً لطبيعتها الجبلية ، ولتجمع عدد من النصارى فيها ، وهكذا تعاطف الغرب روحياً مع هؤلاء النصارى حتى تمكن من إيجاد موطئ قدم لنفـوذه فمنـذ أن تولى (فخر الدين المعني الثاني) على لبنان ركز على تحقيق غاية أساسية وهي شـن حملة صليبية ضد الدولة العثمانية بمساعدة الغرب (١) . فاتصل بدوق توسكانا وأنـشأ الحصون القوية ، وقوى جيشه بمساعدتهم ، غير أن الدولة أجلت محاربته حتى تتمكن منه ، فاستغـل هذه الفرصة واحتل بعلبك ، وهاجم دمشق ، فأرسـلت الدولـة إليـه أسطولاً ، ولكنه هرب في عام (١٠٢٢هـ/١٦١٣م) إلى توسكانا وحرض أميرها على القيام بحملة ضد الدولة العثمانية ، وخلال فترة غياب (فخر الـدين الثـاني) والتـي استمرت لخمس سنوات قام ابنه (علي) بمد نفوذه على الـساحل الـسوري بأجمعـه وطرد جيوش الدولـة العثمانيـة مـن أنطاكيـة ولـم تنـل الدولـة منـه إلا عـام (١٠٤٤هـ/١٦٣٤م) حيث جهزت أسطولاً بحرياً ، وجيشاً برياً تمكن من قتل (علـي بن فخر الدين) الأمر الذي أدى إلى استسلام (فخر الدين) فاقتيد إلى (اسـطنبول) حيث قتل هناك عام (١٠٤٥هـ/١٦٣٥م) (٢) .

ويظهر أثر العاملين الديني والسياسي في تمرد (فخر الدين المعني) ، كما أن هذا التمرد أثر على وضع الإيالات وأدى إلى قلب نظامها رأساً على عقـب ، وذلـك بسبب تأثيره على الوضع الأمني .

---

(1) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها ، ص ص١٠٤ ، ١٠٥ .

(2) علي سلطان : تاريخ الدولة ، ص٢١١ .

وهناك بعض من التمردات التي قام بها ولاة شعروا بأن الظلم قد وقـع علـيهم ولعل أشهرهم هؤلاء الولاة (قاطرجي أوغلي) الذي ثار في الأناضول ، وذلـك فـي عهد السلطان (محمد الرابع) وكذلك انضم إليه (جورجي عبدا لنبي) وهو من خيالة (القابي قولي) وكان قد اشترى سنجق (صفد) (1) من الصدر الأعظم (أحمد باشا)، ولما جاس (محمد الرابع) على العرش طالب بتحصيل الثمن من (جورجي) فامتنع الأخير عن أدائه . واسترد السلطان السنجق . ونتيجة لذلك ثار وانضم إليه كثيراً مـن الخيالة ، وقد قام هذا المتمرد بمظالم كثيرة تجاه الشعب وسار فـي الأناضـول حتـى اقترب من (اسكدار) ، ورغم هزيمته من قبل جيوش الدولة . إلا أنـه اسـتمر فـي عصيانه بعد انسحابه إلى (مورنو) . ولم تتمكن الدولة من القبض عليه إلا في عـام (١٠٥٩هـ/١٦٤٩م) حيث أعدم في (يارماق) (٢) .

والجدير بالذكر أن هذه الثورات تزامنت مع تراجع الأسطول العثمـاني أمـام أسطول البنادقة أثناء فتح جزيرة (كريت) وهي من أهم أسباب هذا التراجع .

ويذكر أن للدولة الصفوية في إيران يداً في إشعال عدة ثورات في هذه الفترة .

أما تمرد (أباظة محمد باشا) فلم يكن ضد الدولة كالتمردات السابقة ، ولكنهـا كانت ضد الإنكشارية والفساد الذي استشرى فيهم . و (أباظة محمد باشا) عرف بأنه رجل عسكري صارم ، وممن لاحظوا فساد الإنكشارية . وقد وجد في قيـامهم بقتـل السلطان (عثمان الثاني) فرصة لتأديب هذه الفرقة (٣) ، وإصلاحها . كما وجد هـذا الثائر دعماً من السكان المحليين الساخطين على ظروف حياتهم الصعبة ، وكذلك وجد دعماً من خصوم الإنكشارية (٤) . فاستطاع السيطرة على الأناضول بأكمله ، حتـى أن القسم الأكبر من هذه المنطقة أصبح يتلقى أوامره من (أباظة محمد باشا) وليس مـن

---

(1) صفد : مدينة في فلسطين في ولاية صيدا ، لواء عكا ، تقوم على قمة جبلٍ عـالٍ . موسـتراس : المعجـم الجغرافي ، ص٣٢٨ .

(2) Omer Faruk Yilmaz : Blgelerle Osmanli , cild .2 , s.348 , 349 .

(3) محمد حرب : البوسنة والهرسك ، ص٤٨ .

(4) مانتران : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٣٥٢ ، ٣٥٣ .

الديوان الهمايوني . خاصة وأن له مؤيدين كثيرين في العاصمة . فقام بالتخلص مـن الكثيرين ممن قابله من السباهية والإنكشارية [1] . غير أن الصدر الأعظـم (خـسرو باشا) استطاع أن يجبره على الاستسلام بعد أن دامت ثورته ست سنوات . وأحـضر إلى اسطنبول . وهناك وبخه السلطان (مراد الرابع) بشكل صوري ثم أرسـله إلـى البوسنة برتبة (بكاربكي) [2] . حيث استفادت الدولة من كفاءته العـسكرية العاليـة خاصة في حروبها مع بولونيا [3] .

ويمكن القول أن ثورة (أباظة محمد باشا) كانت في صالح الدولـة إذ عملـت على تخليص الدولة من بعض عناصر الفساد فيها . ولهذا لم يعاقبه السلطان (مـراد الرابع) بقسوة أو عنف .

وإذا كانت التمردات سابقة الذكر تعتبر تمردات داخلية ، فإن التمـردات التـي سيتم ذكرها تدخل ضمن هذه التمردات ، باعتبار أنها حدثت ضمن السيطرة الـسياسية للدولة .

فقد أوجدت الفتوحات العثمانية في القرنين (٩هـ ـ/١٥م-١٠هـ ـ/١٦م) فـي أطراف أوروبا – سواء في شرقها ، أم في منطقة البحر الأسود – سلسلة من الـدول التابعة ، مثل (ترانسلفانيا ، ومولدافيا ، وولاشيا ، وخانات القرم حول البحر الأسود ، وبحر آزوف) وهذه الدول التابعة رغم قيام العثمانيين بفتحها إلا أن علاقاتها بهم كانت متمثلة في دفع الضرائب والإمداد بالجيوش ، ونتيجة للمشكلات الداخلية التي واجههـا العثمانيون خلال النصف الأول من القرن (١١هـ ـ/١٧م) قامـت سلـسلة محـاولات تزعمها جماعـة من المغامرين العسكريين لتأسيس نظام حكـم اسـتقلالية فـي هـذه

---

(1) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة ، ص١٤٣ .

(2) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٤٦٩ .

(3) Shaw : History of The ottman , cild .1 , p.269 . ؛ البكري : نصرة أهل الإيمان ، ص٢٠٩ ؛ علي سلطان : تـاريخ الدولـة ، ص٢١٢ ؛ بجـوي : بجـوي تاريخـي ، ج٢ ، ص ص ٦٥٩ ، ٦٧٣ ، ٣٧٤ .

المناطق . حيث حاولوا الاستقلال عن الحكم العثماني وتمردوا في الوقت نفسه على الهابسبرج في مناطق النفوذ الهابسبرجي في المجر [١] .

وتعزو بعض المصادر أسباب تمرد هذه المناطق إلى تدهور نظام الحكم للولايات التابعة لها ، ووضع الأقليات الدينية والقومية في الدولة . فعلى سبيل المثال ، كانت بولونيا كاثوليكية المذهب ، ومن المعروف أن علاقة الدولة العثمانية لم تكن حسنة مع العالم الكاثوليكي . أما الولايات الأرثوذكسية فقد كانت مرتبطة ببطريرك (فنر Fener) في اسطنبول . وكان السلطان العثماني يعتبر نفسه حامياً وحاكماً للأرثوذكس والبطريرك العالمي . وأدى ذلك إلى أن تقوم السياسة العثمانية على حماية الأرثوذكس من التسلط الكاثوليكي [٢] . ولدى التمعن في أحداث التمردات يتضح أن التسامح الديني لم يكن السبب الرئيسي في هذه التمردات ، بل إن يد التدخل الخارجي هي التي تلاعبت بمبدأ اختلاف الأديان لتثير المشاكل على الدوام [٣] .

ومن خلال هذا العرض الموجز لأهم حركات التمرد التي حدثت في الدولة العثمانية خلال القرن (١١هـ/١٧م) ، يتضح أنها كانت لأسباب متنوعة ومتداخلة . فعندما تخلت الدولة وتقاعست عن الفتح والجهاد تراخت قبضتها القوية عن التحكم في أمور الجند الذين أصبحوا يبحثون عن أي متمرد للانضمام إليه . خاصة وأن الأزمة المالية التي مرت بها الدولة قد أثرت على أعطياتهم ومرتباتهم . كما أن تزامن هذه التمردات مع أحداث عسكرية خارجية كان لها أثرها السيئ على الوضع العسكري للعثمانيين في الخارج ، حيث تتوزع جهود الدولة ومواردها في الحروب الخارجية ، وإخماد التمردات الداخلية .

---

(1) كولز : العثمانيون ، ص١٨٣ .

سبقت الإشارة إلى هذه التمردات في الفصل الأول من هذه الرسالة وذلك في عرض أحداث الحروب العثمانية النمساوية .

(2) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص٥١٩ .

(3) نادية مصطفى : العلاقات ، ص٩٧ .

ويأتي الفساد الإداري كأحد الأسباب المهمة التي أدت إلى خروج الـولاة عـن طاعة الدولة .

ويتضح ذلك في ثورة (قاطرجي أوغلي) و (جورجي عبد النبي) .

وهناك عامل آخر لا يقل أهمية عن العوامل السابقة وهو أن الدولة تخلت عـن إحدى القواعد التي كانت تتبعها لحفظ استقرار وأمن المجتمع . وهي القيام بالتفتيش في الأناضول عن الأسلحة ، وعن الأشخاص الذين تسميهم (بالأشقياء) . والبحث عن كل من له علاقة بحركات العصيان من ضباط ، وجنود وأمـراء وولاة ، والبحـث فـي السجلات العسكرية عن المنضمين إليها عن طريق الرشوة . وذلك لأن تسليح الأهالي يعد الأساس الأول الذي تقوم عليه أي ثورة [١] .

أما عن مواجهة الدولة لهذه الحركات فقد تعددت أساليبها وتنوعت وفقاً للظروف والمواقف . فلم يكن العنف والشدة هما الأسلوبين الوحيدين اللذين اتبعتهما في التعامـل مع هذه التمردات . خاصة تلك التي تزعمها العصاة من البكوات والباشوات الأقويـاء والتي يمكن أن تتحول إلى عصيان يهدد سلطة الدولة ، بـل اتبعـت سياسـة اللـين والمصانعة فمنحت بعضهم مناصب إمارة السناجق وإمارة الأمـراء (بكاربكيـة) ، واستمالتهم لخدمة الدولة . أما حركات التمرد التي ظهرت في سوريا ولبنان مثل حركة (فخر الدين المعني الثاني ، وجانبولاد) والتي كانت تستهدف الاستقلال بالحكم ، لقـد كان القضاء على مثل هذه الحركات المنظمة أمراً هيناً مقارنة بالقضاء على الحركـات التي تقوم بها الجماعات غير النظامية ، والتي لا يعلم أحد متى وكيف سيكون اشـتعال فتيلها في الأناضول [٢] ، مثل تمردات (الجلالية) .

ورغم قيام الدولة بقمع هذه الحركات والقضاء عليها . بأي شكل كان إلا أنهـا تسببت في حدوث عجز مالي للدولة ، وإهدار دماء الآلاف من الـشباب بـلا فائـدة ،

---

(1) Hakki Dursun : Dugustan gunumz , cild .7 , s.54 .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٥٠ .

خاصة وأن هناك من يستغلها في القيام بالإعدامات والعزل والمصادرات ، مما يزيد في ضعف الدولة .

وبناء على ما سبق ذكره من المشكلات التي تعرضت لها الدولة في ق(١١هـ/١٧م) يمكننا التوصل إلى نتيجة مهمة ، ذات علاقة بالتوزيع السكاني للدولة ، حيث أدى اختلال نظام التيمار إلى تعطل الزراعة وفقر الفلاحين وإذا أضيف إلى ذلك انعدام الأمن الناتج عن التمردات أياً كان طابعها ، فإنه من الطبيعي أن يختل توزيع السكان في الإيالات .

فعلى أثر الحروب العثمانية الإيرانية في عام (٩٨٦هـ/١٥٧٨م) ، ثم الحرب العثمانية النمساوية (١٠٠٢هـ/١٥٩٣م-١٠١٥هـ/١٦٠٦م) تحركت أعداد كثيرة من الفلاحين تاركين أراضيهم وأخذوا يطوفون البلاد عاطلين ، واستخدمت الدولة أعداد كبيرة منهم في هذه الحروب . ولكن بعد انتهاء الحرب عاد هؤلاء عاطلين مرة أخرى فتفرقت جموعهم داخل الأناضول وشرعوا يمارسون أعمال الشقاوة وقطع الطرق . وقد تركت هذه التطورات السلبية أثرها على نظم الإيالة العثمانية وأفسدت تركيبها [1] .

أما الثورات والتمردات فقد كان لها دور واضح في هجرة الفلاحين من القرى إلى المدن وخاصة منذ أواخر ق(١٠هـ/١٦م) وخلال ق(١١هـ/١٧م) . وكان هؤلاء الفلاحين مستعدين للانضمام إلى العصاة إلى جانب العديد من اللوندية ، والصاريجة والسكبان المتذمرين ، الذين قلبوا الإيالات رأساً على عقب ، وكذلك كان هؤلاء الفلاحين مضطرين للانضمام إلى الثائرين والعصاة وقطاع الطرق لضمان عيشهم ، وكان الأناضول المقصد الأول لهم . ولذلك تحول الأناضول في الفترة ما بين (١٠٠٤هـ/١٦٩٥م) و (١٠١٩هـ/١٦١٠م) إلى ما يشبه الحريق حيث خلت القرى من سكانها وعاشت البلاد ما وصف بأنه (الفرار الكبير) حيث كانت الأعمال التي تقوم بها الجموع العاطلة الهائمة على وجهها ذات طابع تخريبي واسع النطاق .

---

(1) المرجع نفسه ، ج١ ، ص٢٤٧ .

ولم تكن هذه الفوضى قاصرة على الأناضول ، بل تكرر الأمر فـي الروملـي والبلقان وكان الارتفاع الملحوظ في عدد قطاع الطرق واللصوص في البلقان في هـذه الفترة خير دليل [١] .

أما النصـف الثاني من ق(١١هـ/١٧م) فقد شهد حروباً طويلة عرفت بحروب " العصبة المقدسة ضد الدولة العثمانية " أثر فشلها في حصار فيينا . ولما كانت الدولة قد فقدت أجزاء من أراضيها ، فقد أدى ذلك إلـى ضعضعة الـروح المعنويـة لـدى العثمانيين ، وبالتالي تدفق الآلاف من المهاجرين من المجر وترانسلفانيا وغيرهما على ما تبقى من أراضي الدولة [٢] . حيث أخلى أهالي (بودين) المدينة بينما أسر الآلاف ممن رفضوا الهجرة . أما في (قاومباز) القريبة من بلغراد فقد نصرت ثلاثمائة امرأة مسلمة وتم تزويجهن من الألمان ، أما في استولني بلغراد ، فقد ذبح الـشعب المـسلم الموجود بها ، وتم الأمر نفسه في قلعة (بلغراد) أما من سلم من القتل من المـسلمين فقد أرسلوا إلى المركز عن طريق نهر الطونة ، وقتل من رفض الجلاء مع الحاميـة العثمانية [٣] ، كما أدى القصف العنيف والمتواصل إلى تدمير الجيش النمساوي للمدينة ، ويمكن القول أن انتقام النمساويين انصب على المسلمين واليهود أيضاً ، حيث لقـي اليهود لأول مرة اضطهاداً عنيفاً منذ قرنين من الحياة الهادئة في ظل الحكم الإسـلامي العثماني ، أما المسلمون الأسرى فقد كلفوا بتطهير المدينة من جثث القتلى ، وتعرضوا بعد ذلك للنفي إلى المدن الألمانية وخاصة إلى (نيكولاس بورغ) أما أهالي (نيش) و (ايدين) فلم يصل منهم إلى الأناضول وإلى اسطنبول إلا الثلث فقط [٤] .

وهكذا كانت هذه الأوضاع دافعاً ملحاً لهجرة الآلاف إلى الأناضول ومما يزيـد الأوضاع سوءاً كثرة اللصوص وقطاع الطرق ، مما أثقل كاهل السكان ، ويضاف إلى

---

(1) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٤٩ ؛ أحمد عبد الـرحيم مـصطفى : فـي أصـول ، ص ص١٥٠ ، ١٥١ ؛ كوانز : العثمانيون ، ص٨٠ .

(2) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول ، ص١٥٧ .

(3) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج١ ، ص ص٥٤٩ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ .

(4) محمد موفاكو : تاريخ بلغراد ، ص٦٤ ؛
Hakki yildiz : Dugustan , cild .11 , p.87 .

ذلك تدهور الأحوال الاقتصادية نتيجة للحرب ، ونقص الغذاء وتفشي الأوبئة ويمكننـا اعتبار الضرائب دافعاً آخر لهجرة القرويين إلى المدن . وذلك لأن إعـلان الحـروب يعني القلق العام في المجتمع بسبب التكاليف الباهظة للحملات والتي تحملها الدولة على الأهالي ، وفرض جنود الإيالات ضرائب لحسابهم الخاص تحت مـسميات متعـددة . ونظراً لوقوع هؤلاء القرويين في فقرٍ مدقع ، فقد اضطروا لترك القرى ، وكان هـذا الفساد الذي ظهر في القرى نتيجة لتسلط الأغوات ، سبباً كافياً لاضطراب التنظيمـات التي ظلت الدولة تؤسس فيها لقرون طويلة ، فقد امتلأت المدارس والعمادات بالطلاب الذين وفدوا من القرى للتعليم ، وكانت أعدادهم أكثر مما تحتاج إليه الدولة ، ومن لـم يستطع هؤلاء الطلاب أن يجد مكاناً بعد تخرجه ، قام بأعمـال الـشغب ، أو انـضم للثائرين في مناطق متفرقة ، كما أن الذين لم يجدوا عملاً في المدن فقد تجمعـوا فـي الخانات التي تحولت فيما بعد إلى أماكن لنشر الأعمال غير الأخلاقية [1] .

ومن الإنصاف ذكر المحاولات التي قامت بها الدولة للتصدي لمشكلة الهجرة . ففي عهد السلطان (إبراهيم الأول) أمر هذا السلطان بتعداد سـكاني ، والنظـر فـي الضرائب والموازين لإصلاحها ، وفي عام (١٠٧٨هـ/١٦٧٥م) صدر قـانون يمنـع الاستيطان في اسطنبول وذلك للتخفيف من حدة الأزمة ، ولما هـاجر الـسكان مـن الروملي بعد عام (١٠٩٥هـ/١٦٨٣م) لجأت الدولة إلى إجراء من شأنه تثبيت هؤلاء السكان في مناطقهم ، فتم إلغاء ضرائب ثلاث سنوات عنهم ، وذلك اعتباراً من عـام (١١٠٠هـ/١٦٨٨م) . وفي العام التالي قام (فاضل مـصطفى كـوبريللي) بإعـادة توزيع التيمارات على جنود أكفاء وكلفهم بمواصلة التدريب ، وأعد مـدارس لتـدريب السباهية .

هذا ، فضلاً عن إجراءاته لإصلاح الضرائب ، وضبط الأسعار ، حيث ألغـى الضرائب الاستثنائية ، خاصة تلك التي تؤثر على مسيحيي الروملـي ، ومـن أجـل تحسين سير هذا العمل ، فرض الرقابة على موظفي الولايات عـن طريـق مجـالس

---

(1) Mustafa Akdag : genel Cizgileriye , s.202 , 203 .

للأعيان ، وهم بدورهم حاولوا فتح الطريق لإيجاد الكثير من الوظائف لهذه الجماعات في المدن . كالقيام ببعض الأعمال الإدارية أو حراسة الحدود .

غير أن هذه الحلول لم تكن جذرية وذلك لأن المهاجرين الـذين عـادوا إلـى أراضيهم كان عليهم تسديد الضرائب التي أسقطت عنهم ، وسيعود هؤلاء إلى الشكوى من ظلم ولاتهم وجباة الضرائب ، فكانت المشكلة الاقتصادية أصعب من السيطرة عليها في وقت قصير ، فقد استمر نقص الطعـام وارتفـاع الأسـعار ، وذلـك بعـد عـام (١١٠٣هـ/١٦٩١م) [(1)] .

وهكذا بذلت الدولة جهوداً في سبيل الإصلاح ، ولكنها كانت محدودة الطبيعة ، فانحصرت في إحياء التجارة ، وتنظيم الضرائب ، وإخماد الثورات ، وإجبار الفلاحين على العودة إلى أراضيهم ، فازدادت مساحة الأراضي الزراعية ، واسـتبدلت العمالـة وشجعت الصناعة ، وفي محاولة لتذليل الصعاب الراهنة ، كان ذلك كافيـاً ، ولكنهـا كانت ناجحة فقط في حينها وسمحت بالعمل ضد نتائج الفساد وليس ضد أسبابه ، وحال ما انخفض مستوى الإجراءات عما سبق عادت المجموعات القديمة للعمل واسـتأنفت أساليبها السابقة [(2)] .

ويتبين لنا من خلال هذا العرض المـوجز الارتبـاط الوثيـق بـين التكـوين الاجتماعي للمدن والقرى في الدولة العثمانية وبين التكوين الاقتصادي لهـا ، فعنـدما بدأت الدولة بالتخلي عن النهج الإسلامي في شؤونها الاقتصادية ودب الفساد إلى هـذا المجال ، أثر ذلك سلبياً على الأوضاع الاجتماعية ، وأن توقف الفتوحات أدى إلى قلة الغنائم وهي إحدى ركائز اقتصاد الدولة ، وتغير اتجاه سير المعارك إلى غير صـالح العثمانيين مما أدى إلى ارتفاع تكاليف الحملات ، فكانت بعض الحلول التي لجأت إليها

---

(1) انظر : Ahmet Ogolu : gerilem Doemine , s. 224 , 230 . ؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول ، ص ص١٥٧ ، ١٥٨ ؛ مانتران : تـاريخ الدولـة ، ج١ ، ص ص٣٧٦ ، ٣٧٧ ؛ Omer Faruk : Belgeleril osmanli , cild .2 , s.341 .

(2) علي حسون : العثمانيون والروس ، ص٧٠ .

الدولة قد خففت من حدة الأزمة بشكل مؤقت ، ثم تحولت هذه الحلول إلى جـزء مـن المشكلة الاقتصادية ، وذلك إما بسبب الفساد الإداري كما حدث في مشاكل التيمـار ، وسنوات الازدلاف ، أو بسبب التنافس الأوروبي على الاقتصاد العثماني ، أو الـسببين معاً .

وكانت النتيجة هي إنهاك الدولة اقتصادياً وبالتالي تردي الأحوال الاجتماعية في المدن والقرى ، وكانت الثورات والهجرة إحدى الوجوه البارزة للمشكلة الاقتصادية ثم إن ذلك انعكس على الوضع العسكري والسياسي للدولة العثمانية في أوروبا ، وأصـبح فتح جبهة للحرب في هذه القارة يعني المزيد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية .

ولعـل هذا ما دفع الدولة في القرن الثاني عـشر الهجـري / الثـامن عـشر الميلادي ، إلى إعادة النظر في علاقاتها بالدول الأوروبية ومحاولة التوافق مـع هـذه المستجدات في شتى المجالات . وهذه هي أبرز سمات ما عرف بعصر (اللاله) .

الفصل الرابع

أثر توقف الفتوح على الناحية الحضارية

في القرن (١١هـ/١٧م)

المبحث الأول

أثر توقف الفتوح على الناحية العلمية

نشأ الفكر العثماني وتطور معتمداً على الموروث الفكري الإسلامي حيث تشكل هذا الفكر على أيدي رجال العلم الذين نشأوا في أراضي الأناضول ، ثم أراضي الروملي التي قامت عليها الدولة العثمانية ، ومشاركة رجال العلم الذين نشأوا في المراكز الثقافية القديمة على امتداد العالم الإسلامي في تركستان ، وإيران ، وسوريا ، ومصر وغيرها .

وكانت إسهامات العلماء الذين نشأوا في الأراضي التي أقام عليها الأتراك العثمانيون دولتهم الجديدة ، تشكل قسماً متواضعاً في البداية ذلك الفكر ، فلما قويت الدولة واتسعت رقعة أراضيها وازدادت مظاهر الثراء والرفاه ساعد ذلك على تقدم الحياة العلمية وازدهارها .

ولابد من الإشارة إلى أن الحياة العلمية في الدولة العثمانية لم تكن منفصلة عن الحياة السياسية ، فمن المعروف أن قيام الإمارة العثمانية في أول أمرها كان بعد الاتصال بين السلطان والعالم ، كما عرف عن السلاطين العثمانيين حبهم للعلم وإجلال العلماء . بل إن كثيراً منهم كان على قدرٍ وافر من المعارف .

ولما كان للعلماء هذه المكانة ، فقد ولتهم الدولة أمور الإشراف على التعليم . وأصبح في أيديهم توجيه الثقافة ، ويعد المسجد مصدراً للثقافة ، فكانت تلحق به سواء في المدن أو القرى مدرسة تدرس فيها علوم متنوعة ، وقد أنشأ السلطان محمد الثاني مدارس عالية ألحقت بالمساجد الكبرى ، ولكن في عصر خلفائه قل الاهتمام بهذه المواد ، وظلت هذه المدارس لا تهتم إلا بدراسة الشريعة والتوحيد ، ولعل أشهر المدن التي كان لها شأن في هذا المجال ، اسطنبول ، وأدرنه ، وبروسة .

ووفقاً للنظام العثماني ، يعتبر قاضي العسكر هو رئيس الهيئة القضائية ، إذ تتجاوز سلطاته الشؤون العسكرية إلى الشؤون المدنية .

أما المفتي أو " شيخ الإسلام " فهو الشخصية الثانية بعد السلطان التي تخضع لها الهيئات القضائية والدينية ويخضع له الموظفون الدينيون في العاصمة لسلطته المباشرة.

أما عن أهم العلوم والمعارف التي ظهرت ودرست في الدولة العثمانية فهي قواعد اللغة وتكوين الجمل ، والمنطق ، والطبيعة ، والأدب ، والخطابة ، والرياضة ،

والفلك ، والإنشاء ، في حين كانت المدارس العالية التي أنشأها الفاتح وألحقها بالمساجد الكبرى تدرس الجغرافيا ، والتاريخ ، والطب ، والطبيعة ، والرياضة ، والفلك . كمـا كان في زمن هارون الرشيد حتى فتر الاهتمام بهذه المواد في عهد خلفائه [(١)] . ورغم ذلك - ومن باب الإنصاف – يمكننا القول بأن العثمانيين أضفوا على الحيـاة الثقافيـة والعلمية في العالم الإسلامي دينامية وثراء جديدين ، وعلى ذلك بلغـت ذروتهـا فـي ق(١٠هـ/١٦م) ، وظهرت مراكز علمية وثقافية جديدة إلى جانب مراكـز الحـضارة الإسلامية القديمة في بورسة ، وأدرنه ، واسطنبول ، وأسكوب [(٢)] ، وسـراي بوسـنه (سراييفو) وغيرها .

ويعتبر فتح القسطنطينية في عام (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) مـن الأحـداث المهمـة المؤثرة على الحياة العلميـة والثقافية ، إذ شهدت نشاطاً متزايداً بفضل اهتمام السلطان (محمد الفاتح) بالعلم ، فشمل رجال العلم في العالم الإسلامي بحمايته ، وكـان همـه قبل كل شيء أن تصبح اسطنبول مركزاً أول للعلم والثقافة في العالم الإسلامي ، كمـا أصبحت مركزاً للدولة العثمانية وعاصمتها ، فشرع في تنفيذ ما عزم عليه داعياً إليهـا رجال العلم بشتى الوسائل [(٣)] .

ويمكن القول بأن عـصر الفـاتح (٨٤٨هـ ـ/١٤٤٤م -٨٨٦هـ ـ/١٤٨١م) وشخصيته قد شكل مرحلة مهمة في تاريخ الدولة العثمانية بـشكل خـاص ، ولـذلك اعتبرت فترة حكم (الفاتح) فترة ازدهار ، وتقدم ملموس للحركة العلمية .

---

(1) محمد البحراوي : حركة الإصلاح ، ص ص٤٢ ، ٤٣ ؛ علي حـسون : تـاريخ الدولـة ، ص ص٤٠٥ ، ٤٠٦.

(2) اسكوب (Uskub) : مدينة في تركية الأوروبية ، في مقدونيا ، تمتد على ضفتي نهر فاردار . وتقع حالياً في جمهورية مقدونيا . انظر : موستراس : المعجم ، ص٦٧ .

(3) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٦١٣ .

فقد تشكلت فيها نظرة مهنية سليمة ، مثل تحديد الدرجات المقررة فـي مجـال التعليم والقـضاء ، وتحديـد وظـائف العلمـاء ، وإطـار عملهـم وصلاحياتهـم ومسؤولياتهـم [1].

أما العلوم التي قدم لها العثمانيون بعض الإضافات فهي :

علم التاريخ ، ويمكن القول إن التدوين المنظم للتاريخ العثماني كان بعـد فـتح القسطنطينية [2] ، ومن أشهر المؤرخين الذين تذكرهم المصادر المؤرخ (قره مـانلي محمد باشا) المتوفى في عام (٨٨٦هـ/١٤٨١م) والذي حرر التاريخ العثماني باللغـة العربية وكذلك (طاشكوبرولو – زاده أحمد عصام الدين أفندي) وقد ألف كتاب سـير كبير لعلماء ومشايخ الدولة العثمانية عرف باسم الشقائق النعمانية ، كمـا تميـز هـذا المؤرخ بكونه عالماً موسوعياً ، فقد وضع موسوعة أسماها موضوعات العلوم .

وكذلك في الجغرافيا حيث برع فيه العثمانيون أكثر من غيره من العلوم ويذكر المؤرخ (يلماز أوزتونا) أنهم نبغوا في هذا العلم حتى تساووا مع العرب [3] .

ولعل نجاح الفتوحات العثمانية واستمرارها منذ نشأة الدولة كان متلازماً مع تقدم العثمانيين في علم الجغرافيا جنباً إلى جنب ، والدليل على ذلك بلوغ هذا العلم ذروتـه في نفس الوقت الذي كانت الفتوحات العثمانية في مجدها ، فقد ظهر أشهر الجغرافيين العثمانيين الأميرال (محي الدين بيري رئيس) (٨٧٩هـ-٩٦٢هـ/١٤٧٤م-١٥٥٤م) وقد اكتسب خبرته ومعارفه من رحلاته العديدة تحت قيـادة عمـه (كمال رئـيس) وقيادة (خير الدين بربروسا) فيما بعد ، كما تسنى له القيام بجمع المعلومـات عـن الاكتشافات التي قام بها الأسبان والبرتغاليون في أفريقيا ، وذلـك أثنـاء اسـتطلاعه المعلومات اللازمة استعداداً للحرب ضدهما . فعلى الرغم من كون هـذه المعلومـات محاطة بستارٍ من السرية والكتمان ، فإنه عمل جاهداً على استخلاصها عـن طريـق

---

(1) أحمد عبد ا نجم : المدرسة العثمانية منذ عصر الفاتح وحتى وفاة القانوني (٨٥٥هـ-٩٧٤هـ/١٤٥١م-١٥٦٦م) في ضوء المصادر التركية ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، ص٤١ .

(2) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص٣٩٩ .

(3) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص ص٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٢٨ .

العملاء الأجانب وخاصة من الإيطاليين ، حيث قام عام (٩٢١هـ/١٥١٥م) برسم خريطة للمحيط الأطلسي وأفريقية ، والشواطئ القريبة من أوروبا وأفريقيا ، ووضع عليها الأسماء التي تلقاها من هؤلاء العملاء . وأهداها للسلطان (سليم الأول) عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) ، كما أهدى إلى السلطان (سليمان القانوني) خريطة ثانية تمثل اكتشافات البرتغاليين في أمريكا الجنوبية والوسطى ، ونيوزلانده . إذ كان قد علم بها في حينه [(١)] ، مما يدل على براعته في رسم الخرائط .

ولا شك أن قيام (بيري رئيس) بجمع المعلومات القديمة ، ومتابعة التطورات الجديدة من ناحية أخرى ، ثم قيامه بوضع أفكاره ومشاهداته إضافة إلى ذلك ، إنما يدلنا على المنحى العلمي الذي نحاه ، فإذا وضعنا في الاعتبار أن الخريطة الأصلية (لكلومبوس) لم تصلنا فإن خريطة (بيري رئيس) التي رسمت على شاكلتها تحمل فضلاً عن قيمتها العلمية قيمة تاريخية [(٢)] .

ومما يميز (بيري رئيس) أنه تحدث عن كروية الأرض ، وبذلك يكون قد سبق كلاً من (كولمبوس) و (ماجلان) في هذا الشأن [(٣)] . أما عن أهم ما تركه من آثار علمية ، فهو كتابه المعروف بـ (كتاب بحرية) ، ويحتوي على مئات الخرائط الملونة التي رسمها ، ثم أهداه للسلطان (سليم الأول) عام (٩١٩هـ/١٥١٣م) ويعد هذا الكتاب من خير ما ألف في مجال الجغرافية والعلوم البحرية في العالم [(٤)] .

وإلى جانب ذلك ، فقد برع العثمانيون في وضع الأطالس الجغرافية ولم يمنعهم اعتمادهم على مشاهداتهم الشخصية من الاستفادة من المؤلفات الجغرافية

---

(1) علي حسون : تاريخ الدولة ، ص ص٣٩٨ ، ٣٩٩ .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٤٩٧ .

(3) لقد سبق وتحدث العلماء المسلمون الأوائل عن كروية الأرض من أمثال ابن حوقل النصيبي في كتابه صورة الأرض ، كما تحدث (ركن الدين أحمد) أحد علماء الدولة العثمانية في كتابه الذي ألفه في عهد الفاتح عن كروية الأرض وهو كتاب معروف باسم (عجائب المخلوقات) في وقت لم تكن أوروبا تعتقد بهذا الأمر ، بل إن الكنيسة الكاثوليكية لم تعترف باستدارة الأرض إلا في القرن (١٢هـ/١٨م) . انظر :
Yilmaz Oztunua Buyuk : Turkiye Tarihi Istanbul ,1983, s.108 .

(4) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص٣٩٩ ؛
Yilmaz oztunua : Buyuk , s.108 .

الأوروبية (1) ، إن اعتماد الجغرافيين العثمانيين على المصادر الجغرافيـة الأوروبيـة يكشف لنا أنهم كانوا يتابعون الكشوف الجغرافية في الغرب ، كما أن مؤلفات العثمانيين كانت تبين لنا حجم الإمكانيات التي كانت لديهم لمتابعة التطورات التـي تحـدث فـي الغرب آنذاك ، ولاشك أن نجاح الجغرافيين العثمانيين في الحصول على المعلومـات عن الغرب وعن الشرق على السواء ، ثم عدم وجود الخرائط الخاصة بشرق العالم في أوروبا آنذاك ، إنما يدل على مدى المستوى المتقدم الذي كان عليه العثمانيون في هـذا المجال على عكس ما جرى به الاعتقاد .

أما العلوم العقلية ، فيبدو أنه منذ عهد السلطان (محمد الثاني) وحتـى عهـد السلطان (سليمان القانوني) قد بدأ العثمانيون بتدريسها إلى جانـب العلـوم الدينيـة والشرعية ، ولكن منذ منتصف القرن (١٠هـ/١٦م) ، أصبح التركيز منـصباً علـى العلوم الدينية أكثر من غيرها . أما الذين درسوا علوم الحساب والفلك والعلوم الطبيعية فقد كانوا يفعلون ذلك بدافع شخصي فردي ، ولعل لبعض السلاطين العثمانيين دور في ذلك فعلى سبيل المثال كان السلطان (محمد الفاتح) ذا فكر متفـتح ومـن المعجبـين بكتاب (بطليموس) في الجغرافيا ، ولذلـك عين (علي قوشجي) مديراً للمرصد في (سمرقند) ومدرساً لعلم الفلك والرياضيات في (آياصوفيا) وقد ظلت مؤلفاته في هذه العلوم المرجع الأساسي لتدريس هذه المواضيع (2) .

ولعل من أشهر هذه المؤلفات (الرسالة المحمدية في الحساب) وهو كتاب فـي علم الرياضيات ، وقد أتحفه إلى السلطان (محمد الفاتح) ، هذا بالإضافة إلى رسـائل أخرى في العلم نفسه تتناول بعض موضوعات الهندسة ، ومؤلفات أخرى فـي الفلـك ينتقد فيها آراء (بطليموس) ويصححها . مما يجعل من مؤلفاته أكثر تميزاً وندرة .

ومن الرياضيين والفلكيين الكبار في عهد (الفاتح) (فتح الله بن أبي يزيد عبد الله بن عبد العزيز الشرواني) (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م) ، و (سنان الدين بن خضر بـك بن جلال الدين عارف) (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م) الشهير (بسنان باشا) وقد تميز الأخير

---

(1) جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج٢ ، ص١٦٨ .

(2) نفس المرجع : نفس الصفحة .

بتأليفه في الفقه والكلام والفلسفة والتفسير فضلاً عن مؤلفاته في الرياضيات والفلك [1] .

أما في مجال الطب فقد كانت أسس نظام التعليم الطبي هي التي سادت من قبل عند السلاجقة في القرن الخامس ، والسادس ، والسابع الهجري ، وكانت المحاضرات العلمية الطبية تلقى نظرياً ، ويجري تطبيقها عملياً في ما كان يدعى (مدرسة) .

ويزاول الطلبة تدريباتهم ويمارسون خبراتهم في مستشفيات عدة ، واكتسبت المعرفة النظرية في الدرجة الأولى من كتاب ابن سينا الشهير (القانون) ، ومن أعمال (ابن عباس المقوسي) ، وأثناء حكم السلطان (محمد الفاتح) و السلطانين (بايزيد الثاني) و (سليمان القانوني) تعادلت أسس التعليم الطبي في المدارس العثمانية كيفياً مع نظيرتها في المراكز الأوروبية الطبية الشهيرة في ذلك الوقت .

وإبان ازدهار الدولة العثمانية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، قام العديد من العلماء والأطباء الذين تلقوا تعليمهم وممارستهم في البلاد العربية ، وإيران ، وتركستان بالتدريس في المدارس الطبية العثمانية ، وكانت الرواتب المرتفعة إحدى العوامل التي استقطبت هؤلاء العلماء والأطباء [2] .

وكغيره من العلوم ازدهر الطب في عهد الفاتح والقانوني فظهرت الكثير من المؤلفات في التخصصات الطبية المختلفة .

ولعل من أبرز من ألف في هذا المجال (شرف الدين صابونجي أوغلي ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م-١٤٦٩م) وهو أحد الذين تلقوا تعليمهم في دار الشفاء بأماسيا ، ثم عمل جراحاً فيها ، وأول عمل علمي أنجزه هو ترجمته التركية الحرة لكتاب الطبيب الأندلسي والزهراوي ، المعروف باسم (التصريف) واسمها (جراحنامة خانية) . وقد حافظ في هذه الترجمة على صور الآلات الجراحية كما هي في الأصل ، كما ضمنها رسوماً توضح أوضاع المرضى عند المداوة ، وهي رسوم تنطوي على أهمية كبيرة في تعليم الجراحة ، وهو يعتبر من هذه الناحية أول كتاب طبي إسلامي ينحى

(1) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص ص٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ .
(2) علي حسون : الدولة العثمانية ، ص٤٠١ .

هذا المنحى ، هذا بالإضافة إلى أن (شرف الدين) قد وضع من عنده العديد من الإضافات التي ثبت من خلالها أن بعض الأفكار التي طرحها تحمل في طياتها تأثراً تركياً مغولياً أصله من آسيا الوسطى ، كما تنم عن تأثره بأفكار الشرق الأقصى ، أما كتابه المعروف باسم (مجربنامه) الذي كتبه بالتركية وضمنه تجاربه العلمية فهو كتاب اكلينيكي أصيل .

ومن الأطباء المعروفين أيضاً في ق (٩هـ/١٥م) (محمد بن حمزة) الذي ذاعت شهرته باسم (آق شمس الدين ت٨٥٩هـ/١٤٥٤م-١٤٥٥م) وقد ألف كتاباً بالتركية ثلاثة كتب في الطب منها (مائدة الحياة) الذي أورد فيه بعض الجمل التي تذكرنا " بالمكروب والعدوى " مما يجعل الكتاب أمراً يسترعي الانتباه [1] .

غير أن الحياة العلمية شهدت شيئاً من الركود والوهن في القرن (١١هـ/١٧م) حتى أنها انتقدت من بعض المؤرخين أمثال (هاملتون جيب) ، أما عن أسباب هذا الركود فيمكن إرجاعها إلى ما يلي :

١- يذكر المستشرق (هاملتون جيب) أن بوادر الانهيار بدأت بالظهور بعد تأسيس كلية السلطان (سليمان القانوني) والسبب في ذلك – كما يرى – هو أن رواتب أساتذتها كانت عالية ومجزية ، مما شجع الطامعين للتقدم إليها ، وتولي مناصبها دون كفاءة علمية ، فعلى سبيل المثال لم تجد الدراسات الطبية المنتظمة المتابعة والتشجيع الكافيين ، ولربما عاد السبب في ذلك إلى أن رؤساء أطباء السلاطين أو (الحكيم باشي) كانوا بعيدين كل البعد عن علوم الطب ، إذ كانوا أفراداً عاديين من طبقة علماء الدين الذين مارسوا مهناً أخرى لا علاقة لها بالطب قبل اختيارهم لهذا المنصب [2] . وهو بذلك ينفي تلقيهم للعلوم الطبية ، ويثبت قلة تجاربهم وخبرتهم .

٢- أما مصطفى عالي الغاليبولي (٩٤٨هـ-١٠٠٩هـ/١٥٤١م-١٦٠٠م) فقد أرجع أسباب التدهور إلى تدهور المدارس ، وانحسار الرغبة في العلم وشيوع

(1) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص ص٦٢٠ ، ٦٢١ .
(2) جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج٢ ، ص١٧٠ .

ظاهرة أبناء الموالي ، وارتقاءهم لأعلى المناصب في فترة وجيزة ، والانخراط في سلك رجال العلم بالمحسوبية ، ومنح مناصب التدريس والقضاء بالرشوة ، وعدم التفريق بين العالم والجاهل ، وقلة ظهور المؤلفات . ويوافقه فـي هـذا الرأي (كاتب جلبي) الذي عاش في ق (١١هـ/١٧م) حيث أرجع التـدهور إلى إلغاء العلوم العقلية والرياضية من مناهج التدريس في المدارس . كما ذهب العديد من المفكرين العثمانيين إلى أن انحطاط النظام المدرسي يرجع إلى كثرة أعداد الطلاب وتمردهم ، والمخالفات القانونية في منح مناصب التدريس (١) .

٣- وفي عهد السلطان (أحمد الثالث) بدأت التأثيرات الأوروبيـة تأخـذ مكانـاً مرموقاً نسبياً ، غير أن الإيمان بما وصل إليه الأوروبيون ظـل مقبـولاً فـي المجال النظري فقط ، فقد تردد الأطباء العثمانيون في تطبيق النظريات الطبية الأوروبية (٢) .

٤- التغيرات الاقتصادية والسياسية التي طرأت على الدولة العثمانيـة مـع بدايـة ق(١١هـ/١٧م) ، لابد وأن تترك آثارها على التقدم العلمي فـإذا كـان فـتح القسطنطينية وما تبعه من تأثيرات قد أدى إلى استقطاب العلماء وغيرهم مـن مهرة الصناع وذلك بتشجيع من السلاطين العثمانيين فإن هذا العامل قد يكـون منتفياً – ولو نسبياً – في ق (١١هـ/١٧م) .

وبالنظر إلى هذه الإنتقادات فإننا نلاحظ أنها قد وجهت إلى الكفـاءة العلميـة ، والممارسة وقلة التجربة ، وموقف العثمانيين مما وصلت إليه أوروبا في مجال العلـوم العقلية ، وكذلك التشجيع المادي الذي كان عاملاً للتهافت على المناصب العلمية ، وهذه الإنتقادات صادرة عن مستشرقين ومؤرخين أوروبيين ، وقد تكون في محلهـا ، وقـد تكون مغايرة للحقيقة .

---

(1) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٤٧٠ .

(2) جيب وبوين : المجتمع الإسلامي ، ج٢ ، ص١٧١ .

أما المؤرخون العثمانيون فقد كانت انتقاداتهم موجهة إلى المؤسـسات العلميـة المتمثلة في المدارس ، سواء في نظام التدريس وتعيين المدرسين والمناهج والمؤلفـات العلمية ، ورغبة الطلاب في طلب العلم ، وكثرة أعدادهم .

وغني عن القول أن هذه الإنتقادات صادرة عن أشـخاص عايـشوا الأوضـاع العلمية عن كثب ، وهو ما يجعلها تختلف عن انتقادات المستشرقين ، وخاصـة تلـك المتعلقة بموقف العثمانيين مما وصلت إليه أوروبا من انجازات علمية ، فمن المعروف أن الدولة العثمانية لم تعش في عزلة منذ نشأتها ، فقد فرض عليها الموقع الجغرافـي الاتصال مع دول الجوار ، ويعتبر عصر السلطان (محمد الفاتح) خير مثال على ذلك فقد كان علـى علم واطلاع بلغات أوروبية عدة ، كما كان مطلعاً علـى الانجـازات العلمية ، لكثير من الأمم ، ولعل هذا ما أثر في الأساليب الحربية التي استخدمها فـي فتح القسطنطينية .

وبطبيعة الحال كانت الفتوحات العثمانية قد قربت المسافات بينها وبـين الـدول الأوربية ، مما يؤدي إلى زيادة الاطلاع لدى العثمانيين خاصة وأنهم يمثلون الجانـب الأقوى .

ولكن مع بداية اختلال موازين القوى ، أي منذ بداية ق (١١هـ ـ/١٧م) بـدأت آثار هذا الاختلال بالظهور على الحياة العلمية لدى العثمانيين ، وفي المقابـل كانـت أوروبا تحصد ثمرات عصر النهضة ، وعلى وشك الـدخول فيمـا عـرف بـالثورة الصناعية ، حيث ظهرت أعمال جلبرت (Gilbert) في عام (١٠٠٩هـ ـ/١٦٠٠م) ، واكتشف (هارفي) (Harvey) الدورة الدموية عام (١٠٣٨هـ ـ/١٦٢٨م) ، وكـذلك كان أول استخدام للتليسكوب في أوروبا في هذه الفتـرة عـام (١٠٠٩هـ ـ/١٦٠٠م) واعتبر أعظم الأجهزة العلمية في ذلك العصر ، كما اهـتم الأوربيـون بعلـم الفلـك واستخدموه في الملاحة وحركات القوى الدافعة والآلات ، وظهرت في هذه الفترة أيضاً بحوث علمية خاصة بمظاهر الطبيعة ، وطبيعة عمل الجسم البشري [1] .

---

(1) ج . د . برنال : العلم في التاريخ ، ترجمة شكري سعد ، المؤسسة العربية للنشر ، ج٤ ، ص ص٦٧ ، ٧٦.

والجدير بالذكر أن القرن (١١هـ/١٧م) شهد توجهاً أوروبياً نحو الدراسات العربية ، فقد لوحظ أن هناك مطبوعات في النحو ، وتعليم اللغة العربية ، والديانات وخاصة الديانة المسيحية ، وبالتحديد النصوص المقدسة ، والنصوص التعليمية ، والنصوص المتعلقة بالدفاع عن المسيحية ، كما كانت هناك مطبوعات موزعة بين العلوم المختلفة ، مثل الفلك ، والطب والرياضيات والعلوم الإنسانية ، كالجغرافيا والتاريخ والفلسفة .

أما عن أهداف هذه التوجهات فهي تختلف باختلاف المجالات العلمية فعلى سبيل المثال اهتمت (إيطاليا ، وفرنسا) بالموضوعات الدينية وذلك لأن الكنائس الكاثوليكية سخرت طاقاتها لتوفير كل الإمكانات اللازمة للتصالح مع الكنائس المستقلة في الشرق ، ومجابهة المسلمين ومنع التسرب بالبروتستانتي إلى تلك الأصقاع ، أما الجامعات في الدول البروتستانتية (أكسفورد ، هامبورغ ، لندن) . فقد كان اهتمامها منصباً على الكتب العربية العلمية أكثر من الكتب الدينية وذلك لأن جلها تأسس في رحاب جامعات البلدان المشار إليها ، إذ كان المهتمون بهذه الدراسات قد انطلقوا من عقلية بعيدة نوعاً ما عن الجدل الديني [1] .

ولعل ذلك ما يفسر ظهور بعض المؤلفات في النصف الأول من ق(١١هـ/١٧م) التي يدور محورها حول كيفية إخراج العثمانيين من أوروبا ، أو ما يمكن تسميته بإشهار حملات صليبية ضد العثمانيين ، فلم تعمل الأحوال الداخلية في هذه الدول على استئصال الروح الصليبية التي كانت تغمرها .

وقد تعرض المؤرخ (لافلليه) لهذا الموضوع فقال : " ظهرت في الشطر الأول من ق(١٧م) كتابات منوعة تدعو إلى إشهار الحرب على الترك ، وكان معظمها يستحث ملك فرنسا كيما يقتفي أثر أجداده ويزحف إلى فلسطين ... " [٢] .

---

(1) وحيد قدورة : بداية الطباعة في اسطنبول وبلاد الشام ، تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦م-١٨٧٨م) ، تقديم عبد الجليل التميمي ، الرياض ، مكتبة الملك فهد ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، ص ص٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(2) سبق الحديث عن هذه الحملات التي أشهرت ضد الدولة العثمانية ، في الفصل الأول من هذه الرسالة .

ولم يكن العثمانيون بمعزل عما يجري في أوروبا ، ولكن يمكن القول أن لهـم موقفاً انتقائياً من كل ما هو أوروبي ، وهو موقف يتحتمه عليها تفرضه طبيعة الدولـة الإسلامية ، من جهة ، ومركز الدولة من جهة أخرى فهي تعيش في فترة ليست ببعيدة عن القرن (١٠هـ/١٦م) وما تزال فكرة سيادتها وفرض قوتها على أوروبا ماثلة .

أما الإنجازات العلمية التي توصل إليها العلم في أوروبا والتي أشرنا إليها فقـد توصل إليها العثمانيون سابقاً غير أن هناك تفاوتاً في الفترات التاريخية فيما يبدو التـي ظهرت فيها هذه الإنجازات .

إذ يذكـر المـؤرخ يلمـاز أوزتونـا ، أن العثمانيـين استخدمـوا المرقب أو (التلسكوب) ، وكذلك المجهر (المايكروسكوب) في القرن (١١هـ/١٧م) غير أنـه لم تحدد السنة التي ظهر فيها كلٌ من المرقب أو المجهر [١] .

أما في الطب فقد سجل العثمانيون تقدماً كبيراً وذلك باكتشافهم لقاحـاً مـضاداً للجدري ، في حين وقفت أوروبا موقفاً سلبياً من استخدام هذا اللقاح ، كمـا مارسـوا تشريح الجثث ، وتدل بعض مؤلفاتهـم في الطب علـى أن هنـاك محـاولات لنقـل الأعضاء ، هذا بالإضافة إلى الكثير من المؤلفات في الطب والتي سنتعرض لها فـي الصفحات التالية .

وكذلك اجتهد العثمانيون في علم الميكانيكا ، غير أنه لم يكن مستنداً إلـى علـم الرياضيات بل إلى الناحية العملية ، ومن ذلك محاولة الطيران التي قام بها (هزار فن أحمد جلبي) بحضور السلطان (مراد الرابع) في عام (١٠٥٠هـ ـ/١٦٤٠م) وذلـك بواسطة طائرة من صنعه ، فانتقل بها من برج غلاطة [٢] إلى اسكدار [٣] أي من الجهة الأوروبية إلى الجهة الآسيوية ، وهبط هبوطاً ليناً ، كما كانت هنـاك تجربـة ناجحـة

(1) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٥٣٦ .

(2) غلاطة (Ghalata) : بلدة تركية الأوروبيـة ، في ولاية سلسترة ، لواء وارنه على البحر الأسود . انظـر : موستراس : المعجم ، ص٣٧٢ .

(3) اسكدار (Uskudar) : وتسمى (سكوتاري Scutari) وهي مدينة في تركية الآسيوية (الأناضول) علـى البرسفور . بنيت فوق منحدر على شكل مدرجات مقابل القسطنطينية وهي اليوم حي من أحياء اسـطنبول . انظر : موستراس : المعجم ، ص٦٦ .

لصناعة " غواصة " في عام (١١٣٢هـ/١٧١٩م) حيث ظلت تحت الماء مدة طويلة وهي من صنع (إبراهيم أفندي) رئيس مهندسي مصنع السفن [1] .

أما في إطار الاتصال العلمي فقد كان العثمانيون على اطلاع بما وصل إليه غيرهم في مختلف العلوم ، مما يجعل من القرن (١١هـ/١٧م) قرن الاتصال العلمي بين العثمانيين وأوروبا ، فعلى سبيل المثال بدأت تظهر ترجمات " للزيج " [2] وبعض كتب الجغرافيا ، والتعرف على المفاهيم والمصطلحات الفلكية الجديدة في أوروبا ، وفي هذا القرن بدأ العثمانيون في وضع الترجمات التركية الأولى عن اللغة اللاتينية في علم الفلك ليبدأ اتصاله بعلم الفلك عند الغرب وكان التذكرجي (كوسه إبراهيم أفندي الزيكتواري) في طليعة الأسماء التي شاركت في حركة الترجمة تلك ، حيث قام بوضع ترجمة عربية عن اللاتينية لزيج (نويل دوريه) (Noel Duret) المتوفى نحو (١٠٦١هـ/١٦٥٠م) ، ثم حولها برغبة من بعض أصدقائه إلى اللغة التركية وأسماها (سجنجل الأفلاك في غاية الإدراك) ، وهي الترجمة الأولى التي نقلت عن اللغات الأوروبية في موضوع الجداول الفلكية الحديثة ، ولاسيما عند (كوبرنيكوس) إلى أدبيات العلوم عند العثمانيين ، وكذلك يعد (عبد ا بن محمد بن سليمان الفاسي بن طاهر الرضواني) من أشهر من ألف في هذا المجال المستحدث ، إذ ساح في فاس ، والجزائر وغيرها ، ثم تنقل بعد ذلك بين المراكز العلمية الكبرى في مصر والشام واسطنبول وتوفي في دمشق عام (١٠٩٤هـ/١٦٨٢م) ، حيث قام بصنع كرة من ابتكاره تساعده على تعيين الوقت وعمل الحسابات الفلكية ، كما ألف عدداً من الكتب في علم الفلك وأبرزها كتابه المعروف باسم (بهجة الطلاب في علم الاسطرلاب)[3] ، وظهر أيضاً في أواخر ق (١١هـ/١٧م) (أبو بكر بهرام الدمشقي) وكان مولده في دمشق ، وقد وضع عدداً من الكتب القيمة ، ولاسيما في مجال الجغرافيا حتى عرف باسم (الجغرافي أبو بكر افندي) توفى في عام (١٠١٢هـ/١٦٩١م) ، وقد استطاع

(1) أحمد جودت : تاريخ جودت ، ج٢ ، ص ص٣٤٧ ، ٣٥١ .

(2) الزيج : هو عبارة عن جدول حسابي يبين موقع النجوم وحسابات حركاتها . عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ط٤ ، ص١١٦ .

(3) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٦٥٨ .

أن يتعرف على السلطان (مراد الرابع) عن طريق الوزيرين (فاضل أحمد كوبريلي) ، و (مرزيفونلي قره مصطفى باشا) ، وبأمر منه قام بترجمة (أطلس مايور) ذي الأصل اللاتيني . وكذلك قام بترجمة أحد عشر مجلداً (لجانسون بلاو Jans zoon Blaeu) إلى اللغة التركية تحت عنوان : (نصرة الإسلام والسرور في تحرير أطلس مايور) . وعلى الرغم من أن الكتاب في علم الجغرافيا بشكل عام إلا أنه أيضاً يتحدث عن (كوبر نيكوس) والمفاهيم الفلكية الحديثة ، ومن هنا تعد هذه الترجمة هي المصدر الذي يتحدث عند العثمانيين عن علم الفلك عند (كوبر نيكوس) [١] .

وكذلك يعد كتاب (جهان نامه) أي منظر العالم ، والذي ألفه (حاجي خليفة) ، أشهر جغرافي القرن (١١هـ/١٧م) انجازاً ضخماً في هذا المضمار ، فقد تناول كيفية الاستعمال الأول للأطلس الأوروبي في تركيا ، كما تناول فيه تاريخ الكون والموجودات ، وقد رفعه إلى السلطان (محمد الرابع) [٢] .

أما عن أشهر الأعمال الجغرافية في القرن (١١هـ/١٧م) فهي الرحلة المعروفة بـ (سياحتنامه) لمؤلفها (أوليا جلبي) ، وقد ألف هذه الرحلة بناء على تجوله في أنحاء الدولة العثمانية ، بل إنه يذكر أنه شارك في بعض الحملات العثمانية في كريت ضد عصيان اليونانيين الذي نشب بعد سقوط (كانديا) ، وكذلك قام بزيارة النمسا ، وهولانده ، والسويد وبوهيميا ، واصفاً كل ما مر به في هذه الدول ، ورغم ما أخذ على ما في هذه الرحلات من مبالغات إلا أنها في غاية الأهمية لدراسة تاريخ وعادات وتقاليد تلك البلاد في القرن (١١هـ/١٧م) [٣] . وهو ما يضفي قيمة تاريخية لهذه الرحلة فضلاً عن قيمتها الجغرافية .

ولم يكن الاتصال العلمي بين العثمانيين والغرب قاصراً على ما ذكر سابقاً فقد كان للطب نصيب في ذلك الاتصال .

---

(1) المرجع نفسه .

(2) علي حسون : تاريخ الدولة ، ص٤٠٠ .

(3) أوليا جلبي : الرحلة الحجازية ، ترجمة وتقديم الصفصافي أحمد المرسي ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، ص٦٥ .

ومما ساعد على الاتصال وجود الكثير من الأطباء اليهود الـذين تـدفقوا مـن مختلف الدول الأوروبية نتيجة لاضطهادهم في القرنين (٩-١٠هـ ـ/١٥-١٦م) وقـد حمل هؤلاء الأطباء معهم خبرات جديدة من الطب الأوروبي ، كما اصطحبوا مكتباتهم الطبية الخاصة ، ونجح بعضهم في الدخول إلى السراي العثماني حتى أصبح بعـضهم من خاصة أطباء السلاطين في القرن (١١هـ/١٧م) [1] .

ومن المعروف أن هذا العلم شهد ازدهاراً في ق(١١هـ ـ/١٧م) ، والحـق أن هناك سمتين مهمتين للطب العثماني في هذه الفترة ، إحداها ظهور عـدد كبيـر مـن مشاهير الأطباء ، وتصديهم لتأليف كتب مهمة في ذلك الفرع ، ومن هنـا يعـد ذلـك العصر أنضج عصور الطب العثماني ، أما السمة الثانية التي تميز بها ، فهي ظهـور معاجم طبية تركية ، ويأتي في مقدمة من تصدوا لتأليف هذه المعـاجم (لارنـده لـي قرماني سياهي زاده درويش) المتوفى بعد (١٠٢٤هـ/١٦١٥م) وقـد أعـد معجمـاً بعنوان (لغت مشكلات أجزاء) يذكر فيه أسماء العقارات باللغة التي شاع فيها سـواء كانت تركية ، أم عربية ، أم فارسية ، أم يونانيـة ، أم بربرية ، ثـم يـضع المقابـل التركي لتلك العقارات [2] .

أما الطبيب (شمس الدين العتاقي الشرواني) (المتوفى نحو عام ١٠٤٢هـ ـ/ ١٦٣٢م-١٦٣٣م) فقد اجتهد في وضع بعض التجديدات المهمة في الطـب العثمـاني الذي كان يعيش أزهى عصوره آنذاك ، وقد اشتهر هذا الطبيب بكتابه التركـي الـذي ألفه في الطب وزوده بالرسوم والشروح وسماه (تـشريح الأبـدان وترجمـان قبالـة فيلسوفان) وتبرز أهمية هذا الكتاب في طريقة ترتيبه ورسومه التي تدل على أن مؤلفه تأثر بمعارف التشريح ، التي كانت سائدة في أوروبا الغربية آنذاك .

ومع الشروع في وضع ترجمات تركية لأعمال طبيب وحكيم عـصر النهـضة الأوروبية (باراسلسوس) (٨٩٩هـ/١٤٩٣م-١٤٩٨م) في ق (١١هـ/١٧م) بـدأت

---

(1) رشاد عبد الفتاح خليفة : الطب في الحضارة العثمانية ، نموذج مخطوط الطبيب العثماني شاكر القيـصري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، ص٦٥ .

(2) Abdulhak Adnan Adivar Osmanli Turklerinde Ilim , Aprof : Aykut Kazancigil , Sevim Tekeli ,4 Baski , Istanbul , 1982 , s.128 .

تتشكل بوادر تيار جديد في الطب عرف بين الأطباء العثمانيين باسم (الطب الجديـد) أو (الطب الكيميائي) ، وكان (بن سلوم ت١٠٨١هـ/١٦٧٠م) يمثل الطليعـة لهـذا التيار ، وقد تناول في مؤلفاته أفكار (باراسلسوس) واجتهد في وضع أساليب جديـدة للتداوي مستعيناً بتجاربه الخاصة ومستنداً على التراث الإسلامي ، ولذا جـاء كتابـه الموسوم بـ (غاية البيان في تدبير بدن الإنسان) والذي ألفه بأمرٍ من السلطان (مراد الرابع) ، تجميع لما هو موجود من معلومات ، وكذلك ضم إلى جانب هذه المعلومات بعض الآراء المبتكرة ، كما قـام (ابـن سـلوم) بترجمـة كتـاب (أياتروكيميـا Iatrochemistry) (لباراسلسوس) من اللاتينية إلى العربية ، غير أنه ليس ترجمة بالمعنى التام ، فرغم أن الأساس فيه هو الطب الكيميائي إلا أن (ابن سلوم) اسـتفاد من آراء (باراسلسوس) وغيره من الأطباء الأوروبيين ، وضمن الكتاب في الوقـت نفسه معارفه وتجاربه ، وقام بشرح نظريات (باراسلسوس) واحدة واحدة .

وهناك الحكيمباشي (حياتي زاده مصطفى فـيض ا أفنـدي ت١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م) الذي ألف خمس رسائل بالتركية أسماها (الرسائل المشفية فـي الأمـراض المشكية) وكان كتاباً طبياً ترك أثراً عظيماً آنذاك .

وكذلك قام (محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حسين) بإعـداد كتـاب (لـوازم الحكمة) باللغة التركية وهو كتاب ضخم في الطـب والأدويـة فـي ترجمـة كتـاب المعالجات لابن البيطار مع زيادات وإلحاقات كثيرة [1] .

وعلى الرغم من كثرة المؤلفـات في هذا العلم والاتصال بين الشرق والغـرب فيه ، إلا أنه يلاحظ أن الأطباء العثمانيين لم يعبأوا بالجانب النظري في ذلـك النـوع الجديـد من الكيمياء الـذي تقدم في أوروبـا ، وكان جل اهتمامهـم بالجانب العملي

---

(1) Abdulhak Adnan : Osmanli , s. 138 .
و أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٦٦١ ؛ رشاد خليفة : الطب في الحضارة ، ص ص٧٢ ، ٩١ .

(التطبيقي) أكثر من غيره ، لكنهم كانوا يفسحون المجال لنظريات (باراسلـسوس) وغيره من الأطباء الكيميائيين بدلاً من نظرية [١] الأخلاط الأربعة [٢] .

ويمكن القول بأن طب الغـرب أخـذ بالـدخول إلـى الطـب العثمـاني فـي ق(١١هـ/١٧م) وخاصة الطب العملي ، ويذكر المؤرخ (يلماز أوزتونا) أن طبيعـة الدولة وخوضها الحروب ، يجعلها تولي الطب العملي والجراحة أهمية خاصة ، ولذلك بلغ فن الجراحة لدى العثمانيين درجـة جيـدة منـذ عـصر الفـاتح ، وفـي بدايـة ق(١١هـ/١٧م) حرر شيخ الحرمين شمس الدين أفندي كتابـه المـسمـى (تـشريح الأبدان) واستفاد في تأليفه من عدة كتب أوروبية [٣] .

ومما يدل على تقدم العثمانيين في الطب ، أنهم جربوا نقل الأعضاء من شخص إلى آخر ، ويذكر يلماز أوزتونا : أنه وردت بعض العبارات التي تشرح عملية لنقـل الأعضاء في (شرف نامة) ، كما ذكر أنه في إحدى المعارك تم نقل أحد الجـراحين بنقل عظمة من جمجمة أحد الجنود المتوفين إلى جندي آخر أصيب في رأسه وقد عاش هذا الأخير بعد ذلك لسنوات طوال ، وتم ذلك في عهد السلطان سليمان القانوني .

إذن فقد تجاوز العثمانيون التشريح إلى نقل الأعضاء وهو ما يدحض ما ذكـره المستشرق (هاملتون جيب) من انتقادات للأطباء العثمانيين .

وبلغ من اهتمام العثمانيين أنهم خصصوا مشفى لعلاج الأطفـال مـن مـرض الجدري الذي انتشر بشكلٍ وبائي في اسطنبول عام (١١٠٧هـ/١٦٩٥) [٤] .

---

(1) نظرية الأخلاط الأربعة : تعد من النظريات التي أخذ بها الأطباء المسلمون عن طـب جـالينوس ، وهـذه الأخلاط هي السوائل الموجودة في جسم الإنسان أولها : الدم ، ثم البلغم ، ثم السائل المراري الأصفر ، ثـم السائل المراري الأسود ، ولكل منها مزاج ، فالدم حار رطب ، والبلغم بارد رطـب ، والـسائل المـراري الأصفر حار جاف ، والسائل المراري الأسود بارد جاف ، وقد تحدث عنها ابن سينا بالتفـصيل . انظـر : أحمد طه : الطب الإسلامي ، دار الاعتصام ، ص٤٨ ؛ الحسين بن عبد ا بن سينا : القانون في الطـب ، تحقيق سعيد اللحام ، دار الفكر ، ١٤١٤هـ ، ج١ ، ص ص٤٧ ، ٤٨ .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٦٦٣ .

(3) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص ص٥٣٢ ، ٥٣٣ .

(4) Yilmaz Oztuna : Buyuk , s. 137 , 140 .

ويبدو أن عهد السلطان (مراد الرابع) قد شهد نشاطاً علمياً ، حيـث ظهـرت العديد من المؤلفات الطبية ، فقد أهدى إليـه الطبيب (زين العابدين بن خليـل) كتاب (شفاء الفؤاد) ، وهو كتاب يتناول قواعـد الصحة المتعلقـة بالأطعمـة والأشـربة والألبسـة ، كما ألـف (أمير جلبي) رئيس أطبـاء السلطان (مراد الرابع) كتـاب (أنموذج الطب) وهو يتحدث عن الأقاليم والمناخ ، والتأثيرات الصحية التابعة لهما ، ومن الجدير بالذكر أن (أمير جلبي) ذكر في كتابه ، أن ما ذُكر عنه من اعتماده على المصادر العلمية من كتب السابقين دون إضافة أي شيء ليس صحيحاً ، بل إنه أثبـت كثيراً من الأمور بالتجارب ، كما نوه في كتابه بضرورة تجربة التشريح على الجنـود القتلى في المعارك ، وإن لم يتمكنوا من ذلك فإنه يكون على القردة والخنازير [(١)] .

أما فيما يتعلق بالفكر السياسي ، فقد كتب بعض العلماء ، والمفكرين المـسلمين من قبل العصر العثماني ووضعوا مؤلفات عن السياسة والإدارة حيث ألف الفيلسـوف (أبي نصر الفارابي) في السياسة المدنية . وكذلك ألف (ابن تيمية) رسالة عرفـت (بالسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيـة) ، وكذلـك ألف الإمـام المعروف (أبو حامد الغزالي) (كتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوك) ، وكذلك ألف العالم الجليل (تاج الدين السبكي) كتاباً مفيداً بعنوان (معيد النعم ومبيد النقم) ، وكتب (أبو بكر محمد بن الفهري الطرطوشي المالكي) كتابـاً بهذا الـشـأن وأسـماه (سـراج الملوك) ، كما صنف الوزير (نظام الملك السلجوقي) كتاباً أسماه (سياستنامة) [(٢)] .

وبما أن العهد العثماني يمثل امتداداً فكرياً للعهد الإسلامي السابق ، فقد ظهرت فيه أيضاً العديد من المؤلفات في الفكر السياسي ، والتي تناقش الموضوعات ذاتهـا . ولعل أهم هذه الموضوعات هو الحكم وإدارة الدولة .

لقد كان (طورسون بك) المتوفى بعد عام (٨٩٦هـ/١٤٩٠م) هـو أول مـن يلفت النظر بين المفكرين السياسيين العثمانيين ، وهو مؤلف كتاب (تاريخ أبو الفتح)

---

(1) Abdurhak . Adnan : Osmanli , s. 129 .
؛ رشاد خليفة : الطب في الحضارة ، ص٧١ .

(2) عمر ناقيتشقيتش : رسالة في إصلاح ، ص٢٣٨ .

الذي عرف بأفكاره حول الحكم والسلطنة ، ويعد المصدر الوحيد لحياته ، ويتناول هذا الكتاب في مقدمته الحديث عن الحكم والسلطنة ، كما يعد الوزير الأعظم (لطفي باشا) المتوفى (٩٧١هـ/١٥٦٣م) واحداً من أكثر الوجـوه التـي بـرزت بـين المفكـرين السياسيين العثمانيين . إذ لمع نجمه في زمن السلطان (سليم الأول) ، وبعد أن تـولى العديد من المناصب ، تم تعيينه وزيراً أعظم عام (٩٤٦هـ/١٥٣٩م) وظل يشغل ذلك المنصب بنجاح لمدة عامين ، ثم عزل منه وذلك بسبب الأوساط التي تـضررت مـن إخلاصه ، لأن محاولاته في القضاء على بعض مظاهر الخلل التي لمسها في أجهـزة الدولة أثناء صدارته العظمى أزعجت بعض الأشخاص ، ومن المهم القـول أنـه أول رجلٍ استشعر علامات التفكك في النظام العثماني ، ولعل هذا ما دفعه إلى تأليف رسالة في مسألة الخلافة ، وهي بعنوان (خلاص الأمة في معرفة الأئمة) ، وهـي رسـالة مهمة تتضمن الأجوبة التي قدمها لعلامات الاستفهام التي ظهرت حول الخلافة العثمانية آنذاك وأفكاره حولها [1] .

إذن ، يمكن القول بأن الرسائل التي تحمل طابعاً سياسـياً انتقاديـاً قـد بـدأت بالظهور منذ منتصف القرن (١٠هـ/١٦م) واستمرت بعد ذلـك مـع ازديـاد النقـد لمؤسسات الدولة .

فمع بداية القرن (١١هـ/١٧م) ظهر بعض المفكرين ورجال السياسة العثمانيين ونادوا بضرورة إصلاح المؤسسات الإدارية والعسكرية ، وكذلك الثقافيـة ، وتنـاولوا بالتحليل أسباب ضعف الدولة منذ نهاية القرن (١٠هـ/١٦م) .

وعلى سبيل المثال ألف (مصطفى عالي الغاليبولي) المتوفى منه (١٠٠٩هـ/١٦٠٠م) كتاباً يدعى (نصيحة السلاطين) انتقد فيه الأوضاع فـي الدولـة ، وألقـى الضوء على العيوب الاجتماعية ، كما انتقد النظم الإدارية ، وكان نقـده موضـوعياً ، خاصة وأنه صادر عن رجل إدارة . ولذلك لم يكتف بالنقد بل أعطى أمثلة للعيوب التي تشكو منها الدولة مثل مفاسد الإنكشارية ، ووجود نظام الوسيط بـين المـدعى عليـه

(1) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، بحث لأحمد بشار أوجاق ، ج٢ ، ص٢٢٩ ؛ وحيـد قـدورة : بدايـة الطباعة ، ص٢٥٤ .

وصاحب الدعوى في القضاء . وقد تميزت نصائح (مـصطفى عـالي) بـالمحتوى الفكري الذي لا يقف عند تشخيص الداء بل إنه يقدم الدواء . فعلى سبيل المثال نجـده يعرض صفات من يستحقون أن ينالوا ثقة الحاكم ، ومن أهم هذه الصفات الانقطاع عن الأهل وذوي المصالح وصفاء العقيدة ، والبعد عن كل ما يؤدي إلى الانحـراف عـن جماعة أهل السنة [1] .

ولعل من أهم ما ألف في بداية القرن (١١هـ/١٧م) رسالة في بيـان مظـاهر الخلل في الدولة وهي بعنوان (أصول الحكم في نظام العالم) للشيخ (حـسن كـافي الآقحصاري) المتوفى سنة (١٠٢٥هـ/١٦١٦م) ، وسيأتي الحديث عن ما جاء فيهـا من تفاصيل لاحقاً .

كما ألف (ويسي) المتوفى سنـة (١٠٣٧هـ/١٦٢٧-١٦٢٨م) كتـاباً بعنوان (خوابنامه) وهو يصور رؤيا تنتقد أحوال العصر ، حيث تجمـع بين زمن السلطـان (أحمد الأول) و (الإسكندر الأكبر) في مجلس يجري فيه الحديث عن مثالب العصر وسيئاته ، غير أن الكاتب في نهاية كل باب لا يفتأ يذكر بعض الأمور التي تخفف من عبء الواقع في مقارنته بين ذلك العصر والعصور السابقة له [2] .

وتأتي الرسالة التي ألفها (كوجي بك) عام (١٠٤٠هـ/١٦٣٠م) على جانـبٍ كبير من الأهمية وقد أهداها إلى السلطان (مراد الرابع) وذلك بهدف إبراز مـشاكل الإدارة والحكم .

أما (كاتب جلبي) المعروف بـ (حـاجي خليفـة) فقـد كتـب فـي سـنة (١٠٦٤هـ/١٦٥٣م) كتاباً عرف باسم (دستور العمل في إصلاح الخلل) حيث تناول فيه بالتحليل أسباب إفلاس الدولة مالياً ، واقترح جملة من الإصلاحات ، ويعد (حاجي خليفة) أول عالم مسلم يدعوا إلى الاستفادة من العلـوم الموجودة لـدى الغرب ، أمـا (حسين هزرفن) خزندار الدولة فقد كتب في عـام (١٠٧٩هـ/١٦٦٩م) كتاباً بعنوان (تلخيص البيان في قوانين آل عثمان) ويتحدث فيه عن تنظيم هياكل الدولة ، وينتقـد

---

(1) محمد هريدي : الأدب التركي ، ص١٠٠ .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٧٧ .

سياسة السلاطين وظاهرة الرشوة لدى الوزراء ، كما ألف (هزرفن) رسالة نجد فيها تحليلاً دقيقاً للمساوئ ، التي تشكو منها الدولة ، والإصلاحات الممكنة ، ولما كان هـذا الرجل مستشاراً للسلطان (مراد الرابع) فقد حـث هذا الأخير على أن يحكم الدولـة بقوة ، ويعد (هزرفن) أول مسؤول عثماني تربطه علاقات صداقة متينة مع بعـض رجال الفكر والعلـم الأوروبيين من أمثـال المستشـرق الفرنسي (فالان) والإيطالي (مارسيغلي) [1] .

ولعل من المنصف تسليط الضوء على رسالة الشيخ (حسن كافي) [2] والتـي سبقت الإشارة إليها . فقد كتبت باللغة العربية أولاً ثم ترجمها المؤلف إلى اللغة التركية بناء على رغبة المسئولين في الدولة ، أما عن ما تتضمنه الرسالة ، فقد استعرض فيها أهم المسائل والقضايا في عصره بما تستحقه من اهتمام ، كما عرض نظرياته وآراءه في نظام المجتمع والدولة . ومن الملاحظ أن المؤلف لا يهدف من هذا العرض خلـق نظام اجتماعي جديد ، كما أن هذه الرسالة ليست بحثاً في فلسفة الدولة كمقدمة (ابـن خلـدون) ، ولكنها محاولة لحل مشاكل الوضع الذي كان سائداً آنذاك فـي الدولـة ، وتوضيح العوامل التي يمكن أن تحفظ للعثمانيين قـوتهم ، والإشـارة إلـى الأخطـاء والعوامل التي تقود لا محالة إلى انحطاط الدولة والمجتمع ، وفي هذا التحليـل ينـدد المؤلف بتصرفات أجهزة الدولة وممثلي السلطة كالباشوات ، وقوات الجيش بل يمكـن القول أنه كان يقصد بنقده هذا أعلى جهاز إداري في الدولة بما في ذلك السلطان نفسه أو ولي الأمر أياً كان لقبه [3] .

وبناء على ما سبقت الإشارة إليه من مؤلفات ، يمكننا تقسيم كتاب الإصلاح إلى (رجال علم) و (رجال دولة) ، وقد اتفق الجميع على أن الدولة تمر بمرحلة سـيئة

---

(1) مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٤٥٥ ؛ وحيد قدورة : بداية الطباعة ، ص ص٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(2) ولد الشيخ حسن كافي الآقحصاري في البوسنة سنة (٩٥١هـ/١٥٤٤م) في بلدة آقحصار . وأصله من ألبانيا غير أن جده استوطن آقحصار . وانتقل الشيخ حسن الآقحصاري إلى اسطنبول لتحصيل العلم في أوائل حكم السلطان (سليم الثاني) . توفي سنة (١٠٢٥هـ/١٦١٦م) عن أربعة وسبعين عاماً . عمـر ناقيتـشقيتش : رسالة في إصلاح ، ص ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(3) عمر ناقيتشقيش : رسالة في إصلاح ، ص ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

وأنه قد أصابها الخلل والفتور ، غير أنه كان هناك اختلاف بين آرائهم حـول كيفيـة تجاوز هذه الأزمة .

فنجد أن (رجال العلم) قد تصوروا الأمور برمتها في إطار سياسـي تقليـدي لتجاوز الأزمة ، ولعل ذلك ما جعل الحلول التي طرحت مختصرة في العودة بالدولـة في إدارتها وسياستها ونظمهم إلى عصرها الذهبي أو عصر القوة . وأن هذا هو الحل الوحيد لاستعادة هيبة الدولة في الخارج وانضباطها في الداخل .

ويلاحظ أيضاً أن أحداً من هؤلاء لم يتعرض للهياكل السياسية الجديدة التي بدأت بالظهور في أوروبا منذ النصف الثاني من القرن (٩هـ ـ/١٥م) ، وعـن التغييـرات والتجديدات التي بدأت تظهر في التركيب الاجتمـاعي والاقتـصادي وفـي المجـال العسكري والاقتصاد ، ثم عن الظروف الجديدة التي أسفر عنها اكتشاف قارة أمريكـا بوجه خاص [1] .

ولعل السبب في تشابه وجهة نظر هؤلاء الكتاب حول تشخيص العلة هو وحدة المصدر الثقافي الذي نهل منه الجميع والمتمثلة في كتب المفكـرين المـسلمين الـذين سبقوهم (كابن تيمية ، والطرطوسي ، والسبكي) ، فعلى سبيل المثال نجـد المـسائل التي تتكرر لدى كتاب الإصلاح هي التي وردت في كتب العلماء المسلمين الأوائـل . وهي المسائل ذاتها التي ناقشها (الآقحصاري) حيث ذكر فـي الأصـل الأول مـن رسالته ، العدالة وتفويض الأمور إلى أهلها ، ومسألة الأمانـة واسـتعمال الأصـلح ، واختيار وزير عادل مصلح ، أما في الأصل الثاني فقد تحدث عن المشورة والاستخارة في الرأي والتدبير ، وكذلك ناقش في رسالته بوادر انحطاط الدولـة ، وتحـدث عـن استعمال آلات الحرب والقتال وتدبير العسكر وتحريضهم على القتال .

غير أن الآقحصاري تميز في رسالته بمنهجه الخاص ، الذي يميزه عن (ابـن تيمية ، والسبكي ، والطرطوشي) وذلك بالتحدث عن الشريعة كحقيقة ثابتة لابد مـن تطبيقها ، وربط المواد التاريخية في رسالته بالحقائق والوقائع التاريخية التي حدثت في عصره ، مما مكنه من طرح المشكلات في إطار واقعي .

(1) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، بحث لأحمد بشار أوجاق ، ج٢ ، ص٢٣٥ .

وهكذا نجد أن كتاب الإصلاح اتفقوا على أن الدولة قد خرجت من عهد القـوة إلى مرحلة الجمود ، وذلك بناء على نظرية ابن خلدون ، وهي المرحلة التي عانت فيها من هزة سياسية واقتصادية ، وتركت آثارها على الحياة الاجتماعية .

أما عن الحل فإنه يكمن – وفقاً لآرائهم – في سلطان قوي قادر علـى عـلاج الخلل في كافة أمور الدولة .

وباستثناء (حاجي خليفة) فإننا نلاحظ أن مجموعة الحلول والاقتراحات التـي يطرحها كتاب الإصلاح عادة ، لم تتعرض للاستفادة من التغيرات التي كانـت تطـرأ على الأنظمة السياسية المحيطة بهم باعتبارها تمثل أنماطاً مختلفة يمكن الإفادة منهـا . كما أن هذه الحلول كانت متشابهة ، فضلاً عن أن هذه الحلول يدور محورهـا حـول السلطة دون توجيه انتقادات للمجتمع ، بمعنى أن الإصلاح والتغيير وفقاً لآرائهم لابـد أن يبـدأ من الأعلى (السلطة) إذ لم تكن هناك آراء تنادي بأن يبـدأ التغييـر مـن المجتمع ، فعلى سبيل المثال ، لم تكن هناك حلول أو مقترحات لحل مشكلات البطالة ، وهروب الفلاحين إلى المدن ، وتدني المستوى الاقتصادي .

ولعل الأسباب التالية قد تفسر هذه الملاحظات :

إن الدولة العثمانية دولة مركزية ، يدور محور الأمور فيهـا علـى شخـصية السلطان وسلطته ، ولذلك جاءت الحلول متمثلة في تولي سلطان قوي وعادل .

وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ (حسن الآقحصاري) في رسالته المذكورة يسلط تركيزه على الوزراء وسلطتهم إلى جانب السلطان ، فأكد على ضرورة صلاحهم حتى أنه قال : " ثم لابد للسلطان من أن يختار وزيراً عالماً مصلحاً ، فإن الوزير إذا صـلح صلح الملك ، وإذا فسد فسد " (1) .

ثم أسهب في ذكر الصفات والشروط التي يجب أن يكون عليها الوزير .

ثم أن الدولـة العثمانية دولة إسـلامية ، فـي نظمهـا الـسياسية والإداريـة والاقتصادية ، وهو ما يجعلها تجد في الإسلام مرجعاً كافياً ، ولهذا لا نجد من ينـادي

(1) حسن كافي : أصول الحكم في نظام العالم ، ص٢٢ .

بالاقتباس من النظم الغربية المحيطة بها ، ولكن ألم تكن هناك دولٌ إسلامية معاصـرة يمكن اقتباس بعض الأنظمة بحيث تتوافق مع النظم العثمانية ؟ !

للإجابة على هذا السؤال لابد من إعطاء لمحة عن أوضاع الـدول الإسـلامية المعاصرة للدولة في ذلك الوقت تلك الفترة .

فلم تكن الدول الصفوية أفضل حالاً . إذ تعرضت بعد وفاة الـشاه (عبـاس) لانحلال سياسي نتيجة لضعف خلفائه ، فضلاً عن أن الخلاف المذهبي بين الدولتين يعد سبباً رئيسياً لإعراض العثمانيين عن الاقتباس عن الصفويين .

وكذلك تعرضت دولة المغول في الهند لأزمة سياسية بعد وفاة السلطان (أكبر) وعجز خلفائه عن إتمام ما بدأه والحفاظ عليه ، وتبع ذلك أزمة اقتصادية ، وتعـرض الصناعة والزراعة للانحطاط ، ومرور الدولة بمجاعات كثيرة قضت على عدد كبيـر من الناس في عام (١٠٥٦هـ/١٦٤٦م) [(١)] .

ولذلك يوجه المستشرق (بول كولز) انتقاده بهذا الشأن ، حيـث يـذكر بـأن المسلمين يفتقرون إلى نموذج حقيقي من الماضي يمكنهم من مواجهة المآسي والنكبات التي تمر بها الدولة بشكل مفاجئ ، كما يذكر أن رد الفعل كان في الغالـب للمـشاكل والمآسي التي بدأت في أواخر القرن (١١هـ/١٧م) غير سريع ولا حاسم ، وإنما تلكأ حتى أتت العاصفة لتطفئ الشمعة ذاتها ، بينما كان التنبيش في الماضـي بحثـاً عـن نموذج أمثل ، غير قابل للتحقيق في ظل الظروف الحالية [(٢)] .

والواقع أن المشكلة لا تكمن في الافتقار إلى أنموذج (إسلامي) حقيقـي مـن الماضي ، وإنما تكمن في كيفية تطوير النماذج والنظم الإسلامية الأساسية وصـياغتها في إطار جديد يتناسب مع الواقع الجديد ويمكن من مواجهة المشكلات والمـستجدات ، وتجاوزها .

هذا ، ورغم ما وجه من انتقادات للحياة العلمية ، فقد كانت هناك جوانب مضيئة وذلك بشهادة بعض المستشرقين الذين عاصروا فترة البحث ، حيث سجلوا مـشاهداتهم

---

(1) للمزيد من المعلومات . انظر : رولاند مرسنيه : تاريخ الحضارات ، ٤٥ ، ص ص٥٧٨ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣.

(2) بول ركولز : العثمانيون ، ص٢٠٨ .

عن الحياة العلمية ، وعقدوا بعض المقارنات بين المثقفين العثمانيين ونظـرائهم فـي الغرب ، فيذكر الكونت (مارسيفلي) في حديثه عن الفتـرة (١٠٩٠هـ ـ/١٦٧٩م) و (١٠٩١هـ/١٦٨٠م) قائلاً : " ولعدم معرفتنا نحن الأوروبيين للغات الشرقية ، نظن أن الأتراك الذين يجهلون اللغات الأوروبية جهلة ، هم ليسوا كذلك ! كل تركـي مثقـف ويجيد بالإضافة إلى لغته التركية ، العربية والفارسية ، إن الشخص الذي لا يجيد هاتين اللغتين لا يعتبر مثقفاً . ولا يعتبر رجل عام ، كم شخصاً بين مثقفينا يجيد لغة أجنبية ؟ إن الأطالس التركية بالنسبة إلى بلادهم أرقى بكثير من خرائطنا ، ثبتـت فيهـا حتـى أصغر الأماكن ، أكثرها أسماء تركية . إن الأطالس المطبوعة في أوروبا تدقق بعناية شديدة " [١] .

ويؤيد الراهب الإيطالي (توديني) ما ذهب إليه الكونت (مارسيفلي) واعتنق نفس الأفكار التي اعتنقها الأخير في إطرائه المؤسسات التعليمية لدى العثمانيين رغـم أنه عاش فيما بين عامي (١١٩٦هـ/١٧٨١م-١٢٠١هـ/١٧٨٦م) [٢] .

لعل من الموضوعات ذات الأهمية والتي لها علاقة بالجانب العلمي في الدولـة العثمانية هو (موقف العثمانيين من الطباعة) وهو موقف تسبب في توجيه الانتقادات إلى الحياة العلمية فيها ، وقبل التفصيل في هذا الشأن لابد من إلقاء نظرة على انتـشار هذا الفن في أوروبا .

فمن المعروف أن أول محاولة ناجحة قد جرت لاختراع الفن الجديد كانت فـي عام (٨٤٠هـ/١٤٣٦م) من قبل (يوحنا جوتنبرج) ، غير أنها لم توضـع موضـع التنفيذ إلا في عام (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) ، وبغض النظر عن اختلاف الباحثين حول السنة التي ظهر فيها الكتاب المطبوع ، فقد انتشرت الطباعة في ألمانيا ، وظهر هذا الفن في أوروبا الغربيـة ، والوسطى حتـى وصل إلى (بوهيميـا ، وبولونيـا ، والمجـر ، وانكلترا) . وذلك في النصف الثاني من القرن (٩هـ/١٥م) .

---

(1) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٣٧٧ .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٤٧١ .

ورغم ظهور بعض الكتب العربية المطبوعة في ق(١٠هـ ـ/١٦م) [(١)] ، إلا أن المطبعة غابت عن العالم الإسلامي لفترة طويلة من تاريخ ظهورها .

وبالنظر إلى الفترة التي انتشرت فيها الطباعة أي في القرن (٩هـ ـ/١٥م) يلاحظ أنها توافق دخول العثمانيين القسطنطينية فاتحين ، وبلوغ الدولة العثمانية شأناً عظيماً ، ومع ذلك بقي العثمانيون بعيدين عن هذا الاختراع حتى مـا قبـل عـام ١١٣٩هـ ـ/ ١٧٢٦م) ، ويؤكد ذلك ما ذكره (إسحاق زاده أفندي) قاضي اسطنبول سابقاً ، ومـن الغريب أن هذا الوضع لم يشمل الأقليات الدينية في الدولة العثمانية حيث استفادت من فن الكتابة قبل القرن (١٢هـ ـ/١٨م) ، وكانت المبادرة للجالية اليهودية منذ نهاية القرن (٩هـ ـ/١٥م) . فقد استفادت هذه الجالية من جو التسامح الديني داخل الدولـة ، للقيـام بعدة أنشطة دينية وسياسية وثقافية برعاية الدولـة ، وكان السلطـان (بايزيد الثاني) قد سمح لليهود المطرودين من أسبانيا بالاستقرار ببلاده ، ووفر لهم كـل الإمكانـات الضرورية للعمل الثقافي والعلمي لفائدة جاليتهم ، ومن ذلك أنه رخـص لهـم بإقامـة مطبعة سنة (٨٩٩هـ ـ/١٤٩٤م) ، علـى أن لا يـصدروا كتبـاً بـالأحرف العربيـة والاقتصار على الأحرف العبرية واللاتينية . وعلى إثر ذلك أسس اليهـود مطبعتـين إحداهما في اسطنبول والأخرى بسالونيك وذلك في نهاية القرن (٩هـ ـ/١٥م) أي قبـل قرنين من ظهور أول مطبعة عربية بالعاصمة العثمانية ، وكذلك حذا الأرمـن حـذو اليهود في عام (٩٧٤هـ ـ/١٥٦٧م) ، واليونانيون في عام (١٠٣٦هـ ـ/١٦٢٧م) .

وهذا يدل على أن العثمانيين كانوا على دراية مبكرة بهذا الاكتشاف ، ولكنهم لم يسمحوا باستعماله إلا للأقليات غير المسلمة واشترطوا على هذه الأقليات عدم استخدام الأحرف العربية [(٢)] .

ولكن إذا نظرنا إلى الظروف التي واكبت ظهور المطبعة في أوروبا يتبين لنـا بعضٌ من أسباب إحجام الدولة العثمانية عن استخدام هذا الاختراع في طباعة كل مـا يتعلق بالمسلمين من رعاياها ، ولعل من أهم هذه الأسباب : أنه لم تكن هناك عوامـل

---

(1) سهيل صابان : إبراهيم متفرقة ، ص ص١٨ ، ١٩ .

(2) وحيد قدورة : بداية الطباعة ، ص ص١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

مشجعة على انتقال الطباعة إلى داخل الدولة خاصة إذا علمنا أن هذه الفتـرة شـهدت ازدهاراً لفن الخط والكتابة ، وكذلك إن ظهور المطبعة في الدول الأوروبيـة اقتـرن بنشأة ما يسميه الأوروبيون بـ (حركة الإصلاح الديني) ، حيث كان الجو مـشحوناً بالنزاعات الدينية ، وكانت أطراف النزاع تعمل على استغلال المطبعة لترويج ما يتعلق بمعتقداتها المذهبية .

ولما لم تكن الدولة بمعزلٍ عن هذه الأحداث ، فمن غير المستبعد أن تمتد آثارها إلى النصارى من رعاياها . ولعل هذا ما جعل السلاطين العثمانيين يفكرون في الأمر ملياً ، ولذلك اشترط السلطان (با يزيد الثاني) على الجالية اليهودية عـدم اسـتخدام الأحرف العربية في الطباعة ، وهو ما يدل على حرص الدولة على الحصانة الفكريـة والعقدية ليس للمسلمين فقط من رعاياها ، وإنما تشمل هذه الحصانة غير المسلمين .

وتعتبر حادثة (١٠٣٠هـ/١٦٢٠م) دليلاً واضحاً على ذلك [1] .

وهذه الحادثة تفسر لنا مخاوف الدولة من الآثار السلبية لانتشار الطباعـة بـين رعاياها المتعددي الديانات والمذاهب ، والأعراق ، وهي آثار مـن شـأنها أن تفـسد التعايش السلمي الذي عرف به المجتمع العثماني .

ويتضح مما سبق أن الحياة العلمية في العصر العثماني كانت امتداداً لما سـبقها في العهود الإسلامية ، وقد شهدت ازدهاراً كبيراً في الفترة الأولى من عمـر الدولـة حتى بلغت أوجها في منتصف القرن (١٠هـ/١٦م) وتميزت عن غيرها فـي الـدول الإسلامية بأنها أوصلت الإرث الفكري الإسلامي إلى بقاع جديدة في أوروبا ، تحولـت فيما بعد إلى مراكز للحضارة الإسلامية ، وهو إنجاز عظيم بحد ذاته .

---

(1) وملخص هذه الحادثة : هو استغلال كل من النصارى البروتستانت المطبعة لتوزيع أناجيلهم فـي اسـطنبول وذلك بمساعدة سفير هولندا وبطريك اسطنبول ، وكذلك استغل الكاثوليك المطبعة في توزيع كتاب جدلي ضد الإسلام ، ونتيجة لتضارب مصالح كل من الطائفتين علم السلطان (عثمان الثاني) بذلك عن طريق الـسفير الفرنسي فاضطر إلى مصادرة آلات الطباعة والمطبوعات . انظر تفاصيل الحادثة في : وحيد قدورة : بداية الطباعة ، ص ص١٢١ ، ١٢٢ .

ورغم ما وجه من انتقادات لبعض أوجه النشاط العلمي في القرن (١١هـ/ ١٧م) ، إلا أن العرض السابق يبين عدم صحة بعض هذه الانتقادات .

ذلك إن التغيرات التي طرأت على الحياة العلمية في هذه الفترة لم تكن شاملة لكل العلوم والمعارف ، فعلى سبيل المثال استمرت المؤلفات في علوم الشريعة الإسلامية بما عرف عنها من مستوى متميز . أما عن المعارف الأخرى فإن ازدهارها وتراجعها كان نسبياً إذ تأثرت بالحياة السياسية والأحداث العسكرية للدولة . فعلى سبيل المثال نجد أن الطب قد شهد أنضج عصوره في هذه الفترة ولكن الإنتاج العلمي في هذا الفرع تميز بشكل ملحوظ على عهد السلطان (مراد الرابع) ، وقد سبقت الإشارة في الفصل الأول إلى النشاط الذي عاود حركة الفتح في عهد هذا السلطان . في حين نجد أن علوم الجغرافيا تأثرت بحركة الفتح ولكن بصورة تختلف بعض الشيء عما كان عليه هذا التأثير سابقاً . فقد كانت حملات (كمال رئيس) و (خير الدين بربروسا) عاملاً مهماً لظهور مؤلفات وخرائط (بيري رئيس) ، أما في القرن (١١هـ/١٧م) ظهرت الرحلة المعروفة بـ (سياحتنامه) وذلك عن طريق مشاركة الرحالة (أوليا جلبي) في بعض الحملات التي خرجت ضد النمسا ، ومن هنا جاء بمعلومات جديدة عن النمسا ، وهولاندا وبوهيميا ، وهي أماكن لم يزرها رحالة مسلم من قبل .

ونستدل من هذا على تأثر الحياة العلمية بحركة الفتح .

ورغم الاختلاف الديني بين العثمانيين والغرب إلا أن هذا الخلاف لم يمنع حدوث بعض الاتصالات العلمية ، الأمر الذي ينفي تعصب العثمانيين وانعزالهم ، بل إن العالم العثماني لم يقف على حد الاطلاع إلى ما توصل إليه الغرب ، فكان لهم السبق العلمي في عدة مجالات كالطب والفلك ، والميكانيكا .

ويمكننا أن نستنتج مما سبق أن تدني مستوى الفتوحات العثمانية في القرن (١١هـ/١٧م) لم يكن ذا أثرٍ سلبي كلياً ، بل إن بعض الطاقات والجهود وجهت إلى الداخل مما أسهم في الحفاظ على الحياة العلمية بمستوى متميز في هذه الفترة .

المبحث الثاني

أثر توقف الفتوح على الناحية العمرانية

إذا كانت الأحداث السياسية وما ينجم عنها من آثار تخلد ذكر الدول وتاريخها ، فإن التفاعل بين الإنسان والحدث لابد أن يتجاوز مجرد الـذكر والتـدوين ، فيتـرك انعكاساته على المجتمع .

وإن استقرار الدول يعد عاملاً مهماً من عوامل نـشوء الحـضارات الإنـسانية بجوانبها المتعددة . ومع أن مصطلح الحضارة يشمل كل ما نتج عـن التفاعـل بـين الإنسان والحدث . فإن الجانب العمراني أخذ جزءاً كبيراً من هذا المسمى .

ومن المسلّم به أنه كلما كانت الدول أكثر استقراراً وثباتاً في نظمها كلمـا ازداد ازدهارها العمراني . ولهذا نجد الملوك والسلاطين يحرصون على ترك ما يخلد ذكـر دولهم من آثار عمرانية تكون بمثابة الشواهد على ما وصلت إليه دولهم من تقدم ورقي يتناسب مع مقاييس عهودهم المختلفة .

ومن المعروف أن الأتراك عاشوا – قبل الإسلام – حياة رعوية في الغالب . فلم يتوفر لهم الاستقرار ، ولذلك لم يشيدوا آثاراً تذكر . ولكن تغير الوضع بعد إسلامهم ، إذ انفتحت لهم أبواب العالم ، فنزحوا إلى الغرب ، وإلى ما وراء النهر ، وخراسـان ، والعراق حيث الاستقرار أولاً ، والمواد الخام اللازمة للبناء ثانياً . وكان لتمكن العقيدة الإسلامية من نفوسهم ، أثره في اتجاههم إلـى العمـران ذي الطـابع الإسـلامي لا البيزنطي . فأقاموا المساجد وسبل المياه ، والقلاع ، والخانات ، والنزل ، والجسور ، والأسواق والقصور .

وتشهد آثار الأتراك السلاجقة على غلبة الروح الإسلامية على العمارة في هـذه المرحلة . فنجد قصورهم لا تطاول مساجدهم [1] .

ولما كان الأتراك العثمانيون ورثة للسلاجقة فقد خلفوهم في أساليب العمـارة ، حيث تذكر المصادر أن هناك مصدرين رئيسيين للتقاليد المعمارية العثمانية ، أحـدهما ناجم عن تطور الأشكال المعمارية الحديثة التي ظهرت في معظم أرجـاء الأناضـول

---

(1) محمد هريدي : تاريخ الأدب التركي ، ص١٩ .

خلال القرن (٨هـ) وأوائل القرن (٩هـ) أي ما تركه السلاجقة مـن مبـاني وآثـار عمرانية .

أما المصدر الثاني ، فقد كان الفن البيزنطي المتمثل في جامع آياصوفيا بصورة رئيسية وخاصة في كثير من سماته العامة كالحجر والقرميد المستعمل والقباب البارزة والمغلقة ، وهناك تأثيرات فنية أخرى تعود إلى الاتـصـال القـديم بـين العثمـانيين وإيطاليا . ويمكن ملاحظة أوجه التشابه بين طراز البناء الطلياني ، وكثير من مـساجد بروسة من حيث النوافذ والسقوف والواجهات ، ولكن النقطة المميزة التي تعـد أكثـر وضوحاً وأهمية هي سيادة الملامح العربية والإسلامية التي تتجلى بشكل واضـح فـي مساجـد اسطنبول الرئيسية كمسجـد (الفاتح) ومـسجد الـسلطـان (بايزيـد) ، ومسجد (السليمانية) [1] .

إذن فقد تأثرت العمارة العثمانية بالمناطق التي نشأت بها ومـن ثـم بالمنـاطق والأقاليم التي انضمت إليها فيما بعد . وهو ما يدل على انفتاح العثمانيين وقدرتهم على صهر كل جديد بما يتناسب مع المبادئ الأساسية التي نشأت عليها الدولـة فـي كافـة مراحلها .

ويمكن القول أن العمارة العثمانية استخدمت أشكالاً وتعابير جرى تطويرها مـع الأساليب والأفكار الموجودة . كما استوعبت التأثيرات الخارجية فأضافتها إلى كيانهـا وكشفت لنا عن ديمومة إنتاجية حية نابضة . وقد أصبح العثمـانيون ورثـة أعـراف وتقاليد ثقافية لدول شهيرة في العالم ، إذ أخذوا عن التيموريين ، وسلاجقة الأناضول ، وآسيا الصغرى ، وآسيا الغربية ، وعن الأتابكة والمماليك في مصر والـشام ، وعـن البيزنطيين وعن الدول المسيحية في البلقان والبحر المتوسط [2] .

وقد نجحوا في استيعاب هذه الحضارات وأخرجوا لنا مـا عـرف بالحـضارة العثمانية .

---

(1) علي حسون : تاريخ الدولة ، ص٣٦٩ .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، بحث لآسين آطيل ، ج٢ ، ص٦٩٣ .

ومما عرف عن الدولة العثمانية تبنيها لسياسة عمرانية متكاملة ، كان لها أثرها الواضح الكبير في تطور المدن القديمة ، ونشوء المدن الجديدة . وقد ازدانت هذه وتلك المدن بالكثير من العمائر المتنوعة الأغراض والوظائف ، مما كان له دوره البارز في تشكيل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية لذلك المجتمع الجديـد الـذي غرست بذوره في الأراضي الأوروبية [1] .

لقد عمد الباحثون إلى تقسيم العهود التي مرت بها الفنون والعمارة العثمانية إلى عدة فترات ولعل أهمها :

١- العهد المبكر ويشمل الفترة (٧٥١هـ/١٣٥٠م) وحتى عام (٨٥٤هـ/١٤٥٠م).

٢- سنوات الارتقاء والتقدم وتشمل الفترة من (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) وحتـى عـام (٩٥٧هـ/١٥٥٠م) .

٣- العهد التقليدي الأول ويشمل الفتـرة مـن (٩٥٧هـ/١٥٥٠م) وحتـى عـام (١٠٦٠هـ/١٦٥٠م) .

٤- العهد التقليدي الثاني ويشمل الفترة مـن (١٠٦٠هـ/١٦٥٠م) وحتـى عـام (١١٦٤هـ/١٧٥٠م) .

٥- العهد دور التجريب ويشمل الفترة مـن (١١٦٤هـ/١٧٥٠م) وحتـى عـام (١٢٦٧هـ/١٨٥٠م) .

٦- العهد الأخيـر ويـشمل الفتـرة مـن (١٢٦٧هـ/١٨٥٠م) وحتـى عـام (١٣٤٢هـ/١٩٢٣م) .

ولكل فترة من الفترات السابقة ما يميزها من خصائص وسمات .

ويتضح من الترتيب السابق أن البحث سيتناول العهدين التقليدين الأول والثاني . غير أنه لابد من إلقاء الضوء بشكل عام على الفترات السابقة لهذين العهدين .

---

(1) محمد حمزة الحداد : العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية ، مجلس النـشر العلمـي ، جامعـة الكويـت ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، ص١٠٠ .

فمنذ قيام الدولة في الجزء الآسيوي ظهرت العديد من العمائر العثمانية . وكان يغلب أساليب العمارة السلجوقية وظهر ذلك بجلاء في مساجد أزنيق ، ومساجد بروسة التي تعتبر نماذج حية لهذه المرحلة . وتقوم الفكرة في هـذه المـساجد علـى الجـدة والبساطة في تخطيطها مما جعلها ملائمة لأساليب الاستخدام المختلفة ولهذا استخدم هذا الأسلوب في الجوامع ، والمدارس ، والزوايا ، والتكايا ، ودور الضيافة [1] .

والجدير بالذكر أن العمارة العثمانية تطورت بشكل سريع منذ نـشأة الدولـة ، وهي سرعة توازي السرعة التي تمت بها عمليات الفتح . غير أن التطور السريع الذي لقيته العمارة العثمانية قرب نهاية القرن (٨هـ/١٤م) قد صادفه بعض التوقف بـسبب صدمة طارئة واضطراب في الأحوال ، وذلك بسبب هزيمة السلطان (بايزيد الأول) عام (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) ووقوعـه أسيراً في يد (تيمورلنك) عقب معركـة أنقـرة . لكن حيط ذلك التطور المقطوع لم يلبث أن اتصل خلال السنوات العشر التي تلت وفاة (بايزيد) في عام (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) وذلك على يد ابنه السلطان (محمد جلبـي) ، وعادت الحيوية ثانية لفن المعمار ، واستمر تطور أساليب العمـارة العثمانيـة حيـث خطت نحو تخطيط القبة المركزية للمسجد واعتبر مسجد السلطان (محمد جلبي) الذي أنشأه وأشرف على بنائه (حاجي ايواظ) خير مثال على ذلك [2] .

ولما فتح العثمانيون مدينة أدرنة عام (٧٦٣هـ/١٣٦١م) وانتقلت العاصمة إلى الجزء الأوروبي ، حظيت هذه العاصمة بأهـم المنشآت المعمارية التي أقامها السلطان (مراد الأول) عام (٨٢٩هـ/١٤٢٥م) . وأصبحت واحدة من مراكز ثلاثـة أعطـت البرهان الواضح على تطور الفن العثماني من بدايته حتـى فـتح القـسطنطينية عـام (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) ، بينما بقيت الحال في ازنيق وبروسة مقتصرة علـى ابتكـارات المرحلة المبكرة فقط . ولا غرابة إذن في أن تعتبر أدرنة مقراً لأزهى وألمع فترة من فترات الفن العثماني .

---

(1) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، بحث لآسين آطيل ، ج٢ ، ص ص٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٣١ .

(2) أوقطاي آصلان آبا : فنون الترك وعمائرهم ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنـون والثقافة الإسلامية ، اسطنبول ، ط١ ، ١٩٨٧م ، ص ص١٧٥ ، ١٧٨ .

ولقد أثبت العثمانيون في هذه المرحلة أنهم لم يعودوا أصحاب إمارة صـغيرة ، بل أصبحت لهم دولة كبيرة وكشفوا عن ذلك بوضوح في عمائرهم التي ظهرت عليها إمارات العظمة ووحدة المكان وذلك في عدة مساجد مثل الجامع العتيـق أو (اسـكي جامع) ، وجامع (المرادية) ومسجد (أوج شرفلي) ، وهي مـساجد تجمـع بـين العراقة في احتفاظ بعضها بأساليب التخطيط الأولى ، ثم إدخال بعض التطويرات على هذه الأساليب ، إلى الخروج بالكامل عنها كما في مسجد (أوج شرفلي) الـذي يعـد سابقة تحققت خلالها الأفكار الأساسية لتخطيط المسجد ، وهي الأفكار التي نفذها بعـد ذلك بحوالي مائة عام المعمار العثماني المشهور (سنان) (١) .

ولم يكن تطوير الأسلوب الجديد للعمارة العثمانية قاصراً على المساجد ، وإنمـا شمل منشآت أخرى كالمدارس والخانات والأسواق المغطاة أو (القيساريات) (٢) .

أما الفترة التالية والتي يطلق عليها سنوات التقدم والارتقاء فقد شهدت فتح أهـم المدن وهي القسطنطينية ، وتحويلها إلى عاصمة للدولة العثمانية ، ومثال حي وزاخـر للفن العثماني بجميع جوانبه (٣) .

وإذا كان فتح القسطنطينية يمثل نقلة سياسية مهمة في التاريخ العثماني ، فإنـه يمثل أيضاً نقلة حضارية ذات أهمية كبيرة . خاصة وأن السلطان (محمد الفاتح) قـد اتخذ عدة إجراءات تمهيداً ليجعل منها عاصمة لدولة عالمية ، فاستقدم العـائلات مـن البلقان ، وغيرها من المدن المهمة ، كما وفر لهذه الأعداد الكبيرة ، ما تحتاجـه مـن منشآت ، وكان تحويل كنيستها الشهيرة آياصوفيا إلى مسجد من أهم ما اتخذه الفاتح من

---

(1) اوقطاي آصلان : فنون الترك ، ص ص١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ؛ أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٦٨٩ .

(2) اوقطاي آصلان : فنون الترك ، ص١٨٤ .

(3) لقد زاد الرحالة المسلم ابن بطوطة القسطنطينية قبل فتحها ، وذكر أن اسمها (اصطنبول) وهو ما يدل على أن هذه التسمية سبقت العهد العثماني ، وهو مسمى لأحد قسمي المدينة الواقع بالعدوة الشرقية أو الذي عرف فيما بعد بحي (غلطه) وقد وصفه ابن بطوطة بأوضاعه السيئة مما يدل على وجود بون شاسع بين وضـع العاصمة قبل الفتح العثماني وبعده . انظر : محمد بن عبد ا : تحفة النظار في غرائب المصار وعجائـب الأسفار ، قدم له : محمد العريان ، راجعه : مصطفى القصاص ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار إحياء العلـوم ، بيروت ، ط١ ، ج١ ، ص٣٥٧ .

إجراءات . هذا بالإضافة إلى مسجده المعروف بمسجد الفاتح ، ومما يميز هذه المرحلة أنها كانت بداية لتجارب ومحاولات الظهور أساليب معمارية جديدة والتي يمكن تتبعها في بعض الآثار ، كمسجد (الفاتح) بأثينا ، وكذلك مسجد (الفاتح) باسطنبول . حيث ظهرت القباب الضخمة ، إضافة إلى المساجد ذات المساحة الكبيرة ، وأنصاف القباب .

وكذلك يعتبر (سراي طوب قابي) مجموعة لا نظير لها ، تلبـي الاحتياجـات الرسمية والخاصة على السواء ، وتبرز ماضي العمارة العثمانية على مدى أربعمائـة سنة تقريباً .

وقد أسس (الفاتح) في اسطنبول ما يعرف (بالعمارات) وهي مراكز عمرانية تمولهـا الأوقاف ، وتؤدي خدمات عامة ، وبها الكثيـر مـن الأسـواق والجوامـع والمدارس ، والمشافي ، واستراحات للضيافة وطرق وجسور .

وتعد هذه العمارات جزءاً أساسياً في خطط كل المدن العثمانيـة ، ممـا كـان يعطيها طابعها المميز ، بل أنها حتى وقت قريب كانت لا تزال تميز المدن والبلدان في الأناضول والبلقان (١) .

ولم يكن اهتمام العثمانيين قاصراً على العاصمة (اسطنبول) وإنما شيدوا العديد من الآثار في شتى المدن التي قاموا بفتحها ، مثل اليونان والمجر وبلغاريا والبلقـان ، ورومانيا .

وفي القرن (١٠هـ/١٦م) بلغت الدولة العثمانية شأناً سياسياً عظيماً ، وانعكـس ذلك على المجال العمراني وخاصة في عهد السلطان (سليمان القانوني) الذي شـهد عصره نهضة عمرانية تمثلت في كثرة أعداد المرافق والآثار المعمارية (٢) . فقد كان هذا السلطان أعظم حماة الفنون في عصره والعصور التالية ، وكان إلى جانب مهارته في قرض الشعر وصياغة الذهب ، إدارياً وقائداً عسكرياً وشرعياً عرف فـي تركيـا بلقب (القانوني) وفي أوروبا بلقب (العظيم) ، وقد نجح في توسيع حدود دولته مـن

---

(1) انظر : خليل اينا لجك : تاريخ الدولة ، ص ص٢١٩ ، ٢٢١ ؛ أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، بحـث لآسين أطيل ، ج٢ ، ص٧٠٢ ؛ اوقطاي آصلان : فنون الترك ، ص ص١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ .

(2) Suut Kemal Yetkin : Islam sanatl Tarihi Guven Basimevl , Ankara , 1954 , s. 287 .

تبريز إلى فيينا فعمل على طاب الصناع والحرفيين من اتجاهات ثقافية مختلفة ، فكـان عهده العهـد الذي توفرت فيه كافة العوامل الثقافية والاقتصادية اللازمـ ـة لنهـضة الفنون ، فرأينا كبار المهندسين من أمثال سنان ، وقره حصاري ، وشـاقولي ، وقـره ممي ، وغيرهم [1] .

ويمكن القول أن العمارة العثمانية بلغت ذروتها في هذه الفتـرة مـع عبقريـة المعمار(سنان) .

درس سنان بمدرسة عسكرية ابتدائية تسمى بمدرسة (عجمي اوغلانلي) وتلقى فيها تعليمه الأول ، ثم تخصص في قسم النجارة ، كما تلقى في هذه المدرسة دراسـاته النظرية على يد المتخصصين العسكريين ، وتحت إشراف هؤلاء أيضاً عمل (سنان) عاملاً معمارياً في بناء الجوامع ، والحمامات ، وسبل المياه ، والخانات . غير أن الذي أثرى ونمى تجربته الفنية ، هو اشتراكه في الحروب العثمانية في الشرق وفي الغرب ، حيث شاهد آثار البيزنطيين في العاصمة العثمانية ، وآثار السلاجقة ، وفـن العمـارة السلجوقي في الأناضول [2] . وهكذا يمكننا إدراك العلاقة بين ازدهار حركـة الفـتح والازدهار الفني والعمراني ، فكلما كانت حركة الفتح على أشدها ، كان لذلك أثره على تنوع الفنون واستمرارها بل وتجدد أساليبها وتنوعهـا بفـضل التقـ ـاء الحـضارات وامتزاجها .

أما عن أهم الأعمال التي خلدت ذكر المعمار (سنان) فمنهـا إيـصال الميـاه للعاصمة العثمانية بدلاً من تحمل عناء حمل المياه إليها ، ونظراً لخبرتـه فـي علـم الهندسة استطاع (سنان) حل هذه المشكلة في عام (٩٦٤هـ/١٥٥٤م) وذلـك عـن طريق عيون الماء ، فبنى في كل حي عيناً تستمد مياهها مباشرة من منابع الماء .

وتبلغ الآثار التي خلفها (سنان) (٤٤١) أثراً موزعـة فـي مختلـف أرجـاء الدولـة [3] .

---

(1) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، بحث لآسين أطيل ، ج٢ ، ص٧٠٦ .

(2) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ ، ص٤٤٨ .

(3) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٥٤٠ ؛ محمد حرب : العثمانيون ، ص٤٤٦ .

ويعتبر جامع السليمانية أعظم أثر معماري لسنان وهو جامع ذو أربعة منـائر ، ومما يميز أسلوب شأن في هذا الأثر المعماري ، هو تحوله للمرة الأولى إلـى فكـرة تخطيط المسجد ذي النصفي قبة ، كما اجتهد في الوصول إلى انجـح النـسب لإقامـة المسجد الجديد من خلال دراسة متأنية ودقيقة لكل من كنيسة آياصوفيا ومسجد السلطان بايزيد . وكذلك ألحق بهذا الجامع مرافق أخرى ، نسقت بأسلوب جديد وبمفهـوم واع لنظريات بناء المدن ، جوهره الاستفادة المثلى من مدرجات الربوة التي تشرف علـى القرن الذهبي [1] .

إن مهارة المعمار (سنان) وابتكاراته وكثرة الآثار التي بناها في مختلف أنحاء الدولة جعلته يستحق منصب " كبير معماري الخاصة السلطانية " ليكـون بـذلك أحـد الأعلام المشهورين في القرن (١٠هـ/١٦م) من عمر الدولة العثمانية .

ومع حلول منتصف القرن (١٠هـ/١٦م) تدخل العمارة العثمانية فيمـا يعـرف بالعهد التقليدي ، حيث احتفظت بسماتها حتى منتصف القرن (١١هـ/١٧م) ، ولعـل تسمية هذا العهد بالتقليدي جاء من هذا الاحتفاظ .

ومن أهم ما يميز العمارة في هذه الفترة هو استمرارها على عظمتها بعد وفـاة المعمـار (سنان) وتجلت هذه العظمة في جـامع الـسلطان (أحمـد الأول) فـي اسطنبول ، وهو الجامع الذي استخـدم فيه الخزف الأزرق بكثـرة حتى عرف باسـم (الجامع الأزرق) ، وقـد بناه المعمـار (محمد آغا الصداف) الذي تتلمـذ على يد (سنان) وتلميذه (داوود آغا) ويعد من أرحب المساجد السلطانية ، كما أنه أكثرهـا مآذناً ، إذ يحتوي على ستة مآذن ، وقد تكررت به الأفكار التي ابتـدعها (سـنان) ، ولكن بروح جديدة للغاية ، وذلك من حيث شيوع استخدام أنصاف القباب ، وفي النوافذ وهيئة عقودها وفي نسبها وأبعادها ، هذا فضلاً عن الزخـارف البديعـة ، وبلاطاتـه الخزفية الفيروزية اللون ذات الكتابـات القرآنية المذهبة ، وتحـيط بالجـامع مرافـق

(1) اوقطاي آصلان : فنون الترك ، ص١٩٨ ، وللمزيد من المعلومات عن المعماري (سنان) . انظر : حـسن الباشا : موسوعة العمارة والآثـار والفنون الإسلامية ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، مكتبة الدار العربية للكتـاب ، ط١ ، مج٢ ، ص٦٩ .

حيوية ، كالمدرسة ، ودار المرق ، والمستشفى ، والسوق ، غير أن معظم هذه المرافق قد لحق به الخراب [١] .

إذن فكما كانت الدولة العثمانية تحاول الاحتفاظ على مجدها السياسي والعسكري فقد كانت في الوقت نفسه تعمل على الاحتفاظ بما وصلت إليه من ازدهار عمراني ، الأمر الذي يدل على الارتباط بين مستوى حركة الفتح وبين الحركة العمرانية .

وكذلك انعكس الواقع السياسي الذي عاشته الدولة في تلك الفترة على حركة العمران ، ففي الفترة التي شهدت تدخل نساء السراي من أمهات السلاطين وزوجاتهم في شؤون الحكم كان لذلك أثره على مجالات أخرى ، فعلى سبيل المثال كشفت نساء القصر عن شوكتهن من خلال إقامة المجمعات المعمارية الضخمة التي تتكون من عدة أبنية ذات أغراض تعليمية وتجارية تلتف حول جامع كبير . وأكثر هؤلاء الأمهات نفوذاً ثلاث سيدات شاركن في إقامة الجامع الجديد (يكي جامع) ، أولهن السلطانة (صفية) [٢] والدة (محمد الثالث) إذ أمرت بإنشائه عام (١٠٠٧هـ/١٥٩٨م) ، لكنها توفيت فتوقف البناء ، ثم جاءت الثانية ، وكانت السلطانة (ماه بيكر كوسم) والدة (مراد الرابع) و (إبراهيم الأول) وجدة (محمد الرابع) ، لكنها توفيت عام (٩٦٩هـ/١٥٦١م) ، فقامت زوجة ابنها السلطانة (خديجة طورخان) بتولي الأمر ، فجعلتهم يسرعون في البناء من جديد حتى تم عام (١٠٧٤هـ/١٦٦٣م) ، وكما شهد الجامع الجديد عهد ثلاثة من أمهات السلاطين ، فقد شهد أيضاً اثنين من المعماريين الذين خلفوا (سنان باشا) وهم (داوود آغا) ، ثم جاء من بعده شيخ المعماريين (مصطفى آغا) [٣] .

---

(1) تم التطرق إلى وصف مسجد السلطان أحمد الأول باختصار ، ويعد المثال الأول والأفضل لهذه الفترة ، وللمزيد من التفصيلات عن الأساليب المعمارية لهذا المسجد ، انظر : اوقطاي آصلان : فنون الترك ، ص ص٢٠٧ ، ٢٠٨ ؛ محمد حمزة : العمارة الإسلامية ، ج١ ، ص ص٢١٧ ، ٢١٨ ؛
Omer Faruk : Belgelerle Osmanli , cilld . 2 , p.275 .

(2) تم التعريف بها في الفصل الثاني .

(3) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، بحث لآسين أطيل ، ج٢ ، ص٧٢٢ ، ويذكر محمد حمزة الحداد إن المسجد بني تحت إشراف : ثلاثة من المعماريين وهم : (داوود آغا) ، و (أحمد الغطاس) ، و (مصطفى آغا) .

أما عن الجامع ، فهو يشبه جامع السلطان (أحمد الأول) وذلـك مـن حيـث ممارسة أسلوب التخطيط لعمل أربعة أنصاف قباب ، وبناء القبة الضخمة . ويستـشف الزائر لهذا الجامع ما كانت تتمتع به السلطانة (خديجة طورخان) من شعور مرهـف حساس يدل عليه اختيارها للزخارف الداخلية ، والعقود الصغيرة والكبيرة المنسقة فـي الواجهة الجنوبية ذات الطابقين ، وصنجات العقود الموجودة بالصحن والمصنوعة من لونيني مختلفين من الحجر ، والأعمدة الحجرية الملونة ، والزخارف الرقيقة التي تزين الشاذروان [1] .

ومن الجوامـع التي تبرز دور سيـدات القصر العثمانـي (جنيلي جامع) أو (جامع الخزف) وهو من الخيرات التي تركتها (ماه بيكر كوسم) .

يقع هذا الجامع في حي (مراد رئيس) بمنطقة (اسكدار) باسـطنبول ، وقـد أنشأ في عام (١٠٥٠هـ/١٦٤٠م) وأشرف على بنائه رئيس المعماريين آنذاك (قاسـم آغا) .

وتبلغ مساحة المسجد من الداخل (٩,١٢م×٩,١٦م) وهو مربع الشكل ، به قبـة واحدة ، وصحن المسجد كله ما عدا الناحية الموجودة بها القبلة مغطى بسقف خـشبي يستقر على عشرين عموداً مرمرياً ، وهيكل جسم الجامع مبني على أسـاس مرتفـع يصعد إليه بدرج من الناحية الشمالية والناحية الغربية ، ويوجد المدخل فـي الحـائط الشمالي للمسجد ، وعلى جنبيه توجد نافذتان مزينتان بالقاشاني ، والمسجد بشكل عـام حافلٌ بأساليب معمارية جمالية ، كقطع القاشاني التي تزين النوافذ والـصحن ، والتـي رسم عليها نماذج رائعة للأزهار ، والتي تعد إلى جانب جمالها آخـر نمـوذج لفـن الخزف التركي الكلاسيكي . هذا بالإضافة إلى النقوش الخطية الجميلة المكتوبة بقطـع الصيني الصغيرة . أما منارة المسجد فتحتل مكاناً من الناحية اليمنى للمـسجد وهـي منارة ذات شرفة واحدة . وكغيره من المساجد الموقوفة ، ألحق بجنيلي جامع مدرسـة تقع بالزاوية الجنوبية الشرقية للفناء ، وحماماً لا يقل جمالاً وغني بالأساليب الجماليـة

---

(1) اوقطاي آصلان : فنون الترك وعمائرهم ، ص٢٠٩ .

التي تدل على الفخامة والذوق الرفيع [١] . وتعتبر هذه الجوامع شواهد واضحة على أن الفنون الزخرفية التقليدية لم تفقد رونقها وقوتها بعد .

ومن المهم الإشارة إلى أن بناء هذا الجامع قد تزامن مع الأزمة الاقتصادية التي عانت منها الدولة [٢] . ولعل ذلك ما يفسر عجز السلاطين عن إقامة الأبنية التي تخلـد عهودهم فيما بعد .

ويبدو أن جامع (السلطان أحمد الأول) ، و (الجامع الجديد) هما آخر ما بني من نماذج للنمط الأخير للتخطيط المركزي في العمارة الإسـلامية عامـة والعمـارة الإسلامية بشكل خاص [٣] . خاصة إذا أخذ بعين الاعتبـار مـرور الدولـة بـبعض الأزمات التي سبقت الإشارة إليها . ويذكر أن هناك تراجع ملحوظ في مستوى الأعمال التي أنتجت في النصف الثاني من القرن (١١هـ/١٧م) . وذلك مـن حيـث جودتهـا ومقدارها وأصالتها ، فإذا كان دأب السراي على امتداد القرن (١٠هـ/١٦م) وأوائـل القرن (١١هـ/١٧م) أن يحمي الفن والفنانين بسخاء ، فقد تضاءل كل ذلك مع النصف الثاني من هذا القرن ، ويعزى ذلك إلى قلة السلاطين الأقوياء الـذين تعـاقبوا علـى الحكـم ، فضلاً عن التدهور الاقتصادي الذي حـل بالبلاد بسبب كثرة الحروب فـي جبهات متعددة [٤] . وتجدر الإشارة إلى أن النصف الثاني من القـرن (١١هـ ـ/١٧م) شهد ظهور رجالٍ أفذاذ من أسرة (كوبريللي) والتي حافظت على مجد الدولة فترة من الزمن ، غير أن ما توفر من مصادر للبحث لم يرد به ما يفيد اهتمـام هـذه الأسـرة بالناحية العمرانية ، وهذا لا يدل بالضرورة على إهمالهم لهذا الجانـب ، خاصـة وأن الصدور العظام وكبار رجال الدولة كثيراً ما يعمدون إلى ترك ما يخلد ذكـرهم مـن

---

(1) أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين صورة للتـضامن الاجتماعي والديني خلال العصر العثماني (١٠٢٦هـ ـ-١٠٤٩هـ ـ/١٦١٧م-١٦٣٩م) ، مجلـة المـؤرخ المصري ، العدد ٢٤ ، يناير ٢٠٠١م ، ص٢٩١ .

(2) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، بحث لآسين أطيل ، ج٢ ، ص٧٢٢ ، ويذكر أن بناء الجامع قد كلـف ما يوازي أربعمائة مليون دولار حالياً . انظر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة ، ج٢ ، ص٥٤٢ .

(3) محمد حمزة : العمارة الإسلامية ، ج١ ، ص٢١٧ .

(4) أكمل الدين أوغلي : الدولة العثمانية ، بحث لآسين أطيل ، ج٢ ، ص٧٢٣ .

مرافق عمرانية وذلك اقتداء بالسلاطين ، ورغبة في الأجر والثواب من ا عز وجل ، وسعياً إلى تحسين أوضاع الرعايا .

ولعل الأسباب في نقص المعلومات بهذا الصدد تعود إلى أن اهتمام المـصادر ينصب – في الغالب – على ما ينشئه السلاطين من عمائر ، وآثار ، ومن ناحية أخرى فإن ذكر مسمى (كوبريللي) يفرض في أغلب الدراسات الاهتمام بالأدوار الـسياسية والعسكرية التي قام بها أفراد هذه الأسرة .

تناول العرض السابق مراحل عمارة المساجد العثمانية حتى فترة البحث وذلـك بشكل مجمل ، وما ذكر عن المساجد يمكن أن يقال عن المرافق العمرانيـة الأخـرى الدينية منها والمدنية والعسكرية .

ولم تكن عناية الدولة قاصرة على اسطنبول ، بل كانت موجهة إلى كافة المـدن التابعة لها في القارات الثلاث ، ويدل على ذلك الرحلة التي قام بها الرحالة العثمـاني المعروف بـ (أوليا جلبي) إلى أنحاء الدولة ، وقدم وصفاً عمرانياً دقيقاً للآثار التـي مر بها .

والحق أن المدن العثمانية كانت أمثلة حية للمدينة المتكاملة ، حيث تمكنـا مـن عرض موجز للجوانب الحضارية غير العسكرية في فترة الدراسة وهذا رد على مـا قيل عن الدولة العثمانية إنها أفرزت حضارة عسكرية فقط ، فالعمارات تمثل التخطيط الأساسي لهذه المدن مما كان يعطيها طابعاً مميزاً ، بل إنها حتى وقتٍ قريب كانـت لا تزال تميز المدن والبلـدان في الأناضول والبلقـان . فقد كانـت كل مدينـة تحتـوي علـى جامـع كبير ، وبزستان ، الأمـر الذي أعطـى لبعـض المـدن أهميـة تجاريـة واقتصاديـة ، ومن أمثلة هذه المدن (تارتار بازارجيك) ، و (بلوفديف) ، و (سرابيفوا) ، و (صوفيا) ، و (اسكوب) ، و (سالونيك) ، هذا فـضلاً عـن الاهتمام بالطرق التي تربط بين المدن التجارية ببعضها ، والتي تـربط هـذه المـدن بالعاصمة اسطنبول [1] . فمنذ سقوط الإمبراطورية الرومانية لم تهـتم أي دولـة فـي أوروبا مثل اهتمام العثمانيين بالطرق ، وذلك من حيث ترميمهـا ، وبنـاء الخانـات

(1) خليل اينالجيك : تاريخ الدولة ، ص ص٢٢٠ ، ٢٢٥ .

واستراحات القوافل والآبار والبرك والمصليات في إطـار الأوقـاف التـي يرعاهـا السلاطين ورجال الدولة .

ورغم ما يذكر من المحاولات التي تبذلها الدولة للحفاظ على الأمن فـي هـذه الطرق ، إلا أن هذه الطرق لم تعد آمنة كما كانت فـي القـرن (١٠هـ ـ/١٦م) . إذ أصبحت الدولة غير قادرة على التخلص من العصابات الكبيرة المسلحة بالبنادق ، فعلى سبيل المثال كان قطاع الطرق المعروفون (بالهايدوك) يقومون بغارات سلب للمارين بطريق (بودا – بلغراد) كما كانوا يتعرضون لأموال الدولة ، وكذلك ظهر في عـام (١٠٥٦هـ ـ/١٦٤٦م) أحد قطاع الطرق ويسمى (حيدر أوغلوا) في المناطق الجبليـة بالقرب من اسكي شهر ، وكذلك قام أحد قطاع الطـرق المـسيحيين بـالهجوم علـى البزستان في (مناستر) على رأس خمسمائة من رجالـه ، دون أن يلقـى مقاومـة تذكـر [1] . الأمر الذي يدل على تأثر عناية الدولة العثمانية بالطرق وذلك لانـشغالها بالحفاظ على وضعها السياسي والعسكري فضلاً عن الضغوط الاقتصادية التي أشـرنا إليها في هذه الرسالة .

وكانت السنوات التي تلت عام (١٠٩٥هـ ـ/١٦٨٣م) ، وعـام (١١١١هـ ـ/١٦٩٩م) بداية لتغيير جذري ستشهده الدولة العثمانية في كافة نواحي الحياة ، وسيكون لهذا التغير انعكاساته على الناحية العمرانية ، فمن أهم سمات هذه الفترة التـي تمثـل نهاية القرن (١١هـ/١٧م) وبداية القرن (١٢هـ/١٨م) اعتراف العثمـانيين بأوروبـا كقوة منافسة بدأت تأخذ حيزاً من اهتمام الحكام العثمانيين ، ومن ناحية أخرى كانـت الدولة قد وصلت إلى مرحلة الإنهاك العسكري ، وكان الوضع يفرض على العثمانيين التوجه للسلام ، فنتيجة لهذين العاملين بدأ التوجه العثماني للأخـذ ممـا وصـل إليـه الأوروبيون ، وذلك خلال حكم السلطان أحمد الثالث .

ويذكر أن تطوراً ذا طابع أوروبي قد بدأ يطرأ على أسلوب العمـارة العثمانيـة بفضل جهود الصدر الأعظم (داماد إبراهيم باشا) ففي عـام (١١٣٣هـ ـ/١٧٢٠م) سافر (يكرمي سكيز جلبي) إلى باريس على رأس وفد من ثمانين شخـصاً ، وعـاد

---

(1) نفس المرجع : ص ص ٢٢٧ ، ٢٣٠ .

بتقارير إلى السلطان توضح مشاهداته بفرنسا ، كما أحـضر الوفـد معـه رسـومات وتخطيطات للقصور والحدائق الفرنسية ، وصادف ذلك وجود رغبة لدى السلطـان في إقامة قصور واستراحات وحدائق في المنطقة على القرن الذهبي والبسفور ، واسـتتبع ذلك دخـول تأثيرات أوروبية وتحولت بذلك كل الأنظار إلى أوروبا ، وكان لذلك أثره في انحسار أسلوب العمائر الضخمة وفتح الطريق لتجميل اسطنبول بطـابع الأسـاليب الأوروبية المحدثة [1] .

وهكذا نجد أن فن العمارة العثمانية قد شهد تطوراً سريعاً موازياً لسرعة الفتح ، وخاصة في عهد القوة السياسية وازدهار الأوضاع الاقتصادية . حتى وصـلت إلـى ذروتها على يد المعمار المعروف (سنان) . غير أن من جاء بعده كـان مقلـداً لـه متمسكاً بما توصل إليه ، مع قلة الابتكار ولهذا أطلق على هذا العهـد مـسمى العهـد التقليدي الثاني .

وانتهى الأمر إلى التراجع الملحوظ في فن العمارة العثمانية ، ولعل ذلك بـسبب الأزمات السياسية والاقتصادية التي مرت بها الدولة .

وهذا ما يجعلنا ندرك أن انعكاسات توقف حركة الفتح فـي ق (١١هـ ـ/١٧م) على الناحية العمرانية تختلف عنها الناحية العلمية المشار إليها سابقاً .

ومع توجه الدولة نحو إقامة علاقات سلمية مع الغرب وتوقـف سياسـة الفـتح والاستزادة ، فإن الأساليب العمرانية الأوروبية وجدت طريقها إلـى الفـن العمرانـي العثماني ، فبدأت بفرض نفسها لتدخل العمارة العثمانية فيما عرف بدور التجريب .

---

(1) اوقطاي آصلان : فنون الترك ، ص ص٢٠٩ ، ٢١٠ .

الخاتمة ونتائج البحث

الخاتمة ونتائج البحث :

وفي ختام هذا الجهد المبذول ، أقول أنه ليس بخاتمة ، ولكنه بداية وعلى الأقل إحدى البدايات والخطوات على الطريق لدراسة جوانب مهمة في تاريخ الدولة العثمانية بنظرة متوازية ومحايدة بعيداً عن إفراط المدحضين لها ، أو تفريط المتحاملين عليها ، وهي توجيه ودعوى لاستكشاف كنوز التاريخ العثماني من مصادره وما تحمله من حقائق ما زالت غائبة على الكثير ، وما تطويه من صفحات تحتاج إلى جهود العديد من الباحثين لنشرها .

فتاريخ الدولة العثمانية في القرن (١١هـ/١٧م) جدير بتركيز الاهتمام ، وذلك لفهم كثير من الموضوعات المتعلقة بوضع الدولة العثمانية في أوروبا فقد صنعت الفتوحات من الدولة العثمانية قوة لا يستهان بها في القارات الثلاث ، وفرضت نفسها حتى أصبحت طرفاً مهم في السياسة الدولية ، واستطاعت أن تنقل ساحة الجهاد إلى مناطق جديدة في القارة الأوروبية ، وهو تطور كبير في تاريخ انتشار الإسلام ، وكذلك في تاريخ العلاقات الإسلامية الأوروبية .

ولكن مع بداية القرن (١١هـ/١٧م) سلك هذا التطور مسلكاً آخر ، فمن خلال تتبعنا لأحداث هذه الفترة اتضح لنا أن حركة الفتح العثماني في أوروبا وهي – عماد الدولة – قد أصيبت بالتعثر ، وفقدت سرعتها التي كانت تعرف بها ، كما واجهت مصاعب كثيرة سواء في الحروب التي خاضتها في النصف الأول من القرن (١١هـ/١٧م) ضد النمسا ، أو في الحروب التي خاضتها لفتح جزيرة كريت ، وكذلك الحروب التي خاضتها لتأمين شمال البحر الأسود ، وهذه المصاعب هي إحدى أهم معوقات حركة الفتح .

فالبابوية لا تفتأ تحيك المؤامرات لشن المزيد من الحملات الصليبية ضد الدولة العثمانية وهي ليست حملات عسكرية وسياسية فقط ، بل إنها نالت من أحد الصدور العظام ، وحاولت استقطاب بعض الأمراء الموالين للدولة العثمانية . كي تحيط بها من الداخل والخارج ، ومن ناحية أخرى فإنه قياساً بالفترات السابقة من التاريخ العثماني

فإننا نجد أن محاولات العثمانيين لتوظيف الصراعات الأوروبية لصالح حركة الفتح لم تكلل بالنجاح دائماً ، بل إنها أصبحت تواجه حملات صليبية أكثر وعياً بقوة الدولـة ، وكان ذلك واضحاً في المعاهدات التي كبلت الدولة العثمانية كمعاهدتي (سيتيفاتوروك) و (كارلوفتس) وهما معاهدتان لهما أبعاد سياسية ودينية واقتصادية ميزتهمـا كـأول معاهدتين قام العثمانيون بتوقيعهما رغم تناقض بنود كل منهما مـع مـصالح الدولـة العثمانية .

ومن خلال هذا البحث أيضاً نلاحظ أن العوامل السياسية لم تكن الوحيدة والتـي تسببت في توقف حركة الفتح ، بل إن العوامل العسكرية تأتي في المقام الثاني إذ تبين لنا من خلال أحداث هذه الفترة إن القطاع العسكري أصبح يفتقر إلى الكفـاءات التـي لمعت سابقاً ، كما تراخت الروح الجهادية في الجيش العثماني ، فوقع القادة العسكريون فـي أخطاء إستراتيجية دلت على عدم خبرتهم في إدارة الحروب وخاصـة البحريـة منها ، وعلى الصعيد الداخلي فقد استشرى العصيان والتمرد فـي صـفوف القـوات العثمانية ، وقد أوضحنا ذلك في الفصلين الثـاني والثالـث بـل إن مركـز الخلافـة (اسطنبول) أصبح مسرحاً لهذه الحركات حتى وصل الأمر إلى استهداف الـوزراء ، وقتل السلاطين ظلماً . وكان هذا البحث فرصة مناسبة لبيان الظلم الذي حاق بـبعض السلاطين الذين قتلوا بعد أن اتهموا بعرقلة حركة الفتح ، والواقع إن توقف عملية الفتح له علاقة بالضعف الذي طرأ على مركز السلاطين في هذه الفترة ، وقد حاولت قـدر الإمكان توضيح هذا التغير الذي ذهب بهيبة السلطان أمام جنده في الفصل الثاني مـن هذا البحث خاصة وأن هناك من وصف بالجنون ظلماً في بعض المصادر .

إن النظرة الفاحصة المنصفة تقتضي إبراز الأسباب والضغوط الخارجية التـي تعرضت لها الدولة ، وأثرت عليها تأثيراً سلبياً ولعـل مـن أهـم هـذه الـضغوط ، المصاعب الاقتصادية التي واجهتها الدولة ، والتي عالجها الفصل الثالث من هذا البحث فقد حرصت الدول الأوربية على وضع بنود اقتصادية في كل معاهدة توقعها مع الدولة العثمانية ، وكانت الدولة العثمانية تبحث عن مخرج من هذا الوضع الذي تحول بفعـل

الوقت إلى أزمة اقتصادية ذات أبعادٍ داخلية وخارجية ، وكانت الوسائل التـي لجـأت إليها للتخفيف من حدة هذه الأزمة قد تحولت إلى مشكلاتٍ جديدة .

وتبين للقائمين على الدولة أن المشكلة كانت أكبر من إيجاد حلٍ سريعٍ لها ، بل إنها تتطلب حلاً جذرياً قد يمس الأسس التي بني عليها الاقتصاد العثمـاني وبالتـالي ، فإن انخفاض مستوى المعيشة قد مس الجند وكافة فئات الشعب ، وترتب علـى ذلـك الأضرار التي لحقت بهذه الفئات وفي المقابل فإن الدول الأوروبية قد استفادت بـشكلٍ واسع من المعاهدات الاقتصادية والامتيازات التي وقعتها مع الدولة العثمانية ، والتـي أسهمت في النهوض باقتصاديات هذه الدول ، ورغم ذلك فإن هذه الدول كانت تـستغل هذه الامتيازات استغلالاً سيئاً بل إنها شيئاً فشيئاً أصبحت تعمل علـى عرقلـة جهـود المصلحين العثمانيين في هذا المجال وذلك سعياً منها لفرض التبعية الاقتصادية علـى الدولة العثمانية .

ورغم كل ما ذكر سابقاً من سلبيات هذه الفترة ، فإنها لم تكن تخلو من جوانـب مضيئة ، مما يدل على أن الخلل الذي طرأ على الدولة في القرن (١١هـ/١٧م) كـان نسبياً ولم يكن شاملاً . بل أن الأوضاع المذكورة سابقاً كانت بمثابة ناقوس الخطر الذي نبه علماء الدولة والقائمون عليها إلى ضرورة الإصلاح ، وهو ما يعني أن الدولة مـا زالت تحمل بذور الإحياء ومحاولة النهوض . ولقد ظهر ذلك مع الجهود التـي بـذلها علماء الدولة في سبيل الإصلاح .

ولقد بينا في الفصل الثاني من البحث أهم سمات حركة الإصلاح فـي هـذه الفترة ، وكيف أن القائمين على الدولة كانوا يبحثون عن مخرج من الأزمـات عبـر رسائل وتذاكر الإصلاح .

ولعل من سمات هذه الفترة وما ظهر بها من أزمات أنها كانت فرصة لإعـادة النظر في السياسة الخارجية للدولة في هذا الدور من تاريخها ، كان ذلك واضحاً فيمـا يتعلق بسياستها تجاه شمال البحر الأسود إزاء نمو وتوسع قيصرية روسـيا ، وكـذلك سياستها إزاء كل من فرنسا وانجلترا . أما على النطاق الداخلي فقد كان على الدولـة

إعادة النظر في سياستها المالية والعسكرية وتنظيم المجتمع . وتجديد بعض النظم دون الحياد عن أسسها الإسلامية التي قامت عليها .

فعلى سبيل المثال وجد العثمانيون صعوبة في تحسين الأوضاع الاقتصادية عن طريق غنائم الفتح ، فكان هذا الوضع سبيلاً للالتفات إلى التصنيع للنهوض بالاقتصاد من جديد ، كما كان سبيلاً لوضع ميزانية الدولة على أسس جديدة بمقاييس ذلك العصر.

ولعل من الجوانب المضيئة التي توصل إليها البحث ، أن هناك منجزات عثمانية عسكرية مهمة تدل على بلوغ العسكرية العثمانية قمة التطور في تلك الفترة ، سواء في التجهيزات أو الاستراتيجيات وذلك حتى بداية النصف الثاني من القرن (١١هـ/١٧م) ، وكذلك ظهر من السياسيين العثمانيين من يستحق تخليد ذكره كأحد السياسيين المحنكين في الإسلام . ولعل الصدر الأعظم (محمد كوبر يللي باشا) وأبناءه يعدون خير مثالٍ على ذلك .

ولم تخل الحياة العلمية في القرن (١١هـ/١٧م) من الإبداع فقد أشرنا في الفصل الثالث إلى الأطباء والفلكيين والمفكرين السياسيين الذين تركوا منجزات شتى سواء في مجالات الجراحة أو تصنيع الأجهزة الفلكية أو المؤلفات . وتعد هذه المنجزات مفخرة لتاريخ العلم الإسلامي في العهد العثماني كما كان هذا البحث محاولة لإبراز الطرز العمرانية في العهد العثماني والتي تطورت حتى القرن (١٠هـ/١٦م) ، ثم اقتصر المعماريون العثمانيون وتركزت جهودهم على ضرورة الحفاظ على ما سبق من طرز عمرانية مع إضافة يسيرة . مما يعطي عصر التوقف سمة أخرى وهي الحفاظ على الأصالة والإبداع الذي وصل إليه العمران العثماني . فكانت هناك آثار ومساجد ومنشآت إسلامية تشهد روعة تصميمها وزخرفتها على براعة العثمانيين في هذا المضمار ، وتدحض افتراءات من يدعي أن الدولة العثمانية هي دولة عسكرية محضة ، ولا علاقة لها بالحضارة .

وأخيراً فإن من أهداف هذا البحث تذكيرنا كأمة إسلامية بضرورة الحفاظ علـى ما أفنى العثمانيون أعمارهم لإنجازه في هذه القارة ، وضرورة المحافظة على وحـدة العلاقات بين الشعوب الإسلامية التي يجمعها تراث إسلامي عريـق رغـم اخـتلاف الأماكن وتباعدها ، بعد أن كانت أرضاً إسلامية موحدة ، والوقوف أمام ما يجتاح هذه الأماكن من تدمير للآثار الإسلامية ، ومحاولات لمحو الهوية الإسلامية .

والله ولي التوفيق ،،

الملاحق

- نصوص المعاهدات .
- جدول بأسماء السلاطين الذين جلسوا على العرش العثماني في القرن (١١هـ/١٧م) .
- الخرائط .

١- بنود الامتيازات والمعاهدة التجارية الموقعة بين الدولة العثمانية وفرنسا في عام (١٠١٣هـ/١٦٠٤م)

١- يكون السفراء الذين سيرسلهم الملك إلى الباب العالي من رعايا الملك ويتم استقبالهم بمراسم شريفة تليق بهم . كما يتم استقبال التجار الذين يفدون إلى موانينا باستقبال حسن ، ونفس الشيء ينطبق على القناصل الذين ترسلهم فرنسا إلى استانبول ، يجب استقبالهم بما يليق ، وتجب على الدولة رعايتهم .

٢- يجب أن تطبق بنود كل الاتفاقية حرفياً ، بالإضافة إلى الاتفاقية التي وقعت بين فرنسا وبين جدي السلطان محمد .

٣- يستطيع كل من البنادقة والإنجليز ممارسة الأعمال التجارية في بلادنا وموانينا بحرية تامة وهم يرفعون أعلامهم ، أما بقية الدول كالأسبان ، والبرتغاليين ، والكاتالون ، والراجوز ، والجنويين ، والفلورنسيين فيستطيعون ممارسة الأعمال التجارية بحرية في أراضينا ، بشترط أن يكونوا تحت راية فرنسا . كما يكون لهم الحرية في الإقامة في أي مكان من الدولة .

٤- زيارة الأماكن المقدسة في مدينة القدس أمر متروك لحرية ملك فرنسا ورعاياه ، كما يعطى نفس الحق للدول الصديقة لفرنسا ، ولكن عليهم عدم تجاوز حقوقهم وعدم إثارة المشكلات هناك .

٥- يستطيع كل الرهبان والقساوسة الموجودين في كنيسة القيامة بالقدس ممارسة طقوسهم بحرية كاملة ، ولهم الحرية في التنقل أو الإقامة في أي مكان في القدس بناء على الاتفاقية الموقعة بيننا ، وستوفر الدولة لهم الأمن والاستقرار ، ويجب عليهم عدم إثارة المشكلات ، أو الإخلال بنظام الأمن هناك ، بما أن الدولة ستوفر لهم كل سبل الراحة والطمأنينة .

٦- يمكن لشعوب الدول التي على خلاف معنا أن يأتي تجارها للبيع أو الشراء داخل حدود الدولة العثمانية ، بشرط أن تكون تحت راية فرنسا ، هذا باستثناء

البنادقة والإنجليز ، ولو قام السفير الإنجليزي لدينا بـالاعتراض علـى هـذا الامتياز الأخير الممنوح لفرنسا بحجة أنه لم يكن مدوناً في الاتفاقيات الـسابقة التي وقعها أجدادنا فلن يأخذ اعتراضه موضع الاعتبار .

٧- تعتبر كل الأوامر والأحكام التي تصدر على خلاف المادة السابقة غير معترف بها .

٨- يستطيع التجار الفرنسيون جلب كافة الأمتعة والبضائع للتجارة بها في أراضي الدولة العثمانية باستثناء المنسوجات القطنية وجلود الخنزير أو دهنـه ، وقـد صدق جدي (السلطان سليم) على ذلك ومن بعده والدي (السلطان محمد) .

٩- نلتزم بحماية كل القوافل التي تفد إلى أراضينا وحمايتها في مقابل التزام تلـك القوافل بعدم التجاوز ، وإثارة المشكلات ، ويكون هذا البند شاملاً كافة الأمـم التي تأتي للتجارة تحت الحماية الفرنسية .

١٠- لن يقوم موظفو الجمارك عندنا بمصادرة الأموال النقدية الفرنسية التي يجلبهـا التجار معهم .

١١- في حالة وجود بضائع فرنسية على سفن لدول معادية للدولة العثمانية ، فإنه لن تقوم الدولة بمصادرة تلك البضائع ، كما أنه لن يتم القبض على مـن يعملـون بتلك السفن أو مصادرة ما بها ، وسيتم الإفراج عن كافة السفن والبضائع التي صودرت حتى كتابة هذه المعاهدة .

١٢- يحظر مصادرة السفن التجارية الفرنسية التي تحمل بضاعة مباعة أو مـشتراه من دولة عدوة للدولة العثمانية .

١٣- تقوم فرنسا بفعل الشيء نفسه مع رعايا الدولـة العثمانيـة الـذين صـودرت بضائعهم وسفنهم ، فيتركون أحراراً دون أي جزاء .

١٤- يحظر مصادرة أي سفينة فرنسية تحمل قمحاً مباعاً من قبلنا . كما يحظر أيضاً القبض على التجار أو مصادرة البضائع الكائنة في مثل هذه السفن ، وكـذلك

يحظر مصادرة أي أموال كائنة في عنبر السفينة ، وبهـذه الـصورة يكـون الفرنسيون المقبوض عليهم أحراراً ، وسوف تعود إليهم سفنهم ثانية .

١٥- لن تصادر أي سفينة فرنسية محملة بأموال تخص دولا معادية للباب العالي في بحارنا بحجة أنها تحمل أمتعة خاصة بالحكومة المعادية .

١٦- لن يطالب من التجار الفرنسيين دفع رسوم على الأمتعة التي يجلبونها من دول أجنبية إلى موانينا البحرية ، وكذلك التي يتم شحنها في هذه المـوانئ ، وذلـك باستثناء الرسوم التجارية ، ولن يتم أيضاً تقدير قيمة هذه الأمتعة بـأكثر ممـا كانت عليه في الماضي .

١٧- أما السفن الخاصة بفرنسا والدول الأجنبية الأخرى والتي تمر بموانينا ، فإنهـا أيضاً غير مطالبة بدفع أي ضرائب أو رسوم بخلاف رسم دخول هذه الـسفن إلى الموانئ وشحن أمتعتها إلى البر . ونظراً لأنه بإمكان الفرنسيين بيع السلع التي جلبوها من الخارج في أي مكان يريدونه فإن لهم الحرية التامة في دخول أي ميناء .

١٨- سوف يعفى الفرنسيون – المذكورون سابقاً – من ضريبة القصابين .

١٩- كما أنه لن تتم مطالبة أحد منهم بدفع أي رسوم على الجلود المشغولة والجلـود المدبوغة .

٢٠- وكذلك لن تأخذ أي رسوم من هؤلاء على جلود الجاموس .

٢١- أيضاً لن يأخذ أي شيء منهم باسم رسم المرور ، كما أن محافظي موانينا لـن يحصلوا أي ضرائب من الفرنسيين .

٢٢- عندما نصادف سفناً فرنسية لا تستطيع مقاومة قراصنة البربر الذين يـسلبون المال ، والبارود ، والرصاص وغير ذلك من المواد فإنه يتم إصـدار فرمـان على الفور يأمر بترك الفرنسيين المقبوض عليهم من قبـل البربـر ، وإعـادة أموالهم إليهم . وذلك طبقاً لمعاهدة الصداقة التـي بيننـا ، وبمجـرد سـماعنا باستمرار حركات القراصنة العدوانية هذه ، وأن ملك فرنسا غير راضي عـن

هذه التحركات ، فإن أمير الأمراء الذي يحكم باسمنا المنطقة التي بهـا هـذه العصابة وما حولها ، وكذلك أمراء الولايات يقومـون بتعـويض الأضـرار والخسائر التي تلحق بالفرنسيين بالإضافة إلى القبض على هؤلاء القراصـنة . وسوف تعد الرسائل التي يبعث بها رعايا ملك فرنسا حـول الأضـرار التـي لحقت بهم من القراصنة رسائل جديرة بالاعتماد والتصديق عليها .

٢٣- وإذا كان قراصنة تونس والجزائر لا يراعون أحكام المعاهـدة المبرمـة مـع أمرائنا بصورة قاطعة ، فإننا نوافق على قيام ملك فرنـسا بـإخراج أسـطول لمعاقبة هؤلاء ، ودخولهم الموانئ الفرنسية ، وإذا كان ملك فرنـسا مـضطراً للجوء إلى التدابير الرادعة والشديدة ضد القراصنة على الوجه الـذي أظهـره آنفـاً ، فإننا نعلن أن الصداقة الكائنة بيننا وبين فرنسا لن يصيبها أي خلـل ، وبهذه المناسبة فإننا أيضاً نصدق على الأوامر التـي أعطاهـا البابـا بـشأن القراصنة .

٢٤- أن هدفنا أن يقوم الفرنسيون المعروفين بأنهم من رعايا ملـك فرنـسا بـصيد المرجان والسمك في مواقع تشملها سيادة إمارتنا ، وفي تونس ، والجزائـر ، وفي سواحل المغرب العربي ، وعدم إعاقة هؤلاء أو منعهم بإحـداث مـشكلة بهذا الشأن . وأننا نصدق ونعتمد الأوامر التي أصدرها أجدادنا ، والبابا بصفة خاصة بشأن كيفية صيد المرجان ، وبهذه الصورة لن يتم أخذ أي شـيء مـن الرعية الفرنسية التي تعمل بالصيد ، باستثناء الضريبة التي كانت تـدفع مـن قبل.

٢٥- يتم إعفاء المترجمين الذين يكونون بصحبة السفير الفرنسي من دفع أي رسوم أو ضرائب .

٢٦- يتوجب على التجار الفرنسيين والتجار الذين يقومون بالاتجار تحـت حمايـة فرنسا دفع الضرائب والرسوم اللازم دفعها للسفير الفرنـسي وقناصـلها دون إحداث أدنى مشكلة .

٢٧- أما رعايانا الذين يشتغلون بالتجارة في دول العدو ، وكذلك الموجـودون فـي سفنهم فإنهم سوف يدفعون أيضاً الرسوم اللازمة لسفير فرنسا وقناصلها بـدون اعتراض .

٢٨- عند حدوث خلاف أو نزاع بين شخصين فرنسيين أو عدة أشخاص بسبب قتل أو جرح أو أي سبب آخر ، فإنه يتم إحقاق الحق وحل هـذه القـضايا طبقـاً للأعراف والقوانين التي تطبق في فرنسا ، وفي هذه الحالة يرجعون إلى سفير وقناصل فرنسا .

٢٩- لن يتم القبض على قناصل فرنسا أو حجز منازلهم لأنهم مكلفون بتحقيق أمـن وسلامة الرعايا الفرنسيين الذين يعيشون في بلادنـا . وعنـدما يـشكو أحـد العثمانيين بشيء ضد هؤلاء الفرنسيين فإن الديوان السلطاني يقوم بإبلاغنا على الفور للقيام باللازم .

٣٠- إن الأوامر التي من الممكن أن تصدر خلافاً لتعهداتنا ووعودنا هـذه سـوف تعتبر في حكم الأوامر المعدومة والتي لا أساس لها من الصحة .

٣١- ينبغي على سفير فرنسا أن يدعو سفراء سائر الدول المسيحية ، وسفير أسبانيا عندما يقوم سفير الملك هنري الذي يقطن في استانبول بزيارة ديواننا العـالي بموجب الصداقة بينهم وبين سلطاننا ليظهروا المحبة والود بشكل أكبر .

٣٢- لن يتم أخذ أي رسوم عن الأمتعة الخاصة بسفراء فرنسا الكائنين في استانبول والتي جلبوها من الخارج .

٣٣- لن تكون هناك أي رسوم أو ضرائب على المـشروبات والخمـور الخاصـة بسفراء فرنسا .

٣٤- يسمح للسفن الفرنسية من بالدخول من وإلى موانينا بحريـة تامـة ، وإذا مـا تعرضت أي سفينة فرنسية لعاصفة أو حادثٍ ما فإنـه يتوجـب علينـا تقـديم المساعدات اللازمة لنجاة هذه السفينة ، كما ينبغي رعايـة واحتـرام الربـان الفرنسي وتلبية جميع مطالبه في مقابل المال الذي يدفعه .

٣٥- وإذا تعرضت أي سفينة فرنسية لحادث ما أو غرقت ، فإن مسئولينا الكبار والصغار سوف يقومون بالعمل لإنقاذها وأيضاً يتوجب عليهم إعادة الأمتعة والممتلكات إلى أصحابها ، وبالنسبة لأفراد السفينة فإنه يمكنهم الاستقرار في بلادنا بحرية تامة طالما أنهم لا يقومون بتصرفات منافية للدين والشرف .

٣٦- وقد عممنا على شعبنا وجيشنا وربان السفن بعدم الاحتكاك بسائر الأجانب الذين يجولون ببلادنا تحت حماية فرنسا في البر والبحر . ومع ذلك فإنه ينبغي على هؤلاء الأجانب دفع رسوم المتعة التي ينعمون بها في موانينا .

٣٧- إن كان هناك عثماني مدين لفرنسي فإنه يمكن للأخير المطالبة بهذا الدين من الشخص المدين أو ممن يكفله .

٣٨- عند وفاة أحد الفرنسيين الموجودين في بلادنا ، فسوف يتم تسليم أمواله وأمتعته إلى الورثة الأصليين طبقاً لما أوصى به قبل وفاته . أما بالنسبة لتركة الفرنسي الذي مات ولم يوص ، فإنها سوف ترسل إلى ورثة الميت عن طريق السفير الفرنسي لدى الباب العالي ، أو عن طريق قناصل فرنسا الذين يقطنون في أماكن أخرى . ولن يعارض ولاتنا ومسئولونا جميعهم مسألة نقل الملكية هذه على ذلك النحو .

٣٩- عند قيام قناصل فرنسا أو رعاياها بأي معاملة تجارية فإنهم سوف ينظمون هذه المعاملة بحضور قاضي المنطقة القاطنين بها ، كما يتوجب عليهم إحضار سائر الوثائق والتعهدات والمقاولات والكفالات ، وعند حدوث مشكلة في نهاية الأمر فإن ظل الجانب المدعي عاجزاً عن إبراز الوثائق المذكورة من أجل إثبات دعوته ، فإنه لن يتم النظر في دعواه كما لن تقبل المحكمة شهادة الذين حضروا ولم يستوفوا الشروط .

٤٠- وإذا كان الذين يدلون بشهادتهم كاذبين من أجل الإيقاع بتاجر فرنسي بحجة عدم انتمائه للدين الإسلامي ، فإن المسئولين المعنيين سيحرصون على عدم إثارة العداء ضد الفرنسي ، وحتى لا يأخذ الأمر صورة قاتمة .

٤١- يسمح للعبيد والرقيق الفرنسيين التواجد في أراضي الدولة العثمانية بشرط أن يصدق السفير الفرنسي أو القنصل الفرنسي على أنهم من الجنسية الفرنسية ، وفي حالة عدم تسليم أصحابهم لهم ، فإنه في تلك الحالة يجب تسليمهم إلى الباب العالي ليقوم بحل مشكلاتهم بالصورة التي يراها مناسبة .

٤٢- وإذا هرب فرنسي متهم بالقيام بعملٍ قبيح بصفةٍ عامة أو عليه دين وخلافه ، فمن غير الممكن رفع قضية ضده ، وسيتم البحث عن الشخص المتكفل بالعقد الرسمي ويكون المطلوب في ذمة الهارب .

٤٣- لا يمكن لأحد أن يعترض على تعيين القناصل الفرنسيين في موانينا بالإسكندرية وطرابلس والجزائر وفي أي مناطق أخرى من الدولة العثمانية بحجة تعيين الأشخاص الأكفاء بدلاً من المعينين سابقاً .

٤٤- وإذا كانت هناك شكوى من قبل فرنسي على أحد العثمانيين ، فإن قضاتنا سينظرون في هذه القضية بحضور مترجم فرنسي ، وفي حالة عدم حضور المترجم فإنه يتم تعليق الجلسة لحين حضوره ، ومع ذلك فإن المترجم الفرنسي الذي يتم تعيينه من قبل القنصلية الفرنسية ملزم بالحضور .

٤٥- عند حدوث نزاع أو خلاف بين شخصين ضمن الرعايا الفرنسيين ، فإن حل هذه القضية سيكون بيد السفير الفرنسي وقناصل فرنسا فحسب ، ويمنع مسئولينا من إعاقة مجريات هذه القضايا بشكل قاطع .

٤٦- عند مرور السفن الفرنسية المحملة بالأموال بميناء استانبول من مضيق الدردنيل ، فإنها تخضع للتفتيش والمراقبة والمعاينة ، ويحذر من معاينتها مرة أخرى في غاليبولي .

٤٧- عند مصادفة سفن حربية فرنسية محملة بالجنود ، فإنه يتوجب على جنود السواري مساعدتهم ، وعدم إلحاق الأذى أو الضرر بسفنهم .

٤٨- يمكن للفرنسيين الاستفادة من الإعفاءات والمساعدات والامتيازات الممنوحـة للبنادقة طبقاً لمعاهدة مؤقتة [١] .

٤٩- يتم العمل على تأمين حماية وسلامة التجار الفرنسيين الذين يفدون إلى بلادنـا وبحارنا وكذلك حماية سفنهم ، ويعاملون كأصدقاء ، وهم أحرار في المـضي بسفنهم إلى أي مكان يريدونه ولن يكون هناك ما يعيق عودتهم إلى بلادهم مرة أخرى .

٥٠- ينبغي على ربان السفن ، ووزرائنا ، وأمراء أمرائنا ، وقضاتنا ، ومحـافظي قلاعنا العمل بما يتفق حرفياً مع أحكام وبنود هذه المعاهدة .

٥١- كل من لا يتقيد بالأحكام الواردة في هذه المعاهدة أو يظهر معارضة تجاههـا ويبدي عدم الطاعة لجانب الدولة ، فإنه بذلك سيعد من الأشخاص الذي يخلون بأمن الدولة ، ويجب على الدولة القبض على هؤلاء الأشخاص وإرسالهم إلـى بلادهم لمواجهة أشد العقوبات ، كما أننا نقر بصحة الاتفاقيات السابقة من عهد السلطان (سليمان) وحتى خلفائه جميعاً .

٥٢- إننا نقسم باسم (جناب الحق الجليل) وبروح أجدادنا العظماء أن لا نقوم بـأي عمل مغير لبنود هذه المعاهدة ، طالما لم يكن هناك أي عمل يخل بها ، وطالما استمرت أيضاً الصداقة بيننا ، وبين ملك فرنسا [٢] .

---

(1) هي معاهدة تجارية ممنوحة للبنادقة في عهد السلطان محمد الفاتح .

(2) نجدت قورداقول : المعاهدات التجارية والامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية ، الناشر : دوار ، استانبول ، ١٩٨١م ، ص ص٦٨ ، ٧٦ .

٢- بنود معاهدة سيتفاتوروك

(١٠١٥هـ/١٦٠٦م)

١- تسدد النمسا غرامة حرب قدرها ٦٧٠٠٠ قطعة ذهبية إلى الدولة العثمانية .

٢- إلغاء الضريبة السنوية التي كانت مقررة على النمسا وكانت تقدر بثلاثين ألف قطعة ذهبية والتي تسمى بضريبة افتخارية ويستعاض عنها بهدية عينية يقدمها الإمبراطور كل ثلاث سنوات .

٣- يدفع الإمبراطور مبلغ سبعين ألف قطعة ذهبية سنوياً إلى الدولة العثمانية كضمان لاستمرار المعاهدة .

٤- تستمر المعاهدة حتى بعد وفاة حاكمي البلدين ، الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا .

٥- أن لا يقوم الجنود العثمانيون بالتعدي على الحدود النمساوية ، وكذلك لا يقوم الجنود النمساويون بالتعدي على حدود الدولة العثمانية .

٦- يمكن لملك أسبانيا الانضمام إلى هذه المعاهدة .

٧- يقبل ملك (أردل) (ترانسلفانيا) الأراضي التي تعطى إليه كما هي .

٨- يتم تبادل الأسرى بين الطرفين .

٩- أي خلاف حدودي ينشأ بين الطرفين بعد ذلك ، فإن ولاة الحدود لدى الطرفين مكلفان بحله بالطرق السليمة .

١٠- تبقى كافة الأراضي التي فتحها العثمانيون في حوزة العثمانيين .

١١- تثبت الحدود على أساس الأراضي الموجودة لدى الطرفين في تاريخ عقد مؤتمر المعاهدة ، وليس هناك أي تبادل في الأراضي .

١٢- تمتنع الدولة العثمانية بعد الآن عن مخاطبة ومكاتبة إمبراطور النمسا بصفة ملك . وتعترف بصفته إمبراطوراً ، وتستعمل هذه الصفة في كافة الوثائق الدبلوماسية .

١٣- يعامل البادشاه العثماني الإمبراطور النمساوي بشفقة مثل معاملته لابنه .

١٤- يتم تبادل السفراء بين الدولتين كل ثلاث سنوات .

١٥- استمرار دفع الضرائب من قبل القرى التابعة لبودين إلى الدولة العثمانية .

١٦- أن يكون الضباط الذين ترسلهم الدولة العثمانية إلى القصر الإمبراطوري من ذوي الرتب العالية ، والتي تعادل رتبة أمير بدلاً من الرتب الصغيرة (١) .

---

(1) Omer Faruk Yilmaz : Belgelerl , s. 270 , 271
Ismail Hakki Uzun Carsili : Osmanli Tarihi , s.94 , 98 .

٣- تعديل بنود معاهدة سيتفاتوروك

عام (١٠٢٤هـ/١٦١٥م)

١- تكون مدة المعاهدة عشرون عاماً .

٢- لنصوص هذه المعاهدة ما لنصوص سيتفاتوروك من أهمية وإلزام .

٣- يخفض عدد القرى التي تدفع الضرائب للعثمانيين من مائة وثمانيـة وخمـسين قرية إلى ستين قرية وهي القرى الواقعة في منطقة استراجون عند الحدود .

٤- يتم تحرير الأسرى الذين تم أسرهم بعد توقيع معاهدة سيتفاتوروك .

٥- يتم هدم كل القلاع التي تم بناؤها بعد توقيع معاهدة سيتفاتوروك .

٦- كل محاولة يقصد بها الإيقاع بين الطرفين لا تؤخذ بعين الاعتبار ، بل تكـون الأمور واضحة عند الطرفين .

٧- تقوم الدولة العثمانية بإصلاح الكنائس والأديرة الموجـودة ، داخـل حـدودها وتسمح بإقامة الشعائر المسيحية عندها .

٨- لا مانع من السماح للأهالي بالانتقال إلى القرى الموجودة على الحدود حتى يتم إعمارها بالشكل اللائق .

٩- يستطيع تجار كلا الطرفين أن ينتقلوا بحريـة تامـة بـين الجـانبين لانجـاز المعاملات التجارية ، ولكن بشرط دفع الرسـوم الجمركيـة وتقـديم التـذاكر المرورية التي يحصلون عليها من أمناء وأمراء الطرق الرئيسية .

١٠- يتم تعميم المعاهدة على الأمراء القائمين على الحدود ، ويتوجب عليهم تطبيقها.

١١- لا يقوم الأمراء أو الضباط بالتجول في القرى من أجل الأعمال المتعلقة بجباية الضرائب ، بل يقوم الأهالي بالقدوم إلى هؤلاء الأمراء لتسليم الضرائب [1] .

Bir Heyet Rarafinndan Hazirlanmis : Mufasal , cild . 3 , s. 1173 , 1174 . (1)

٤- بنود المعاهدة التجارية التي عقدت بين الدول العثمانية وبين جمهورية البندقية في عهد السلطان (محمد الرابع) والمؤرخة بتاريخ (١٠٨٠هـ/١٦٦٩م)

١- لا يحق لبيت المال العثماني التصرف في أموال التاجر البندقي الذي يتوفى في الأراضي العثمانية ، بل تسلم كاملة إلى مستشار السفارة البندقية .

٢- لا يحق لجهورية البندقة إعاقة التجار العثمانيين الـذين يفـدون مـن ليبيـا ، والجزائر ، وتونس للبيع أو الشراء ، ويمرون بالأراضي التي يحكمها البنادقة وذلك بعد استيفاء الرسوم المقررة على البضائع التي يحملونها .

٣- يمنع التعرض لأي شخص يأتي للتجارة من البندقية ويمر بالموانئ العثمانيـة وكذلك إذا كان متجهاً للبندقية أو عائداً منه .

٤- يتم تفتيش السفن البندقية الوافدة إلى الدولة العثمانية أو التي تمر بـالقرب مـن استانبول ، ثم تفتش مرة أخرى عند قلعة المضيق ، ثم يسمح لها بالمرور بعد ذلك . وبما أن المعاهـدات القديمة كانت تقتضي تفتـيش هـذه الـسفن عنـد غاليبولي ، فإنه يسمح لها بالدخول إلى غاليبولي دون تفتيش [١] .

(1) نجدت قورداقول : المعاهدات ، ص١٠٥ .

٥- بنود الامتيازات والمعاهدة التجارية الموقعة بين الدولة العثمانية وفرنسا في عام (١٠٨٤هـ/١٦٧٣م)

١- يحـق للفرنسيين الذيـن يقومـون بزيـارة القدس مقابلـة الرهبان في كنيسة (القيامة) ، ولا يحق للفرنسيين ارتداء الحذاء أو الحرير أو الملابس المحذورة من عهد السلطان (سليم) حتى لا يضروا باتفاقية الصداقة بيننا .

٢- لا يمكن الحصول على أي رسم من التجار الفرنـسيين علـى الأمتعـة التـي يجلبونها إلى بلادنا .

٣- ولا يمكن أسر ربان السفن المأجورين الذين يحملون الجنسية الفرنسية .

٤- ولا يقوم الفرنسيون أيضاً بالقبض على أي سفينة إسلامية تدخل بلادهم ولـيس بها أي ذخيرة حربية ، أو ذاهبة إلى موقع حربي ، ولا يجوز أسر من فيهـا ، ومثل ذلك تماماً يتم ترك الفرنسيين أحراراً .

٥- وإرضاء لملك فرنسا ، فإنه لن يتم وضع أي رسوم جمركية زائدة على الأمتعة التي يأتي بها التجار الفرنسيون من بلادهم ، وإذا رغبوا في الذهاب إلـى أي ميناء لبيع أمتعتهم فإنه لن يطلب منهم دفع أي جمرك عن هذه الأمتعـة ، ولا يطلب منهم أكثر من ٣٠٠٠ أقجة كرسوم لسلامة وأمن هذه الأمتعة .

٦- وعند وصول قراصنة غرب الجزائر إلى الموانئ الفرنسية ، فإنهم يحـصلون على البارود والذخيرة والأشرعة وغير ذلك . أما عن قيامهم بـسلب أمـوال التجار الفرنسيين وأسر أفراد السفن الفرنسية ، فإنه قد تم تحذيرهم ، وبما أنهم قد تحولوا إلى وضع أكثر تجاوزاً ، فإننا غير راضين عن هذا الوضع .

٧- في حالة وجود أي أسير فرنسي ، فإنه يطلق سراحه فوراً وتعطى له أمواله ، ويتم إبلاغ ملك فرنسا مكاتبة بما يقوم به القراصنة ، كما يـتم عـزل أميـر الأمراء عن منصبه ، وكذلك يتم دفع التعويضات اللازمة وقبول شكاوى ملـك فرنسا في هذا الإطار .

٨- وبموجب هذه الامتيازات ، فإنه يسمح لرعايا فرنسا بصيد السمك والمرجان في الموانئ التابعة لتونس والجزائر ، ويحظر دخول أحد إليها من الخارج .

٩- يعفى السفراء الفرنسيون ومترجموهم من الضرائب والجزية ، وإذا كان بسفنهم بعض الرعايا العثمانيين غير المسلمين (الذميين) ، أو أموال حملها التجـار الفرنسيون على هذه السفن ، فإنه يتم دفع الرسوم الخاصة بالسفراء والقناصـل الفرنسيين فقط ولا يمكن مخالفة ذلك .

١٠- إذا حدث جناية قتل أو غير ذلك بين الفرنسيين بعضهم البعض ، فإنه يتم حـل القضيـة من قبل السفراء والقناصل الفرنـسيين طبقـاً للقـوانين والأعـراف الفرنسية ، ولا يمكن لأي من الضباط العثمانيين التدخل في هذا الأمر .

١١- إذا حدث أي اعتداء على القناصل الذين ينظرون في أمور التجـار وأحـوالهم ويتابعونها ، فإنه يتم حبس المعتدين وإغلاق منازلهم وذلك طبقاً للقوانين .

١٢- إذا صدر أمر شريف سواء كان قديماً أو جديداً ويتعـارض مـع بنـود هـذه المعاهدة ، فإنه لا يتم الاكتراث به ، بل يتم العمل بموجب بنود هذه المعاهدة .

١٣- إن سائـر السفن الفرنسية التي تحمل الأمتعة والأموال التـي تـدخل الـبلاد العثمانية ، يتم تأمينها وحمايتها بصورة تامة ، وعندما تتعرض هـذه الـسفن للعواصف في البحار المكشوفة ، فإننا ملزمون بتقديم المساعدة لنجاة أفرادها ، وعلينا أن نبدي احتراماً لقواد وربان السفن ، ووجهائها ، وبذل الجهود اللازمة من أجل العثور على أموالهم وأمتعتهم ، وينبغي على القضاة والأمراء تقـديم المساعدة والعمل على استرجاع المفقودات .

١٤- وإذا أبى التجار فإنه لا يمكن إجبارهم على دفع الأموال وذلك بموجـب هـذه المعاهدة .

١٥- وإذا استدان أحد الفرنسيين فإنه لا يمكن المطالبة بالسداد من شخص آخر سوى الكفيل ، وإذا مات فإن أمواله تحفظ . وإن كان قد أوصى بها لأحـد ، فإنهـا

تعطى للموصى إليه ، أما إن مات دون أن يترك وصية ، فإن أمواله وأمتعته تسلم لرفقائه المحليين عن طريق القنصل .

١٦- يلجأ التجار الفرنسيون ومترجموهم والقناصلة إلى القضاة لمناقشة الأمور الشرعية (والحقوق الخاصة) والقوانين الخاصة بشأن الكفالة والتجارة والبيع والشراء في البلاد العثمانية ، ويمكنهم تسجيل هذه المعاملات في السجلات الرسمية ، وأخذ الحجج والإثباتات اللازمة ، وإذا حدث أي نزاع بعد ذلك فإنه يتم النظر فيه بموجب هذه السجلات .

١٧- ولا يمكن النظر في القضايا التي يكتنفها الخداع والحيلة ، كأن تكون مسجلة في السجلات ولكن بدون حجج من القضاة أو أن تتعارض مع القانون بأي شكل .

١٨- وإذا قام أي شخص بمتاعب واضطرابات خلافاً للقانون من أجل تشويه صورتنا فإنه يتم منع ذلك على الفور .

١٩- في حالة أسر شخص فرنسي الجنسية ، وشهد القناصل الفرنسيون بذلك ، فإنه يرسل إلى استانبول مع وكلائه ليتم النظر في أمره .

٢٠- يعتبر الفرنسيون الذين يقطنون في البلاد العثمانية معفيين من دفع أي رسوم أو جزية ، وإذا كانت هناك قضية بين أحد رعايانا وبين تاجر فرنسي معفي من التكاليف العرفية ، فإنهم يلجئون إلى القضاء ولا يتم النظر في القضية إلا بوجود مترجم للفرنسي .

٢١- أما القضايا التي بين الفرنسيين بعضهم البعض فإن السفراء والقناصل ينظرون فيها وفقاً للقوانين والأعراف الفرنسية .

٢٢- يمنع العثمانيون على إلحاق الأذى بأي سفينة أو أسطول يكون بمعية الأساطيل الفرنسية ، في البحار العثمانية ، أو أخذ أي معدات أو آلات بصورة جبرية ، وعلى العموم ينبغي على العثمانيين بكافة فئاتهم مثل أمراء المقاطعات ، والقضاة وأمراء الأمراء وربان السفن ، والأهالي العمل وفقاً لبنود هذه المعاهدة.

٢٣- يمنع إعاقة أو منع أي طائفة من الرهبان والأساقفة التابعين لفرنسا عند قيامهم بإجراء طقوسهم ومراسيمهم في البلاد العثمانية ، كما يمكن للرهبان والأساقفة التابعين لفرنسا أن يقابلوا الوافدين لزيارة مدينة القدس في كنيسة (القيامة) .

٢٤- يلزم التاجر الفرنسي الذي يقوم بجلب سلع وأمتعة إلى البلاد العثمانيـة بـدفع (٣%) قيمة للجمارك ، وذلك طبقاً للمعاهدات الموقعة والتي تم تجديدها ، أمـا قناصل فرنسا والرهبان والأساقفة التابعين لها فلهم الحرية في طلب ما يريدونه من أمتعة وسلع من الدول الأجنبية الأخـرى ، ولا يمكـن لأحـد إعـاقتهم ، وبالنسبة للقضايا المتعلقة بسلع تزيد قيمتها عن ٤٠٠٠ أقجة ، فإنه يتم النظـر فيها بالديوان الهمايوني ، ولا يمكن النظر فيها في أي مكان آخر .

٢٥- في حالة اتهام أحد الفرنسيين بقتل أحد الأشخاص فإنه لا تتم معاقبته ما لم تثبت عليه التهمة [١] .

(1) نجدت قورداقول : المعاهدات ، ص ص٧٧ ، ٨١ .

٦- المعاهدة التجارية التي عقدت بين الدولة العثمانية وبين إنجلترا في عهد السلطان محمد الرابع عام (١٠٨٦هـ/١٦٧٥م)

١- يحق للأهالي الإنجليز والسفن الإنجليزية التي تحمل راية إنجلترا المرور وإقامة العلاقات التجارية من بيع وشراء في أراضي الدولة العثمانية دون التعرض لها من قبل أي شخص ، بل ستوفر لهم الدولة العثمانية الأمن والطمأنينة لهم ولبضائعهم ، وحماية مكاسبهم من النهب والسلب .

٢- للسفن الإنجليزية التجارية الحرية التامة في الدخول كيفما تشاء إلى سواحل الدولة العثمانية وإلى موانيها ، وسيكون من الضروري على الدولة العثمانية توفير الأمن والحماية اللازمة لها ، ولها أيضاً الحرية الكاملة في الرسو أو المسير من الموانئ ، في الوقت الذي تريد ، ولا يحق لأي شخص التعرض لها .

٣- في حالة حدوث عواصف وتعرض السفن الإنجليزية للضرر ، فعلى الدولة العثمانية تقديم المساعدات لتلك السفن وتقديم اللازم لإصلاح ما فسد في تلك السفن ، وإظهار الاهتمام والاحترام للقادة وقباطنة السفن وتقديم كافة الخدمات لهم ، وتسهيل كافة سبل العيش الكريم لهم طوال الفترة التي تستقر فيها سفنهم في الموانئ العثمانية .

٤- في حالة تعرض أي شخص من التجار الإنجليز للسرقة أو السلب ، فإنه تتم متابعة أمره باهتمام ، ويتم البحث عن من سلبه أو سرقه ، ويعطى للتاجر الإنجليزي حقوقه بالكامل .

٥- يحق للتجار والمترجمين والسماسرة الإنجليز الذين يفدون إلى ممالك الدولة العثمانية من البر أو البحر ممارسة أعمال التجارة في جو الأمن والطمأنينة ، ولا يحق لأمير الأمراء ، أو القضاة ، أو القباطنة ، أو رجال البحرية التدخل في شؤونهم أو التعرض لأموالهم بأي وجه من الوجوه .

٦- على التجار الإنجليز أو التجار الذين يفدون إلى الدولة العثمانية مـن الممالـك التابعة لإنجلترا ويريدون أداء بعض الأعمال الخاصة بالحقوق ، أو الكفالة ، أو تأشيرة البيع والشراء ، أن يذهبوا إلى القاضي والحصول على الرخصة بذلك ، وعليهم تسجيل تلك الأعمال في السجلات الخاصة بذلك . ولو حـدث بعـض النزاع فيما بينهم فعليهم أن يقدموا تلك الحجج التي حصلوا عليها من القضاة ، وفي حالة موافقة دعواهم للسجلات فإن القاضي يقضي فيما بينهم وفقاً لما جاء في هذه الحجج والسجلات .

٧- أما إذا كانت دعواهم مخالفة لما هو وارد في الحجج الشرعية ، وبلا دليـل ، فإن القاضي لا يحكم لهم ، بل يحول كل أوراقهم إلى سفير إنجلترا في الدولـة العثمانية ، ويكونون تحت تصرفه .

٨- في حالة تجريم شخص إنجليزي أو شخص غير إنجليزي ولكنه يتبع إنجلترا ، فإنه في تلك الحالة يكون تحت حماية شخص آخر بلا كفالة ، وإذا ما وقع أحد الإنجليز في الأسر فإنه يتم مراجعة السفير الإنجليزي أو القنصل الإنجليزي ، وإذا ما ثبتت جنسيته الإنجليزية ، فإنه يترك للسفير أو القنصل يتصرف معـه كيفما شاء .

٩- لا فرق بين المتزوج أو العازب من الإنجليز في مـسألة ممارسـة الأعمـال التجارية وسائر الأعمال الأخرى ، ولا يطلب منهم أي ضرائب .

١٠- ويحق للسفير الإنجليزي في استانبول أن يعين أو يعزل القناصل بحرية تامـة دون قيود أو تدخل من أحد ، حيث يحق له تعيين قناصل في البلدان الـساحلية الواقعـة في حدود الدولة العثمانيـة كحلـب ، والإسـكندرية ، واللاذقيـة ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، وصاقيز ، وإزمير .

١١- في حالـة حدوث خصومات أو دعاوى بين أحد الإنجليـز وشـخص غيـر إنجليزي ، فإنه ترفع أمورهم إلى مستشاري السفارة الإنجليزية ، أما إذا حدث نزاع بين الإنجليز بعضهم البعض فإن دعواهم ينظر فيها من قبل الـسفير أو

القنصل الفرنسي ، ولا يحق للقضاة العثمانيين التدخل في تلك الشؤون ، وعلى الإنجليز أن يحلوا مشاكلهم تبعاً للأصول والأعراف المتبعة فيما بينهم .

١٢- في حالة تقابل سفن الأسطول العثماني بالأسطول الإنجليزي سواء في الميـاه الإقليمية العثمانية ، أو في أعالي البحار ، فلا يحق لأحد الطرفين التعدي على الآخر ، بل عليهم أن يتعاملوا مع بعضهم البعض بالحـسنى والـصداقة ، ولا يلحقوا الأذى ببعضهم .

١٣- تعتبر كافة البنود التي يقرها السلطان في المعاهدات التجارية التي توقـع مـع فرنسا ، وجمهورية البندقية ، وسائر البلدان التي ترتبط معنا بعلاقات صداقة ، ملزمة لكافة الأطراف ، ولا يحق الإخلال بها .

١٤- في حالة هجوم القراصنة على السفن الإنجليزية في المياه الإقليمية العثمانية أو في أعالي البحار ، فإنه يتوجب على الحكومة العثمانية ضبط هؤلاء المفـسدين ومحاسبتهم ، وعلى أمير الأمراء ، والقضاة ، والقباطنة ، ورجـال البحريـة التعاون في تنفيذ هذه البنود .

١٥- إن الدولة العثمانية مستعدة على الدوام لتنفيذ الأحكام والشروط التي جاءت في هذه المعاهدة وسلوك سبل التعايش السلمي مع إنجلترا طالما أن ملكة إنجلتـرا في حالة سلام وصداقة مع الدولة العثمانية ، ولن تسمح الدولة العثمانية بـأي عمل يخالف مبادئ الصداقة والسلام .

١٦- يتم توقيع الاتفاقية وتنفيذها وفقاً للأصول والقواعد التي كانت متبعة في عهـد جدي المرحوم السلطان (أحمد خان) ، كما يلزم الطرفان قبول الهدايا التـي ترسل مع السفراء أو التي ترسل مع القوافل التجارية ، ويجب أن تجدد الأحكام والبنود التي في الاتفاقية المبرمة حديثاً وأن تكون على نهج اتفاقيـة الـصداقة والسلام التي وقعت في عهد جدي السلطان (أحمد خان) .

١٧- لن تؤخذ أي رسوم جمركية ذهبية أو فضية على البضائع التي يجلبها التجـار الإنجليز ، أو التي تجلبها السفن التي تحمل الراية الإنجليزية ، وتأتي للبيـع أو الشراء في ممالك الدولة العثمانية ، ولا يحق لأمير الأمراء أو الـدفتردار ، أو

أمناء الضرب خانه أن يطلبوا من التجار الإنجليـز تبـديل أمـوالهم بالعملـة العثمانية .

١٨- يحق للتجار الإنجليز الذين يمارسون أعمالاً تجارية في ممالكنا أن يتاجروا في أي بضائع بخلاف الذخيرة والآلات العسكرية ، كما يحق لهم أن يذهبوا بحرية في موانئ الدولة العثمانية كيفما شاءوا ولا يحق لأي شـخص أن يعـوقهم أو يمنعهم من ذلك ، بل على العكس يجب توفير جو الأمن والطمأنينة لهم حتـى يمارسوا حقوقهم التجارية براحة وسهولة .

١٩- يجب على التجار الإنجليز الذين يجلبون الصوف والحرير مـن أنقـرة إلـى استانبول وغيرها من المدن التابعة للدولة العثمانية أن يقومـوا بـدفع رسـوم جمركية على تلك البضائع وأن يحصلوا من موظفي الجمارك على إيـصالات تدل على ذلك ، وعليهم أن لا يخلطوا بين البضائع التي دفعوا عنهـا رسـوم جمركية وبين البضائع التي لم يدفعوا عنها رسوماً قبل ذلك .

٢٠- على السفراء الجدد الذين يعينهم ملك إنجلترا في استانبول أن يحضروا معهـم المعاهدات حتى يتم تجديد بنودها وموادها طبقاً للمعاهدة الجديدة أو إضافة بنود جديدة إليها .

٢١- في حالة دعوى الإفلاس أو دعوى الديون التي تزيد قيمتها عن ٤٠٠٠ أقجـة عثمانية ، فإنه ينظر فيها من قبل الديوان الهمايوني باستانبول وذلك بحـضور القنصل الإنجليزي .

٢٢- يتم تحصيل مبلغ مالي يقدر بـ ٣٠٠ أقجة عن كل سفينة إنجليزية تدخل إلـى الموانئ العثمانية كاستانبول ، والإسكندونة ، وأزمير ، وقبرص وغيرها وتلك الرسوم بمثابة رسوم أمن وسلامة مـرور ، ويراعـى أن لا يأخـذ موظفـو الجمارك في الموانئ أكثر من ذلك المبلغ المذكور .

٢٣- في حالة حضور وفد تجاري إلى الممالك العثمانية محملاً بالبضائع ، وادعـى أحد هؤلاء التجار أنه مسلم ، فإنه يتوجب على السفير الإنجليزي أو القنـصل إثبات ذلك .

٢٤- إذا ما جاب التجار الإنجليز الصوف أو الحرير من أنقرة ، فـإنهم لا يـدفعون أكثر من (٣%) من جملة البضائع التي جلبوها ، ولا يجوز لموظفي الجمارك أخذ أي أموال أكثر من ذلك .

٢٥- في حالة النظر في أحد الدعاوى لأي تاجر إنجليزي فإنه يجب عليه دفع رسوم دعوى ، تقدر بـ (٢%) من قيمة مبلغ الدعوى المرفوعة . ويتم النظر فيها من قبل المستشارين وذلك في حالة عدم النظر فيها من قبل القنـصل أو الـسفير الإنجليزي ، وفي حالة وفاة أحد التجار الإنجليز في الدولة العثمانية ، فإنـه لا يحق لبيت المال أخذ شيء من أمواله ، بل ينظر إن وجدت له وصـية أم لا ، فإذا كانت هناك وصية فيتم التصرف في أمواله وفقاً للوصية . أما فـي حالـة عدم وجود وصية ، فإن التصرف في أمواله يكون من قبل القنصل الإنجليزي.

٢٦- وإذا ما توفي أحد الأشخاص التابعيـن لإنجلترا أو أحد الأشخاص الموجودين على السفن الإنجليزية أو السفن غيـر الإنجليزيـة ، ولكنهـا تحمـل العلـم الإنجليزي ، فإنه لا يحق لأحد التصرف في أمواله أو بضائعه ، ولا تؤول هذه الأموال إلى بيت المال ، بل ينظر إن ترك وصية لأحد الإنجليـز فـإن هـذه الأموال والبضائع تؤول للموصى له بناء على ما جاء فيها ، أما في حالة عدم وجود وصية فإن أموالـه كلها تؤول إلـى القنـصل الإنجليـزي الموجـود باستانبول ، وفي حالة عدم وجود قنصل ، يقوم القاضي بحصر كـل أمـوال المتوفى ويسلمها للسفير الإنجليزي في الدولة العثمانية .

٢٧- لا يدفع التجار الإنجليز أي رسوم جمركية أو مالية زائدة بعد دفـع الرسـوم الجمركية المقررة عليهم ، وذلك في كافة الموانئ العثمانية كاستانبول وحلـب والإسكندونة ، وصاقيز ، وإزمير .

٢٨- ولا يجب على موظفي الجمارك التابعين للدولة العثمانية أخذ الرسوم المعروفة بضريبة الجزارين من التجار الإنجليز ، وفي المقابـل يجـب علـيهم دفـع الضرائب الجمركية على كل البضائع التي تجلبها السفن الإنجليزية من وإلـى الدولة العثمانية .

٢٩- للتجار الإنجليز والذين يتاجرون في السفن التي تحمل العلم الإنجليزي الحق في جلب وشراء كافة البضائع والسلع ، ما عدا المحرمات أو الممنوعـات وذلـك عبر الطرق النهرية أو البحرية أو البريـة ، ولا يحـق لمـوظفي الجمـارك والموانئ العثمانيين التعرض لهم أو إعاقتهم .

٣٠- على الموظفين العثمانيين الذين يقومون بأعمال التفتيش والمراقبة الجمركية أن يعيدوا الأموال التي تزيد عن النصاب المفروض والتي تم تحصيلها من التجار الإنجليز والفرنسيين والبنادقة ، ويحظر عليهم تحصيل أية رسوم جمركية .

٣١- يمكن للسفن الإنجليزية التجارية أن تأتي كل عام محملة بالعنب والتين أو تأخذه من الممالك العثمانية ، بشرط أن تأتي سفينتين فقط في كل عـام ، ولا تـدفع سوى (٣%) كرسوم جمركية معتادة ، مع العلم بأنه لن يتعرض لهم أحد بمـا في ذلك موظفو الجمارك [1] .

(1) نجدت قورداقول : المعاهدات ، ص ص١٠٧ ، ١٢٠ .

٧- الاتفاقية التجارية التي عقدت بين الدولة العثمانية وأيرلندا في عهد السلطان (محمد الرابع) عام (١٠٩١هـ/١٦٨٠م)

١- يتم السماح للتجار الأيرلنديين والتابعين لهم بالذهاب والإياب من وإلى الممالك العثمانية ، ومزاولة الأعمال التجارية ، ولا يتم أخذ أي رسوم جمركية منهم عن البضائع التي يجلبونها ، ولا يتعرض لهم أمير الأمراء أو القضاة ، والدفتردار ، وأمناء دار سك العملة ، ونظار سك العملة أيضاً ، ويتركونهم يشتغلون بحرية تامة دون أية ممانعة .

٢- يسمح للتجار الأيرلنديين بمزاولة الأعمال التجارية الخاصة بالقطن والحرير والجلود التي كانت محظورة عليهم في عهد جدي (السلطان سليم خان) عليه رحمة ا ، كما يسمح لهم بالتجارة في زيت الشمع وكل أنواع الجلود المدبوغة والتي قد فرض حظر على بيعها أو شرائها أيام جدي المرحوم (محمد خان).

٣- يسمح للسفن الأيرلندية بالتوقف في موانئ الدولة العثمانية ، وذلك عندما تكون حالة البحر غير مستقرة ، وبالتالي يسمح لهم بممارسة المعاملات التجارية دون أن يعترضهم أحد .

٤- في حالة وقوع جريمة من قبل أحد الأيرلنديين الموجودين في الدولة العثمانية ، فإنه ينظر فيها من قبل السفير أو القنصل ، ولا يجوز لأحد من الضباط أو القضاة التدخل في هذا الأمر ، كما لا يحق لهم حبس هؤلاء الجناة .

٥- أما الدعاوى القانونية الخاصة بالقناصل أو المترجمين ، فيتم النظر فيها من قبل الديوان الهمايوني باستانبول ، ولا يؤخذ بالاعتبار أي أحكام قديمة في هذا الشأن ، بل يجب الرجوع والتصرف بمقتضى المعاهدة الموقعة والبنود الواردة فيها .

٦- في حالة وفاة أحد الأيرلنديين ، فإنه لا يقترب من أمواله بأي وجه من الوجوه ولا يعتبر ماله مال غائب ، ولا يوضع في بيت المال وذلك لأن هذا التصرف يعتبر مخالفاً لبنود المعاهدة .

٧- يحق للسفراء والقناصل طلب مترجمين يعملون معهم فـي أعمـال الترجمـة وسائر الأعمال الأخرى في السفارة دون أن يتعرض لهم أحد .

٨- لا يتم التعرض لأي من الأيرلنديين في حالة إثبات قيامهم بتحضير الخمر فـي بيوتهم .

٩- يقوم التجار بدفع (٣%) من قيمة البضائع التي يجلبونها من بلدانهم إلى حلـب والإسكندونة وغيرها من الممالك العثمانية ، ولا يحق للموظفين طلـب مبـالغ مالية أكثر من (٣%) المذكورة ، كما لا يحق لهم رفع سعر البـضائع التـي معهم.

١٠- عندما تأتي أي سفينة أيرلندية أو أي سفينة تابعة لها محملـة بالبـضائع فإنـه يتوجب عليها دفع مبلغ معين للسفارة أو القنصلية وهي رسوم تقدرها الـسفارة فقـط . ولا يتم دفع رسوم جمركية سوى ما على البضائع التي تخرج للبيـع فقط ، أما التي تبقى في السفن فإنه لا يتم دفع أي رسوم جمركية عنها ، كمـا يتم دفع ٣٠٠ أقجة عن كل سفينة كرسوم أمن للطريق ولا يتم أخذ أي مبـالغ أخرى .

١١- يجب على أيرلندا توفير السلاح والذخيرة والأشرعة وسائر الأدوات البحريـة لبحارة الجزائر عندما يكونون على السواحل الأيرلندية ، وفـي مقابـل ذلـك يحظر على بحارة الجزائر التعرض للسفن الأيرلندية إذا مـا قابلوهـا ، كمـا يحظر عليهم أسر أي من الأيرلنديين أو أخذ شيء من البضائع التي معهـم ، وفي حالة تعرض أحد من القراصنة لسفن الأيرلنديين فإنه يتوجب على الصدر الأعظم إرجاع ما أخذ منهم [1] .

---

(1) نجدت قورداقول : المعاهدات ، ص ص١٢٢ ، ١٢٣ .

٨- معاهدة (كارلوفتس) (٦٢٤هـ-١١١٠هـ/١٠٢٦م-١٦٩٩م)

أ- البنود الموقعة بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا) :

١- تكون حدود الإمبراطورية من نهاية حدود الأفلاق حتى نهر ماروش على أن تكون (ترانسلفانيا) داخل حدود الإمبراطورية .

٢- تكون إيالة طمشوار بأكملها في حوزة الأتراك وسيكون الخط الحدودي في الشمال نهر ماروش ، وفي الغرب نهر تيس ، ويكون الإبحار في النهرين المذكورين والصيد فيهما مكفولاً لكلا الطرفين .

٣- تظل الأراضي الواقعة قرب نهر تيس تحت إدارة الإمبراطورية .

٤- القسم المتبقي من الحدود سيبدأ من أمام قلعة تيتل ، وستكون حدود البوسنة بمحاذاة نهر الطونه .

٥- لا يسمح لأي من الدولتين إنشاء القلاع الجديدة على خط الحدود .

٦- يتم القبض على أي متسلل من الجانبين .

٧- يتم قبول الفارين من بلادهم أثناء الحرب والمجرمين ، وأهالي ترانسلفانيا الذين لا يريدون الدخول تحت إدارة النمسا .

٨- في حالة ظهور أي سوء تفاهم في تطبيق بنود المعاهدة ، فإنه يتم تشكيل لجان مختصة لحل المشكلات بالطرق السلمية .

٩- يتم العفو عن الأسرى الموجودين لدى الطرفين ويخلى سبيلهم في مقابل أموال يتم تحديدها .

١٠- لا يقوم السلطان بمنع القساوسة من ممارسة طقوسهم بحرية ، ولا يمنعون من إصلاح وتعمير الكنائس والأديرة الخاصة بهم .

١١- تتم حماية التجار من كلا الطرفين ، وذلك بمقتضى الصلاحيات والامتيازات التي منحت لهم من قبل .

١٢- يتم تبادل السفراء بين الطرفين ، وعلى هؤلاء السفراء حمل الهـدايا اللائقـة بفخامة كل دولة عند تسلم مهامهم .

١٣- مدة هذه المعاهدة خمسة عشر عاماً ويمكن لكلا الطرفين تمديدها كيفما شاءوا .

ب- البنود الموقعة بين الدولة العثمانية وبولندا (بولونيا) :

١- يقوم العثمانيون بإجلاء بودوليا وأوكرانيا ، وقمانيتشه ، ويكون آخر موعد لهم في ذلك الخامس عشر من مايو في هذا العام .

٢- سيكون الحد الفاصل بين الدولة العثمانيـة وبولندا هـو الحد القديم عند البغدان (مولدافيا) .

٣- على كل من خان القرم وأمير القرم ، ووالي البغدان (مولـدافيا) ، ووالـي الحدود العثماني عدم التعدي على الحدود الجديدة ، وستتم محاسبة كل من يقوم بالتجاوز والتعدي أو يغير على تلك الحدود الجديدة .

٤- يتم إرسال (البجاق) الذين دخلوا إلى البغدان (مولدافيا) أثنـاء الحـرب أو سائر التتار المحليين إلى أوطانهم الأصلية .

٥- تقوم الدولتان بترك الأسرى أحراراً بعد دفع الفدية عنهم .

٦- إلغاء الجزية التي كانت مقررة على بولندا (بولونيا) والتي كانت تـدفع إلـى خان القرم .

ج- البنود الموقعة بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية :

١- تترك شبه جزيرة الموره بكل ما عليها من قلاع وحصون وأشـجار وأنهـار وجبال لجمهورية البندقية .

٢- يقوم البنادقـة بإخلاء منطقة (إينه بختي) أو (ليبانتو) والتي احتلوها قبـل ذلك ، وسيقوم العثمانيون بإخلاء قلعة برويزه .

٣- تكون المنطقة بين جزيرة آيامافري والجزيرة الصغرى من نصيب البنادقة .

٤- يستفيد العثمانيون والبنادقة على السواء من خليج كورينثه .

٥- ستظل جزيرة أجينه في حوزة البنادقة .

٦- تلغى كافة الضرائب التي يدفعها البنادقة عن جزيرة زينته .

٧- تبقى قلاع كنين وسين ، وجابلا ، وجايلوت ، ودلوفار الواقعة في دالماشيا من نصيب البنادقة .

٨- ستظل أراضي راجوزه في حوزة العثمانيين ، ولن يكون هناك اتصال بين تلك الأراضي وبين الأراضي التي آلت إلى البنادقة .

٩- كل من يعمل على إثارة المشكلات في تلك الأراضي سيحاسب بشدة .

١٠- لن يسمح بإنشاء قلاع جديدة على خط الحدود بـين الدولـة العثمانيـة وبـين جمهورية البندقية .

١١- يستفيد التجار البنادقة مجدداً من الامتيازات والمعاهدات التجارية التي منحـت لهم قبل معاهدة كارلوفتس .

د- البنود الموقعة بين الدولة العثمانية ، وقيصرية روسيا عام (١١١٢هـ/١٧٠٠م):

١- يقوم الروس بإخلاء قلاع دوغان ، والغـازي قرمـان ، وشـاهين قرمـان ، ونصرت . الواقعة في منطقة مياه نهر أوزي ، وستبقى في أيـدي العثمـانيين شريطة هدم الأسوار الموجودة عليها .

٢- ستبقى قلعة (آزاق) وما حولها في أيدي الروس .

٣- لن تنشأ قلاع جديدة في منطقة الحدود .

٤- لا يقوم الروس أو القازاق التابعين لهم بالهجوم على أراضي القـرم أو بقيـة الأراضي العثمانية الأخرى .

٥- يحظر على سفن القازاق الإبحار في البحر الأسود ، وفي المقابل لا يقوم تتار القرم بالتعدي على الأراضي الروسية .

٦- يخلى سبيل الأسرى من كلا الطرفين في مقابل الفدية .

٧- تقوم قيصرية روسيا بإرسال سفير من الدرجة الصغرى تضاهي رتبة كتخـدا إلى استانبول ، ويحوز هذا السفير على كافة الامتيازات التي حازها الـسفراء الكبار الآخرين .

٨- يكون ذهاب وإياب السفير الروسي من وإلى استانبول عن طريق البر ويحظر مروره بالبحر الأسود [1] .

---

(1) Bir Heyet Tarafindan Hazirlanmis : Mufasal Osmanli Tarihi , cild. 4 , 1985 , Istanbul : s. 2209 , s. 2272 .

جدول بأسماء السلاطين الذين جلسوا على العرش العثماني في القرن

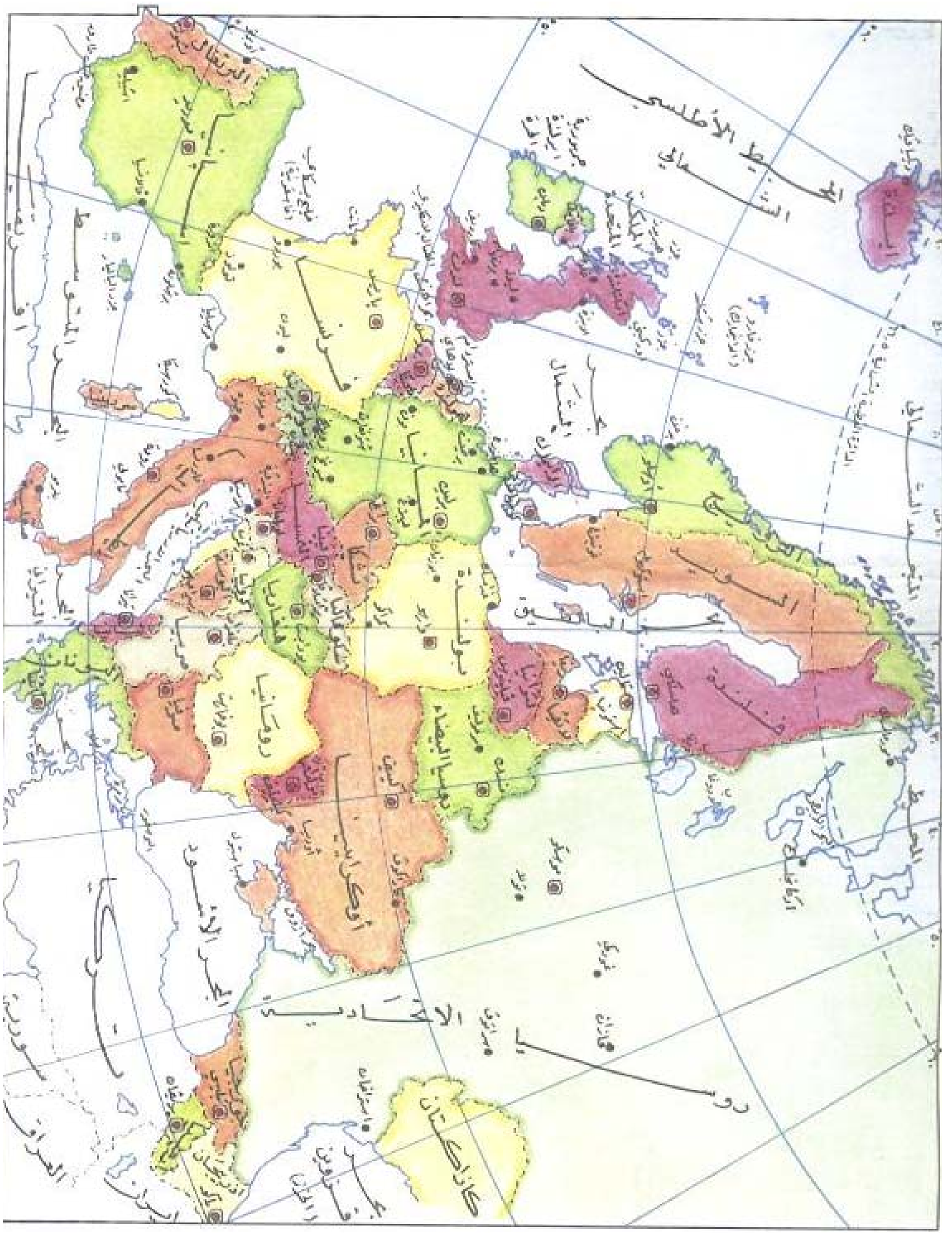
(١١هـ/١٧م)

اسم السلطان	تاريخ مولده	تاريخ جلوسه على العرش	تاريخ وفاته
١- مراد الثالث بن سليم الثاني .	٥ جمادى الأولى (٩٥٣هـ/١٥٤٦م)	(٩٨٣هـ/١٥٧٥م)	٨ جمادى الأولى (١٠٠٣هـ/١٦٩٤م)
٢- محمد الثالث بن مراد الثالث .	٧ ذي القعدة (٩٧٤هـ/١٥٦٦م)	جمادى الأولى (١٠٠٣هـ/١٥٩٤م)	١٢ رجب (١٠١٢هـ/١٦٠٣م)
٣- أحمد الأول بن محمد الثالث .	١٢ جمادى الآخرة (٩٩٨هـ/١٥٨٩م)	(١٠١٢هـ/١٦٠٣م)	٢٢ ذي القعدة (١٠٢٦هـ/١٦١٧م)
٤- مصطفى الأول بن محمد الثالث .	(١٠٠١هـ/١٥٩٢م)	ذي القعدة (١٠٢٦هـ/١٦١٧م)	ربيع الأول (١٠٤٨هـ/١٦٣٨م)
٥- عثمان الثاني بن أحمد الأول .	(١٠١٣هـ/١٦٠٤م)	ربيع الأول (١٠٢٨هـ/١٦١٨م)	٩ رجب (١٠٣١هـ/١٦٢١م)
٦- مصطفى الأول بن محمد الثالث .	(١٠٠١هـ/١٥٩٢م)	للمرة الثانية (١٠٣١هـ/١٦٢١م) وعزل في ١٥ ذي القعدة (١٠٣٢هـ/١٦٢٢م)	ربيع الأول (١٠٤٩هـ/١٦٣٩م)
٧- مراد الرابع بن أحمد الأول .	٢٨ جمادى الأولى (١٠١٨هـ/١٦٠٩م)	١٥ ذي القعدة (١٠٣٢هـ/١٦٢٢م)	(١٠٤٩هـ/١٦٣٩م)
٨- إبراهيم الأول بن أحمد الأول .	١٣ شوال (١٠٢٤هـ/١٦١٥م)	١٦ شوال (١٠٤٩هـ/١٦٣٩م) وخلع في ٧ رجب (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م)	٢٩ رجب (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م)

اسم السلطان	تاريخ مولده	تاريخ جلوسه على العرش	تاريخ وفاته
٩- محمد الرابع بـن إبراهيم الأول .	٢٩ رمضان (١٠٥١هـ/١٦٤١م)	رجب (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) واعتزل في ٢ محرم (١٠٩٩هـ/١٦٨٧م)	(١١٠٤هـ/١٦٩٢م)
١٠- سليمان الثاني بن إبراهيم الأول .	(١٠٥٢هـ/١٦٤٢م)	(١٠٩٩هـ/١٦٨٧م)	(١١٠٢هـ/١٦٩٠م)
١١- أحمد الثاني بـن إبراهيم الأول .	٦ ذي الحجة (١٠٥٢هـ/١٦٤٢م)	٢٦ رمضان (١١٠٢هـ/١٦٩٠م)	(١١٠٦هـ/١٦٩٤م)

المصدر : يانية سالنامه سي ، ١٣١٩هـ .

خريطة للقارة الأوروبية تبين التقسيمات السياسية

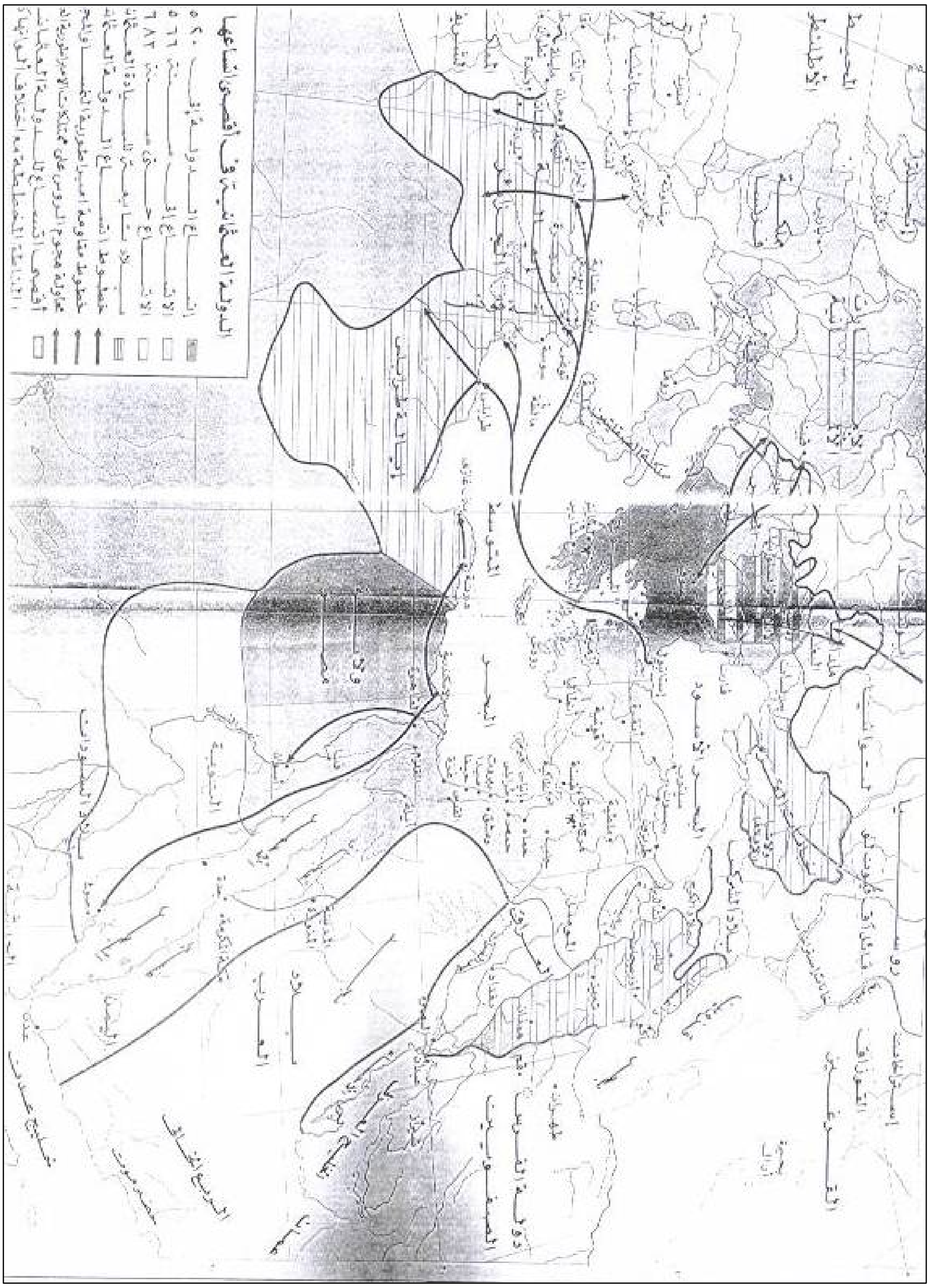


مقياس الرسم

٠٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠كم

المصدر : محمود عصام الميداني : الأطلس الجغرافي الحديث ، الوطن العربي والعام ، دار دمشق ، ١٩٩٧م ، ص١٠٤ .

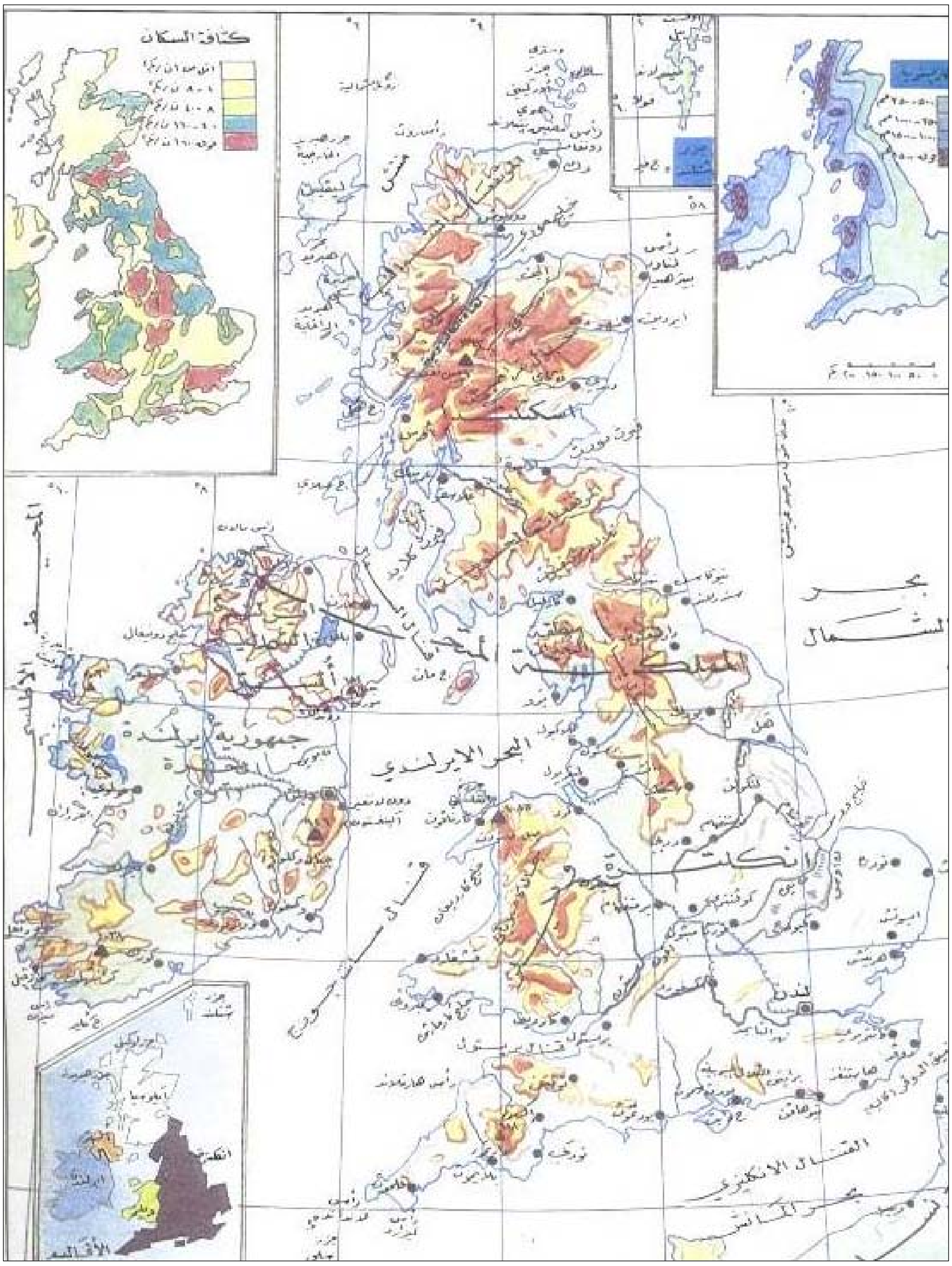
خريطة تبين اتساع الدولة العثمانية



مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

المصدر : حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، الطبعة الأولى ، ص ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

خريطة لإنجلترا تبين الموانئ التي وصل إليها العثمانيون في القرن (١١هـ/١٧م)

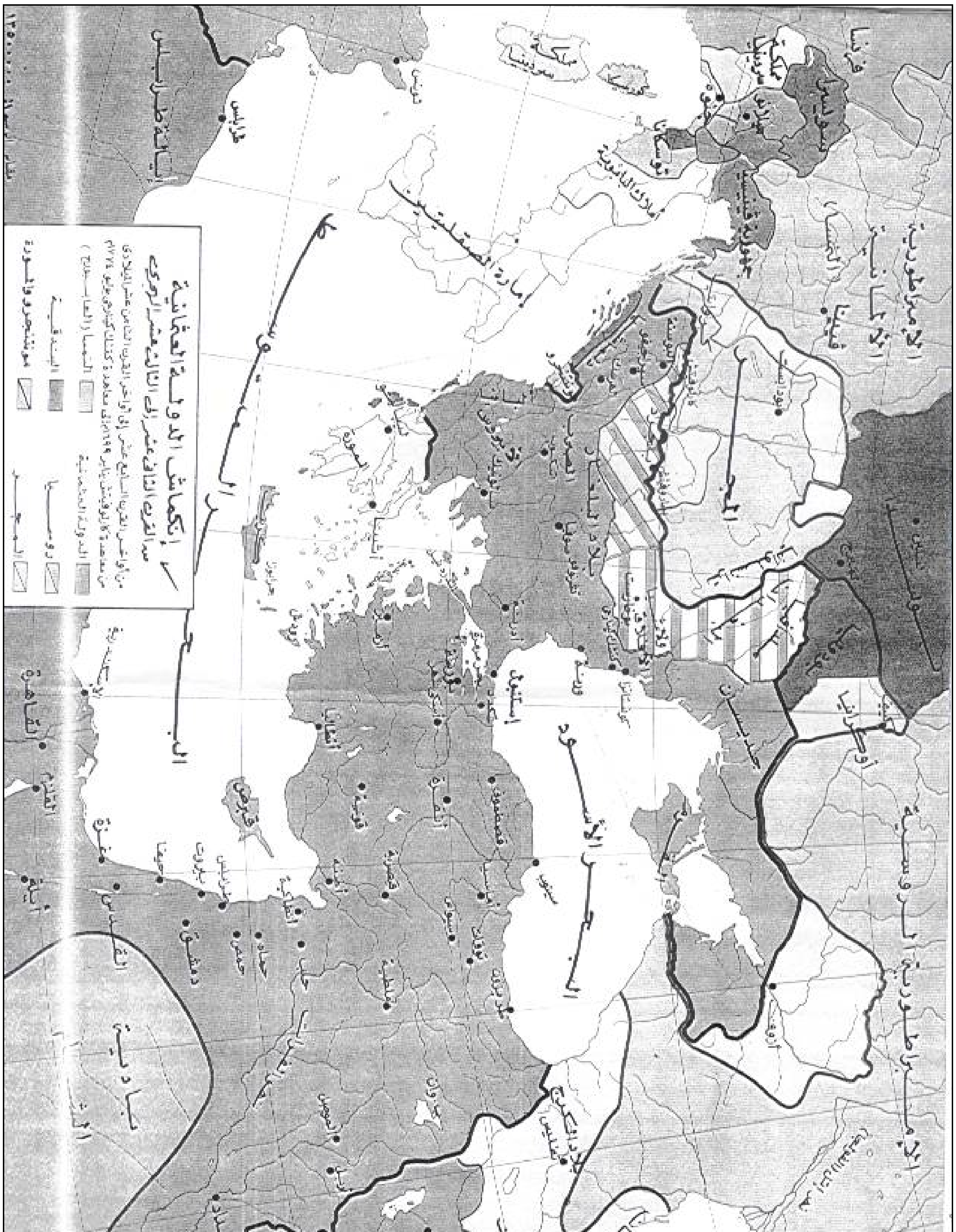


مقياس الرسم

٨٠٠كم ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠٠

المصدر : محمود الميداني : الأطلس الجغرافي ، ص١٠٨ .

خريطة تبين انكماش الدولة العثمانية



مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

المصدر : حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص٣٤٩ .

ثبت المصادر والمراجع

المصادر العربية

١- إبراهيم حليم بك : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ط١ ، ١٤١٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت .

٢- أبو عبد ا محمد بن عبد ا اللواتي ، الطنجي المعروف بابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، قدم له : محمد العريان ، راجعه وأعد فهارسه : مصطفى القصاص ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ط٢ ، ج١ .

٣- أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، دار صادر ، بيروت ، الجزء الثاني .

٤- إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، تقديم : حسن الزين ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر ، بيروت .

٥- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ١٩٤٦م ، القاهرة ، الجزء الأول .

٦- حسن كافي الآقحصاري : أصول الحكم في نظام العالم ، وترجمة سي ، حجاز ولايتي مطبعة سنده طبع اولنمشدر ، سنة ١٣٣١م .

٧- الحسين بن عبد ا بن سينا : القانون في الطب ، تحقيق : سعيد اللحام ، دار الفكر ، ١٤١٤هـ ، ج١ .

٨- طاشكبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٩- عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ط١ ، دار القلم ، بيروت ، الجزء الثاني .

١٠- محمد بن أبي السرور البكري : نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ، تحقيق : يوسف الثقفي ، ط١ ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

١١- محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني : كيف نـشأت وارتقـت الـسلطنة العثمانية وإلى أي حدٍ بلغـت عظمتهــا ، ط١ ، ١٣٣٤هــ/١٩٣٥م ، دار صادر ، بيروت ، الجزء الأول .

١٢- محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني أسـباب انحطـاط الإمبراطوريـة العثمانية وزوالها ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ، الجزء الثاني .

١٣- محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيـق : إحـسان حقي ، ط١ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، دار النفائس ، لبنان .

١٤- محمد كرد علي : خطط الشام ، ط٢ ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، استانبول ، الجزء الثاني .

١٥- يوسف آصاف : تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن ، تقديم : محمد زينهم عزب ، ط١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، مكتبة مدبولي ، القاهرة .

المراجع العربية

١. أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، مكتبة وهبة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م ، ط٣ .

٢. أحمد طه : الطب الإسلامي : دار الاعتصام ، بدون تاريخ .

٣. أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، دار الشروق ، القاهرة .

٤. إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط٢ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، مكتبة العبيكان ، الرياض .

٥. أميرة مداح : تاريخ نظام البياربكية العثماني في بعض الولايات العربية في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، رسالة المشرق ، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ، ١٤٢٢هـ ، المجلد الثامن .

٦. أميرة مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، صورة للتضامن الاجتماعي والديني خلال العصر العثماني (١٠٢٦هـ-١٠٤٩هـ/١٦١٧م-١٦٣٩م) ، مجلة المؤرخ المصري ، العدد ٢٤ ، يناير ٢٠٠١م.

٧. أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، الناشر : مكتبة العبيكان ، الرياض .

٨. بسام العسلي : فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني ، دار الفكر للطباعة والنشر ، المجلد الخامس .

٩. حسن الباشا : موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، ط١ ، مج٢ .

١٠. خليل اينالجيك : الدولة والرعايا ، الاجتهاد ، العدد الحادي والأربعون ، والثـاني والأربعون ، السنة العاشرة ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر ، بيروت .

١١. خليل ساحلي أوغلي : تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني ، بحوث ووثـائق وقوانين ، منظمة المؤتمر الإسلامي .

١٢. زياد أبو غنيمة : جوانـب وضـيئة فـي تـاريخ العثمـانيين الأتـراك ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الفرقان ، عمان .

١٣. سهيل صابان : إبراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة العربية ومطبوعاتـه ، مراجعة : عباس صالح طاشكندي ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض .

١٤. السيد محمد الدقن : دراسات في تاريخ الدولة العثمانيـة ، ١٩٧٩م ، المطبعـة الفنية ، القاهرة .

١٥. عبد الحميد بطريق ، وعبد العزيز نوار : التاريخ الأوروبي الحديث من عـصر النهضة إلى مؤتمر فيينا ، دار النهضة العربية ، بيروت .

١٦. عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتـرى عليهـا ، ١٩٨٠م ، مطبعة جامعة القاهرة ، الجزء الأول – والثاني .

١٧. عبد العزيز نوار : التاريخ الحديث ، الشعوب الإسلامية ، دار النهـضة العربيـة للطباعة والنشر ، ١٩٧٣م .

١٨. عبد اللطيف الحميد : موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين فـي الأنـدلس ٨٩١هـ -١١١٨هـ/١٤٨٦م-١٦٠٩م ، ط١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

١٩. عبد اللطيف بن دهيش : قيام الدولـة العثمانيـة ، ط١ ، ١٤١٩هـ ـ/١٩٨٨م ، مطبعة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة .

٢٠. علي الصلابي : الدولة العثمانية عوامـل النهـوض وأسـباب الـسقوط ، ط١ ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م ، دار النشر والتوزيع الإسلامية ، بور سعيد .

٢١. علي حسون : العثمانيون والروس ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

٢٢. علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ط٣ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

٢٣. علي سلطان : تاريخ الدولة العثمانية ، منشورات مكتبة طرابلس العلمية ، بدون تاريخ .

٢٤. عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ط٤ .

٢٥. عمر ناقيتشقيتش : رسالة في إصلاح الدولة العثمانية ، الشيخ حسن كافي الآقحصاري ورسالته " أصول الحكم في نظام العالم " ، الجمعية التاريخية المصرية ، ١٩٧١م ، ج١٨ .

٢٦. قيس بن جواد العزاوي : الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، الدار العربية للعلوم ، بدون تاريخ .

٢٧. ماجدة صلاح مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

٢٨. محمد حرب : البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ، ط٢ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي والبلقان .

٢٩. محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار ، ط٢ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، دار القلم ، دمشق .

٣٠. محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ط٢ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

٣١. محمد حمزة الحداد : العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

٣٢. محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (٦٩٨-١٣٤٣هـ/١٢٩٩-١٩٢٤م) ، ط١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، دار بيروت المحروسة .

٣٣. محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨م – ١٨٣٩م ، ط١ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، دار التراث .

٣٤. محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر ، ط١ ، ١٣٩٩هـ/١٩٩٩م ، دار التراث ، القاهرة .

٣٥. محمد عبد اللطيف هريدي : الأدب التركي الإسلامي ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

٣٦. محمد موفاكو : تاريخ بلغراد الإسلامية ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، مكتبة العروبة ، الكويت .

٣٧. محمود السيد : تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .

٣٨. محمود ثابت الشاذلي : المسألة الشرقية دراسة وثائقية عن الخلافة للدولة العثمانية ، ١٢٩٩م ، ١٩٢٣م ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

٣٩. نادية مصطفى : العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي ، العصر العثماني من القوة والهيبة إلى بداية المسألة الشرقية ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ج١١ .

٤٠. نزار قازان : سلاطين بني عثمان بين قتال الإخوة وفتنة الإنكشارية ، ط١ ، ١٩٩٢م ، دار الفكر اللبناني ، بيروت .

٤١. وحيد قدورة : بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام ، تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦هـ/١٧٨٧م) ، تقديم : عبد الجليل التميمي ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض .

٤٢. يوسف الثقفي : لمعان الضوء في دياجير الظلام دراسة لعهد الصدر الأعظم (محمد كوبريللي) ١٠٦٦هـ-١٠٧١هـ/١٦٥٦م-١٦٦١م ، مجلة المؤرخ العربي ، المجلد الأول ، العدد الأول ، مارس ١٩٩٣م .

٤٣. يوسف بن علي الثقفي : موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ١٤١٧هـ ، دار الحارثي للطباعة والنشر ، ط١ .

٤٤. يوسف الدبس : مختصر تاريخ سورية ، ١٩٨٤م ، ط٢ ، الجزء الثاني .

المصادر والمراجع التركية

1- Halil Fikret Alasya : Tarihi ve Kibris ` da Turk Esetleri , 1977 , Ankara .

2- Richard Kreutle : Vigana Onlerinde Kara Mustfa Pasa , Ceviten : Mujdat Kauauerli , 1994 , Istanbul .

3- Ziya Karamursal : Osmanli Mali Tarihi Hakkinda Tertkikler , 1989 ,2 baski .

4- Ismail Hakki Uzun Carsili : Osmanli Tarihi , 4 baski , 1988 , Ankara , cild . 3 . Kisim 2 .

5- Suut Kemal Yetkin : Islam Sanati Tarihi , 1954 , guven basime Vi – Ankara .

6- Yilmaz Oztunua : Buyuk Turkige Tarihi , 1983 , Istanbul .

7- Abdulhak Adnan Adivar : Osmanli Turklerinde ilim ,4 baski , Istanbul .

8- Stan Ford Shaw : History of The ottoman Empire and Medken Turkey , Istanbul .

9- Ismail Hami Danismend : Izhli Osmanli Tarihi Kronolojisi , Istanbul , cild . 1 .

10- Omer Faruk Ullmaz : Belgelerle Osmanli Tarihi, Osmali Yayinevi , Istanbul , cild 2 .

11- Joseph Von Hammer : Buyuk Osmanli Tarihi , cild . 7 .

12- Hakki Yildiz : Dugustan gunumuze Kedar buyuk Islam Tarihi , Istanbul , cild . 10 .

13- Ahmet Tabak Ogolu : Gerilem Doemine Girerken Osmanli Maliyesi , 1985 , Istanbul .

14- Bir Heyet Tara Findn Bazir Lanmis : Mufasal Osmanli Tarihi , Istanbul , 1960 , cild . 4 .

15- Ismail Hakki Uzuncarsili : Osmanli Devletinin Merkez Ve Bahire Teskilati , 3 baski , 1988 , Ankara .

16- Nuray Bozbora : Osmanli Yonetimimde Ornavutluk Ve Amavut Ulusculugu . Nun Gelisimi .

١٧- إبراهيم بجوي : بجوي تاريخي : اسطنبول ، ١٢٨١هـ ، الجزء الأول .

١٨- إسماعيل غالب : تقويم مسكوكات عثمانية ، ١٣٠٧هـ ، ولايت مطبعـة سـنده طبع اولنمشدر .

١٩- نجدت قورداقول : المعاهدات التجارية والامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية ، الناشر : دولر ، استانبول ، ١٩٨١م .

المراجع المترجمة

١- أحمد جودت : تاريخ جودت ، تعريب : عبد القادر أفندي الدنا ، تحقيق : محمد بن عبد اللطيف الحميد ، ط١ ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت.

٢- أكمل الدين إحسان أوغلي : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ١٩٩٩م ، مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا) ، (الجـزأين الأول ، والثاني) .

٣- اوقطاي آصلان آبا : فنون الترك وعمائرهم ، ترجمة أحمد محمـد عيـسى ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، استانبول ، ١٩٨٧م ، ط١ .

٤- بول كولز : العثمانيون في أوروبا ، ترجمة : عبد الرحمن الـشيخ ، ١٩٩٣م ، الهيئة المصرية للكتاب .

٥- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوي ، ط٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة.

٦- ج.د. برنال : العلم في التاريخ ، ترجمة شكري سعد ، المؤسسة العربية للنشر ، ج٤ .

٧- جون باتريك كينروس : القرون العثمانية قيام وسقوط الإمبراطورية ، ترجمـة وتعليق : ناهد إبراهيم دسوقي ، منشأة المعارف ، مصر ، بدون تاريخ .

٨- الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية : محمد حجـي ومحمـد الأخضر ، ط٢ ، ١٩٨٣م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الجزء الثاني .

٩- خليل اينالجيك : تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلـى الانحـدار ، ترجمـة : محمد الأرناؤوط ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، دار المدار الإسلامي ، بيروت .

١٠- روبير مانتران وآخرون : تاريخ الدولة العثمانية ، إشراف : روبير مـانتران ، ترجمـة : بشير السباعي ، ط١ ، ١٩٩٣م ، دار الفكـر للدراسـات والنـشر والتوزيع ، القاهرة ، الجزء الأول والثاني .

١١- رولان موسينييه : تاريـخ الحضارات العام ، ترجمة : يوسف أسـعد داغـر ، وفريد . م . داغر ، منشورات عويدات ، الجزء الرابع .

١٢- فيكونت مونتيجري : الحرب عبر التاريخ ، تعريب وتعليق : فتحي عبـد ا النمر ، مكتبة الانجلو المصرية .

١٣- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيـه فـارس ومنيـر البعلبكي ، ط٣ ، ١٩٦١م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الجزء الثالث .

١٤- لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، ترجمـة : عجـاج نويهـض ، تعليق : شكيب أرسـلان ، ط٤ ، ١٣٩٤هـ ـ/١٩٧٣م ، دار الفكـر للطباعـة والنشـر ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث .

١٥- محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة : أحمد سعيد السلمـان ، ط٢ ، ١٩٩٣م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٦- هاملتون جيب ، وهارلود بوين : المجتمع الإسلامي والغرب وأثـر الحـضارة الغربية في الفكر الإسلامي في الشرق الأدنى ، ترجمة : عبد المجيد القيسـي ، ط١ ، ١٩٩٧م ، دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق ، سوريا ، الجـزء الأول ، القسم الأول .

١٧- هربرت فشر : أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبيـة إلـى الثورة الفرنسية ، ترجمة : زينب راشد ، وأحمد مصطفى ، مراجعة : أحمد عبد الكريم ، ط٣ ، دار المعارف بمصر .

١٨- يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : عدنان سـلمان ، مراجعـة : محمود الأنصاري ، ط١ ، ١٤١٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسـسة فيـصل للتمويـل ، استانبول ، (الجزأين الأول ، والثاني) .

الرسائل العلمية

١- أحمد عبد ا نجم : المدرسة العثمانية منذ عصر الفاتح وحتى وفـاة القـانوني (٨٥٥-٩٧٤هـ/١٤٥١-١٥٦٦م) في ضوء المصادر التركية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس.

٢- أماني جعفر الغازي : دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانيـة ، رسـالة ماجستير غير منشورة ، كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، الجزء الأول .

٣- خلف بن دبلان الوذيناني : الدولـة العثمانيـة والغـزو الفكـري حتـى عـام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، رسالة دكتوراه منشورة ، جامعة أم القرى .

٤- رشاد عبد الفتاح خليفة : الطب في الحضارة العثمانية نموذج مخطوط الطبيـب العثماني شاكر القيصري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس .

٥- عمر بابكور : حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن العاشـر الهجري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، عـام ١٤٠٧هـ ـ/١٩١٦م ، كليـة الشريعة ، جامعة أم القرى .

٦- فائقة بحري : أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، عام١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، كلية الشريعة والدراسات الإسـلامية ، جامعة أم القرى .

٧- المعتصم با شعوط : جهاد العثمانيين ضد البيزنطيين حتى فتح القـسطنطينية ٧٥٥هـ-٨٥٧هـ/١٣٥٤م-١٤٥٣م ، رسـالة ماجـستير غيـر منـشورة ، ١٣٩٩هـ/١٤٠٠م ، جامعة الملك عبد العزيز .

٨- وفاء أحمد البستاوي : فكرة الإصلاح في تذاكر أحمد جـودت باشـا ، رسـالة ماجستير غير منشورة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، كلية الآداب ، قسم لغات الأمـم الإسلامية ، فرع اللغة التركية وآدابها ، جامعة عين شمس .

الموسوعات العلمية

١- أئمة المستشرقين في العالم : دائرة المعـارف الإسـلامية ، إعـداد النـسخة العربيـة : إبـراهيم خورشـيد وآخـرون ، ط٢ ، ١٩٣٣م ، دار الـشعب ، القاهرة.

٢- حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربـي ، القـاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ط١ .

٣- س . موستراس : المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ، ترجمة : عصام الشحادات ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، دار ابن حزم ، بيروت .

٤- سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخيـة ، مكتبـة الملك فهد الوطنية ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .

٥- شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، ١٣٠٦هـ ، استانبول ، الجزء الثالث .

٦- مانع الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٨هـ ، ط١ ، الجزء الأول والثاني .

٧- محمد الأمين المحبي : خلاصة الأثر في أعيان الحادي عشر ، تقديم وتعليق : ليلى الصالح ، ١٩٨٣م ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق .

٨- محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة ، ط٢ ، ١٩٦٥م ، دار الشعب للطباعة والنشر ، القاهرة ، الجزء الأول ، والثاني .

٩- محمد صبحي عبد الحكيم وآخرون : أطلس المملكة العربية السعودية والعالم ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٩٦م .

١٠- محمد فريد وجدي : دائرة معارف القـرن العـشرين ، ط٣ ، ١٩٧١م ، دار المعرفة ، بيروت ، الجزء السابع .

١١- محمود عصام الميداني : الأطلس الجغرافي الحديث ، الوطن العربي والعالم ، دار دمشق ، ١٩٩٧م .

١٢- الموسوعة العربية العالمية ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، مؤسسة أعمال الموسـوعة للنشر والتوزيع ، الجزء الثالث والعشرين ، والسابع والعشرين .

١٣- وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ترجمـة : محمـد مـصطفى زيـاده ، طباعـة : مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الجزء الثاني ، والرابع .

١٤- يحيى شامي : موسوعة المدن العربية والإسلامية ، ط١ ، دار الفكر العربي ، بيروت ، الجزء الأول .

الموسوعات المترجمة

1- Islam ansiklopedisi , 1965 , istanbul , cild 6 .

٢- أوليا جلبي : الرحلة الحجازية ، ترجمة وتقديم : الصفصافي أحمد المرسـي ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٩٩٩م .

٣- يانية ولايتي سالنامه سي ، ١٣١٩هـ .

الدوريات العربية

١- محمد عبد اللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة الدارة ، العدد الرابع ، السنة الثالثة عشرة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

الدوريات التركية

Mustfa AK dag : genel Cizgileriy XVII , Yuzuil Turkiye Tarihi .

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الفصل الرابع :

أثر توقف الفتوح على الناحية الحضارية في القرن (١١هـ/١٧م)